تاريخ
أوربا الحديث والمعاصر

تأليف

الدكتور/ عبدالفتاح حسن أبو علية
أستاذ التاريخ الحديث
كلية العلوم الاجتماعية - الرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

الدكتور/ اسماعيل أحمد ياغى
أستاذ التاريخ الحديث المشارك
كلية الآداب للبنات - الدمام
وكالة الكليات بالرئاسة العامة لتعليم البنات

دار المريخ للنشر

ب ١٠٧٢ - الرياض : ١١٤٤٣ - تلكس ٤٠٣١٢٩
المملكة العربية السعودية - تلفون ٤٦٥٨٥٢٣ - ٤٦٤٧٥٣١

رقم الإيداع
٩٢/٨٦١٠

* الطبعة الثالثة : مزيدة ومنقحة

© دار المريخ للنشر ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المريخ ـ للنشر ـ الرياض
المملكة العربية السعودية، ص.ب ١٠٧٢٠ ـ الرمز البريدي ١١٤٤٣
تلكس ٤٠٣١٢٩ ـ فاكس ٤٦٥٧٩٣٩، هاتف ٤٦٤٧٥٣١ / ٤٦٥٨٥٢٣
لايجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب
أو إختزانه بأية وسيلة إلا بإذن مسبق من الناشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

القســـم الاول

مقدمـــة ٩

تمهيـــد ١١

الفصل الأول: النهضـــة الأوربيـــة ١٥

الفصل الثاني: الكشوف الجغرافيـــة ٥٣

الفصل الثالث: الاصلاحات الدينية الكبرى ونتائجها في أوربا ٨٣

الفصل الرابع: انجلترا في القرنين (١٦) ، (١٧) الميلاديين ١٣٥

الفصل الخامس: فرنسا في القرنين (١٦) ، (١٧) الميلاديين ١٦٥

الفصل السادس: بروسيـــا ١٩٣

الفصل السابع: روسيـــا ٢٠٧

الفصل الثامن: حرب الاستقلال الأمريكيـــة ٢٢١

القســـم الثاني

الفصل الأول: الثورة الفرنسية ٢٣٩

الفصل الثاني: فرنسا في أعقاب سقوط نابليون ٢٦٩

الفصل الثالث: الوحدة الايطالية ٢٩٥

الفصل الرابع: الاتحاد الألمانى ٣١٧

الفصل الخامس: تصاعد الأزمات الأوربية ٣٤٩

الفصل السادس: الحرب العالمية الأولى ٣٧١

الفصل السابع: تطور أوربا بين الحربين العالميتين ٣٩٣

الفصل الثامن: الحرب العالمية الثانية ٤٠١

قائمة المصادر والمراجع ٤٢٢

مقدمــة

لعبت أوربا دورا كبيرا وخطيرا في تاريخ العالم وبخاصة في العصر الحديث. ففيها ظهرت حركة النهضة الأوربية التي خلفت آثارا كبيرة في أوربا، وفيها قامت حركة الكشوف الجغرافية التي جلبت الى العالم ويلات الاستعمار، وفيها قامت الثورة الفرنسية التي امتدت آثارها الى أبعد من أوربا. وفيها قامت الثورة الصناعية (الانقلاب الميكانيكي) التي كان لها أشد الأثر في قيام الصراع الدولي وبالتالي انـدلاع الحربين العالميتين. كل هذا حدث في أوربا، ولهذا يعتبر تاريخ أوربا الحديث والمعاصر محورا من المحاور الرئيسة في دراسة تاريخ العالم في العصر الحديث.

لقد قسمنا الكتاب الى قسمين: تناول الدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية بالـدراسـة موضـوعـات القسم الأول فشملت: النهضـة الأوروبيّة، والكشوف الجغـرافيّة والاصلاحات الدينيّة الكبرى ونتائجها في أوربا، وتاريخ انجلترا في القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين، وفرنسا في القرنين السادس عشر والسـابـع عشر الميلاديين، وتـاريخ بروسيا الحـديث، وتاريخ روسيا القيصريّة الحديث، وحركة الاستقلال الأمريكيّة.

وتناول الدكتور اسماعيل ياغي بالدراسة موضوعات القسم الثاني فشملت: الثورة الفرنسية، وفرنسا في اعقاب سقوط نابليون، والوحدة الايطالية، والاتحاد الألمـاني، وتصاعد الأزمات الأوروبية والحرب العالمية الأولى، وتطور اوربا بين الحربين العالميتين والحرب العالمية الثانية.

والله من وراء القصـــد

المؤلفـــان

تمهيد

وبعد تطاحن طويل بين الرومان والجرمان سقطت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية الغربية على يد «أودكر» أحد القواد الجرمان سنة ٤٧٦م، وتسلم «أودكر» الحكم بعد أن عزل «روميلوس» الروماني عن السلطة، وبهذا الاجراء انتهت الامبراطورية الرومانية وحلت مكانها دول جرمانية في أوربا.

وبسقوط الدولة الرومانية الغربية، وبانتشار القبائل الجرمانية في أنحاء أوربا الغربية، عمت حالة من الفوضى والاضطراب، عندما انحلت الرابطة التي كانت تجمع معظم أوربا في دولة واحدة. وأصبحت أوربا موزعة بين قوي سياسية من أقوام همج، لاعهد لهم بأساليب الحكومات المنظمة: فأهملت الصناعة والتجارة والزراعة، الا ماكان يسد الحاجة. وانعزلت البلاد انعزالا نسبيا بعضها عن بعض واحتمى الضعفاء بزعيم يكفل لهم الحماية والدفاع ضد المغيرين عليهم من جيرانهم، مقابل أن يقدموا له خدمة، وبهذا الشكل ظهر النظام الاقطاعى في أوربا المعروف «بنظام العصور الوسطى الأوربية».

وفي الوقت نفسه كانت البلاد الاسلامية تنعم بنور العلم والمعرفة، وكان المسلمون يترجمون علوم الأقدمين من اغريق وفرس وهنود، ويبتكرون نظريات عملية جديدة، فبينما كان العالم الإسلامي يموج بنهضة شملت كل مناحى الحياة فيه، كانت أوربا تغط في سبات الجهل في العصور الوسطى.

لقد أخذ الناس في أوربا الغربية يتكلمون بلهجاتهم المتعددة، وصاروا يستعملونها في الكتابة، ومن هنا تشكلت اللغات الأوربية الحديثة: كالإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية من أصل لاتيني ثم الألمانية والدانماركية والهولندية والانجليزية من اصل جرماني.

ولما لم تكن في أوربا الغربية آنذاك تراجم باللغات الحديثة للعلوم والآداب القديمة، لذا ظلت علوم و آداب الإغريق والرومان بعيدة عنهم، وظلت كذلك مقصورة على القليل النادر من الناس.

لقد بقيت أوربا الغربية على هذا الوضع من الجهل والفوضى الى أن وصل شعاع العلوم الإسلامية الى أوربا، وما جاء منتصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى ظهر في أوربا علماء تخلصوا من الاعتماد الكلى على دراسات أرستطوطاليس، بعد أن درسوا علوم المسلمين وتشبعوا بطريقتهم العلمية. وبالتدريج شاعت عندهم طريقة البحث العلمي الجديدة، وبهذا بدأت طريقة علماء العصر الوسيط في التدهور لتحل محلها النضهة الأوربية الحديثة.

القسم الاول

الفصل الأول: النهضة الأوربية

الفصل الثاني: الكشوف الجغرافية

الفصل الثالث: الاختلافات الدينية الكبرى ونتائجها في أوربا

الفصل الرابع: انجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

الفصل الخامس: فرنسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

الفصل السادس: بروسيا

الفصل السابع: روسيا

الفصل الثامن: حرب الاستقلال الأمريكية

الفصل الاول
النهضـــة الأوربيـــة

من المتعارف عليه عند المؤرخين ودارسي التاريخ أنهم اصطحلوا على تقسيم العصـور التاريخة الأوربية الى عصور: قدمة ومتوسطة وحديثة تتبعها الأحداث التاريخية المعاصرة.

وتقسيم التاريخ الى مجموعة عصور ما هو في الحقيقة الا اصطناع، الغرض منه معرفة التاريخ، وتأسيسا على هذا فان تقسيم التاريخ لايعني بحال من الأحوال تجزئة الأحداث التاريخية أو تعميم مفهوم انفصاليتها، لأن تاريخ بنى الانسان يشبه في استمرارية الماء جـارى. فالأحداث التاريخية لاتقف عند حد، وانما هي متواصلة لاتنقطع ما دام الانسان على ظهر البسيطة، وهذا يشبه تماما تيار الماء الجارى المتواصل.

وأصبح علينا أن نعرف **مفهوم العصر التاريخي** وماهيته، فالعصر التاريخي هو حقبة زمنية من عدة قرون تتفاوت في عددها وتكون فيها أسس الحياة واحدة أو متشابهة أو على الأقل متقاربة الى حد ما. فالعصر التاريخي يمثل حضارة ما ـ من انتاج العقل البشرى ـ تكون أحداثها متشابهة وتسير على نمط واحد متقارب. وفي حال تغير الأحداث المتشابهة الى نمط حضارى آخر، عندها ينتهى عصر تاريخي ويبدأ عصر تاريخي آخر جديد. وهذا ينطبق على أحداث التاريخ الأوربى القديم والوسيط والنهضة والحديث والمعاصر. وعلى هذا فانه من الصعب حقا أن نحدد بداية عصر من العصور التاريخية أو نهايته بسنة معينة، لأن التغيرات في الأحداث التاريخية تحدد بشكل تدريجي لابشكل فجائي، ومن هنا يحدث تداخل بين العصر التاريخي السابق والعصر اللاحق له، لأن لكل عصر من العصور التاريخية أذيال وتوابع.

النهضة الأوربية في الاصطلاح التاريخي :

تعتبر كلمة نهضة - في معناها الاصطلاحى التاريخى بالنسبة لتاريخ أوربا - حديثة التعبير ظهرت في حدود عام ١٨٣٠م. وما زال معناها الحقيقى موضع جدل ونقاش ومعرفة واستقصاء.

فالنهضة الأوربية في مفهومها التاريخي تعنى حركة التجديد والبعث والاحياء للحضارة الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية). فهى كلمة ذات مدلولات واسعة تضم التغيرات التي طرأت على المجتمع الأوربى في نظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية والفكرية والثقافية والفنية. فهي تعنى ما طرأ على المجتمع الأوربى المسيحى من تبدلات في حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والفنية، تلك التبدلات التي أو جدت ظروفا تاريخية وحضارية مختلفة عن الاوضاع الأوربية السابقة لها، ومن هنا ظهر عصر جديد متميز عن عصر الاقطاع الأوربى، ذلك العصر الذي أطلق عليه المؤرخون «عصر النهضة الأوربية». فالنهضة هذه هيأت أوضاع العصور الوسطى الأوربية لتصبح بالتدريج حضارة لعصر الحديث الأوربى. فالنهضة الأوربية هي شوق وتطلع وهواية وعمل أكثر من كونها مذهبا أو نظاما. انها مرحلة عملية ومشوار عمل جاد أثر على حياة العقل والحواس والمعرفة والفن التي سادت العصور الوسطى، فهي معول هدم حضارة العصر الوسيط الأوربى. «لقد هدم العصر الوسيط البربرى العالم القديم ولذا وجب تهديمه(*)».

لقد عرفت النهضة الأوربية بأنها حركة احياء للأدب والفن. أما عن معناها الشامل فهي استمرار أو امتداد لما سبقها من تيارات حضارية منذ أواخر العصور الوسطى ولم يحدث انقطاع أو توقف لهذه التيارات، وكل الذي حدث هو أن الطور الحضارى الذي عرف بالنهضة اعترته مؤثرات عدة جعلت منه طورا متميزا تمثل هذا الامتياز في أبسط صوره في احياء التراث الأدبى والفنى القديمين.

والواقع أن حركة احياء الآداب والفن القديمين في أوربا لا تمثل جميع خصائص الطور الحضارى الذي جاءت به النهضة "Renaissance" لأن النهضة

(*) د. نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة، ص ٧٤.

شملت كل حياة المجتمع الأوربى تلك الحياة الجديدة أصبحت مغايرة لطابع الحياة في العصور الوسطى، فالنهضة ذات طابع علماني انبعث من المدن الأوربية، لذا قيل « إن النهضة الأوربية ماهي في الواقع الا حركة مدن ».

ظهرت النهضة الأوربية بعد أن فقدت العصور الوسطى قوة التأثير على المجتمع الأوربى، وعندها ظهرت عوامل وتطورات مختلفة عن عوامل العصر الوسيط. وظهرت أنشطة فردية وجماعية مبعثرة ومتجمعة خرجت منها أنظمة جديدة تناولت البناء السياسي (الدولة) والاجتماعي والفكري والثقافي والأخلاقي والديني للمجتمع الأوربي. كما حدثت آفاق علمية جديدة تناولت النظريات والمبادىء الجغرافية والعلمية، تلك الآفاق العملية الجديدة ساهمت الى حد كبير في تشكيل عصر جديد يختلف في فكره ونهجه وأسلوبه وأحداثه عن معالم العصور الوسطى. فقالوا:

« إن النهضة الأوربية حالة عقلية وهي الروح الانسانية وقد ضاقت بالقوانين والمقاييس البالية وتاقت الى الضرب في المجاهل لتكشف عن المجهول. هي روجر بيكون وهو يحاول أن يعرف كيف يصل الينا ضوء النجوم وكيف تبدو ألوان قوس قزح في السماء. وهي دانتي وهو يعبر بلغة جديدة عن رهبة مصير الانسان وجمال هذا المصير. وبترارك وهو يناجى جمال الطبيعة. وجاليللو عندما يضع أول مقياس للحرارة وينصب منظارة المقرب ليكتشف توابع جوبتر. وجوتنبرج وهو ينشىء أول آلة للطباعة. وفاسكوداجاما وكولومبوس وهما يتحسسان بالبوصلة طريقهما الى عوالم جديدة. وفرنسيس بيكون وهو يتخذ من منطق التجربة الحى بديلا عن منطق الفلسفة المدرسية المميت الجامد. وهارفي وهو يحدث انقلابا في الاراء عن عمل القلب الغامض. وميكل أنجلو وهو ينطق الصخور الصم. وتشوسر مع حجاج كنتربوري وهم ينفضون الندى عن قارعة الطريق. وشكسبير وهو يفحص فحصا يكتنفه الغموض عن أهداف العقل البشرى. ان النهضة الأوربية هي كل هذا وأكثر منه. انها غريزة البحث والاستقصاء في كل علم وفن[١] ».

(١) السير جون هامرتن: تاريخ العالم، المجلد الخامس، مترجم باشراف ادارة الثقافة بوزارة التعليم، مكتبة النهضة المصرية، ص ٤٠٥.

وعلينا أن نعترف بواقع الأثر الذي أحدثته نتائج الحروب الصليبية في ظهور النهضة الأوربية. فكانت التجربة وكان الاحتكاك الأوربي بالحضارة الاسلامية الزاهية وقتذاك لها كبير أثر وجهد في تقليم أظافر العصر الوسيط الأوربى والمساهمة في تشكيل بوادر النهضة الأوربية.

والدليل على هذا هو أن مظاهر النهضة الأوربية لم تظهر في الواقع الا في أعقاب العصر الصليبي. يقول المؤرخ الغربى هـ. جـ ولز(٢) عن أثر الفكر والعلوم الاسلامية في أوربا والعالم بأسره « وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذي بدأه الاغريق لأول مرة، عاد سيرته الأولى في ثنايا النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامي. فالآن دبت الحياة في بذرتى أرسطو ومتحف الاسكندرية اللتين طال العهد على خمودهما واهمال الناس لهما، واذا هما تنبتان من جديد وتأخذان في الاثمار. لقد تم للعرب (المسلمين) في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم. فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها الى يومنا هذا. واستعملت علامة الصفر لأول مرة. ولا يخفى أن اسم « الجبر» نفسه لفظ عربي وكذلك كلمة «كيمياء» ثم ان أسماء نجوم كنجم الغول والديران والعواء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء. وبفضل فلسفتهم عادت الحياة الى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وايطاليا والعالم المسيحى كافة».

ويستطرد ويلز(٣) فيقول: «... ولا شك أنهم (أي المسلمين) وفقوا الى مستنبطات في المعادن والتطبيق الفنى كثيرة ولها قيمة قصوى، فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات».

آراء حول بداية النهضة الأوربية :

ظهرت النهضة الأوربية ظهورا تدريجيا، فبدأت بمفهوم ضيق عندما ركزت على احياء التراث القديم اليوناني الوثنى والروماني الوثنى والمسيحى. ثم أخذ مفهوم

(٢) هربرت جون ولز: موجز تاريخ العالم، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٥٨ م، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ..

(٣) هربرت جون ولز: المصدر السابق، ص ٢٠٨.

النهضة في النمو والتقدم حتى أصبحت النهضة تعنى تمتع الانسان بالحياة، وعندما اتجهت النهضة نحو الوثنية والعلمانية. ثم تطور هذا المفهوم الى نطاق أوسع بعد أن قطعت النهضة شوطا واسعا وأعمق في الجهد والعمل، فغدت مرحلة عملية عقلية اتحدت فيها مجموعة العناصر والمفاهيم القديمة بالعناصر والمفاهيم الحديثة التي نجمت عن ممارسة الفرد الأوربى لحريته في الفكر والعمل والبحث والتعبير. فالنهضة الأوربية مرت في مراحل: مرحلة البدء والظهور ومرحلة النمو ومرحلة الأوج ثم مرحلة الأفول والتقهقر. مع هذا فاننا لانستطيع حقا أن نقدر عدد المراحل التي «سلكتها هذه الحركة مرحلة بعد أخرى وهي تتقدم في أوربا. بل تقسم المسافة الزمنية التي بين أيدينا الى جزأين يكاد أن يتفقان مع القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادين. ولهذه المسافة الزمنية بداية ونهاية محدودتان، غير أنه لاتظهر خلالهما شخصيات عامة أو آراء جارفة بعد ظهورها أو اختفاؤها حدا فاصلا بين عنصر وآخر.

هناك مجموعة من الأراء التي دارت حول بداية النهضة الأوربية فمنها ماقال ان روح النهضة الأوربية تيقظت قبل عصر دانتي بمدة طويلة، فكان ظهورها يوم أن أخذ بعض الشعراء الأوربيين يقرضون الشعر الغزلي والفروسي بشكل واسع ومركز. فكان هذا النمط من الشعر قد خرج في أعراضه عن مفاهيم الكنيسة، فانصب على الاتجاه العلماني الذي يغذى روح الانسان في كيانها المادي. فكان شعر «جوفر» وشعر «برنار» وغيرهما، ومن هنا كانت النهضة الأوربية في مطلع منبتها تبحث عن الحياة قاصدة العثور على الجديد.

وقيل ان النهضة الأوربية بدأت بدانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١م) الذي ركز على جعل اللغة الايطالية لغة حديثة من بين اللغات التي ظهرت عندما ركز الفرد على أمته ووطنه. ان اهتمام دانتي بلغة وطنه وأمته، ثم تناوله الشعر الغزلي في وصف حبه «لبيتريس»، ثم مؤلفه «الكوميديا الالهية» الذي وصف فيه الفردوس والجحيم (الجنة والنار) من وجهة نظره وتصوره. ثم مؤلفاته الكثيرة، كل هذا جعل المؤرخين يقولون ان النهضة الأوربية ظهرت بظهور فكر دانتي ومؤلفاته. فهو صاحب مدرسة أدبية وفلسفية خرجت عن النهج المألوف في العصور الوسطى، عصر الاقطاع وعصر الكنيسة. وكان هذا النهج الذي سلكه دانتي قد شكل

مدرسة ايطالية جديدة، وعصرا ايطاليا جديدا بدأت فيه النهضة الأوربية بالرغم من أن شعر دانتي الغزلي كان قد سبقه في الغرض أمثال: جوفر وبرنار وغيرهما.

واذا نظرنا الى النهضة في مجالها الفلسفي فاننا نلاحظ أنها ظهرت مبكرة قبل عصر دانتي، وهي هنا توازى في ظهورها ظهور الشعر الفروسى والغزلى. فقيل ان فلسفة «أبلار» (١٠٧٩ ـ ١١٤٢م) كانت قد حطمت مفاهيم العصور الوسطى بعد أن كسرت قيود فكره، وكان هذا العمل العلمي قد سبق دانتي وعصره بما لايقل عن مائتي عام. ومن هنا قيل إن فلسفة أبلار وفكره كانا بداية النهضة الأوربية.

وهناك رأى آخر يقول إن النهضة الأوربية بدأت «بروجربيكون» (١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م) وروجر بيكون الانجليزي هو رائد مدرسة البحث العلمي والطريقة التجريبية العلمية في أوربا، فكان عمل بيكون قد مهد الطرق لأعمال علمية كبرى أدت الى احياء العلوم.

فنلاحظ مما تقدم ذكره أن النهضة الأوربية ظهرت في الشعر والفلسفة والعلوم قبل دانتي وعصره. فتأسيسا على هذا فانه يمكن القول إن النهضة الأوربية ظهرت في القرنين الحادى عشر والثاني عشر الميلاديين. وبعدها أخذت النهضة في النمو والتقدم، فظهرت مجموعة مظاهر لها مثل: دراسة القانون الروماني وظهور المدن الأوربية، وظهور بداية النهضة الصناعية البسيطة وما واكبها من نمو وتقدم في التجارة، واتساع المعلومات الجغرافية نتيجة لكشف القارة الجديدة (أمريكا). ومن هنا يمكن القول إن النهضة بدأت في القرنين الحادى عشر والثاني عشر الميلاديين. ثم أخذت في النمو والتقدم والانتعاش خلال القرون اللاحقة الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادية، وعندها أصبحت معالم النهضة واضحة تماما وبخاصة بعد ظهور حركة الاصلاح الديني الكبري في أوربا، والتي أخذت مداها فشملت القرن السابع عشر الميلادي. وعلينا أن نلاحظ أن النهضة الأوربية لم تبدأ في كل جهات غرب أوروبا في وقت واحد، بل خضع ظهورها لمجموعة عوامل منها: الأوضاع السياسية والداخلية والاقتصادية للبلاد التي ظهرت فيها.

اسباب قيام النهضة الأوربية:

كانت النهضة الأوربية وليدة مجموعة عوامل هيأت الطريق لظهورها. فهي نتيجة حتمية لظهور مفاهيم جديدة ومقومات عصر جديد يوم أن لمعت في العصور الوسطى ومضات كانت لا تمت بصلة لمفاهيم العصور الوسطى ومقوماتها، تلك الومضات والارهاصات الجديدة، كانت تشير الى قيام عصر جديد بأفكار جديدة ومفاهيم جديدة ومقومات جديدة وعقلية جديدة وأخلاقية جديدة وحياة ثقافية جديدة كلها كانت مختلفة عن العناصر التي سادت العصر الوسيط، الاقطاعى الكنسى.

كانت أوربا الغربية تخضع لعاملين هامين هما: سيطرة الكنيسة على الناحية الروحية والثقافية، وسيطرة النظام الاقطاعى على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الأوربى. ومن أهم العوامل التي ساهمت في قيام النهضة الأوربية هي:

أولا ـ ظهور المدن الأوربية:

كان نظام الاقطاع يرتكز أساسا على الأرض وطبقة الفرسان والعلاقات الاقطاعية التنظيمية القائمة بين السيد والتابع. فكانت القرية والضيعة تشكلان الوحدة السكنية والاقتصادية والاجتماعية لهذا النظام، فتأسيسا على هذا الوضع القائم في العصور الوسطى فان ظهور المدن ـ وان كان هذا الظهور في العصور الوسطى ـ يعتبر من بين المظاهر والأسباب المهمة التي قوضت نظام العصر الوسيط الاقطاعى الكنسى. وكان ظهورها قد هز كلا من الاقطاع والكنيسة هزا عنيفا.

نشأت المدينة الأوربية نتيجة حتمية لنمو التجارة والصناعة البسيطة، وهذا معناه ابتعاد الفرد وبالتالي المجتمع الأوربى عن سيطرة طبقة النبلاء الاقطاعية المتحكمة. وغدت للفرد الأوربى وسائل معيشية لاتعتمد أساسا على الأرض والزراعة بقدر ما اعتمدت على وظائف اقتصادية أخرى. فتشكلت المدينة التي امتلكت القوة المادية، وأصبحت مركزاً للثقافة والاشعاع الحضاري(٤). فتحدت

---

(٤) يذكر روبرت. بالمر أن جميع المدن التي عرفتها أوربا قبيل العصر الصناعي الحديث ظهرت بين سنة ١٠٥٠، ١٢٠٠م. ومن هنا يمكن معرفة الحدود الزمنية للمرحلة الأولى من=

بذلك نظام الاقطاع لأنها أفقدت الطبقة النبيلة أهميتها الاقتصادية والسياسية، وأصبح كلما ازدادت المدن في الانتشار تهلهل معها نظام الاقطاع وتقوضت قبضة الكنيسة على المجتمع الأوربى الغربى.

ولما أصبحت المدينة وبالتالي المدن مركز النشاط في أوربا بحكم وجود جماعة كبيرة مقيمة معا في مكان واحد مستقر، بهذا التجمع الجديد أخذت الوحدات الاجتماعية الأوربية المقيمة في المدن تبتعد عن التقاليد والحواجز والقيود الفكرية التي سادت نظام الاقطاع. وبهذا الأسلوب تمت في المدن فلسفة اجتماعية جديدة، ونظرة الى الحياة متغيرة عن النظرات السابقة. ومع أن المدن تعتبر في الحقيقة من خصائص العصر الوسيط المتأخرة فانها في الواقع أقرب الى العصر الحديث الأوربى الذي مهدت النهضة لظهوره. والمدن الايطالية هي الينبوع الذي تفجر منه المذهب الانساني الذي منه انبعثت النهضة الأوربية.

ثانيا ـ الحروب الصليبيـــــة :

فشلت أوربا من الناحية العسكرية في الحروب الصليبية التي دامت قرنين متتاليين من (١٠٩٦ ـ ١٢٩٨م)، الا أن أوربا أفادت كثيرا من هذه الحروب. فمن بين النتائج التي أفادت منها أوربا: كان الاحتكاك والتلاقى بين أوربا وحضارة العالم الاسلامي الزاهرة آنذاك، وهذا ماسيأتي ذكره مفصلا فيما بعد. وكذلك فقد أفادت أوربا من الحروب الصليبية في أنها غيرت نظرتها تجاه الكثير من المفاهيم السائدة في بلادها في العصور الوسطى، بعد أن احتكت بالنظام الاسلامي وبالفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية، وهذا جعلها تغير الكثير من أسلوبها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري، وهذا بدوره أثر في ظهور مفاهيم جديدة أدت الى ظهور عصر جديد، هو عصر النضهة الأوربية. كما أن أثر الحروب الصليبية كان قد تجلى في ايطاليا عندما برزت فيها النهضة الايطالية التي قدمت انتاجا رائعا، ظهر هذا الانتاج مباشرة في أعقاب الحروب الصليبية. وكـانت نهضـة أوربا ترتكز في الأساس على دعائم الرخاء المادى الذي كانت

ـ مراحل عصر النهضة الأوربية. انظر: بالمر. تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول "A History Of the Modern World" ترجمة الدكتور محمود حسين الأمين ومراجعة جعفر خصباك، مكتبة الوفاء بالموصل ١٩٦٤م، ص ٥٠ .

الحروب الصليبية سببا في اقامته. وهكذا فان امتزاج أوربا بالحضارة الاسلامية كان من بين الأسباب القوية والعميقة التي أدت الى قيام نهضة أوربا التي أول ما ظهرت كانت في المدن الايطالية بخاصة المدن الايطالية التجارية.

لذا فان النهضة شهدت مولد الرأسمالية. كما وشهدت أول محاولة يضطلع بها الرأسماليون منذ نهاية الامبراطورية الرومانية للسيطرة على الانتاج والتبادل التجارى، وأعقب ذلك اتحاد الرأسماليين على هيئة مصارف وشركات للتجارة، أصبحت أقوى من النقابات الحرفية.

ثالثا - أثر الحضارة الاسلامية في قيام النهضة:

لما كان المسلمون يتمتعون بحضارة زاهرة، ولما كان العلم يقف على قدميه في كل مكان وصله المسلمون، كانت أوربا مختلفة من الناحية الحضارية. وانتشرت الجهالة في معظم بلدانها، ولم يبق أثر للحضارة والعلم في أوربا الغربية الا بصيص خافت كان ينبعث من المدارس الديرية ومن المؤسسات الدينية والمدارس الأسقفية أو الكاتدرائية. في حين لم يحن القرن الثامن الميلادى حتى كانت البلاد الاسلامية تحوى الكثير من المؤسسات التعليمية المنتشرة في أنحاء العالم الاسلامي. وبدخول القرن التاسع الميلادى ظهر العلماء المسلمون في الأندلس وانتشرت فيها المدارس، وظلوا على اتصال باخوانهم علماء بلاد المغرب ومصر والشام والعراق، وايران وأفغانستان والهند والصين.

كان المسلمون يسيرون قدما في اقامة صرح حضارة اسلامية عامرة شامخة، وكانوا يضربون أروع المثل في حرية الفكر وتشجيع البحوث والدراسات العلمية الجادة. وقد أخذت حضارة العالم الاسلامي هذه تتسرب الى أوربا عن طريق الأندلس وصقلية والمغرب ومصر وبلاد المشرق الاسلامي بعد ما اجتاحته الحروب الصليبية، التي أفادت منها أوربا فائدة كبيرة من الناحية الحضارية، لأنها صارت على اتصال وثيق ومباشر بالعالم الاسلامي في مراكز اشعاعه الفكرى والحضارى. كما أن طلاب العلم في بلاد أوربا الغربية أخذوا ينهالون على مواطن الحضارة الاسلامية منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى(٥). فكان لهذا كله أثر في قيام

(٥) لمعرفة المزيد عن موضوع أثر الحضارة الاسلامية في أوربا ارجع الى:

وثبة حضارية في أوربا في مطلع القرن الثاني عشر الميلادى، كانت من ثمار الاتصال الحضارى بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي.

رابعا - انحلال البابوية وضعف الكنيسة الغربية:

عمت الكنيسة الغربية وأجهزتها ومؤسساتها مجموعة كبيرة من المفاسد التي جلبت أنظار الأوربيين وبخاصة الطبقة المثقفة منهم إلى ضرورة الاسراع في اصلاح هذه المفاسد التي نخرت جسم الكنيسة.

كانت الكنيسة تسيطر على الحياة الفكرية والدينية والثقافية في أوربا. وكان جل اهتمامها ينصب على الدراسات اللاهوتية والأدبية والمنطقية، ولم تحظ الدراسات العلمية بشيء ولو يسير من هذا، وانما عاش الأوربيون في بيئة معادية تماما لحرية التنقيب والبحث العلمي. ولم تقف سيادة البابوية عند هذا الحد، بل كانت تعتبر نفسها الوارث الشرعى للتقاليد السياسية.

وزاد ضعف البابوية عندما أخذ البابوات يستغلون نفوذهم في تعيين أقاربهم في الوظائف الدينية، وأسرفوا في انفاق الأموال على البذخ والترف وبناء الكنائس والكاتدرائيات والزخرفة الفنية فيها. فانحرفوا عن واجبهم الديني الذي يأتي في المقام الأول. وعليه فإن هذه المفاسد وتلك الأخطاء أدت الى ظهور طبقة مثقفة

= — الدكتور سيجريد هونكه في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» ترجمة من الألمانية الى العربية الدكتور فؤاد حسنين على، دار النهضة العربية بالقاهرة.
أو شمس العرب تسطع على الغرب للمؤلفة المذكورة، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى، وراجعه مارون عيسى الخورى. منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٦م.
— عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م.
— جاك س. ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، ومراجعة الدكتور احمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
— ذكريا هاشم ذكريا. فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة بدون)
— ف بارتولد: تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة د. أحمد السعيد - القاهرة بدون)
— د. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، القاهرة بدون)
— محمد عبدالرحيم مصطفى وآخرون: اصول العالم الحديث مطبعة جريدة الصباح بمصر ١٩٥٨م.

أخذت على عاتقها ازالة المفاسد والعودة بالمسيحية الى نقاوتها وبساطتها الأولى. وفي اعتقادنا أن ظهور هذا الفكر الحر كان نتيجة حتمية لتطور العقلية الأوربية والمجتمع الانساني الأوربي تطورا أميل الى الحياة الدنيوية، وذلك نتيجة لاتساع المدن الأوربية وتعميق مفهوم الأنشطة التجارية والصناعية وازدياد عملية الاحتكاك والامتزاج بالشعوب والحضارات الأخرى خارج أوربا، ومما عمق روح النقد ضد الكنيسة والتجرى عن أخطائها ظهور الفكرة القائمة على أساس أن الفرد الأوربي أخذ يهتم بوطنه ودولته، واعتبر أن واجبه الأول يجب أن يقوم على أساس خدمة هذا الوطن وتلك الدولة قبل خدمته للكنيسة والبابا. وهذا في رأينا أضعف الاعتقاد بشمولية البابوية ونظرتها الأعم ضمن نطاق أوربا بشكل عام. وهذا بدوره قلص من نظرية سمو البابوية وشموليتها للفرد الأوربى في كل بقعة من بقاع أوربا.

وقد تعرضت البابوية لهزات عنيفة هزت كيانها وعظمتها بعد القرن الثاني عشر الميلادي. وزاد في تدهورها ما حدث لها في فترة الاثنتين والسبعين سنة الواقعة ما بين ١٣٠٥-١٣٧٧م، وهي الفترة التاريخية التي يطلق عليها بفترة «**الأسر البابلى الكنسى**» عندما اتخذ البابا كلمنت الخامس الفرنسي الفرنسي مدينة آفنيون مركز بلاطه. ومع أن آفنيون لم تكن تابعة لملك فرنسي بل للكرسي البابوي - مع أنها من الأراضي الفرنسية، فان هذا جعل البابوات في آفنيون يخضعون للسلطة الزمنية الفرنسية. وظل هذا الوضع حتى عام ١٣٧٧م عندما تولى كرسي البابوية البابا جريجوري الحادي عشر الذي انتقل من آفنيون الى قصر الفاتيكان في روما.

ان هذه الأحداث وتلك المفاسد والأخطاء التي تسربت تدريجيا الى الكنيسة أدت الى قيام جماعة تعمل على التخلص من هذه القيود وتلك المفاسد والعودة بالكنيسة الى عهدها الأول في التعاليم والبساطة. وتعتبر تلك الطبقة المثقفة التي تبنت على عاتقها اصلاح الكنيسة وتوجيه النقد لها، هي ارهاصة من بين الارهاصات التي اعتبرت من بوادر التغيير الذي شق طريقة نحو عالم جديد يبتعد عن عالم العصور الوسطى. وهذا بدوره كان بداية المشوار الطويل نحو العصور الحديثة التي مهدت النهضة الأوربية لها.

وكان مما ساعد على نقد الكنيسة ما لها من ممتلكات شاسعة كانت معفاة من

الضرائب العلمانية، وكذلك ما كانت تفرضه الكنيسة على الناس من ضرائب دينية اعتبرتها أمرا ضروريا وحقا عليهم دفعها لا احسانا منهم، كما أن البابوية كانت أحيانا تهمل قوانين الكنيسة كالسماح لأبناء العم والأخوال بالتزاوج، أو أن تسمح لشخص أن يكون عنده زوجتين .. الخ.

خامسا - الحركات الدينية المناهضة للكنيسة:

قامت في أوربا الغربية حركات دينية اصلاحية غايتها الرجوع بالكنيسة الى عهدها الأول، عهد النقاوة الدينية وعهد البساطة في الأسلوب والتطبيق. وقد تبنى هذا الاصلاح جماعة من المثقفين الكنسيين والعلمانيين: كالأمراء المعادين والمعارضين لاتساع نفوذ البابوية على حساب سيادتهم السياسية. وقد مثل هذا الاتجاه الاخير الامبراطور فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، الذي ناصب البابا والبابوية العداء الطويل. ومع أن الامبراطور فردريك خسر في نهاية الأمر وقضى على أسرته كأسرة حاكمة من أسر أوربا، فان عمله هذا اعتبر نقطة تحول في التاريخ الأوربي، لأنه جرح الكنيسة وأسقط هيبتها وكان هذا العمل من أهم الأسباب التي أدت الى انحلالها(٦).

وظهرت هيئتان ديريتان من الرهبان المسيحيين الأوربيين: **الفرنسيكانيين والدومينيكانيين** كان همهم اصلاح الكنيسة عن طريق ازالة الأخطاء والمفاسد، وعندها يقوى مركزها. يقول المؤرخ ولز: «لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسيكانيين ولا الدومينيكانيين الا عاملين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التي شرعت في المسيحية، اما لتأييد الكنيسة أو تمزيقها، وهما أمران يرجع البت فيهما لتقدير الكنيسة» (٧).

(٦) فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وهو ابن للامبرطوار هنرى السادس وأمه بنت روجر الأول ملك صقلية النورماندي، ورث فردريك المملكة عام ١١٩٨م وهو في الرابعة من عمره. وقد عين البابا أو سنت الثالث وصيا عليه. وكان الملك الصغير قد تربى في صقلية وتأثر بالفكر الاسلامي فيها لانها كانت حافلة بالعلماء المسلمين وقتذاك. اتخذ فردريك خطا عدائيا للبابوية وجاهر في النيل منها وركز على ابراز مفاسدها، وكاتب أمراء أوربا يستنهضهم ضد الكنيسة من أجل تنظيم اظافر البابا الذي يتدخل في كل شيء. انظر ولز في مؤلفه، موجز تاريخ العالم، ص ص ٢٢٨-٢٣٥ (مترجم).

(٧) ولز: نفسه، ص ٢٢٣٤، ٢٣٥.

وقامت حركة اصلاحية في انجلترا تطالب بازالة ما علق بالكنيسة من شوائب ومفاسد وأخطاء، ترأس هذه الحركة البروفسور **جون ويكليف** (١٣٢٠ - ١٣٨٤م) بعد نصف قرن من حركتى الفرنسيسكان والدومينيكان. الا أن حركة ويكليف والويكليفيين كانت أكثر صراحة وأشد وقعا على البابوية. كان ويكليف من الأساتذة المشهورين بجامعة اكسفورد الانجليزية، أخذ ينشر أفكاره الاصلاحية فأيده فقراء القسس وتبنوا نشر أفكاره في انجلترا، وساهم ويكليف بعمل ايجابي في طريق الاصلاح الديني، يوم أن ترجم الانجيل الى الانجليزية لغة الشعب المحلية، عندها أصبح في مقدور القارىء الانجليزي أن يطلع على الحقيقة ويحكم على آراء ويكليف، وعلى الانحرافات والمفاسد التي تمارسها الطبقة الأرستقراطية في الكنيسة. يقول ولز[٨] : «كان ويكليف أوسع علما وأكثر اقتدارا من كل من القديسين فرنسيس ودومنيك. وقد كثر أتباعه بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية، كما عظم عدد أتباعه بين الشعب، ومع أن روما ثارت ثائرتها سخطا عليه، وأمرت بحبسه، فانه مات حرا طليقا لم تمس حريته بسوء. بيد أن الروح القديمة الشريرة التي كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية الى مهاوي الدمار، لم تطق ترك عظامه هادئة في قبرها، اذ صدر عن مجمع كونستانس سنة ١٤١٥م مرسوم يقضي بنبش عظامه وحرقها، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في عام ١٤٢٨م بأمر من البابا مارتن الخامس. وجدير بالذكر أن هذا العمل يعدّ تدنيساً للحرمات لم تكن من عمل متعصب بمفرده، بل كان عملا رسمياً صدر عن الكنيسة».

وقامت حركة **جون هس البوهيمى** في بوهيميا الذي نادى بأن لا واسطة بين الانسان والرب الا عن طريق الايمان والعمل بما جاء في الكتاب المقدس. وهنا يلتقى هس وجون ويكليف في هذا المبدأ. وان دل هذا على شيء عملى فانما يدل على أن الحركتين كانتا تهدفان في المقام الأول الى تقليص سلطة البابوية والغاء الدور الذي يقوم به القسيس كوسيط بين الفرد المسيحى وربه، وقد زاد ويكلف على ذلك حين قال بأن الملكية الفردية هي نتيجة لخطيئة آدم، وأن ملكية الأرض لله وحده، وأن لعباده الصالحين حق ملكية تلك الأرض بتفويض الهى يتمثل في أوامر شخص الملك الأوربى أو الحاكم الأوربى، وطالب وكليف الحاكم

(٨) ولز: نفسه، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

أن يحدد أملاك الكنيسة، وأن يحتفظ بالباقى للدولة. وفي هذا الرأى مفهوم واضح وهو تقليل ملكية الكنيسة عن طريق تقليل أديرتها وأراضيها واقطاعياتها الزراعية، وبـذلـك يمكن تقليل مصادر الثروات التي تتدفق على البابوية، وعندها تقل مصروفاتها، وبالتالي ينتهى بذخ وترف وتبذير الطبقة الأرستقراطية في الكنيسة.

وعلينا أن نلاحظ أن مثل هذه الحركات التي كانت تنادى باصلاح الكنيسة والتـي كانت ترى تقليص سلطتهـا، كانت تلقى استجـابة كبيرة من السلطة الزمنية، التي رأت في هذه الحركات تقوية لنفوذها في الداخل. ومع أن البابوية قاومت الحركتين ونكلت بمؤسيسهما وأتباعهما، إلا أن هذا الإجراء التعسفي أدى الى ظهور جماعة مؤيدة لأفكارهما وحركتهما، ومن هنا ظهر الهسيون والويكليفيون وظل التشيك ينظرون إلى هس على أنه رائد قوميتهم والمصلح الديني الكبير الذي أراد تطهير الكنيسة من شوائبها.

لقد كثر التشكيك في أعمال البابوية وسمعته وهذا بدوره أدى الى نقدها والى ظهور حركات الحادية هرطقية مثل: **حركة السياطين** التي ظهرت بعد الوباء الأسود الذي انتشر في أوربا في أثناء حرب المائة عام الانجليزية الفرنسية. فقال أصحاب الحركة المذكورة لا نجاة من هذا الغضب الرباني الا بتطهير النفس، وذلك عن طريق تعذيبها بضرب الجسد بالسياط لمدة ثلاثة وثلاثين يوما ونصف اليوم. **وكحركة الألبيجنسيان** التي قامت في بلدة البى في جنوب فرنسا في مقاطعة لانجدوك الفرنسية. **وكحركة الولدانسية** التي ظهرت كذلك في جنوب فرنسا. ان مثـل هذه الحـركـات الهـرطقية كانت قد وجدت الفرصة سانحة لقيامها لهدم البابوية. وهي بذرة من البذور التي شكلت جبهة المقاومة والنقد للبابوية. وهذا بدوره أدى الى ظهور فكر جديد هو فكر النهضة الأوربية الذي كان أساس الفكر الأوربى الحديث.

وعلينا أن نلاحظ أن اختراع الطباعة بالحروف المعدنية على يد حنا جوتنبرج ١٤٥٤م كان قد ساهم في تطوير النهضة وتقدمها لما صاحب هذا الاختراع من قيام حركـة واسعة تهتم بطبع الكتب التي كانت قبل هذا الاختراع مخطوطات متروكة فوق أرفف بيوت أصحابها. وما صاحب هذا الاختراع من رخص للكتب أدى هذا بدوره لأن تصبح الكتب في متناول يد الجميع.

مظاهـــر النهضـــة الأوربيـــة :

تمت النهضة في المدن، لذا فان مظاهرها الأدبية والفنية والعلميـة ترعرعت في أحضان الرأسماليين، لأن البناء الاقتصادى والاجتماعى في المدن بنى في الأساس على الرأسمالية التي نتجت عن العمل بالوظائف الاقتصادية التجارية والصناعية. ولهذا فان مظاهر النهضة أول ما ظهرت كانت في كنف المدن الايطالية التجارية الغنية كفلورنسا وجنوة والبندقية وميلان وغيرها. ومن هذه المدن الايطالية تسربت النهضة الى الأجزاء الأخرى من بلاد أوربا الغربية، عندما أصبح الجو مهيئا لقيام النهضة فيها. ومن هنا يمكن القول إن النهضة الأوربية هي «ثمرة البلاطات والأكاديميات والحلقات والصالونات» [٩] ومن مظاهر تلك النهضة:

أولا: لقد أشرنا عند تعريفنا للنهضة الأوربية في معناها الضيق أنها احياء وبعث وتجـديد للآداب والفنـون والعلوم القـديمـة: اليونـانية والـرومانية، **وقد سمى المؤرخون هذه الحركة بالانسانية** التي تعنى الى حد ما «الرجعة الى القديم». ومن هنا فان الانسانية بمفهومها العلمى الذي نعنية هنا كانت من أول مظاهر النهضة الأوربية. والانسانية هي حركة الدراسة التي تناولت حياة الانسان من النواحى والمجالات الأدبية والفنية والعلمية، أي هي الدراسة التي تهتم باحياء العلوم الانسانية. ونعنى هنا بالعلوم الانسانية التي تناولها أدباء وفلاسفة وعلماء وفنيو اليونان والرومان. وتأسيسا على ما ذكرنا ظهرت جماعة كرست كل عملها العلمى لاحياء التراث الانساني القديم فأطلق عليهم اسم الانسانيين أو المتأدبين. فالانسانيون هم الجماعة الانسانية التي اهتمت بدراسة واحياء الآداب والفنون والعلوم القديمة. وبالمعنى البسيط الضيق هم الجماعة المثقفة من علماء وكنسيين ومثقفين وأساتذة جامعات ومؤلفين وأطباء عبروا عن نزعة مجتمعهم، وسموا كذلك بالانسانيين لأنهم اتخذوا الانسان وحياته الحاضرة موضعا لدراساتهم وبحوثهم.

وقد انبعثت هذه **الحركة الانسانية** بعد أن لاقت الكثير من العناية والتشجيع المادى والمعنوى من حكام المدن الايطالية والأغنياء والمشجعين الآخرين القائمين على هذه الدراسات والعاملين والمشتغلين في هذا المجال.

---

(٩) د. حاطوم. المرجع السابق، ص ٧٦.

ثانيا : قامت في ايطاليا حركة نشطة تبعتها حركة أخرى في البلاد الأوربية الأخرى، اهتمت تلك الحركة بجمع المخطوطات من مظانها من القسطنطينية والبلاد اليونانية والبلاد اوربية الأخرى، وقد ركزت حركة جمع المخطوطات هذه على **جمع المخطوطات الاغريقية واللاتينية** التي كانت موزعة في المكتبات الديرية والكنائس والكاتدرائيات ، وعند الافراد أو عند البيوتات العلمية المهتمة في هذا المجال. فكان للبابوية عملاء يجوبون أنحاء أوربا لشراء المخطوطات القديمة، كما أن البلاطات في المدن الايطالية اهتمت بجمع المخطوطات، وخصصت الكثير من الأموال لهذه الغاية، واستطاع الانسانيون الذين خصصوا اعمالهم لجمع المخطوطات الحصول على مخطوطات لاتينية كثيرة، منها مخطوطات الكتاب الروماني «كوينتليانوس» الشهير بالخطابة في القرن الأول الميلادى، وعثروا كذلك على مخطوطات الشاعر الروماني «فلاكس» الذي عاش في القرن الأول الميلادى، وعثروا أيضا على رسائل «شيشرون» الخطابية، وعلى حوليات المؤرخ الشهير «تاكيتوس» مؤرخ الغزوات الجرمانية المعاصر، وكان هذا العمل من أكبر الاستكشافات في تاريخ المخطوطات القديمة.

وقامت حركة واسعة من قبل رواد البحث والطلاب والمثقفين من أجل الحصول على المخطوطات اليونانية، وشجعت العائلات الحاكمة والغنية في ايطاليا هذه الحركة وكانت مدينة القسطنطينية من المراكز الهامة لهذه التجارة. وظهرت مجموعة من جامعى المخطوطات اليونانية مثل «جيوفاني وغيره».

والجدير بالذكر أن لكل من جامعى المخطوطات القديمة عملاء في أنحاء أوربا يقومون بشراء المخطوطات القديمة ونسخها ، وخيرما يمثل هذه الجماعة «فسبزيانو دابستيكا » الذي كان من أشهر علماء جمع المخطوطات في فلورنسا، ومن ذوى الأفكار النبيلة والنيرة في القرن الخامس عشر الميلادى، فكان هذا العالم يؤمن تماما بالمخطوط مع أن الطباعة أصبحت في زمانة على درجة طيبة من التقدم.

ثالثا : ظهرت عملية احياء الثقافة الاغريقية التي كانت قد دخلت الى ايطاليا وأوربا الغربية عن طريق علماء القسطنطينية قبل سقوطها بيد العثمانيين المسلمين سنة **١٤٥٣**م، وخير ما يوضح هذا مجىء العالم الانساني «مانويل كريسولوراس» الى ايطاليا، وكان هذا العالم قد حاضر في أكاديمية فلورنسا من سنة

١٣٩٧ـ١٤٠٠م، وحاضر في مدينة بافيا، ثم في ميلانو والبندقية. ومجيء العالم الانساني «جورج الطربزوني»، والعالم الانساني «ثيودور غازا»، وكان لهما فضل كبير في نشر الثقافة اليونانية عن طريق قيامهم بالقاء المحاضرات في أكاديميات ايطاليا، أما بالنسبة لسقوط القسطنطينية فقد زاد هذا الحادث في حركة نشر واحياء الآداب الاغريقية في ايطاليا وبلاد أوربا الغربية، وذلك عن طريق العلماء الذين هاجروا من القسطنطينية الى ايطاليا وغيرها من البلدان الأوربية.

رابعا : ومن مظاهر النهضة الأوربية ظهور اللغات الحديثة في أوربا الغربية حيث كانت اللغة اللاتينية هي لغة العلوم والكتابة في العصور الوسطى، وكانت هذه اللغة مقتصرة على جماعة معينة من رجال الكنيسة ومن بعض الكتاب والأدباء، وحينما كان الوضع كذلك قامت بوادر أدت الى قيام لغات أوربية حديثة مثل: اللغات الاسبانية والايطالية والبرتغالية والفرنسية والانجليزية والألمانية والدنماركية والهولندية وغيرها.

وظهر **الكاتب الشاعر الايطالي الشهير دانتي** الذي أخذ يكتب بالايطالية، فبدأ دانتي يكتب شعره وأدبه باللاتينية، وكان العلماء وعلى رأسهم بترارك يرون في لغة روما أسمى وسائل التعبير الأدبي. لكن دانتي تحول فأخذ يكتب بلغة شعبه وهي اللغة الايطالية، اللغة القومية للشعب الايطالي، وبقراره الخطير هذا يكون دانتي قد أدى الى نمو احدى اللغات الحديثة في عصر النهضة الأوربية، فبدلا من كون اللاتينية ولمدة حوالى ألف سنة هي لغة الكتابة، أصبحت اللغة الايطالية هي لغة الكتابة في ايطاليا. وبهذا لمع دانتي بخاصة فيما ألفه من شعر بالايطالية وفيما كتبه في الكوميديا الالهية.

ولو لم يكتب **رابليه** باللغة الفرنسية لتأخر بعث الآدب الفكاهي الذي سيظل أبدا مقرونا باسم رابليه أو من كتب باللغة الفرنسية من علماء غيره.

ولو أن **سرفنتس** كتب قصة دون كيشوت (كيخوت) باللاتينية لكان من غير المعقول أن تحتفظ بجوها الاسباني، ويمكننا أن نتصور مدى الخسارة التي كانت ستنزل بالأدب الانجليزي لو ان **تشوسر** ـ الذي عاصر دانتي وبترارك ـ كتب قصصه «كنتربري» باللاتينية بدلا من الانجليزية.

ولا يقل أهمية في هذا المجال الكاتب الألماني **باراسلوس** الذي أخذ يلقى المحاضرات بالألمانية. وهذه الخطوة الجريئة كانت ضرورة من أجد احياء اللغة القومية الألمانية بعد أن كانت اللاتينية حينا من الدهر هي وسيلة التفاهم في ميادين العلوم والمعرفة والكتابة والدبلوماسية.

ويمكن القول إن ظهور اللغات الحديثة الأوربية كانت احدى الحقائق التي كشفت عنها النهضة الأوربية، ويمكن القول كذلك إن هذه اللغات الحديثة وما رافقها من كتابات قد أثرت كثيرا على الشعب الأوربى وجعلته يتقبل العصور الحديثة.

خامسا: ومن مظاهر النهضة الأوربية عنايتها بالتاريخ والآثار القديمة. ولقد حظى التاريخ بعناية النهضة الأوربية. وظهرت دراسة التاريخ على أساس نقد لا على أساس يعتمد كلياً على السماع والرواية والقصة وقد أوجدت هذه الدراسة مدرسة النقد التاريخي أو المدرسة العلمية للتاريخ في ايطاليا. فكان «لرونزوفاللا» من أبرز الأساتذة في هذا المجال. وقد اشتهر هذا العالم وذاع صيته عندما أثبت ببحوثه عام ١٤٥٠م أن **وثيقة «هبة قسطنطين»** وثيقة مزيفة(١٠)، وكانت هذه الوثيقة تعتمد عليها البابوية في دعواها في السلطة الزمنية، وقد أعجب الباب نقولا الخامس بالمؤرخ لرونزوفاللا وعينه موظفا في بلاطه البابوى.

وعلينا أن نلاحظ هنا أن لهذا التحول مدلولاته الكثيرة لأنه في واقع الأمر دفع بعجلة النهضة الأوربية الى الأمام. والجدير بالذكر هنا أن البابا نقولا الخامس كان من بين الباباوات الذين اهتموا بالنهضة الدينية ذات الصبغة العلمانية التي تعتمد على الفن الديني وبناء الكنائس والكاتدرائيات، والاسراف في تزيينها وزخرفها، وهذا بدوره احتاج الى أموال كثيرة، وكان من بين الأسباب التي أدت الى حركة بيع صكوك الغفران بشكل واسع.

---

(١٠) ان وثيقة هبة قسطنطين هي احدى المراسيم البابوية المزيفة والتي تضمنت استجابة بالغة الدقة للأفكار التي نشأت في القرون السابقة لعصر النهضة الأوربية، كانت هذه الوثيقة تعطى البابوية حق الاشراف على السلطة الزمنية في اوربا الغربية، معتمدة بذلك على تنازل من الامبراطور قسطنطين عندما نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية.

كما ساهم العالمان الفلورنسيان: بروني وبوجيو في الدراسات التاريخية التي تعتمد على استقراء الأحداث والبحث عن الحقيقة، واخضاع الروايات التاريخية للعقل، وابعاد الأسطورة والرواية الخرافية من التاريخ الفلورنسى. وبهذا العمل فقد أضافا جديدا الى مدرسة النقد الذي أسسها لورنزوفالالا. وهكذا ظهرت لأول مرة في التارخ الآوربى مدرسة النقد التاريخي أو **مدرسة التاريخ الفلورنسى**، التي كانت بداية البحوث العلمية الأوربية الحديثة. وهكذا أعيد كتابة تاريخ فلورنسا بشكل علمي.

وكان من أبرز أساتذة مدرسة التاريخ الفلورنسى **نيقولا ميكافيللى** (١٤٦٩-١٥٢٧م). وهو مولود في فلورنسا وكان لأسرته دور في التاريخ السياسي الايطالي. اهتم ميكافيللي بالدراسات السياسية والتاريخية، فقرأ السياسيات لأرسطو، وقرأ خطب شيشرون وكتبه السياسية، وقرأ الالياذة لفرجيل. لذا فان مكافيللي ظل يرتبط بالثقافة والفكر الروماني أكثر من انتمائه للمدرسة الاغريقية.

تقلد ميكافيللي منصب أمين سر تأمين العلاقات الادارية مع المدن التابعة لفلورنسا، ثم امين سر جمهورية فلورنسا، واهتم في الشؤون السياسية لبلاده، فألف كتابا سماه الأمير لأنه كان يبحث عن أمير قوى يتبنى قوة ايطاليا واتحادها بعد ما منيت به البلاد من هزائم في أثناء حروبها مع الدول الأوربية المجاورة، واشتهر هذا المؤلف في عالم السياسة وصار فكره حديث كل انسان، قال ميكافيللي: «ان الغاية تبررها الواسطة». الغاية توحيد ايطاليا، والواسطة هي مجموعة الطرق التي تؤدى الى الغاية. ومن هنا اعتبر ميكافيللي صاحب «مذهب الواقع السياسي» لأنه فهم الظروف الايطالية المعاصرة وبدأ يبحث عن حل لما هي فيه من ضعف وتفكك.

يقول الدكتور حاطوم[١١] عن الواسطة التي أرادها ميكافيللي: «وللوصول الى هذه الغاية المرسومة يرى ميكافيللي ان المرحلة الأولى، وهي تأسيس الدولة الايطالية، لايكمن قطعها الا بامير، وأن الحاكم في نظره، يؤمن المرور من الماضي الى المستقبل .... لقد أنشأ ميكافيللي علما سياسيا تجريبيا، وبين أن هذا العلم السياسي لايفيد في معرفة الوسائط المؤدية الى الغاية، مهما كانت، بل هو موضوع

(١١) د. حاطوم: المرجع السابق، ص ١٣٦ - ١٣٧.

في خدمة التطور التاريخي. واذا صح بأن أناسا استعملوا هذا العلم في اتجاه معاكس لحركة التاريخ، فان ميكافيللي يسميهم آثمين». ويستطرد الدكتور حاطوم فيقول: «لقد كان ميكافيللي واقعيا ولاشك، ولكننا لا نجد عنده هذا الواقع العامى الذي ينسبونه اليه. أما الميكافيلية، في المفهوم العامى الشائع فليست إلّا نتاج اساءة الفهم عند الأجيال المتعاقبة، خلال اربعة قرون لما أراده ميكافيللي».

لقد أبرز ميكافيللي في كتابه هذا نظرية سياسية تتلخص بالأمور التالية:

* الفصل التام بين الأخلاق والسياسة.
* الاعتراف بأن مصالح الحاكم يجب مراعاتها تماما.
* النجاح هو الدليل القاطع في الحكم على الأعمال.
* لا مانع من استعمال البطش وطرق الخداع والمواربة من أجل تحقيق الأهداف السياسية العليا.
* ان الشعب في الدولة هو الأداة في تحقيق الاهداف السياسية العليا.

وتجدر الاشارة هنا الى أن ميكافيللي لم يأت بجديد من الناحية الفعلية لأن هذه الفلسفة السياسية كانت واضحة ومتبعة في سياسة «جيان فسكوني» حاكم ميلانو.

وقد اهتمت النهضة بالآثار القديمة، وقام مجموعة من علمائها ينقبون ويدرسون ويحافظون على الآثار الرومانية القديمة، التي هي من دعائم عصر النهضة، لأنها الشاهد الحقيقي والملموس للفن القديم المراد احياؤها ومحاكاته.

سادسا: ومن مظاهر النهضة الأخرى كان الفن بأنواعه. والفن الأوربى في العصور الوسطى كان عبارة عن وحدة فنية بذاته. وكان معظم الفن الأوربى في العصر الوسيط مخصصا لخدمة الأغراض الدينية ومتطلبات الكنيسة الكاثوليكية.

ففي فلورنسا كان طراز البناء في العصور الوسطى طرازا قوطيا بتميز بكثرة «الأقبية العالية»، أما في **عصر النهضة** قد استغنى عن هذا الطراز القوطى بطراز **البناء الكلاسيكي المتميز بالأعمدة والجمال:** وهي عبارة عن الاجزاء المحمولة على العمـود مباشرة أو العمود والقوس، وقد طبق هذا الطراز من الأبنية في

الكنائس والكاتدرائيات والقاعات والمسارح والحمامات، وتوصلوا الى نماذج من الأعمدة التي تنتهي بالتيجان. ويعتبر المهندس «برونلسكي» من أشهر المهندسين الفلورنسيين المجددين في فن البناء.

ويمكن القول إن الفن في العصر النهضوي أخذ يتحرر من القيود الفنية السائدة في العصور الوسطى. وخير ما يمثل هذا الاتجاه ما قام في المدن الايطالية من تجديد على فن البناء والتصوير والنحت. فنلاحظ أن الفن في روما والبندقية سار بطريقة متأثرة الى حد كبير بالفن الفلورنسى في القرن الخامس عشر الميلادى، حتى ان روما والبندقية احتلتا مكانة مرموقة في هذا المجال، وأخذتا تنافسان مكانة فلورنسا. وظر في كل من روما والبندقية فنانون أمثال «ميكيل انجلو» الفنان النحات الذي عد من أبرع الفنانين الذين قاموا بدراسة النماذج الفنية القديمة دراسة دقيقة، وقد أبدع انجلو في نحت الاجسام القوية الضخمة، وكان كل فنه ينم عن شخصيته، فقد عاش انجلو حياة مريرة. وكان يحب العزلة ويكره البشر وينفر من المجتمع.

أما عن النحت فظهر في فلورنسا النحات الفنان «دوناتللو» الفلورنسي الأصل في القرن الخامس عشر الميلادي. وامتاز هذا بفنه الذي يعتمد على الأنظمة الكلاسيكية في النحت وعلى جمال الطبيعة وحيويتها التي اعتبرت مصدرا قويا لفنه المحاكى للقديم، لأنه وجد أن الطبيعة تعطى النماذج القديمة حيوية ورونقا فنيا، ولهذا فقد اعتبر دوناتللو من مؤسسى المدرسة الطبيعية في النحت، وكان نحته هذا يمثل الأطفال في لعبهم ونومهم، كما نحت رؤوسا وأجساما لبعض معاصريه، وكان من أشهر تلاميذه «ميكيل انجلو».

أما عن التصوير قد وصل هذا الفن صورة ممتازة في فلورنسا ويعتبر الفنان «جيوتو» مؤسس المدرسة الفلورنسية في التصوير، وكان جيوتو متأثرا الى حد ما بالروح الدينية المسيحية، ولقد اتبع في التصوير طرية «الفريسكو» وهي أن يرسم التصميم على جدار ناعم ثم يكسو الحائط بطبقة من الجص ثم يملأ الرسم بالأصباغ، ويترك الجص حتى يمتزج بالأصباغ بعد جفافها.

ولقد تطور التصوير في عصر النهضة فقد ظهر التصوير الزيتي الذي وجد أولا في شمال أوربا ثم دخل فلورنسا والمدن الايطالية الاخرى. ومن زعماء الفن

التصويري الفلورنسي ميكيل انجلو الذي برع بالتصوير والنحت وكذلك الفنان والعالم **«لوناردو دافنشي»** الذي جمع بين الفن والعلم، ومن أشهر صوره الفنية صورة العشاء الرباني الأخير في ميلانو، وصورة «الموناليزا» الموجودة في باريس، ويمتاز دافنشى في كونه عالما برز هذا العلم في موسوعته العلمية التي تظهر معرفته الواسعة بالعلم الحقيقي وطرقه وغاياته وحدوده، فقد حكم دافنشي بالبطلان على جميع العلوم التي لاتعتمد على التجربة. ولقد وضع دافنشي مبدأ علم الميكانيك قبل العالم الايطالي غاليللو بمدة قرن، ودرس سقوط الاجسام، وتنبأ بقانون الجاذبية، ودرس توازن السوائل وجريان المياه الباطنية في الأرض. وبين أن هناك تشابها بين الموجات المائية والموجات الهوائية، ودرس الصوت وانتقاله ونظرة الامواج والنور، وأرجع كل هذه الى حركات وقوانين تخضع للميكانيك العالم. ويعتبر دافنشي من مؤسسى علم الجيولوجيا، وهو دراسة علمية للأرض، ولقد درس التشريح وكان ينوي كتابة هذا الفن الفسيولوجي من حياة الانسان من الجنين حتى الرجولة، ولكنه لم يتمكن من كتابة ذلك مع أن له دراسة مستفيضة عن الجنين، والحق يقال فان موسوعة دافنشي تحتوي على كل العلوم التطبيقية، ويمكن القول إن دافنشي هو فنان وعالم ومخترع وجامع يساعده في ذلك جلده على تحمل مشاق الدراسة والبحث حيث أن الكلل والملل لم يجدا طريقا لهما عنده.

أما مدرسة التصوير في البندقية فهي تختلف عن مدرسة فلورنسا في كون الأولى مركزا تجاريا مرموقا أكسب البندقية كفاية مادية، خاصة عندما صاحب هذا الاكتفاء المادى ظروف من الاستقرار السياسى. لذا جاء التصوير في البندقية انعكاسا لهذه الظروف، وقد امتاز تصويره هذا بعرضه صوراً لمناحى الحياة الأرستقراطية، ويعتبر تيتيان رئيس هذه المدرسة.

والواقع أن المصور **الفنان «روفائيل»** يعتبر الممثل الأول لفن التصوير الايطالي في عصر النهضة، وقد اشتهر هذا بصورة الدينية المتعددة بخاصة ماصورة للسيدة العذراء، وما قام به من تصوير في قصر الفاتيكان ورسومات تعبر عن سر العشاء الرباني.

هذا ونشير هنا الى مظاهر أخرى من مظاهر عصر النهضة الأوربية كانبعاث

الحركة النسائية الأوربية اذ بلغ مركز المرأة الأوربية في عصر النهضة مركزا أفضل بكثير مما كانت عليه في العصور الوسطى، فأخذت المرأة تشتغل في الدراسات القديمة والموسيقي والآداب، هذا ما جعل المجتمع الأوربى يتجه في خط أخذت فيه الحياة الخلقية في التدهور والانحطاط عن المستوى اللائق بها.

ومن المظاهر الأخرى كان: اكتشاف الطباعة سنة ١٤٥٤م التي اعتبرت فنا ألمانيا عظيما أدى خدمة كبيرة في تطوير الحياة البشرية في أوربا. وقيام حركة الكشوف الجغرافية الأوربية، وحركة الاصلاحات الدينية، فهما كذلك من مظاهر عصر النهضة الأوربى التي تستحق عناية أكثر من حيث الشرح والدراسة، لذا فقد أفردنا لهما فصولا خاصة بهما. هذا الى جانب **ظهور شخصية الفرد الأوربي** التي كانت في العصور الوسطى مختفية في الطائفة أو النقابة الحرفية التي كانت ينتمى اليها الفرد حماية لمصالحة الخاصة، وتجدر الاشارة هنا الى أن النقابة هذه كانت قد فرضت على الفرد المنتمى اليها واجبات ثقيلة وصارمة، فأصبح الفرد، الأوربى وقتها كالآلة التي تتحرك تبعا لنظام أتوماتيكي مفروض، فغدت حياة الفرد الأوربي حياة روتينية فيها الكثير من الملل الناجم عن صراحة نظام العصر الوسيط وتعقيدات تعليم الكنيسة التي جمدت فكر هذا الانسان وحطمت مواهبة وقدراته وامكاناته.

وبمجيء عصر النهضة انهارت القوى المتحكمة في انسان العصور الوسطى، فخرج الناس على تقاليد العصور الوسطى وتعاليم الكنيسة واستبداد الاقطاع، وشهدت النهضة مولد الرأسمالية التي عملت على اندماج الفرد في المجتمع، وأصبح يمارس نشاطه المهنى والصناعى والتجارى حرا من كل قيد في اطار النظام الرأسمالي الوليد. ولعب احياء التراث القديم دورا هاما في هذا المضمار. وعلاوة على ذلك كله فقد توافرت عوامل وظروف محلية في ايطاليا ساعدت على نمو شخصية الفرد وبروزها في عصر النهضة.

وأهمها ما يلي:

١ـ كانت السياسة عاملا أساسيا ساعد على نمو شخصية الفرد، اذ أن المنازعات والمناقشات الشديدة بين المدن الايطالية المختلفة أتاح الفرصة لظهور شخصيات قوية عمل من أجل اثبات ذاتها وتحقيق غاياتها.

٢ـ ساعد حكام الامارات الايطالية الطغاة على نمو شخصية الفرد وذلك بتشجيع الأدباء والفنانين أملا في اكتساب السمعة الحسنة.

٣ـ كان النزاع الحزبي من العوامل التي ساعدت على نمو شخصية الفرد، وحاولت الاحزاب في الدويلات الايطالية التغلب على بعضها البعض، وكثيرا ما كان يعمد الحزب المنتصر الى التنكيل بخصومه السياسين، فيصادر أملاكهم أو ينفيهم. وقد عبر المنفيون عن شخصياتهم القوية عندما تمسكوا بمبادئهم ورفضوا أن يعيشوا تحت ذل واستعباد خصومهم السياسيين، ومن هؤلاء الشاعر الايطالي والأديب «دانتي».

٤ـ تجمع الثروة في أيدى أفراد الطبقة الرأسمالية الجديدة التي أصبحت مصدر القوة الاقتصادية في البلاد، وأخذت تتطلع الى تحقيق سيادتها السياسية. لقد ساعدت الثروة الفرد على القدرة على الانتقال والحركة والمغامرة، وليس هناك من هو أكثر فردية من التاجر أو رجل الاعمال المغامر الطموح.

٥ـ اقبال الأدباء والسياسيين والفنانين والتجار على العلم والثقافة، فاتسعت بفضل ذلك مداركهم واستنارت عقولهم مما كان له أثره دون شك عل شخصياتهم.

٦ـ اهتمام المعاصرين بالمجد الشخصى والشهرة. فقد حاول كثيرون أن ينالوا المجد والشهرة في الحياة الدنيا. وكان الأدباء والفنانون يتطلعون الى نيل الشهرة والثروة عن طريق انتاجهم الأدبي والفني ومنهم «دانتي»، تلك هي أهم العوامل والظروف التي ساعدت على نمو شخصية الفرد في عصر النهضة.

النهضة في ايطاليا:

تعتبر ايطاليا موطن النهضة الأوربية الأول. وهي تحتل مكانة مرموقة في أوربا الغربية بالنسبة لعصر النهضة الأوربية، شعت أنوار النهضة الأوربية الى أرجاء القارة الأوربية، ويعود هذا لأسباب أهمها:

أولا : الهدوء والسلام النسبي الذي تمتعت به ايطاليا وبخاصة في القرن الخامس عشر الميلادي. فبينما كانت البلاد الأوربية تخوض حروبا واسعة فيما بينها، كانت

ايطاليا تنعم في رخاء واطمئنان وسلام، مكنها هذا على التفرغ والاطلاع والبحث. وهذا دفع بعجلة التطور النهضوى الى النمو والازدهار.

ثانيا : ان بعض المدن الايطالية شهدت تقدماً اقتصاديا ملموسا منذ مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، كما هو الحال في مدينة جنوة والبندقية وبيزا وفرارة وفلورنسا وغيرها. وقد ساهم هذا التقدم الاقتصادي مساهمة جادة في تقدم النهضة الأوربية.

ثالثا : كان في ايطاليا مظاهر أدت الى اتساع نشاط الفرد الايطالي، واتساع أفكاره وشعوره بنوع من الحرية. ومن هذه المظاهر خفة وطأة نظام الاقطاع في ايطاليا منه في باقى البلاد الأوربية الغربية الأخرى، وكذلك قلة ارتفاع الحواجز بين الطبقات الاجتماعية في ايطاليا منه في البلدان الأوربية الاخرى. ومن هنا فان هذه المظاهر ساعدت في جعل ايطاليا الموطن الأول للنهضة الأوربية.

رابعا : ان مجد ايطاليا القديم ـ الامبراطورية الرومانية ـ تلك التي تحوى الكنوز الدفينة من الآداب والعلوم والنقوش وفن التصوير والنحت والآثار، هذا ما حدا بالايطاليين على أن يكونوا على اتصال وثيق دائم بآداب الرومان وفنونهم وقوانينهم وعلومهم. فتأثر الايطاليون بهذا كله، وأرادوا أن يكونوا ورثة الرومان أجدادهم في احياء مجدهم. كما ان الآثار الرومانية كانت بمثابة نماذج للايطاليين أخذوا يحاكونها، وبما أن اللغة الايطالية قريبة من اللغة اللاتينية فان هذا سهل على الايطاليين الافادة من مخلفات أجدادهم الرومان.

خامسا : ان مركز البابوية في روما أثر بشكل عظيم وكبير في نفوس الايطاليين، وقد أكسبهم هذا شعوراً بالسيطرة الدينية على باقي جهات أوربا. كما أن وجود البابوية في روما أكسب الايطاليين ربحا ماليا عن طريق اشتغالهم بالوظائف الدينية، وبخاصة أن ميزانية البابوية مليئة بالأموال التي تتدفق عليها من خارج ايطاليا.

سادسا : لقد احتدم التنافس بين المدن والبلاطات الايطالية المختلفة التي ودت كل منها أن تبز الاخرى في مجال التسابق الادبى والفنى، هذا الى جانب وجود

عدد كبير في ايطاليا كانوا من رعاة الفنون والآداب، وكانت هذه الجماعة على استعداد لدفع الأموال السخية لشراء المخطوطات والصور والأغداق على الكتاب والفنانين، وكان وجود الآثار الأدبية والفنية القديمة في ايطاليا من الأمور التي شجعت واجتذبت الباحثين منذ أيام أبو الانسانيين بترارك ودفعتهم الى مواصلة البحث والتقيب.

سابعـا : لأن المثقفين الإيطاليين ظلوا يملكون النصوص الاغريقية واللاتينية بعد نهاية عصر المكتشفين لهذه النصوص في القرن الخامس عشر الملادى. ففي ايطاليا نمت روح البحث والتنقيب عن المخطوطات والمؤلفات القديمة النادرة. ومن هنا أصبحت ايطاليا مستودعا كاملا لهذه المخطوطات وتلك المؤلفات، كل هذا ساعد ايطاليا على أن تكون في طليعة البلاد التي ظهرت فيها النهضة الأوربية.

ثامنـا : وجود أكبر المطابع والطباعين في المدن الايطالية مثل مطبعة «الدومانوتزيو» في البندقية. وكان لهذه المطابع وأصحابها فضل كبير على النهضة الأوربية، لأن لديهم مجموعة كبيرة من النصوص القديمة وبامكانهم نشر عدد كبير منها عن طريق مطابعهم وطباعيهم.

تاسعـا : كان موقع ايطاليا قد ساعد الايطاليين على أن يكونوا على اتصال وثيق بالعالم الشرقى، وذلك عن طريق التبادل التجارى القائم بين المدن الايطالية التجارية وبين بلاد الشرق الاسلامي، هذا الى جانب الاتصال الذي تم عن طريق الحروب الصليبية واتصال الشعب الايطالي بالحضارة الاسلامية في الأندلس وصقلية والشرق الاسلامي، وقد تأثرت المدن الايطالية بالحضارة الاسلامية ونقلت عنها الكثير، فساعد هذا في جعل المدن الايطالية سباقة في تبنيها النهضة الأوربية وتشجيعها للعلماء العاملين في مجالها.

مراكز النهضـة فـي إيطاليـا :

ظهرت الحركة الانسانية في ايطاليا في القرن الرابع عشر الميلادى، ثم اخذت هذه الحركة في التطور والتقدم والنمو في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين، وشكلت ايطاليا مدرسة عليا شعت أفكارها الى عامة

أوربا. ظل هذا الحال كذلك حتى ظهور حركة الاصلاحات الدينية الكبرى في أوربا.

كانت ايطاليا آنذاك مقسمة الى عدة وحدات سياسية تتبع في حكمها أسراً معينة، في ميلانو كانت أسرة «فيسكونتي» وفي فلورنسا كانت أسرة آل مدتشي، وفي روما كان الباباوات وفي الولايات البابابوية كانت أسرة «بورجيا» صاحبة النفوذ الواسع. وهكذا الحال في معظم المدن الايطالية كجنوة ونابولي وبيزا وفرارة ... الخ. ومع أن هذه الانقسامات السياسية كانت في حد ذاتها ضارة لايطاليا من الـوجهـة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فانها كانت نافعة للآداب والفنون والعلوم لأنها أو جدت تنافسا حادا بين البلاطات الايطالية المتعددة في مجال الأدب والفن والعلم، وسنعـطى طابعـين مختلفين للنهضة في ايطالية: الطابع العلماني متمثلا في مدينة فلورنسا. والطابع النهضوى الدينى متمثلا في روما.

فلورنســا : حكمت فلورنسا أسرة محبة للآداب الانسانية والفنون القديمة وهي أسرة «آل مدتشي» (١٢). وكـان من بين حكـامهـا الـذين شجعـوا النهضـة «كوزيمودي مدتشي» الذي كان محبا للآداب والفنون والعلوم القديمة. وكان من أهم أعماله المشجعة للنهضة انشاء مكتبة كبيرة سنة ١٤٣٣م في البندقية يوم أن كان فيها منفيا أطلق عليها اسم مكتبة «سان جورجو مادجوري». كما أصلح مكتبة «سان ماركو» في فلورنسا سنة ١٤٤١م. وكان لهاتين المكتبتين أثر في تطور حركة النهضة الايطالية.

وقد استطاع الانساني «جمستون بليتون» في أثناء قيامه بزيارة لفلورنسا سنة ١٤٣٨م من اقنـاع حاكمهـا «كـوزيمودي مدتشى» بانشاء أكاديمية للدراسات الأفـلاطونية. أطلق عليها اسم الأكاديمية الافلاطونية. وقد ساعد النهضة في فلورنسا حفيد كوزيمو وهو لورنزو دي مدتشى عندما تولى زمام الأمور فيها. ووصلت أكاديمية فلورنسا عهدها الذهبي في زمنه.

---

(١٢) لمعرفة المزيد عن هذه الاسرة ارجع الى بالمر: تاريخ العالم الحديث؛ مترجم ص ٩٨.

ولم نقتصر هذه الأكاديمية على دراسة الفلسفة الأفلاطونية الاغريقية فقط، بل شملت كذلك دراسة الفن القديم، فظهر مجموعة من الاساتذة ممن اختصوا بالفلسفة، ومجموعة اخرى من اختصوا بالفن مثل: الفنان «ميكيل انجلو» والفنان «ليو البرتى» وهما من الأساتذة الفنانين عملوا في أكاديمية فلورنسا الفنية.

روما: تعتبر روما المركز الفني الثاني بعد فلورنسا مع انها تتميز عن فلورنسا في فنها الديني. كما أنها حوت أكاديميات من أجل دراسة الآداب اللاتينية ودراسة الآثار الرومانية القديمة. ففي سنة ١٤٦٠م تأسست في روما أكاديمية على يد العالم الانساني الشهير «جوليوس لايتوس» الذي كان متحمسا للدراسات الانسانية وبخاصة الدراسات اللاتينية. وقد لاقت الأكاديمية في بداية الأمر عدم تجاوب من قبل البابوات، مما جعل البابا «بول الثاني» يأمر باغلاقها. الا أن البابا «سكستوس الرابع» أمر باعادة فتحها، وظلت هذه الأكاديمية حتى عهد البابا «ليو العاشر» حيث ازدهرت في زمنه ازدهارا كبيرا. وظهر مجموعة من الأساتذة الذين قاموا بتدريس الآداب اللاتينية في هذه الأكاديمية مثل: الكاردينال «سادولتو» والمؤرخ الكبير «جوفيوس». وفي مجال الفن العمراني فقد قطعت روما شوطا كبيرا فيه بفضل ماقام به البابوات من أبنية دينية كبناء الكنائس الجديدة وترميم واعادة بناء الكنائس القديمة في روما، وخير مثال على هؤلاء البابوات الذين شجعوا الفن البابا «نيقولا الخامس» الذي أمر ببناء كنيسة القديس بطرس، وقد اشتغل فيها مجموعة من الفنانين الايطاليين أمثال: ألبرتي وانجلو وغيرهما.

هذا الى جانب المدن الأخرى التي تبنت النهضة في مظاهرها المتعددة، فقد شجع حكام نابولي حركة النهضة، وأصبحت نابولي من المراكز الهامة التي يجتمع فيها الانسانيون. وكانت أكاديمية نابولي مهتمة بالآداب. أما فلورنسا فكانت مهتمة بالفلسفة. وأما روما فكانت الآداب والآثار الرومانية القديمة. وأما أكاديمية البندقية فامتازت بتدريس الآداب الاغريقية وجمع المخطوطات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية).

ونلاحظ أن أكاديمية ميلانو امتازت بالفنون العلمانية، هذا ما يلاحظ على الفن العمرانى القائم فيها بخاصة كتدرائية ميلانو وكنيسة القديسة مارى (مريم).

كيف انتقلت النهضة من ايطاليا الى بلدان اوربا الغربية :

أخذت النهضة في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى تخبو في ايطاليا بسبب تعرضها لغارات الجيوش الألمانية والفرنسية والسويسرية، مما أدى الى نهب المدن الايطالية وعلى رأسها مدينة روما. وأصبحت ايطاليا مرتعا لفوضى الحرب. ومن جهة ثانية حدث صراع أسري في المدن الايطالية أدى الى عزل آل مدتشى عن حكم فلورنسا. واستولى فرديناندو ملك أرجون على نابولى سنة ١٥٠٤م، وخرجت ميلانو على يد الجيوش الفرنسية والألمانية والسويسرية لأنها الممر الطبيعي الشمالي للدخول الى البلاد الايطالية. وهي ذات موقع يجعلها تتعرض لزحف الجيوش الأوربية القادمة من الشمال.

وقد ظل بصيص اشعاع للنهضة الايطالية يشع من روما التي أصبحت محور الحركة الانسانية في عهد البابا ليو العاشر الشديد التحمس للدراسات الكلاسيكيّة، وظل هذا الوضع كذلك الى أن سقطت روما بيد القوات العسكرية الأجنبية الأوربية سنة ١٥٢٧م، وبعدها انهارت النهضة تماما في ايطاليا وبدأت تخرج الى الأقطار الأوربية الأخرى.

وهناك سبب آخر أدى الى انتقال النهضة من ايطاليا الى الخارج، وهو سبب لايقل عن السبب الذي نتج عن الحروب، وهو قيام حركة الاصلاح الديني في أوربا الموجه ضد الكنيسة الكاثوليكية، اذ بعد هذا الحادث أخذت البابوية تقف ضد الحركة الانسانية، حتى ان البابوية في عهد «كلمنت السابع» سن ١٥٢٠م تواطأت مع شارل الخامس ملك اسبانيا الكاثوليكي للعمل معا على تصفية الحركة الانسانية الايطالية، ومن هنا ظهرت محاكم التفتيش للبحث عن كل نهضوى واصلاحى.

ثم أخذت النهضة تتسرب من ايطاليا الى أوربا عن طريق ممرات جبال الألب، وساهمت عدة عوامل في زيادة هذا التسرب: منها ما قام به رسل النهضة الأوربية من جهود في نقل ونشر الحركة الانسانية الى أنحاء أوربا، والى مجموعة الجيوش الأوربية التي دخلت ايطاليا وعادت منها الى بلادها، والى مساعدة معظم حكام الدول الأوربية للنهضة في بلادهم.

وسندرج هنا عدة طوابع للنهضة في بلاد أوربا غير ايطاليا مثل طابع النهضة في ألمانيا وطابعها في انجلترا وطابعها في فرنسا.

النهضـــة في المانيــا :

أخذت نهضة ايطاليا تتسرب الى ألمانيا منذ القرن الخامس عشر الميلادى، وقد ساهم العالم الانساني الهولندى أرازمس على نشر النهضة في ألمانيا عن طريق ما قام به من محاضرات فيهـا وفي بلاد أوربية أخـرى. وكـان ارازمس هذا من المتحمسين للاصلاح الدينى بطريقة لينة لا تعتمد على العنف، وكان يرى أنه بالامكان اصلاح البابوية دون الخروج عنها. وكان هذا اللين الذي اتصف به أرازمس لم يوافق عليه أتباع لوثر. وفي الوقت نفسه فان أفكاره هذه لم توافق عليها البابوية، ومع هذا فان أرازمس ظل متحمسا لأفكاره حتى ان بعض المؤرخين لقبـوه بفـولتير القرن السادس عشر الميلادى لما لدوره من أثر كبير في النهضة الأوربية، كما هو الأثـر الذي أحدثته كتابات فولتير وبحوثه وأفكاره في الثورة الفرنسية فيما بعد.

لقد ظهرت مجموعة من الطلاب الألمان منذ القرن الخامس عشر الميلادى ممن شغفـوا بدراسـة الآداب الانسانية في أكاديميات ايطاليا، وبعدها صاروا رواد النهضة في بلادهم مثل العالم «كربس» الذي عرف باسم الكاردينال كوزانس، نسبة الى مسقط رأسه فالعالم جون مولر وغيرهما.

والـواقع ان الدراسات اللاتينية واليونانية ظلت متأخرة في ألمانيا بالرغم من مساعدة حكامها لهذه الدراسات، وبالرغم من وجود مجموعة من الجامعات الألمانية في فينا وهيدلبرج وبازل وستراسبورج وغيرها. ويعود هذا الى معارضة رجال الدين والمدرسين لمثل هذه الدراسات وانتشارها على نطاق واسع.

لقد ظهر عالم ألمانى يدعى «حنا روخلن» (١٤٥٥-١٥٢٢م) اهتم بالدراسات اليونانية واللاتينية، ثم انصب على الدراسات العبرية على اعتبار أن العبرية مفتاح الدراسة للعهد القديم، وألف قاموسا للعبرية سنة ١٥٠٦م. وقد ظهرت نزعة في ألمانية ضد الكتب العبرية وكان على رأس هذه الجماعة «جون بلفركورن»، لكن هذه المعارضة فشلت بسبب تصدى روخلن ومؤيدوه لها، هذا ما دفع بالدراسات

الانسانية الى مرحلة أقوى في ألمانيا مما كانت عليه قبل ظهور روخلن ومجموعة الانسانيين الألمان، واعتبر روخلن ومؤيدوه أن العبرية لغة مهمة من أجل شرح الكتاب المقدس وتفهمه.

لقد تميزت النهضة الألمانية في كونها تخدم المسيحية في بساطتها، ومن هنا ظهرت النزعة الألمانية الانسانية القوية الرامية الى ضرورة قيام الاصلاحات الدينية، وبهذا نلاحظ أن الانسانية الألمانية بعدت عن الوثنية التي تميزت بها نهضة ايطاليا. ونلاحظ أن الألمان لم يقلدوا القدماء من اليونان والرومان في عاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم، ولا حتى في التراكيب الأدبية والفنية. ولقد تمسك الفنانون الألمان بطراز البناء القوطى الذي ساد أوربا في العصور الوسطى.

ومما يميز النهضة الألمانية في القرن الخامس عشر الميلادى أنه امتازت بتقدم ملحوظ في الثقافة والتعليم والتربية، وأصبح الألمان فيما بعد قادة العالم الأوربى في دراسة الكتب والدراسات العلمية، وتم بذلك انشاء ثماني جامعات ألمانية. وساعد في هذا التطور النهضوى اختراع الطباعة على يد العالم الألماني «حنا جوتنبرج» وما ترتب على هذا الاختراع من نتائج هامة ذات أثر كبير على أوربا والعالم. وهذا الاختراع حدا بالجميع الى القول إنه «فن ألماني». وظهر مجموعة من الألمان المتخصصين في طبع الكتب وبيعها في أنحاء أوربا.

وهكذا يمكن القول ان النهضة الألمانية قامت لخدمة الاصلاح الدينى عن طريق دراسة الكتاب المقدس من أصله اليوناني، وعن طريق مهاجمة رجال الدين ومحاربة المفاسد التي دخلت جسم المسيحية الأولى. وتبلور هذا الجهد الى قيام حركة الاصلاحات الدينية في ألمانية وفي أوربا، وما جرت اليه هذه الحركة من حروب دينية أهلية دمرت الكثير من الفنون الألمانية بخاصة في البناء منها.

النهضة في فرنسا :

بعد الحروب الطويلة بين فرنسا وانجلترا والتي سميت بحرب المائة سنة، ثم توحيد فرنسا في منتصف القرن الخامس عشر الميلادى. ولكن حدث بعد هذا التوحيد حروب أهلية داخلية بين الملك لويس الحادى عشر والنبلاء الاقطاعيين أدى بالتالي الى هزيمة النبلاء، وضم مجموعة من الاقطاعيات التي كانت تتبع

هؤلاء النبلاء الى أملاك التاج الفرنسي، لذا فان هذه الحروب الخارجية والداخلية أثرت على توقف النهضة الفرنسية منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى.

لقد استفادت فرنسا من نهضة ايطاليا بعد غزو شارل الثامن لايطاليا سنة ١٤٩٤م، وابتداء من هذا التاريخ أخذت النهضة الايطالية تتسرب الى فرنسا، ومن هنا ظهرت حركة احياء الدراسات في فرنسا.

لقد ظهرت بوادر النهضة في فرنسا منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادى، وكانت بدايتها في الجامعات الفرنسية كجامعة باريس التي ضمت مدرسين من الانسانيين الايطاليين أمثال: «**تفرناس**» الايطالي النشأة اليوناني الأصل، وقد عمل هذا مدرسا لليونانية في جامعة باريس وقد حاضر في هذه الجامعة كذلك الأستاذ «**لاسكارس**» البيزنطى الذي عمل مدرسا لليونانية في الجامعة المذكورة، وكذلك الانسانى «**اليندر**» الايطالي الأصل الذي حاضر في اليونانية واللاتينية والعبرية في جامعة باريس، وأصبح فيها بعد مديرا للجامعة المذكورة.

أما عن جهود العلماء الفرنسيين فكانت قد ظهرت في منتصف القرن السادس عشر حين ظهرت حركة واسعة لنشر الكتب اليونانية، **وأنشئت أول مطبعة في باريس**، وقد ساعد ملوك فرنسا على نقدم النهضة الانسانية فيها بما قدموه من أموال وبما أدخلوه في بلاطاتهم من عادات وتقاليد وأخلاق سادت ايطاليا في عهد النهضة، كما ساهموا في ايجاد أكاديميات و مراكز دراسية للدراسات الانسانية مثل: الكلية الملكية التي أنشئت زمن الملك فرانسوا الأول سني ١٥٣٠م.

لقد ظهرت مجموعة من الانسانيين الفرنسيين أمثال «**بوديه**» العالم في اليونانية. والعالم الانساني الفرنسي «**كومين**» وكان كاتبا سياسيا له مذكرات تاريخية قيمة. وكذلك الانسانى الفرنسى **رابيليه** الذي كتب روايات فكاهية ممتعة لكنها ذات فكر وعظة، وهو أول من شرح جثة انسان مخالفة بذلك تعاليم البابوية. ثم الانساني الكبير «**أندريه تيورنيب**» الذي عمل أستاذا لليونانية في الكلية الملكية.

لقد تميزت النهضة الفرنسية بدراسة القانون الروماني القديم ومن أهم رجال

العلم في هذا المجال **«جاك كوجاز»**.

والجدير بالذكر أن نظرة الفرنسيين وعقليتهم تميزت عن الايطالين بالنسبة لدراسة الآداب والفنون الكلاسيكية. فقد أخذوا ما أرادوا وصبغوا كل ما أخذوه بطابعهم الخاص.

النهضـــة في انجلتـــرا :

لقد بدأت النهضة في انجلترا بعد أن انتهت البلاد من حرب المائة سنة وحرب الوردتين، وبعد أن استلمت أسرة آل ثيودور الحكم في انجلترا.

لقد سافر جماعة من الانجليز الى ايطاليا من أجل دراسة الآداب والفنون الانسانية مثل: **«وليم جروسون»** الذي درس في فلورنسا. و **«توماس ليناكر»** الذي درس في أكاديمية البندقية. و «وليم ليللى» الذي درس اليونانية في روما.

وأطلق على هؤلاء الانسانيين بمصلحى اكسفورد. زاد أرازمس أكسفورد وحاضر فيها واتصل برجالها الانسانيين وارتبط مع الانجليزي «كولت» فترجما الانجيل معا الى الانجليزية.

لقد أنشأ الملك هنرى الثامن ملك انجلترا خمسة كراسى للاستاذية في مادة اللاهوت والقانون المدنى والطبيعة واللغة العبرية واليونانية في جامعة كمبردج. ووصل الأستاذ الانجليزي السير توماس الى كرسى الاستاذية لمادة القانون المدني. وان جون تشيك كان قد حصل على كرسى اليونانية.

ومن المدارس الانجليزية التي خصصت للدراسات الانسانية في انجلترا مدرسة سانت بول، الذي رأسها ليللى في أول الأمر.

من الملاحظ على النهضة في انجلترا أنها تختلف عن نهضة فرنسا وايطاليا الوثنيتين، فقد اتجهت النهضة في انجلترا الى احياء المسيحية الى جانب الدراسات الأدبية والفنية الأخرى. وظلت النهضة الانجليزية نهضة تقليدية ولم تقدم جديدا الا في القرن السابع عشر الميلادى حين ظهر انتاجها الانساني الجديد مثل أشعار شكسبير وملتون وغيرهم.

كما أن خط مسير النهضة الانجليزية أخذ يتجه نحو النهضة العلمية، وباتجاه

مدرسة البحث العلمي والطريقة التجريبية. وخير ما يمثل هذا الخط هما: العالمان روجر بيكون وفرنسيس بيكون اللذان يعتبران من مؤسسى المدرسة العلمية في انجلترا.

مراجع عن النهضة الأوربية يمكن الرجوع اليها :

أولاً: المراجع العربيـــة :

١ ــ *السير جون هامرتن* : تاريخ العالم، المجلد الخامس، مترجم باشراف ادارة الثقافة بوزارة التعليم، مكتبة النهضة المصرية (مجموعة محاضرات).

٢ ــ *جورج سارتـون* : محاضرات في العلم في عصر النهضـة، من مجمـوعة محاضرات في كتاب حضارة عصر النهضة، ترجمة الدكتور عبدالرحمن ذكى، دار النهضة العربية ١٩٦١م.

٣ ــ *جورج رولى* : محاضرات في الفن في عصر النهضة في كتاب حضارة عصر النهضة (مترجم).

٤ ــ *جاك س. ريسلر* : الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون ومراجعة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٥ ــ *روبرت ب. بالمسر*: تاريخ العالم الحديث "A history of the Modern World". ترجمة د. محمود حسين الأمين ومراجعة الدكتور جعفر خصباك وتقديم مرغريت مكية، مكتبة الوفاء بالموصل ١٩٦٤م.

٦ ــ *زكـريا هاشم زكريا* : فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

٧ ــ *عبـاس محمـود العقـاد* : أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.

٨ ــ د. *عبدالعزيز الشناوى* : أوربا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

٩ ــ د. *عبدالمنعم ماجد* : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى القاهرة.

١٠ ــ د. *سيجريد هونكة* : شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى ومراجعة فاروق عيسى الخورى، منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر. الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٤م، وهناك ترجمة أخرى قام بها الدكتور فؤاد حسنين على، دار النهضة العربية بالقاهرة.

١١ ــ د. *سعيد عاشور* : أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، مكتبة الانجلو المصري، ط ٢، ١٩٦١م.
١٢ ــ *ف بارتولد* : تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة.
١٣ ــ *فرديناند سكيفل* : المجتمع الايطالي في عصر النهضة، محاضرات في كتاب حضارة عصر النهضة لمؤلفة جيمس وستفال تومسون وآخرون.
"The Civilization of the Renaissance"
١٤ ــ *كرستوفر دوس* : تكوين أوربا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة و د. سعيد عاشور، مؤسسة سجل العرب بالقاهرة ١٩٦٧ م.
١٥ ــ *محمد عبدالرحيم وآخرون* : أصول العالم الحديث، مطبعة جريدة الصباح بمصر ١٩٥٨ م.
١٦ ــ د. *محمد فؤاد شكري* و د. *محمد أحمد أنيس* : أوربا في العصور الحديثة، الجزء الأول، الطبعة الثانية، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦١م.
١٧ ــ د. *نور الدين حاطوم* : تاريخ عصر النهضة الأوربية، تأليف وتعريب، دار الفكر، لبنان ١٣٨٧ هـ/١٩٦٨ م.
١٨ ــ *هربرت جون ولز*: موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٥٨ م.
١٩ ــ *هربرت جون ولز* : معالم تاريخ الانسانية، المجلد الثالث، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م.
"The Outline of history, Being a plain History of life and mankind".

ثانياً: المراجــع الأجنبيــــــــة:

1- A. Saymonds: The Renaissance in Italy.

2- F Schevill: First Century of Italian humanism.

3- F. Schevill: A history of Floreance.

4- F A Gasquet: The Eve of the Renaissance.

5- G. Vasari: Lives of the most Eminent painters, sculptors and Architects.

6- G. Young· The Medici.

7- H. S Luccas: The Renaissance in Europe, 1400 – 1600.

8- J. A. Froude: Life and Times of Erasimus.

9- Eqter: Studies in the History of the Renaissance.

10- The Cambridge Modern History: Vol. I.

الفصل الثاني
الكشوف الجغرافية الأوربية

كانت حركة الملاحة البحرية في أوربا الغربية قد نشطت أعمالها ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادى. ثم تطورت هذه الحركة تدريجيا بتقدم أعمالها خلال القرون: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادية. وقد ظلت الفكرة الاغريقية القائلة إن بامكان أوربا الغربية الوصول الى الشرق ـ موطن التوابل ـ عن طريق الغرب، ماثلة في أذهان الأوربيين، وقد أدت هذه الفكرة إلى دفع عجلة الحركة الى الامام.

وقد تمكنت الدول الأوربية من تحقق نصر كبير في مجال الكشف الجغرافى عندما استطاعت اكتشاف القارة الجديدة (أمريكا) سنة ١٤٩٢م والطريق التجارى الموصل الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م.

أسباب الكشوف الجغرافية الأوربية :

هناك أسباب كثيرة ومهمة أدت الى قيام حركة الكشوف الجغرافية الأوربية، وسنحاول هنا أن نوضح الأسباب المهمة التي دعت أوربا الغربية للقيام بحركة الكشوف الجغرافية هذه، واليك أهم الأسباب التي أدت الى قيامها وهي :

ظهور الدول الأوربية الحديثة:

ظهرت مجموعة كبيرة من الدول في أوربا الغربية كانت حديثة في تكوينها، كدول اسبانيا والبرتغال وهولندا وانجلترا وفرنسا وروسيا. ثم ظهرت بعدها كل

من دولة الدانمارك والسويد، ثم دولتي ايطاليا وألمانيا. وقد أخذت هذه الدول تفكر بشكل جاد في العمل على نشر مسيحيتها وبسط نفوذها خارج بلادها، وبخاصة على الشعوب التي كانت قد تأخرت في تكوينها الحديث، فرأت هذه الدول نشر مذاهبها الدينية وحضارتها بين مجموعة الشعوب الأخرى غير الأوربية.

رغبة اوربا في نشر النصرانيّة:

لقد كانت دولتا اسبانيا والبرتغال من أسبق الدول الأوربية الغربية الحديثة التي قامت بالكشوف الجغرافية. وكانت الأسباب الدينية تأتى في المحل الأول. وقد لعبت دورا مهماً في دفع هاتين الدولتين للقيام بالكشوف الجغرافية، لأن اسبانيا والبرتغال بلدان مسيحيان فيهما روح صليبية قوية.

وكان البرتغاليون يرون أن الكشوف الجغرافية يجب أن تعمل على تحويل المسلمين في غرب افريقيا وفي غيرها من المناطق الى المسيحية الكاثوليكية وكان هذا من أهم أهداف قيامهم بالكشف الجغرافى، ورافق هذا روح صليبية حادة حين قالوا بضرورة تحويل الحبشة المسيحية من الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، الى الكنيسة الكاثوليكية، وذلك من أجل فصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المصرية. ومما يوضح لنا سياسة التعصب والتزمت الدينى وروح الصليبية الحاقدة عند البرتغال والاسبان ضد الاسلام والمسلمين، سياسة الدولتين في القرنين الخامس والسادس عشر الميلادين، حيث أخذ البرتغاليون والاسبان في تضييق الخناق على القوى الاسلامية في الأندلس، وبالتالي سقوط غرناطة آخر معقل اسلامي فيها سنة ١٤٩٢م بعد أن اتحدت دولة أرجونة بزعامة حاكها فرديناند مع دولة قشتالة بزعامة حاكمتها ايزابيلا، وكان الزواج قد تم بين الحاكمين سنة ١٤٦٩م. ولم تكتف هذه الدول المسيحية باجلاء المسلمين عن الأندلس، بل أخذوا يقومون بضغط كبير على المسلمين في شمال افريقية. ورأوا كذلك تطويق المسلمين عن طريق أفريقيا وعن طريق العمل الجاد من أجل نشر المسيحية الكاثوليكية بين المغول في الشرق. ولكن المغول قد خيبوا آمالهم عندما دخلوا في الدين الاسلامي.

لقد كانت البابوية تشجع هذه الدول المسيحية للقيام بحركة الكشف الجغرافى

من أجل نشر المسيحية الكاثوليكية. وصدرت عدة مرسومات بابوية منحت فيها ملوك البرتغال والاسبان حق ملكية الأقاليم الجديدة أو البحار التي يتم اكتشافها في الحاضر والمستقبل، لأنهم اعتقدوا أن الاسلام بالنسبة لهم طاعون جارف يجب العمل على عدم تسربه.

ولما رأى المسيحيون أنه ليس بامكانهم السيطرة على البلاد الاسلامية بالطرق الحربية بعد فشلهم في الحروب الصليبية، ولما رأوا كذلك أنه ليس بالامكان مقاومة الغزو الصليبي بالقوة الحربية، لذا أخذوا يخططون للعمل على تحويل المغول الى المسيحية من أجل التربص بالاسلام وحصره بين فكى كماشة.

الرغبة في الربح التجارى :

لما رأى الأوربيون سيطرة العالم الاسلامي على الطرق التجارية القديمة في الشرق، ظهرت عندهم فكرة البحث عن طريق تجارى يوصلهم الى الهند دون المرور بالطرق التجارية التي تسيطر على الدول الاسلامية في الشرق، ويكونون بذلك قد تخلصوا من الضرائب والرسوم الجمركية التي تدفعها سفنهم التجارية أو قوافلهم التجارية المارة بهذه البلاد الاسلامية، ويكونون قد جنوا ربحين أولهما: تجارى وثانيهما: ربح ينتج عن اضعافهم للاقتصاد الاسلامي بعد تحويلهم الطرق التجارية الى افريقيا والمحيط الأطلسى دون المرور بالعالم الاسلامي. بالاضافة الى أن أوربا ستجد أسواقا جديدة لبيع منتوجاتها الفائضة عن حاجتها. وبهذا كله تكون أوربا قد عملت على زيادة اقتصادها الوطنى عن طريق نظامها التجارى الجديد، وبخاصة أن التجارة الشرقية كانت تجنى أرباحا واسعة في أوربا.

الرغبة في التخلص من احتكار التجارة :

لقد رأت بعض الدول الأوربية الغربية الحديثة القيام بالأعمال التجارية بنفسها مع بلاد الشرق وذلك للتخلص من الاحتكار التجارى الذي أوجدته كل من البندقية التي كانت لها ستة أساطيل بحرية منظمة، ولها موانىء على البحار التي تمر بها. وهذا ما جعل البندقية تربح أرباحا خيالية. وجنوة التي نافست جمهورية البندقية في التجارة وهذا التنافس نتج عنه صراع حربى أدى الى هزيمة جنوة

وعقد صلح تورينو سنة ١٣٨١م، هذا ما جعل جنوة تفكر في ايجاد طريق بحرى آخر تأتى منه السلع الشرقية الى أوربا. فكان لهذه العملية الاحتكارية للتجارة أثر في جعل البلاد الأوربية تعمل على التخلص من هذا الاحتكار بالبحث عن طريق تجارى جديد تقوم هي بدور التاجر والناقل والوسيط.

الرغبة في حب الاستطلاع وزيادة المعلومات الجغرافية :

لقد سيطر على البلاد الأوربية شعور كبير للقيام بالرحلات الجغرافية، وذلك من أجل استطلاع ومعرفة أشياء جديدة تزيد في معلومات الأوربيين الجغرافية. وكانت هذه الرغبة تعود لروح المغامرة، ولظهور روح البحث العلمى، وتقدم علم الفلك، ثم تقدم الصناعة الخاصة ببناء السفن، والبوصلة وآلة الاسطرلاب، والبارود، والدفة المتحركة لعبور البحار. وقد توصلت أوربا الى هذا كله بعد قيام عملية التنبيه الذهنى التي عمت أوربا بفضل النهضة الأوربية.

بالاضافة الى هذا فان هناك من الأسباب الأخرى ذات الأهمية بمكان وهى: رغبة أوربا في الحصول على الذهب والفضة، حيث سال لعاب الأوربيين على ما سمعوه عن هذه المعادن في افريقيا. بالاضافة الى رغبة بعض الدول الأوربية المكتظة بالسكان في ايجاد منافذ أرضية جديدة تمتص الزائد من سكانها، وذلك عن طريق اسكانهم واستيطانهم في الأراضى المكتظة الجديدة. هذا الى جانب أن الحروب الصليبية كانت قد عودت الأوربيين على الأسفار وتحمل المشاق والصعوبات، وبهذا كانت معلوماتهم عن الأرض قد اتسعت. وقد شجعت رحلات بعض الرحالة الأوربيين لبلاد الشرق حركة الكشف الجغرافى، ويمثل هذا رحلة ماركوبولو الى الصين سن ١٢٩٥م وعودته محملا بكمية كبير من الأحجار الكريمة حتى ان أهالى مدينة البندقية أطلقوا على ماركوبولو لقب «صاحب الملايين» فكان هذا قد شجع بقصصه المثيرة ومغامراته رجال أوربا الحالمين للقيام برحلات جغرافية واسعة.

الطرق التجارية الشرقية الموصلة الى أوربا :

كانت البضائع الشرقية تنقل الى أوربا في العصور الوسطى عن طريقين هما: الطريق البرى والطريق البحرى. أما البضائع التي كانت تنقل عن طريق ا لبر

فنسبتها بسيطة اذا ما قيست بمجموع البضائع المرسلة الى أوربا من بلاد الشرق. وكان الطريق البرى يأتى من أواسط آسيا الى القسطنطينية ومنها الى أنحاء أوربا. أما مسلك الطريق البحرى فكانت البضائع تأتى من الصين والهند الى الخليج العربى، ثم تحمل براً من البصرة الى بغداد وتعبر نهرى دجلة والفرات، ثم تسير باتجاه محاذ الى الضفة الغربية لنهر الفرات، ثم تتجه القوافل باتجاه الغرب الى بلاد الشام (حلب ودمشق). وهناك طريق آخر يأتى الى البحر الأحمر حتى السويس ثم تنقل البضائع برا الى القاهرة، ومنها الى الاسكندرية وأحيانا الى دمياط. وبعد هذا يأتى دور المدن الايطالية. فكانت السفن الايطالية تقوم بنقل البضائع من الاسكندرية ودمياط وموانىء الشام الى المدن الايطالية، وكان سفن جمهورية البندقية تحمل الجزء الأكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية، ومنه تباع البضائع الى تجار أوربا[1].

الكشوف الجغرافية البرتغالية في الشرق:

المرحلة الاولى (القرن الخامس عشر الميلادى):

لقد قامت البرتغال برحلات كشفية في المحيط الأطلسى في القرن الخامس عشر الميلادى. وكان **الأمير هنرى الملاح** (١٣٩٤-١٤٦٠م) ابن ملك البرتغال حنا الأول، هو أول من قام بعملية الكشف الجغرافى البرتغالى. وكان الأمير هنرى هذا باحثا في التاريخ وشغوفا بالقراءة عن أخبار الرحلات والأسفار. وكان يجيد رسم الخرائط الجغرافية، كما أنه كان ملاحا خبيرا في فن الملاحة وهو بحق أول من جعل المعارف العلمية لأوربا تعنى بمشكلة الاستكشاف.

اشترك هنرك مع والده في الاستيلاء على مدينة سبتة الواقعة على الشاطىء الافريقي تجاه جبل طارق سنة ١٤١٥م. وبعد فتحها عين هنرى حاكما عليها، وكان لهذا المنصب أثر على روح هنرى المغامر المحب للقيام بالرحلات الجغرافية، فسمع الكثير من أخبار افريقية وبخاصة بلاد غانة. لذا فكر في الوصول الى غانة ونشر الديانة المسيحية الكاثوليكية فيها، وانتزاع تجارتها من المسلمين. كما أنه فكر في الاتصال بملك الحبشة القديس يوحنا وذلك للكفاح ضد المغاربة المسلمين.

(١) أنظر خريطة الطرق التجارية المارة بالبلاد الاسلامية في العصور الوسطى.

فكان يرى أن الوصول الى الحبشة يمكن أن يكون عن طريق السنغال. واذا تمكن من الوصول الى الحبشة يمكن عندها الوصول الى البحر الأحمر ثم موانىء بلاد العرب والهند والصين دون أن يتعرض لأخطار الطرق التجارية.

لقد عمل هنرى مدى ٣٠ سنة في حركة الكشف الجغرافى البرتغالى. وكان في كل سنة يرسل رواد الكشف البرتغالى للقيام برحلات جغرافية لاستكشاف شواطىء افريقية الغربية. ففي سنة ١٤٠٢ اكتشف البرتغاليون جزر كنارى، ثم جزر ماديرا وجزر الأزورس. وفي سنة ١٤٤٥م وصل البرتغاليون الى مصب نهر السنغال والى الرأس الأخضر. وبعد موت هنرى الملاح هذا توسع البرتغاليون في افريقيا حتى اجتازوا خط الاستواء. ففي سنة ١٤٨٢م قام **الرحالة البحرى «ديجو كام»** برحلة بحرية وصل فيها الى مصب نهرى الكنغو والنيجر. وفي سنة ١٤٨٧ و ١٤٨٨ م قام **الرحالة «بارثلميوديان»** برحلة وصلت الى طرف افريقية الجنوبى واجتازه وسماه رأس الزوابع. ولما عاد الى البرتغال مبشرا بأن الطريق الى الهند أصبح واضح المعالم، رأى الملك أن يغير اسم رأس الزوابع الى رأس الرجاء الصالح لأنه بعث الرجاء في كشف الطريق البحرى المؤدى الى الهند.

ونتج عن هذه الرحلة[٢]. أن بدأ البرتغاليون يسيطرون تدريجيا على الساحل الافريقي الغربى. ثم شاعت في أوربا تجارة العبيد المجلوبين من السكان الافريقيين بواسطة السفن والتجار البرتغاليين. كما أن البرتغاليين جنوا فوائد اقتصادية كبيرة كانت قد شجعت أفواجا من المغامرين والبحارة على القيام بمزيد من الكشوف الجغرافية. بالاضافة الى أن رحلات البرتغال الكشفية كانت قد شجعت روح المغامرة البحرية في بلاد أوربا بعد ما سمعوا من أخبار الرحالة البرتغاليين. هذا الى جانب أن روح التعصب الدينى في أوربا قد خفت حدتها وحلت محلها روح الكشف الجغرافى، وبدأت عقلية أوربا منذ ذلك التاريخ تتجه نحو المادية.

(٢) أنظر جون هامرتن: تاريخ العالم، الجزء السادس، مقال بعنوان التوسع الاستعمارى ونمو القوة البحرية، لكاتبة أ.ب. نيوتن، ص ٢٨١، مترجم.

المرحلة الثانية (نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر الميلادى) :

لقد توقف نشاط البرتغاليين في حركة الكشف الجغرافي بعد رحلة بارثلميودياز، وظل هذا التوقف مدة تزيد عن عشر سنوات. وبعد هذه الفترة الزمنية من التوقف تابع البرتغاليون كشفهم الجغرافى شجعهم في هذا ما قام به الاسبان من كشوفات جغرافية في الغرب.

ففي سنة ١٤٩٧م قام « **فاسكودى جاما** » برحلته المشهورة للوصول الى الهند عن طريق رأس الزوابع الذي اجتازه بارثلميودياز. فأبحر هذا من لشبونة في يونية ١٤٩٧ م وسار محاذيا للساحل الغربى الافريقى حتى رأس الرجاء الصالح، ومن الرأس المذكور واصل فاسكو دى جاما رحلته حتى وصل الى «موزمبيق» ثم الى ممباسة ثم الى جزر «مالندة» وظل متجها شرقا حتى وصل الى الساحل الغربى لشبه جزيرة الهند في مكان يدعى «قاليقوت»، وقد تم هذا في مايو من سنة ١٤٩٨. ولما وجد فاسكو دى جاما ما يتمتع به الرحالة العرب والمسلمون في هذا الميناء من مركز تجارى قوى في قاليقوت، غير اتجاه سيره فسار شمالا حتى وصل الى جوا على الساحل الغربى لشبه جزيرة الهند شمالي قاليقوت، وبعد هذه الرحلة عاد فاسكودى جاما من نفس الطريق الذي جاء منه الى لشونة. والجدير بالذكر هنا أن فاسكودى جاما كان قد تعرف على بعض الملاحين العرب في أثناء وصوله الساحل الشرقى من افريقيا وأخذ منهم مرشدا بصيراً بأمور الملاحة وطرقها واسرارها اسمه أحمد بن ماجد الذي ساعده على الوصول الى الساحل الغربى للهند.

لقد نتج عن هذه الرحلة الكشفية عدة نتائج منها: أن هذه الرحلة كانت بداية عهد الاستعمار البرتغالي للمناطق الشرقية لأنها فتحت بابا من العلاقات التجارية والسياسية مع الزامرين حاكم قاليقوت الهندى. كما أن الرحلة كانت فاتحة العلاقة الحربية بين العرب المسلمين رواد الكشف والتجارة مع الشرق وبين البرتغاليين الذين اخذوا ينافسون العرب في مراكزهم التجارية وأخذوا يعملون على طردهم منها. كما أن هذه الرحلة كانت فاتحة الاستعمار البرتغالي في الشرق، وكانت البداية في تكوين دولة برتغالية استعمارية في الشرق تسيطر على الأمور التجارية

الكشوف البرتغالية في إفريقية

فيه لأن البرتغاليين تمكنوا من السيطرة على بعض المنافذ والموانىء الشرقية وبخاصة مضيق هرمز على الخليج العربى. وتمكنوا كذلك من الانتصار على المماليك في **موقعة ديو** سنة ١٥٠٩م. وتعتبر الرحلة هذه هي بداية تحول الطرق التجارية الشرقية عن البلاد العربية الاسلامية وبخاصة عن مصر وبلاد الشام ابان الحكم المملوكي فيها، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وهذا بدوره أدى الى كساد اقتصادى للمنطقة العربية الاسلامية، وهذا الكساد الاقتصادى كان قد أثر على دولة المماليك فكان سببا من الاسباب التي أدت الى ضعفها وبالتالي الى عدم صمودها أمام المنافسة البرتغالية من جهة، وأمام توغل القوات العثمانية في بلادها من جهة اخرى.

وقامت رحلة برتغالية أخرى سنة ١٥٠٠م. بقيادة **البحار كابرال** البرتغالي الذي طاف حول افريقية ووصل الى قاليقوت في الهند. واستطاع كابرال الضغط على الزامرين من أجل أن يحصل منه على مركز تجارى برتغالى على الساحل الغربى للهند. وقد اشتبك كابرال وجماعته مع العرب والمسلمين في قاليقوت، وأخيرا استطاع تخريب مدينة قاليقوت بأسطوله الحربى.

وفي سنة ١٥٠٢م قام فاسكودى جاما برحلة ثانية الى الشرق، وكان غرضه من هذه الرحلة القضاء على سلطة الزامرين والانتقام ثانية من العرب المسلمين أصحاب النفوذ التجارى في السواحل الهندية الغربية. ورأى ملك البرتغال عما نوئيل السعيد أن سيادة البحار الشرقية ملك للبرتغال، وعليهم السيطرة على كل الموانى التجارية في المنطقة وضرب جميع القوى السياسية المعارضة للبرتغال. وفي رحلة « دى جاما » هذه تمكن من عقد معاهدات تجارية لدولة البرتغال مع كل من أمراء المناطق الهندية الواقعة على السواحل الغربية. وعندما عاد الى بلاده سنة ١٥٠٣م كان قد ترك أسطولا برتغاليا في مياه الهند.

لقد نتج عن رحلة فاسكودى جاما الثانية نتائج في غاية الخطورة. فقد اضطر العرب المسلمون للبحث عن طريق تجارى آخر بعيدا عن الطرق البرتغالية، فاستخدموا طريقا جديدا يأتى من الشواطىء العربية الاسلامية ومن الشواطىء الافريقية الى ملقا في شبه جزيرة الملايو. وبدأ البرتغاليون يفرضون ضرائب باهظة على التجارة المارة بالشواطىء الافريقية، وذلك لتقويض مركز التجارة العربية في

هذه المناطق من جهة، وليضطر تجار بلادهم المرور بتجارتهم في المراكز التجارية التابعة للسيطرة البرتغالية من جهة أخرى. هذا وعمل البرتغاليون على ايجاد مراكز تجارية في الشرق لتكون نواه بحرية لامبراطورية برتغالية شرقية. وقام فرانسسكو دالميد وألفونسو البوكيرك بتنفيذ هذه السياسة وذلك عن طريق السيطرة على بحار الهند عن طريق احتلال المنافذ البحرية الموصلة اليها. فاستولى البوكيرك على مسقط سنة ١٥٠٧م ثم سلمت هرمز. ثم استولى **البوكيرك** على جوا سنة ١٥١٠م وأصبحت جوا مركز رئيسيا للممتلكات البرتغالية الأسيوية، وفي سنة ١٥١١ م استولى البوكيرك كذلك على ملقا، وحاول الاستيلاء على عدن لكنه فشل. وهكذا سيطر البرتغاليون على الطرق التجارية الشرقية.

المرحلة الثالثة (في القرن السادس عشر الميلادى):

لا جديد في الكشوفات البرتغالية في هذه المرحلة. بل حافظ خلفاء البوكيرك على ما بأيديهم من مراكز تجارية في الشرق، الا أنه في منتصف القرن السادس عشر الميلادى. شهدت دولة البرتغال ضعفا ملموسا يعود ذلك الى:

- تنازع البرتغال مع دولة المماليك والدولة العثمانية في الشرق.
- انتشار النفوذ الاسباني في البرتغال بعد أن استولى ملك أسبانيا فيليب الثاني على عرش البرتغال بعد وفاة ملكها سبستيان. وكان الملك فيليب الثاني قد أهمل البرتغال بعد أن ضمت لاسبانيا.
- مناوءة الهولنديين للبرتغال وسيطرتهم التدريجية على الممتلكات البرتغالية في الشرق.
- عدم استطاعة البرتغال في الدفاع عن مستعمراتها الشرقية.
- النظام الاستعماري التجارى البرتغالى كاحتكارهم تجارة التوابل مما أثار منافسينَ أقوياء لهم، كمنافسة العرب المسلمين لهم في البحار والموانىء والمنافذ البحرية الشرقية.
- اتساع حجم المصروفات على الأمور العسكرية التي تحمى الأمور الاقتصادية.
- استغلال الحكام في الممتلكات البرتغالية لمناصبهم في ابتزاز الأموال من الأهالى بخاصة وأن مدة حكمهم كانت لا تزيد عن ثلاث سنوات.
- ما فرضه البرتغاليون من ضغط دينى على السكان في هذه الممتلكات من أجل

اعتناقهم الدين المسيحى الكاثوليكى. وكان معظم السكان من ذوى الديانات القديمة وكانوا متمسكين بدينهم هذا. وكان من بين أساليب التعذيب التي مارسها البرتغاليون على السكان اقامة محاكم التفتيش الدينى في هذه الممتلكات، فكانت هذه من الأمور التي تنفر السكان من الحكم البرتغالي.

وعلينا هنا أن نلاحظ ان الفضل الأسبق في مضمار الكشف الجغرافي كان يعود للعرب المسلمين الذي اخترقوا القارة السوداء منذ القرن العاشر الميلادى. فقد زار ابن حوقل بلدة «أودغشت» الافريقية سنة ٩٧٧ م، وكانت هناك صلات تجارية بين العرب المسلمين في الشمال الافريقى وبين السكان الافريقيين فيما وراء الصحراء الكبرى. كما أن الجغرافيين العرب ساهموا حقا في العصور الوسطى في وصف بلاد افريقيا مثل غانة ومالى وغيرهما. وكانوا قد الفوا الكتب الجغرافية عن هذه البلاد. ومن المؤرخين والجغرافيين المسلمين ظهر ابن حوقل والبكري والأدريسي وابن بطوطة وابن خلدون والحسن بن محمد الوزارن القلقشندى وغيرهم. وتعتبر رحلة سليمان التاجر من أهم الرحلات البحرية في المحيط الهندى وبحر الصين في القرن التاسع الميلادى كما أن هذه الرحلة كانت أول من حكت لنا قصة السواحل والمراكز التجارية في الشرق. وقد دون سليمان رحلته هذه في مؤلف سماه «أخبار الصين والهند».

تأسيس الامبراطورية البرتغالية :

ولقد كانت رحلة داجاما الأولى الى الهند هى التى فتحت الطريق أمام البرتغال للسيطرة على البحار الشرقية، واحتكار متاجر الشرق، وبخاصة التوابل ونقلها الى أوربا عبر رأس الرجاء الصالح. وأدى ذلك الى ضرب اقتصاديات العالم الاسلامي وخاصة المماليك، اذ انتقل المركز التجارى العالمى من حوض البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الأطلسى.

غير أنه سرعان ما اتضح للبرتغاليين أنه يجب عليهم أن يقضوا على العرب المسلمين في هذه البحار، وفي مارس عام ١٥٠٠ خرج البحار كابرال Cabral من قادش على رأس حملة كبرة قوامها ثلاث عشرة سفينة مزودة بالمدافع والمعدات وعليها ١٥٠٠ بحار وطاف حول افريقيا ووصل الى قاليقوت، وأرهبت قوته

الزامورين حاكم الهند فسمح له باقامة مركز تجارى، الا أن التجار العرب المسلمين حالوا بينه وبين المراكز التجارية الشرقية . وعندما استولى كابرال على احدى السفن العربية الاسلامية المحملة بالتوابل، انتقم العرب المسلمون بمهاجمة المركز التجارى البرتغالى في قاليقوت، وتخريب مستودعاته، واغتيال وكلاء كابرال التجاريين. وعندئذ هاجم كابرال عشر سفن عربية واستولى على حمولتها ثم ارتحل الى كوشين وكنانور، وأقام هناك المراكز التجارية. وبعد أن شحن سفنه بالسلع المحلية عاد الى البرتغال.

وأرسل ملك البرتغال عما نويل الأول حملة أخرى بقيادة فاسكودي جاما للاقتصاص من المسلمين والقضاء على سلطة الزامورين وارغامه على قبول السيادة البرتغالية، وجعل السيادة في بحار الهند من نصيب البرتغال وحدها، فخرج داجاما في فبراير ١٥٠٢م على رأس أسطول يتكون من خمس عشرة سفينة، وتبعه أسطول آخر من خمس سفن خصص بعضها لمهاجمة السفن الاسلامية واغلاق منافذ البحار الهندية في وجه المسلمين، الى جانب توفير الحماية للمراكز التجارية البرتغالية في كوشين وكنانور، وكان أول ما فعله داجاما عند وصول أسطوله الى ساحل الملبار، هو تخريب قاليقوت، ثم عقد معاهدات تجارية في مصلحة البرتغال مع الأمراء في كنانور وكوشين وغير ذلك من المراكز على ساحل الملبار، ثم ترك اسطولا برتغاليا في مياه الهند، وعاد أدراجه الى البرتغال سنة ١٥٠٣ م.

ومنذ أن نشط البرتغاليون على ساحل الملبار، شرع المسلمون في البحث عن طريق آخر يوصلهم الى متاجر الشرق، واستخدموا طريقا جديدا يوصلهم من الشواطىء الاسلامية والافريقية الى ملقا. وازاء ذلك قرر البرتغاليون مهاجمة الملاحة الاسلامية في جميع وجوه نشاطها، بالاضافة الى انشاء مركز جديد مهم على ساحل الملبار نفسه يكون بمثابة نواة تجارية وبحرية لامبراطورية برتغالية شرقية.

وقام على تنفيذ هذه الخطة كل من **فرانسيسكو دالميدا** والفونسو البوكيرك، وفي عام ١٥٠٥م عين ملك البرتغال **فرانسيسكو دالميدا** حاكما عاما على الهند البرتغالية ومنحة لقب (نائب الملك) فكان دالميدا أول نائب لملك البرتغال في الهند. وركز دالميدا كل قوى البرتغال لتحقيق سيادتها البحرية، وكان يرى ضرورة إنشاء المحطات الضرورية اللازمة لتمويل الأسطول وحمايته فقد اقتصرت جهوده في

افريقيا الشرقية على اقامة الحصون في ميناءى كلوة وممبسا وضمهما الى الممتلكات البرتغالية. وفي فبراير ١٥٠٩م انتصر دالميدا على الأسطول المصرى المملوكى في موقعة ديو البحري، وتمكن البرتغاليون بفضل انتصارهم في هذه الموقعة من السيطرة على البحار الغربية لمدة قرن تقريبا. وأصبحت جميع المدن والمراكز التجارية بساحل افريقيا الشرقي تحت السيطرة البرتغالية. وامتد التوسع البرتغالي الى جزيرة مدغشقر والى إثيوبيا وموريشوس وسيلان.

وفي أواخر عام ١٥٠٩م عين البوكيرك نائبا لملك البرتغال في الهند، وأتم سيطرة البرتغال على البوابات البحرية الثلاث المؤدية الى المحيط الهندى: مضيق ملقا، ومضيق هرمز ، ومضيق باب المندب. كما استولى على جوا وسو قطرة ولكنه فشل في احتلال عدن.

وجدير بالذكر أن الملاح البرتغالى كابرال نزل في سواحل البرازيل، وخضعت من ذلك الحين للبرتغاليين الذي استعمروها، وأنشىء فيها نظام الاقطاع، كما نشرت فيها المسيحية الكاثوليكية. واضطر الاقطاعيون الى جلب العبيد من افريقيا لتعمير الأراضى الجديدة وفلاحتها.

وعلى العموم فان الاستعمار البرتغالي كان يتجه قبل كل شيء الى التجارة وأرباحها دون أن يعنى بالتنظيم السياسى والحكومى، ثم ان امبراطوريتهم الشرقية لم تكن متماسكة الاجزاء خاضعة لحكم واحد، وانما كانت لا تعدو شريطا ساحليا ممتدا في افريقيا وآسيا أو جزر متناثرة في البحار الشرقية.

انهيار الامبارطورية البرتغالية :

أخذ الضعف يدب في الامبراطورية البرتغالية ابتداء من منتصف القرن السادس عشر على وجه التقريب لأسباب عديدة اهمها ما يلى:

أولا: النزاع بين البرتغال والدولة العثمانية، ونجح العثمانيون بعض الشىء في تخفيف الضغط البرتغالى على التجار العرب المسلمين والامارات العربية الاسلامية الساحلية، وحطموا كل المحاولات الرامية الى تكوين جبهة مسيحية ضد القوى الاسلامية على البحر الأحمر وافريقيا الشرقية.

ثانيا : انتشار النفوذ الاسباني في البرتغال نفسها، بعد أن أستولى ملك اسبانيا

فيليب الثاني على البرتغال سنة ١٥٧٠ م.

ثالثا : نظام الاستعمار البرتغالي نفسه الذي كان في البداية أحد الاسباب التي أدت الى انحلال امبراطوريته، ومنها سوء معاملة الأهالى، وابتراز الأموال، واحتكار التجارة، واستخدام القوة في معاملة الأهالى، واستغلال الحكام لمناصبهم.

رابعا : تدهور أحوال البلاد الداخلية في البرتغال بسبب ارغام الفلاحين على الاشتراك في الرحلات والحملات والحروب.

خامسا : منافسة الهولنديين للبرتغال وسيطرتهم التدريجية على ممتلكات البرتغال في الشرق.

سادسا : محاولات فرض الدين المسيحى على أهالى البلاد المكتشفة الذي ظلوا متمسكين بديانتهم.

سابعا : كثرة المصروفات العسكرية التي تحمى الاقتصاد الاستعمارى.

الكشوف الاسبانيـــة :

شاركت اسبانيا البرتغال في ميدان الكشف الجغرافى متأثرة بالمؤثرات نفسها التي دفعت البرتغال الى هذا الميدان: وهي الرغبة في الاتصال بدول الشرق بطريق بحرى مباشر والاستيلاء على التجارة الشرقية والتحرر من سيطرة البندقية الاحتكارية.

اتجهت كشوف الاسبان نحو الغرب لاعتقادهم بامكانية الوصول الى الهند عن طريق الغرب، وذلك على عكس الكشوف البرتغالية التي اتجهت الى الشرق.

يمكن تقسيم عمليات الكشف الجغرافى الاسباني الى مرحلتين: الأولى تبدأ بعهد فردينانـد وتنتهى بوفاته سنة ١٥١٦م. والمرحلة الثانية تبدأ بوفاة الملك فرديناند وحتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى.

المرحلـــــة الأولـى :

ان هذه المرحلة تشمل رحلـة «**كريستوفر كولمبس**» الذي سار الى الهند عن طريق الغرب. وكان الملكان فرديناند وزوجته ايزابيلا قد قدما له عونا من أجل

الشروع بهذه الرحلة، وكان كريستوفر قد عرض فكرته هذه من قبل على ملك البرتغال الذي لم يوافق على المشروع، وبعدها تبناه الملكان الاسبانيان.

لقد شرع كريستوفر برحلته هذه في أبريل ١٤٩٢ م من اسبانيا، وباتجاه الغرب فوصل الى جزر البهاما التى سماها «سان سلفادور» ثم توجه الى شاطىء كوبا الشمالي وجزيرة هايتى وسماها اسبانيا الصغيرة، ثم بعد ذلك الى اسبانيا في مارس ١٤٩٣م وهو يعتقد أنه وصل إلى الهند عن طريق الابحار من الغرب.

وفي السنة نفسها قام كولمبس برحلة ثانية لاحتلال الأراضي الجديدة واستعمارها واستخراج الذهب ونشر المسيحية بين السكان الذين سماهم كولمب بالهنود، وقد اكتشف كولمب في هذه المرة جمايكا، وعاد مرة أخرى الى اسبانيا سنة ١٤٩٦م.

وفي سنة ١٤٩٨م قام كولمب برحلة ثالثة لم يوفق فيها. ثم قام برحلة رابعة في مايو سنة ١٥٠٢م وبنفس الاتجاه الا أنه لم يوفق كذلك في هذه الرحلة، وعاد الى اسبانيا سنة ١٥٠٤م. والواقع أن فشل كولمب في رحلاته الأخيرة أفقده سمعته عند الملكين وبخاصة بعد ماحل بالبلاد المكتشفة من انقسامات واضطرابات وقلاقل بين أعوان كولمب ورجال حملاته. ولم يدر كولمب أن برحلاته هذه كان قد اكتشف أمريكا.

وقد نال هذا الشرف ملاح آخر اسمه «امريكو فسبوتشي» الذي وصل المنطقة وسجل رحلته هذه في رسالة أعلن فيها أن هذه البلاد ليست اليابان أو الصين أو الهند، وانما هي أقطار جديدة.

ونتج عن هذه الرحلة عدة نتائج أهمها:

منح البابا اسكندر السادس سنة ١٤٩٢ ملوك الاسبان حق الملكية المطلقة لجميع الأراضى التي ستكتشف في الغرب وفي الجنوب صوب الهند، أو في جميع الأقاليم الاخرى التى يحتلها أمراء مسيحيون من قبل - يعنى بذلك أمراء البرتغال - الذين قاموا بالكشوف الجغرافية باتجاه الشرق فوصلوا الى الهند، ولتطبيق نظرية البابا في هذه الشأن قام برسم خط وهمى يمتد من الشمال الى الجنوب يبعد مقدار مائة فرسخ الى الغرب من جزء الأزورا وجزر الرأس الأخضر، وأصدر البابا مرسوما يقضى بمنع تجاوز هذا الخط الا بتصريح من ملك اسبانيا. وهذا معناه

حرمان البرتغال من كشوفاتها. كما ولا يحق لها القيام بكشوفات أخرى الا بموافقة ملك اسبانيا. بذا تفاوض ملوك البرتغال مع ملوك الاسبان ووقعوا معا اتفاقية سنة ١٤٩٤م سميت **باتفاقية «تورد سلاس»** عملت بموجبها خريطة وهمية قسمت بموجبها الأرض الى قسمين غربى وشرقى. ورسم خط وهمى يمتد من القطب الشمالى حتى القطب الجنوبى من نقطة تبتعد ٣٧٠ فرسخا الى الغرب من جزر الرأس الأخضر، وجاء في الاتفاقية أن كل البلاد الواقعة غربى الخط فهي ملك للاسبان. وان البلاد الواقعة شرقى الخط فهى ملك للبرتغال. ولقد وافق البابا على هذا التقسيم(*). ونلاحظ من هذا التقسيم أن جميع الدول غير اسبانيا والبرتغال حرمت من حق القيام بالكشوفات الجغرافية الا بموافقة اسبانيا والبرتغال. ومع هذا لم تكترث الدول الأخرى ينود هذه الاتفاقية بل قامت بكشوفات جغرافية، ونزلت المنافسة الدولية في هذا المجال، وهذا أدى الى اندلاع نار الحرب بين الدول المتنافسة في هذا المجال. كما أن القرار جعل البرازيل شرقى الخط فأصبحت من نصيب البرتغال.

وعلينا أن نلاحظ أن رحلات كولمب كانت قد فتحت طريقا جديدا للرحلات الفردية. ففى الفترة الواقعة ما بين ١٤٩٩ـ١٥٠٨ م وصلت الكشوفات الاسبانية الى مصب نهر الأمازون وبرزخ بنما. وتوطن الاسبان بعد ذلك في أمريكا الوسطى والجنوبية. واستطاع الرحالة الاسبانى «دى سوليس» الوصول الى شواطىء البرازيل ومصب نهر لابلاتا سنة ١٥١٦ وعبر الملاح بلباو برزخ بنما وحكم المنطقة باسم ملك اسبانيا.

المرحلة الثانية :

لقد كلف الملك شارل الخامس اسبانيا الرحالة **«فرديناندو ماجلان»** سنة ١٥١٩م بالقيام برحلة الى الشرق عن طريقة الغرب. ففي ٢٥ سبتمبر سنة ١٥١٩ بدأ ماجلان رحلته من اسبانيا متجها عبر المحيط الأطلسى حتى وصل الى ساحل البرازيل عند «ريودى جانيرو»، ثم واصل رحلته فوصل الى مصب نهر لابلاتا، ثم دار حول أمريكا الجنوبية. وفي نوفمبر سنة ١٥٢٠م دخل المحيط

(*) انظر خريطة الكشوف الجغرافية وخريطة الاستعمار الأوربى في أمريكا الشمالية.

الهادى الذي سماه بالباسيفيكى، فوصل الى جزر الفلبين في مارس سنة ١٥٢١م، وهناك في الفلبين اشتبك مع الأهالى وقتل في هذه الاشتباكات، ولكن أحد رجاله واسمه «دلكانو» ترأس جماعة البحارة وسار بهم عن طريق رأس الرجاء الصالح الى اسبانيا من مكان الابحار الأول في «سان روكار» وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٥٢٢م. وقد نتج عن هذه الرحلة ما يلي:

- تم معرفة كروية الأرض لأنه دار حول الكرة الأرضية في ثلاث سنوات.
- هدم جميع النظريات الخاطئة والاشاعات والخرافات والأساطير القائلة عن حجم الأرض وشكلها.
- برهن على أن الارض أكبر بكثير مما كان يعتقد كولمب وغيره من الرحالة.
- ظهر أن هناك قارة عظيمة بين أوربا وآسيا، وأن هناك محيطا مترامى الأطراف لم يكن معروفا من قبل.
- لم يبق من الأراضى غير المعروفة سوى الأقطار القطبية وأستراليا.
- شجعت رحلة ماجلان الكثير من الرحالة للقيام برحلات استكشافية جديدة.

وقد واصل الاسبان رحلاتهم الكشفية بعد رحلة ماجلان فقام «فرديناند وكورتيز» برحلته الى أمريكا الوسطى، ودخل المكسيك بعد حرب مع قبائل الازتيك القاطنة في المكسيك آنذاك، وحكم هذا الرحالة الجديد بلاد اسبانيا الجديدة.

وفي سنة ١٥٢٢م استولى الاسبان على جواتيمالا، وعلى سلفادور سنة ١٥٢٦م، وعلى هندوراس ونيكاراجوا سنة ١٥٢٤م. وأخذ الاسبان يؤسسون المدن الجديدة في أمريكا الوسطى.

وفي أمريكا الجنوبية وصل الاسبان الى هضبة بيرو التي كانت تسكن من قبل قبائل الانكا، كما وصلوا الى الشيلى وبوليفيا، وأطلقوا على بيرو اسم قشتالة الجديدة. وما جاءت سنة ١٥٤١م الا وأصبح الاسبان سادة هذه الأماكن الأمريكية. وعلينا أن نشير هنا الى أن الرحالة «بزارو» كان له اليد الطولى في هذه الفتوحات.

نظام الاستعمـــار الأسبانـي :

ان الفتوح الاسبانية قد عملت على اخضاع جماعات كبيرة العدد من الأهالى لحفنة قليلة من العسكريين والتجار المخاطرين الذين وصفوا بالعنف والقسوة والسلب والنهب. ولم يكن لهم من هم سوى جمع الثروة في أسرع وقت ممكن. وأصبح ملايين الهنود تحت رحمة بضعة آلاف من الغزاة الجبابرة العتاة. وفتح الاسبان مناجم غنية، كانت عشرات الآلاف من الهنود يعملون فيها حتى الموت، وذلك من أجل أن يستحوذ الاسبان على كنوز العالم الجديد من ذهب وفضة. وخصصوا مساحات واسعة من الأرض لتربية الماشية وزراعة الغلات المدارية كقصب السكر والكاكاو وغيرهما. وكان الاسبان هم الأسياد، وأما الهنود والزنوج فهم العبيد الذين يعملون في الأرض، وعمل الأسبان على ادخال حضارتهم في البلاد الأمريكية التي استولوا عليها بخلاف ما فعله الاستعمار البرتغالي، فقد أدخل الاسبان حضارتهم ولغتهم وثقافتهم وديانتهم الى القارة الجديدة. وكان لذلك أثره الحضارى في تلك الأصقاع، غير أن السكان الأصليين لم يتقبلوا في بادىء الأمر هذه السياسة الاسبانية قبولا حسنا، فقد كانوا متأثرين بموجات الغزو الأولى وما صاحبها من الاعتداء والسلب والتسخير مما جعلهم ينظرون الى الغزاة الأسبان نظرة عدائية. وأخذت البعثات التبشيرية بنشر الكاثوليكية بين الوطنيين تسعى الى حمايتهم من الاعتداء والتسخير، ونجحت في ذلك الى حد بعيد، ومن هنا بدأت معالم الحياة الاسبانية تبدو في تلك المستعمرات الأمريكية، وقامت مدن جديدة بجوار مناطق المناجم والتعدين وازدحمت بالسكان، وكان السكان الأصليون يسخرون في الأعمال ولكن اضطر المستعمرون الى دفع أجور العمال، ثم عندما تطلب التوسع زيادة في الأيدي العاملة أخذ المستعمرون يجلبون العبيد من افريقيا (اذ جلبوا ٢٠ مليون نسمة من الزنوج في مدى ثلاثة قرون (١٥ - ١٨).

كما أدرك المستعمرون أن انتاج المناجم أخذ في التناقص، فاتجهوا الى زراعة الأرض، ولذلك جلبوا الأعداد الغفيرة من الزنوج وسخروهم في زراعة الغلات.

الكشـــوف الانجليزيـــــة :

نلاحظ ان الأهمية التي كان يتمتـع بها البحر المتوسط في العصور الوسطى أخـذت تتنـاقص تدريجيا بعد أن اكتشف الاسبان والبرتغال كشوفاتهم الغربية والشرقية. وأصبحت الأهمية البحرية تتركز على المحيط الأطلسى الذي غدا يزخر بخطوط ملاحية واسعة للتجارة بين أوربا وأمريكا.

لقد شارك الانجليز في حركة الكشوف الجغرافية عندما أرسل الملك هنرى السابع ملك انجلترا الرحالة البحار «**جون كابوت**» الى الهند عن طريق الشمال الغربى، فأبحر هذا من بريستول سنة ١٤٩٧م. وعبر المحيط الأطلسى فوصل الى شاطىء أمريكا الشمالية في ٢٤ يونية سنة ١٤٩٧م عند نيوفاوندلاند، ثم عبر لبرادور وعاد الى انجلترا.

كما أبحر كابوت مرة ثانية سنة ١٤٩٨م في خمس سفن ارتاد الشاطىء الشرقى لأمريكا الشمالية حتى «فلوريدا». وقد أدت هذه الكشوف بانجلترا الى استعمار أمريكا الشمالية ـ الولايات المتحدة في وقتنا الحاضر ـ.

الكشوف الفرنسيـة :

قامت فرنسـا بكشـوفـاتهـا الجغـرافية بشكـل متـأخر عن البرتغال والاسبان والانجليز. واتجهت بكشـوفاتها الى أمريكا الشمالية حيث كشفت اقليم كندا. ويعـود السبق الأول في مضـمار الكشف الجغرافى الفرنسى الى الرحالة البحار « **جاك كارتييه** » الذي عهد له الملك فرنسوا الأول بالقيام برحلات كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسى في اتجاه الغرب نحو العالم الجديد. وقد وصل كارتييه جزيرة نيوفاوندلاند المقابلة لكندا، واستطاع كشف مصب نهر «سانت لورنس» والتوغل داخـل الأراضى الأمريكية، ولقد بلغت رحلات كارتييه في هذه المناطق أربع رحلات كشفية. وبدأت بعد ذلك هجرة الفرنسيين وبخاصة المضطهدين منهم الى أمـريكـا، ففي منتصف القـرن السادس عشر حاول جماعة من الفرنسيين الهوجونت ـ بروتستانت فرنسا ـ من النزول في البرازيل وفلوريدا، ولكنهم وجدوا منافسة شديدة من الاسبان والبرتغال، لأنهم من الكاثوليك.

لقد زادت حركة الكشف الفَرنسى بعد ازدياد الطلب على الفراء التي يحصل

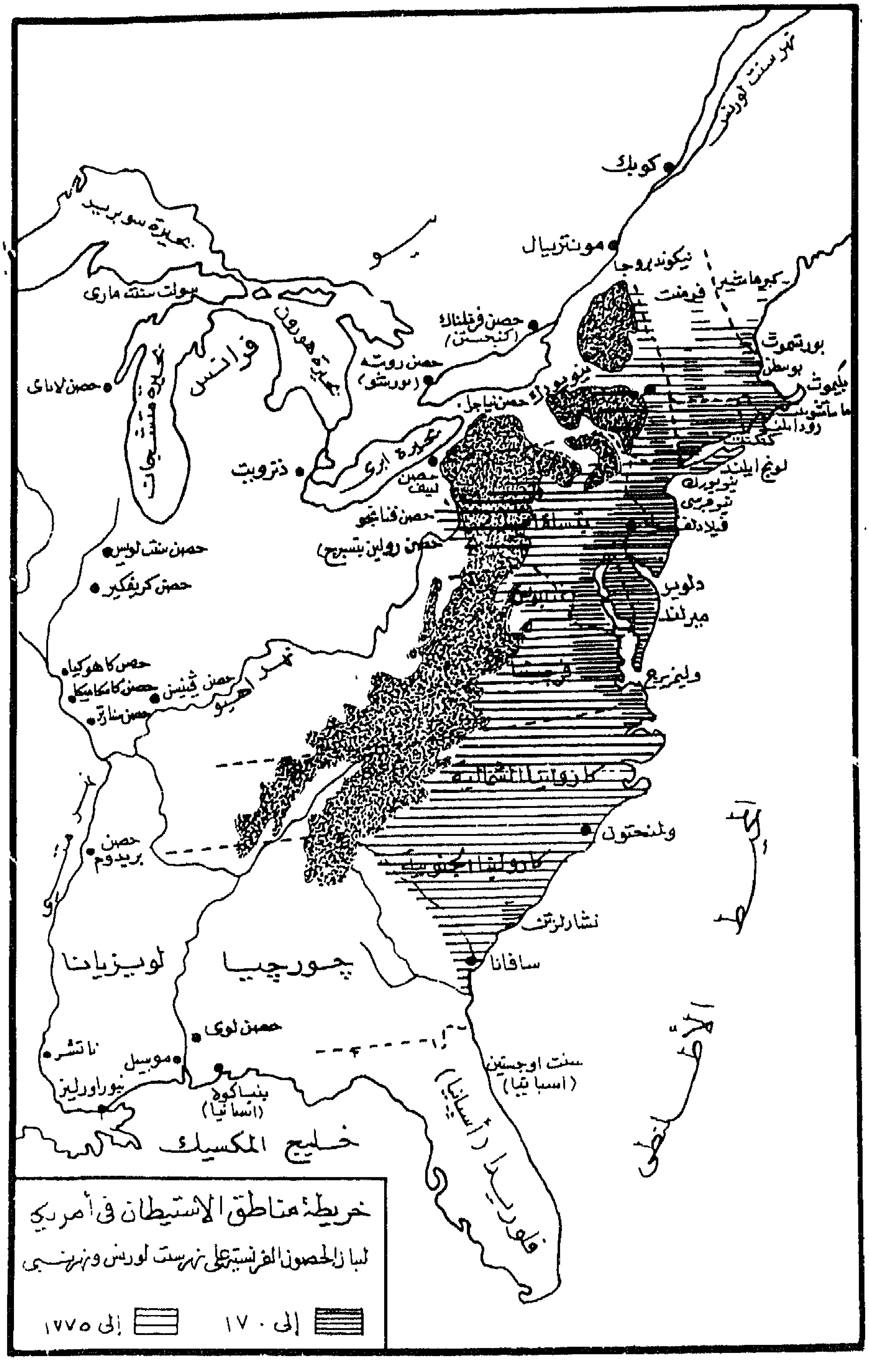
نهر سنت لورنس
كويبك
مونتريال
بحيرة سوبريد
بحيرة هورون
بحيرة متشجان
بحيرة ايري
فرانس
سولت سنت ماري
حصن لاباي
حصن فرنتناك (كنجستن)
حصن روينه (روشستر)
ديترويت
حصن نياجارا
حصن ليبف
حصن فنانجو
حصن دوكين (بتسبرج)
حصن سنت لويس
حصن كريفكير
حصن كاهوكيا
حصن كاسكاسكيا
حصن شارتر
حصن فنسنس
نهر أهايو
حصن بريدوم
نيوهامشير
فيرمنت
نيكوندروجا
بورتسموث
بوسطن
بليموث
ماساشوستس
رود ايلند
كنكتكت
لونج ايلند
نيويورك
نيوجرسي
فيلادلفيا
دلوير
ميرلند
وليمزبرج
فرجينيا
كارولينا الشمالية
كارولينا الجنوبية
ولمنجتون
تشارلزتن
سافانا
چورچيا
لويزيانا
حصن لوي
ناتشز
موبيل
نيواورليز
بنساكولا (اسبانيا)
سنت اوجستين (اسبانيا)
فلوريدا (اسبانيا)
خليج المكسيك
خريطة مناطق الاستيطان فى أمريكا
لبيان الحصون الفرنسية على نهر سنت لورنس ونهر مسيسبي
إلى ١٧٠٠
إلى ١٧٧٥

عليها من الدببة والثعالب والأرانب. ولقد ركز الفرنسيون كشوفاتهم في منطقة نهر «سانت لورانس» حيث توغلوا هناك وأخذوا يكونون مستعمرات فرنسية وشركات تجارية فرنسية. وكانت أول مستعمرة فرنسية في هذه المناطق كان قد أسسها «صموئيل دى شامبلا» سنة ١٦٠٤م وهي أول مستعمرة فرنسية فيكندا. كما أسس الفرنسيون مدينة كويبك على صفاف نهر سانت لورانس سنة ١٦٠٨م.

وفي سنة ١٨٦٢م نجح « **دي لاسال** » في كشف نهر المسيسيبى، ثم خليج المكسيك. ونشأت هناك مستعمرة لويزيانا الفرنسية الى الملك لويس الرابع عشر. وهكذا احتل الفرنسيون كندا وحوض المسيسيبى ومنطقة سانت لورانس. الا أن فرنسا ظلت في هذه المناطق ضعيفة امام النفوذ الانجليزي لأنها استعمرت أراضى واسعة، ولم ترسل لها أيدى فرنسية كثيرة، ولم تستطع وضع جيش قوى في هذه المناطق للمحافظة عليها.

الكشوف الهولندية :

لم تتقاعس هولندا عن المساهمة في حركة الكشوف الجغرافية برغم انشغالها بثورتها ضد الحكم الاسباني. ومع أن حرب الاستقلال ظلت مشتعلة منذ عام ١٥٦٦م حين اندلعت ثورة بسبب سياسة فيليب الثاني المالية والدينية حتى عام ١٦٤٨م عندما اعترفت اسبانيا أخيرا باستقلال هولندا وبلجيكا في معاهدة وستفاليا، فان جميع الدلائل كانت توحى بأن الحرب قد كسبها ثوار الأراضى المنخفضة منذ عام ١٥٩٥م مما أتاح للهولنديين الفرصة لكى يدلو بدلوهم في ميدان الكشوف الجغرافية.

وفي عام ١٦٠٩م كلفت شركة الهند الشرقية الهولندية الملاح الانجليزى « **هنرى هدسون** » باكتشاف ممر شمالى شرقى الى آسيا، الا أنه سرعان ما توصل الى قرار مؤداه أن البحث عن هذا الممر قد لا يؤدى الى شىء فغير اتجاهه وعبر شمال الأطلسى، ووصل هدسون الى خليج نيويورك ونهر هدسون (الذي سمى باسمه). واعتلى هذا النهر حتى موقع البانى. وفي عام ١٦١٦ اكتشف القبطان الهولندى وليم شوتين William Schouten طريق رأس هورن، الذي أصبح منذئذ طريقا ملاحيا مهماً، كما يرجع الى الملاحين الهولنديين (أمثال تاسمان) اكتشاف

الكشوف الجغرافية في أمريكا الشمالية

أستراليا ونيوزلندة في الفترة من ١٦٢٢-١٦٢٤م، غير أن الهولنديين لم يتابعوا **اكتشافات تاسمان**. وعندما أقبل القرن الثامن عشر الميلادى لم يكن شكل قارة أستراليا قد اتضح بعد، كما أن ساحلها الشرقى ظل مهجوراً، ولذلك فان المكتشف الحقيقى لكل من أستراليا ونيوزلندة كان الملاح **الانجليزي جيمس كوك** الذي قام بثلاث رحلات اكتشف فيها سواحل أستراليا الشرقية ونيوزلندة بالاضافة الى العديد من جزر المحيط الهادى.

الاستعمـــار الهولنـدى :

اتخذ الهولنديون من رحلة هدسون أساسا بنوا عليه حقوقهم في امتلاك واستعمار المنطقة الساحلية في أمريكا الشمالية الواقعة بين خط عرض ٤٠° و ٤٥° من خطوط العرض الشمالية. وفضلا عن ذلك فقد أقام الهولنديون في هذا العام مركزا تجاريا هاما في جزيرة مانهاتن ومحطة تجارية بالداخل لجمع الفراء.

وفي عام **١٦٢٢** أسست شركة الهند الغربية الهولندية ومنحت حقوقا تجارية واستعمارية في العالم الجديد، وعلى طول ساحل أفريقيا الغربى جنوبى مدار السرطان. فبسطت نفوذها على اقليم نهر هدسون، وبنت قلعة أمستردام، واشترت جزيرة مانهاتن المشهورة من الهنود بأربعة وعشرين دولارا. ولم يحل عام **١٦٢٢** الا وكانت نيوزلندة أو (هولندة الجديدة) قد أصبحت مستعمرة حقيقية، بيد أن نمو هذه المستعمرة كان بطيئا وظلت عاجزة عن اقامة نظام للحكم الذاتي فيها.

نافس الانجليز الهولنديين واستولوا على مدينة نيو أمستردام، ورفعوا العلم البريطانى عليها، وسموها نيويورك. وبعد تسع سنوات احتل الهولنديون نيويورك وأعادوا اليها اسمها الهولندى. ولكن الانجليز لم يلبثوا أن استردوها بموجب **شروط صلح وستمنستر** Peace of West Minister **عام ١٦٧٤م**، وأصبحت تسمى مرة أخرى بنيويورك التي ظللت انجليزية حتى قيام الثورة الأمريكية.

وكان الهولنديون في أثناء ذلك قد استولوا على المينا El Mina بساحل الذهب وغيرها من محطات الرقيق على ساحل غينيا بغرب افريقيا ووضعوا أيديهم لفترة من الوقت على الممتلكات البرتغالية في «أنجولا» واستولوا عام ١٦٣٤م على كوركو

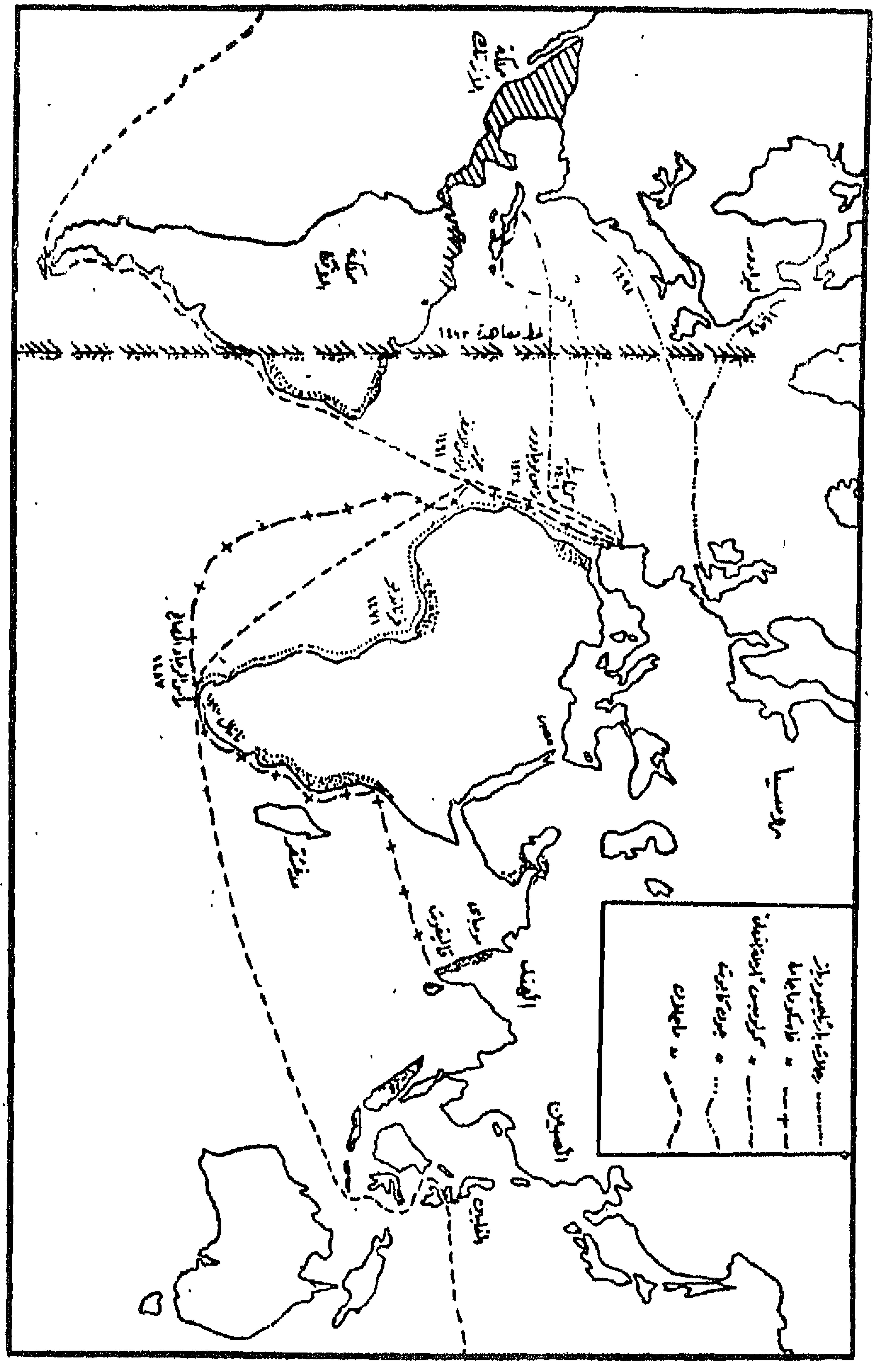

العالم خلال عصر الكشوف الجغرافية

بجزر الهند الغربية وغيرها من الجزر، واتخذوها قواعد لتجارة التهريب مع أمريكا الاسبانية. ونزلوا كذلك في جيانا بأمريكا الجنوبية واحتلوا جزءا كبيرا من البرازيل لمدة ثلاثين سنة (١٦٢٤-١٦٥٤ م).

وفي الشرق، وعلى الطريق المؤدى اليه، احتل الهولنديون جزيرة سنت هيلانة، وأقاموا مستعمرة عند رأس الرجاء الصالح (١٦٥٢م)، واستولوا على جزيرة موريشيس، وامتلكوا معظم جزيرة سيلان، وأقاموا عشر محطات تجارية على ساحل الهند الجنوبى الشرقى، الى جانب محطات لتجارة الحرير في موانى، فارس والخليج العربى، ومحطة لتجارة البن في مخا باليمن.

على أن اهتمام الهولنديين الرئيسى كان موجها الى أرخبيل الملايو، حيث طردوا البرتغاليين وجعلوا من أنفسهم سادة جزر الهند الشرقية أو جزر التوابل، واتخذو من بتافيا في جاوة عاصمة لامبراطوريتهم الشرقية، والى أقصى الشرق أسسوا عام ١٦٤٢ م محطة بحرية على الساحل الشمالى لجزيرة فرموزة، فسيطروا منها على التجارة مع الصين واليابان.

ولم يحل منتصف القرن السابع عشر الميلادى، الا وكان الهولنديون أكبر قوة أوربية في البحار الشرقية.

نتائج حركة الكشف الجغرافى:

لقد نتج عن قيام حركة الكشف الجغرافى هذه أن انتقلت الزعامة التجارية من حوض البحر المتوسط الى المحيط الأطلسى. وأصبحت التجارة بيد دول أوربا الغربية، ودبت حياة جديدة في موانى البرتغال والاسبان التجارية، ونظمت خطوط ملاحية للتجارة عبر المحيط الأطلسى والمحيط الهندى، وقد أطلق على هذه الحركة التجارية الجديدة باسم «الثورة التجارية». وقد تدفقت السلع والبضائع الشرقية الى موانىء أوربا الغربية بكميات كبيرة جدا، كما أغرقت أوربا بمنتوجاتها الصناعية أسواق البلاد المكتشفة، وهذا بدوره أدى الى تقوية بلاد غرب أوربا من الناحيتين الاقتصادية والنسياسية. وقد أخذت تتدفق هجرات أوربية من بلاد غرب أوربا الى البلاد المكتشفة حديثا.

كما أن حركة الكشف الجغرافى الأوربى كانت قد أوجدت جوا من التوتر

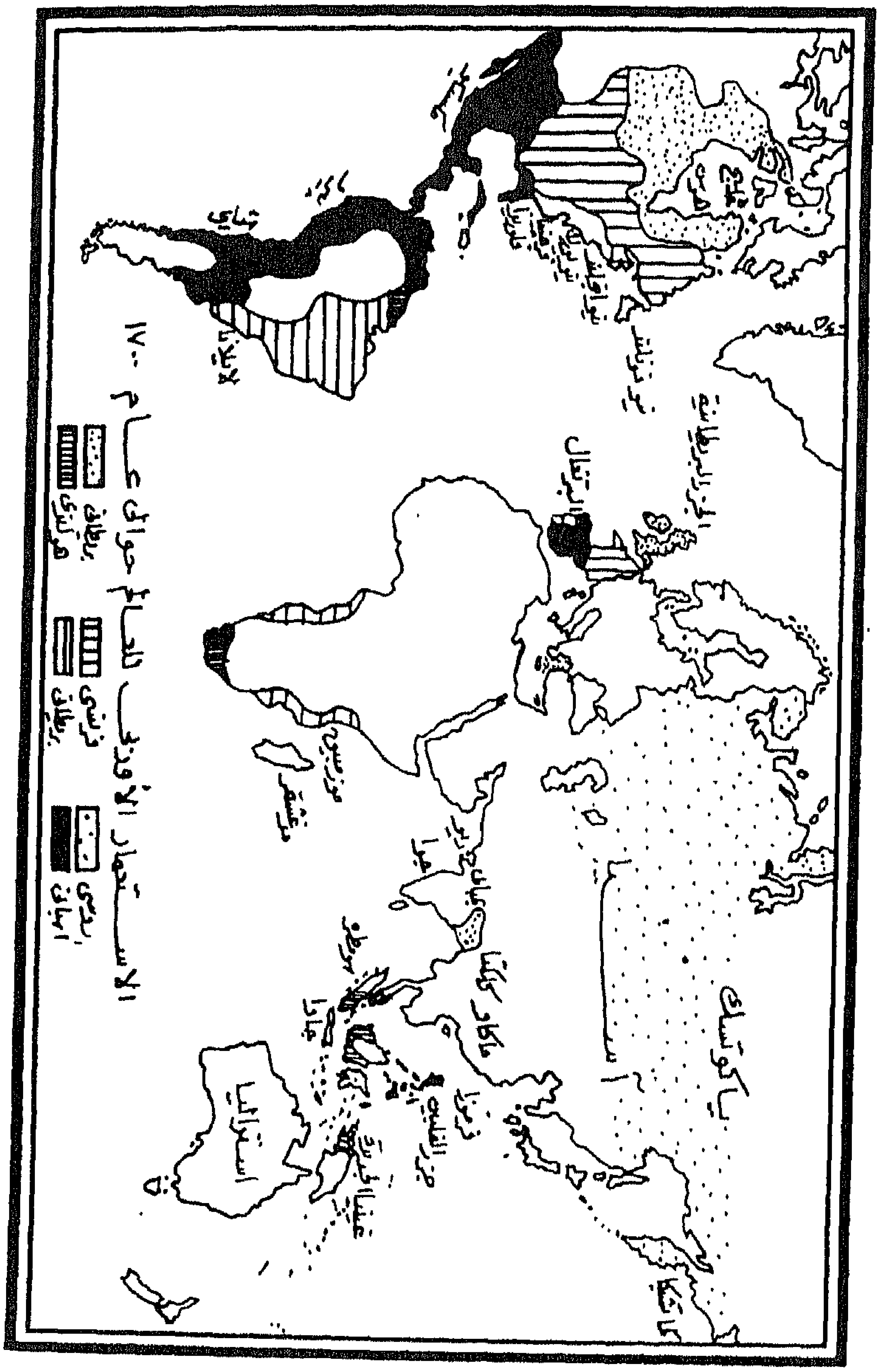
الاستعمار الأوربي للعالم حوالي عام ١٧٠٠ م

والمنافسة بين الدول المكتشفة. وهذا بدوره أدى الى نمو الأطماع الاستعمارية بين الدول الأوربية، وشاعت روح الاستيلاء والسيطرة عند دول أوربا الغربيه من أجل زيادة الأراضى المكتشفة ومن أجل الاستفادة الكاملة من كل مورد من موارد البلاد المكشتفة. وظهرت نظرة استعمارية أوربية للشعوب التي اكتشفوا بلادها، فظهرت التفرقة العنصرية وظهرت حركة تبيح تملك الأوربى للأراضى في البلاد المكتشفة، وأن أبناء هذه البلاد يجب أن يكونوا تحت ارادتها.

وقد حدثت ثورة كبيرة في تغيير المعلومات الجغرافية التي كانت سائدة قبل الكشوف الجغرافية، كما اتسع مجال البحوث التاريخية، فأصبحت تمتد بحيث أخذت تشمل معلومات جديدة عن البلاد المكتشفة، وزادت أوربا في أرسال الارساليات الدينية، وزادت مراكز التبشير بالدين المسيحى في أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية وكندا وبلاد الشرق. كما أن تجارة المعادن من الفضة والذهب قد زادت وراجت في موانىء اسبانيا والبرتغال، وسمى القرن السادس عشر الميلادى في أوربا «بعصر الفضة»، وقد أدى هذا التقدم الاقتصادى الى ارتفاع في الأسعار وارتفاع في مستوى الحياة بين أفراد الطبقة الوسطى في أوربا، وهذا الوضع الاقتصادى أدى الى تقوية مركز هذه الطبقة ضد الاقطاع. كما أن ارتفاع مستوى تكاليف المعيشة في أوربا قد أدى الى تعاسة الطبقة الفقيرة فيها.

هذا ودخلت الى أوربا محاصيل جديدة كالبطاطا والكاكاو والتبغ والكينيا والذرة، وغدت هذه المحاصيل من ضروريات الحياة في أوربا بعد أن كانت تعتبر من الكماليات، وأصبحت عنصرا هاما في القطاع التجارى العام.

هذا وأخذت أوربا تنشر حضارتها الجديدة بعد أن عملت على تقويض الحضارات القديمة التى كانت سائدة في العصور الوسطى في أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية عند القبائل التي كانت تقطن هذه المناطق.

وبهذا يمكن القول ان حركة الكشف الجغرافى الأوربى كانت جزءا من اليقظة العامة التي انتابت أوربا في القرن الرابع والخامس عشر والسادس عشر الميلادية فكانت حركة دينية سياسية علمية تجارية في آن واحد أحدثت انقلابا كبيرا في أحوال أوربا الغربية وأفكارها، وفي أحوال البلاد المكتشفة التى عمتها روح مشبعة بالثأر من الدول المكتشفة التى استأثرت بكل شيء. وقامت حركات ثورية وطنية

عارمة ضد المستعمرين الأوربين بخاصة في مناطق الشرق.

مراجع في دراسة الكشوف الجغرافية الأوربية يمكن الرجوع إليها

أولاً: المراجع العربية:

١- *جون هامرتن:* تاريخ العالم، الجزء السادس، مترجم، من ص ٢٨١ الى ٣١٠، مقال تحت عنوان:

«التوسع الاستعماري ونمو القوة البحري» تأليف أ. ب. نيوتن. الفصل السابع والثلاثون بعد المائة في الجزء السادس من هذا المؤلف.

٢- *عبدالعزيز محمد الشسناوي:* أوربا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م.

٣- *هربرت فيشر:* أصول التاريخ الأوربى الحديث، مترجم، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م.

٤- د. *محمد فؤاد شكرى* و د. *محمد أنيس:* أوربا في العصور الحديثة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٧ م.

٥- د. *نور الدين حاطوم:* تاريخ عصر النهضة الأوربية، دار الفكر الحديث بلبنان ١٣٨٧هـ/١٩٦٨ م.

٦- *جيمس وستفال تومسون وآخرون:* حضارة عصر النهضة، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦١م.

٧- *أحمد عبدالرحيم مصطفى ومحمد أحمد حسونة:* أصول العالم الحديث، مطبعة جريدة الصباح بمصر ١٩٥٨ م.

٨- ك. م. *بانيكار*، آسيا والسيطرة الغربية، دار المعارف بمصر ١٩٦٢، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.

٩- *الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر:* أثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية، المطبعة الثقافية بالقاهرة ١٩٧٠م.

١٠- د. *جلال يحيى* و د. *جاد طه:* معالم التاريخ الأوربى الحديثة، مطبعة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٤.

ثانياً: المراجع الأجنبيـــــة :

1. E. D. Salmon: Imperial Spain.
2. J. Fiske: The Discovery of America.
3. E. J. Payne: History of the New World called America.
4. Ranke: The Ottoman and the Spanish Empires in the 16th and 17th Centuries.
5 D. Ogg. Europe in the 17th Century.

الفصل الثالث

الاصلاحات الدينية الكبرى ونتائجها في أوربا

ملامح الاصلاحات الدينية في أوربا ومقدماتها:

نعرف أن المسيحية تعرضت الى مجموعة أحداث أدت الى ضرورة قيام اصلاحات دينية في أوربا تطالب باعادة المسيحية إلى أصلها، وكان هذا الاجراء يتطلب تغييرات جذرية في الكنيسة ومؤسساتها الدينية والادارية.

فكانت أولى الأحداث التي أضعفت الكنيسة المسيحية وأنقصت من سموها وهيبتها ما حدث من انقسام دينى خطير في المسيحية حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام. فانقسم العالم المسيحى الى جماعة هم: أتباع أريوس وسموا بالأريوسيين، يقولون بأن السيد المسيح بشر ومخلوق وهو مشابه لله فقط، والى جماعة أخرى اتبعت مذهب أثناسيوس وسموا بالاثناسيوسيين، يقولون بأن السيد المسيح يشبه الله ويماثله في كل الصفات، ومن هنا كان ظهور أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين. وكان هذا الانقسام في الفكر الدينى المسيحى قد عرض الكنيسة المسيحية الى خطر كبير في القرن الرابع الميلادى.

ومر معنا كيف تعرضت البابوية في يوم من الأيام الى قيام حركات دينية هرطقية (الحادية) مثل: حركة الألبيجنسية التي تقول بوجود قوتين متنازعتين ومتنافستين هما: قوة الخير وقوة الشر مع نفيها لوجود الله. فظهرت هذه الحركة في مدينة البى في مقاطعة لانجدوك الفرنسية. ويمكن القول إن حركة الألبيجنسية هذه كانت من الأخطار الكبيرة التي هددت الكنيسة الغربية التي صرفت جهدا كبيرا

قبل أن تستطيع القضاء على هذه الحركة وأتباعها بعد أن وظفت البابوية الكثر من أتباعها في محاكم التفتيش ضد أتباع الحركة في جنوبى فرنسا بخاصة وربوع أوربا بعامة.

وكـان من بين الأخطار التي تعرضت اليها البابوية، وبالتالي أدت الى قيام الاصلاحات الدينية الكبرى في أوربا: نمو الشعور الوطنى في بلاد أوربا الذي جعل الانسان يتجه الى وطنه وأمته، فبدا الفرد الأوربى يؤيد الحركات الوطنية التي تطالب بالاصلاح الدينى. وكان من بين الذين يمثلون هذا الاتجاه البروفسور حنـا ويكلف الانجليزى وحنـا هس البـوهيمى فنـادى كلاهمـا برفض تعـاليم الكنيسـة الكاثوليكيـة. وقالا بوجوب الرجوع الى الكتاب المقدس والاحتكام اليه في المسائل الدينية. ورفضا الواسطة الدينية المتمثلة بأعمال رجال الدين وتوسطهم بين الانسـان الأوربى وربـه. ورفضـا كذلك أن يكون لرجال الدين سلطان دينوى، وقالا ان الواجب الأول والأخير لرجال الدين، من البابا الى القسيس هو الانصراف الى الأمور الدينية وترك الأمور الدنيوية والمسائل العلمانية. ومن هنا رفضا استئثار البابوية بالأموال الطائلة التي تأتيها عن طريق الاقطاعيات والأديرة المنتشرة في عامة أوربا وعن طريق الصفقات والتبرعات الدينية والأوقاف . . . الخ. وقـالا بأن زيادة تدفق الأمـوال على البابوية بهذ الحد يؤدي بها إلى الزيادة في الاسراف والبذخ والترف.

وتأسيسا على المعلومات السالفة الذكر فاننا نلاحظ أن حركتى حنا ويكلف وحنـا هس كانتا تهدفان في المقام الأول الى تقليص سلطة البابوية عن طريق مجموعة من الأساليب والوسائل التي أشرنا الى أصولها هنا. وكان الشعور الوطنى في أوربا قد غذى هذه الأفكار وشجعها وكان هذا ضربة قاصمة في فكرة سمو البابوية وشمولها وعالميتها في نطاق العالم الأوربى.

وقامت حركة في أوربا تطالب البابوية باصلاح مفاسدها والرجوع الى بساطة المسيحية ونقـاوتهـا. وتـزعم هذه الحركة حنا روخلن (١٤٥٥-١٥٢٢م) الألماني الأصل والذي استعان باللغة العبرية في تفسير العهد القديم من الكتاب المقدس، فكـان لهذه الكتـابات ضجة كبيرة في أنحاء أوربا بعامة وألمانية بخاصة، هذا ماجعل بعض رجال الدين ينخرطون في حركتة مثل الأب «فون هتن» الألمانى

الأصل والنشأة، والذي كان له دور كبير في حركة الأصلاح الدينى في ألمانيا. وكان روخلن وأتباعه يقولون بضرورة اصلاح الكنيسة الكاثوليكية مما شابها من بدع وخرافات، وبهذا يكون روخلن قد كون كتلة دينية معادية للكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، كما كان هس قد كون كتلة معادية للبابوية في بوهيميا، وحنا ويكلف الذي شكل كتلة معادية للبابوية في انجلترا.

أما أرازمس (١٤٦٧-١٥٣٦م) الهولندى الأصل فقد ساهم كذلك في اثارة الرأى العالم الأوربى ضد البابوية، وذلك عندما ترجم الكتاب المقدس من الاغريقية الى اللاتينية، وعندما نشر العهد الجديد للناس في أوربا باللغات الأوربية المحلية فأحدث بعمله هذا أثرا كبيرا ساعد في تخليص الفكر الانساني الأوربى من سيطرة رجال الدين الكاثوليكى. وأظهر للأوربيين أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية التي اعتمدتها الكنيسة لم تكن هي الوثيقة الأصلية، وأن هذه النسخة تحوى أخطاء حتى في موضوعاتها. ولهذا يكون أرازمس قد ساهم فعليا في الاصلاحات الدينية التي شملت أوربا الغربية بأسلوب سلمى لين لم يلجأ فيه الى العنف والتطرف.

ومع أن كلا من روخلن وأرازمس لم يكونا من الثوار الدينيين القائلين بالخروج عن الكنيسة الكاثوليكية، فانهما بعملهما هذا كانا قد مهدا لقيام انقسام في الكنيسة الكاثوليكية، وكانا قد مهدا لقيام حركة الاصلاح الدينية الكبرى في أوربا، وكانا قد قدما جهدا كبيرا في الاصلاحات الدينية الى جانب ما قدمه هس وويكلف وغيرهما.

والملاحظ أن هناك من الأمور التي حدثت في الكنيسة الكاثوليكية ذاتها كانت قد مهدت لقيام حركة الاصطلاحات الدينية، مثل نقل البابوية من روما الى آفنيون في ولاية بروفنس الفرنسية في عهد البابا كلمنت الخامس في القرن الرابع عشر الميلادى كما مر معنا من قبل. وبهذا الاجراء فان الكنيسة الكاثوليكية كانت قد فقدت الكثير من صفات زعامتها العالمية، وزادت البلبلة والاضطرابات والفوضى في جسم البابوية بعد عودتها ثانية إلى مقرها الأول في روما. بسبب الانقسام الذي حدث في الرأى الأوربى حول هذا الموضوع، ولأن الحركة في ذاتها كنت قد شجعت على ايجاد جانب قوى من رجال الدين ضد البابوية، هذا

الى جانب الخطر الذي نتج عن انتشار وباء الطاعون في أوربا في الوقت نفسه، والذي أفنى الكثير من الأوربيين المسيحيين وأفنى الكثير من الكاثوليك المقيمين في الأديرة المنتشرة في أنحاء البلاد الأوربية، هذا ما ساعد على ضعف البابوية بعد أن تناقصت الجماعة المؤيدة لها في البلاد الأوربية.

وحدث أمر هام في داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها، وهو أن رجال الدين الكاثوليك أنفسهم رأوا ضرورة القيام باصلاحات دينية في الكنيسة إلكاثوليكية تتناسب مع الأوضاع الحاضرة، وعقدوا من أجل هذا الغرض الكثير من المجالس الدينية لكنهم فشلوا في مسعاهم هذا في نهاية الامر، لأنهم كانوا يصدرون قرارات فوق قرارات البابا من أجل أن تحد من سلطته الواسعة وتمنع عنه بعض الأموال التي تتدفق على الكنيسة، الا أن البابوية تغلبت على هذه الاجراءات عندما تولى كرسى البابوية البابا نقولا الخامس سنة ١٤٤٧م، وكان لهذا الانتصار البابوى نتيجتان هما: فشل المجالس الدينية في اصلاح عيوب الكنيسة أولا وضعفت سيطرة الكنيسة الروحية حتى أفقدها هذا الضعف زعامتها الدينية في أنحاء أوربا الغربية ثانيا.

ويمكن القول ان أوربا في أواخر العصور الوسطى كانت تحس باضطراب فكرى وقلق روحى عظيم سببه أن الكنيسة الكاثوليكية خضعت لسلطة بعض البابوات الذين انغمسوا في الترف والبذخ واستخدموا الواسطة والمصلحة في اشغال الوظائف الدينية الكبرى ويمثل هؤلاء البابوات البابا اسكندر السادس ويوليوس الثاني اللذان يعتبران بحق أنهما مسئولان عن معظم الأضرار التى لحقت بمركز البابوية قبيل قيام حركة الاصلاح الدينى الكبرى في أوربا.

وهكذا فان التطرف في السلوك الانساني في أوربا بعد تحطيم قيود وأغلال العصر الوسيط فيها، وماجره هذا التطرف في السلوك الانساني من هبوط وانحطاط عام في المستوى الخلقى وانصراف البابوية عن الشئون الدينية واهتمامها بالشئون الدنيوية وظهور بعض البابوات بمظهر الأمراء العلمانيين يجمعون الثروة ويعملون في تقوية الولايات البابوية والعمل على جمع الأموال الطائلة عن طريق بيع صكوك الغفران، وتبذير هذه الأموال في اقامة المبانى والقصور والكنائس والكاتدرائيات والاسراف في زخرفتها، كل هذا أثار غضب الناس في أوربا ضد البابوية، وجعله

يعملون على فقدها بشكل علنى، وبهذا فقدت البابوية صفتها العالمية التى كانت تتحلى بها في القديم، وهكذا أصبحت في أوربا أرض صالحة لقيام حركة دينية تتخذ طابع الثورة الدينية بدلا من طابع الانتقاد السلمى تمثلت هذه في قيام حركة مارتن لوثر في سكسونيا وكلفن في فرنسا وسويسرا وزونجلى في سويسرا.

ثورة مارتن لوثر

ولد مارتن هانس لوثر في بلدته ابشلبن في سكسونيا بألمانيا في ١٤٨٣/١/١٠م وتوفى سنة ١٥٤٦م، وكان لوثر من أبوين فقيرين كان يعمل في أحد المناجم. ويبدو أن فقر أسرة لوثر أثر الى حد كبير على نشأته. فنشأ لوثر في ظل حياة صعبة وقاسية. تعلم مارتن لوثـر في مانسفيلد وفي ماجد برج أصول اللغة والترتيل الدينى. وأتم دراسته اللاتينية في بلدة ابشلبن. وبعد أن تعلم اللغة اللاتينية والأصول الدينية الكاثوليكية اتجه لدراسة الحقوق في جامعة أرفورت سنة ١٥٠١م تلبية لرغبة والده هانس الذي كان يحلم في أن يرى ابنه رجل قانون، لأن الحقوق آنذاك كانت من الموضوعات اللامعة والمؤثرة في الحياة الاجتماعية.

كان لوثر معقدا نفسيا. وكان خياله ملتهبا. وظل ضميره يؤنبه فتشكلت عنده عقدة بالذنب. فقرر أن يترك دراسة القانون ويتجه الى الدراسات الدينية. فدخل في أحد أديرة القديس أوغسطين في ارفورت سن ١٥٠٥م آملا في تخليص نفسه وتطهيرها من الذنوب والخطايا ليتوب، هذا هو السبيل الوحيد للوصول الى رحمة الله. عهد لمارتن لوثر تدريس مادة الفلسفة في جامعة فتامبرج سنة ١٥٠٨م، بعد أن ك ان قد درس المسائل الدينية، واللاهوت، وفي سنة ١٥١٠م زار روما لمدة شهر واطلع بنفسه على أخطاء ومساوىء الكنيسة الكاثوليكية. ركز مارتن لوثر في زيارته على الأخطاء التى عبرت عنها بهارج الأحبار وترفهم والمظاهر العصرية والسياسية والعسكرية التي طبعت بها حياة رجال الدين في أوربا. لذا فان لوثر لم يغضب لما وجده من فن دينى يخدم الدين ولا من تعاليم الكاثوليكية هناك، بل الذي جلب انتباهه انحراف رجال الدين عن بساطة المسيحية ونقاوتها الأولى. ومن هنا كان انطباعه عن البابوية انطباعا سيئا أثر في نفسيته ودفعه بالتالي الى النقد، ثم الثورة الدينية على البابوية بعد أن تشبثت بمواقفها.

ظل لوثر مضطربا وقلقا الى أن توصل الى وثيقة عقيدة التبرير بالايمان «وهي

الرسالة الدينية التى أرسلها الرسول بولس الى أهل مدينة روما، توصل لوثر الى أن «البار بالايمان يحيا» فاطمأن لوثر وأخذ يبنى مذهبه الجديد على قاعدة «عقيدة التبرير بالايمان»(١) فقال: ان السلام بالايمان وحده وان العمل الصحيح هو العمل الذي يستند على الكتاب المقدس لا على الأعمال التى يطلبها رجال الدين في روما من أتباعهم المسيحيين في أوربا»(٢). ومن هنا أصبحت هذه الأفكار هى فلسفة البروتستانت أصحاب المذاهب الاصلاحية بعد أن تبنوا على عاتقهم ضرورة اصلاح لسوء فهم وادراك بعض البابوات ورجال الدين من ذوى المناصب الدينية الكبرى.

وعندما جاء حنا تتزل الى سكسونيا سنة ١٥١٧ م من أجل بيع صكوك الغفران.(٣)، رأي عندها لوثر أن الفرصة مواتية للكشف عن خبايا نفسه ونواياه الاصلاحية، والجدير بالذكر أن صكوك الغفران كانت في الأساس تقوم على ندم الفرد وتوبته والتكفير عن ذنبه اما بالصلاة أو بالزكاة أو الصوم، لكن بعض البابوات قالوا يمكن أن يتم التكفير عن الخطيئة بأن يحج الخاطىء الى روما أو أن يشارك في حرب صليبية ضد المسلمين.

أما البابا ليو العاشر فقد اكتفى بالتكفير عن ذنب الخاطىء بأن يحج الى روما ويزور الرسل هناك. ثم تطور هذا المفهوم تدريجيا عندما قال بعض البابوات بأن التكفير يمكن أن يتم عن طريق دفع أموال الى الكنيسة لتنفقها على الأمور الدينية، ويمكن ارسال هذه الأموال الى روما مباشرة أو عن طريق دفعها الى مصارف في المدن الأوربية والمصارف بدورها تحولها الى البابا في روما مقابل أن

---

(١) يقول لوثر: الايمان هو المبدأ الوحيد الذي تستخدمه نعمة الله لارجاعنا الى فضل محبته، ارجع الى مقال «لوثر والاصلاح الديني» بقلم د. هـ موراى، كتاب تاريخ العالم، هامرتن المجلد السادس، ص ٦٨.

(٢) كان لوثر لايؤمن بوساطة القسيس أو البابا، فهو يشعر بانه خادم الله مباشرة. وهذا الفكر الذي اقتنع به لوثر أدى به إلى انفصاله عن البابوية في روما، ارجع إلى: مقال «لوثر والاصلاح الدينى» المذكور آنفا ص ٦٨.

(٣) كان تتزل يقول وهو يجمع النقود.. وعندما يرن صوت النقود في الخزانة تقفز النفس من بين لهب نيران المطهر، انظر المقال السابق، ص ٧٢.

يمنح الفرد الخاطىء صكاً دعى بصك الغفران.

ونلاحظ هنا أن العملية تحولت من كونها مسألة دينية فيها صدق التائب عن الذنب بعد أن يقوم بالصلاة والزكاة والصوم واعلان شعوره عن الندم، الى أن أصبحت المسألة عبارة عن قضية تجارية الغاية منها جمع الأموال من المسيحين عن طريق رجال الدين والمصارف.

ونـلاحظ كذلك أنه ترتب على هذه العملية نتائج خلقية، لأنه لامانع أن يرتكب الفرد الأوربى الخطأ ويكفر عنه بدفع الأموال، وبعدها يدخل الجنة مقابل وصول الأموال الى الكنيسة. وهذا التصريح البابوى يجعل الفرد المسيحي لايتورع أن يقوم بذنوب كثيرة وأخطاء دينية كثيرة مادام بامكانه محوها عن طريق شراء صكوك الغفران.

وقضية صكوك الغفران استنتدت على تأويل بابوى لها وهو أن للمسيح عليه السلام بركات واسعة في الغفران، تلك البركات تحولت الى البابا خليفة المسيح، والبابا بدوره يقوم بمهمة المسيح في الغفران.

لقـد استنكـر مارتن لوثـر عملية بيع صكوك الغفران هذه وقال ان النجاة والعقاب والقصاص لا تأتى عن طريق شراء صكوك الغفران، وانما تأتى عن طريق الايمان بالله. فاستغـل لوثـر تجمـع الناس في كنيسة وتنبرج نوفمبر سنة ١٥١٧م فقـام بتعليق احتجـاج على مسـاوىء الكنيسـة الكاثوليكية وكان هذا الاحتجاج مؤلفا من ٩٥ حجة ضد صكوك الغفران. ولم يقتصر هجوم لوثر على صكوك الغفران بل تعداه الى الغفران نفسه. وقال ان الغفران مربوط بالايمان برحمة الله. ووجه لوثر الدعوة لكل من أراد المناقشة في هذه الآراء الدينية وفي حججه التي علقها على باب كنيسة وتنبرج. وفي مناقشة له مع يوحنا تتنزل وجون ايك[٤] المؤيدان لكنيسة روما قال لوثر ان الكتاب المقدس وحده هو القانون الذي يجب الاعتماد عليه في تفسير العقائد، وفي المسائل المختلف عليها، وأنكر أن

(٤) كان جون ايك من أشد أعداء مارن لوثر. فقد رمى لوثر بالهرطقة واعتبره عدوا للمسيح وكان جون ايك (١٤٨٦-١٥٤٣م) أستـاذا بجامعة انجو لشتات بألمانيا (أنظر مقال لوثر والاصلاح الديني) بقلم موراى، تاريخ العالم، المجلد السادس ص ٧٤.

المجالس الدينية منزهة عن الخطأ. وصرح بأنه يجب على النبلاء والفرسان أن يتزعموا الاصلاح الدينى الذي يطالب به، وقال انه ليس للبابا وحده حق تفسير الانجيل، بل طالب أن يكون كذلك من حق العلمانيين، وطالب لوثر البابا بأن يأمر بانقاص عدد الأديرة المنتشرة في ربوع أوربا، وقال كذلك لاضرورة للحج الى روما، ويجب السماح للقسس بالزواج.

كان موقف البابوية من أفكار لوثر موقفا عنيفا وحادا بين أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان ضد لوثر في ديسمبر سنة ١٥٢٠م الا أن لوثر رد على هذا الاجراء بأن أحرق هذا القرار في ساحة وتنبرج ونشر رسالته المشهورة عن الأسر البابلى للكنيسة مبينا ضعفها ومفاسدها. وهكذا انفصل لوثر انفصالا كاملا عن كنيسة روما الكاثوليكية، وأخذ يتزعم جماعة مؤيدة لأفكاره في سكسونيا وخارجها.

كان لؤثر يؤمن بأن الطبيعة البشرية فاسدة وذلك نتيجة لخطيئة آدم. وكان يؤمن كذلك أن الانسان هو عبد للخطيئة، وقد أعلن هذه الأفكار في كتاب بعنوان «عن موضوع الادارة» كان لوثر يؤمن بأن الخلاص من الخطيئة والذنب لايتأتى الا عن طريق الايمان. كان لوثر لايؤمن بالقداس عندما تعلق عليه قيمة كفارية، لأن هذا يصبح عمل الانسان لله. بل قال ان الكنيسة وحدها تمتلك القداس، وهي تقدر أن تقدم جسد المسيح ودمه. كان لوثر يقول بأن هناك جانبين هما: الجانب الموضوعي والجانب الذاتي. فالجانب الموضوعي عندما يقوم القسيس بحل الخاطىء من خطيئته. والجانب الذاتي هو: هل الخاطىء الذي حله القسيس من خطيئته يشعر بالندم على خطيئته حقا. كان لوثر يؤيد الجانب الذاتى وقد رأى ان المسيح كان الوسيط بين الله والانسان، واليوم حل محله القسيس، ومن هنا فان القداس هو العقبة الحقيقية في طريق الديانة المسيحية الحقيقية، لأنه وحده تركزت فيه كل الأهمية، فاذا ألغى القداس ألغيت الوساطة ما عدا وساطة المسيح، وعندها فان الله هو وحده صاحب السلام والصفح. كان لوثر يؤمن تماما بأن الله هو المسيطر على ارادة البشر وما البشر الا أداة مطيعة لتنفيذ قضاء الله، ومن هنا كانت نظرية القضاء والقدر الذي آمن بها لوثر ومؤيدوه.

ويرى لوثر أن الايمان هو الثقة الشخصية في المسيح وفي الخلاص الذي يقدمه للانسان، وقال ان القسيس اغتصب مكان المؤمنين ويجب عكس هذه العملية.

لذا فان مركز البابوية والمناصب الدينية الكبرى لا تتطلب بالضرورة كهنة، بل ان العلمانيين يقومون بدورهم هذا. لذا ركز لوثر على السلطة العلمانية.

ومن هنا فان حركة مارتن لوثر كانت حركة سياسية بقدر ما هي حركة دينية دعت الى المساواة بين المسيحيين والغاء الامتيازات التي يتمتع بها الكهنة على غيرهم من أبناء الدين الواحد. وهكذا نلاحظ أن لوثر يعهد بالأمور الدينية الى رجال عاديين ليسوا كهنة ونلاحظ كذلك أن لوثر كان يرى في الغاء امتيازات رجال الدين سبيلا سليما لانخراطهم في المجتمع الذي يعيشون فيه، لأن هذه الامتيازات حالت بينهم وبين مجتمعاتهم التي ينتمون اليها.

كانت الصدمة شديدة وقوية عندما أخذ الناس في ألمانيا يقرأون في الكتاب المقدس المترجم إلى الألمانية والذي ترجمه لوثر ، ان القديس بطرس أخطأ وأن ما ناله كان بسبب هذا الخطأ . ومن هنا أخذ الناس يتشككون في عصمة بطرس وخلفائه، كما أن القارىء بدأ يكتشف أن ليس هناك من سند يثبت عبادة مريم العذراء أو القديسين أو ضرورة عدم زواج القسس أو صحة صكوك الغفران أو تقديس مخلفات الماضين من الأتقياء. وأخذ الفرد الألماني يحس بالفارق الواسع بين بساطة المسيح وتلاميذه في المظهر والمأكل والمسكن، وبين البذخ والترف والقصور التي يزهوا بها رجال الدين في روما وخارجها.

ساعدت مؤلفات لوثر حركته، فألف مقالا عنوانه الى طبقة الأشراف المسيحيين في الأمة الألمانية بشأن تحسين أحوال المسيحية. ومقال آخر عنوانه، مقدمة عن السبى، ومقال السبي البابلي للكنيسة، ومقال آخر عنوانه «الحرية الواجبة للمسيحى» كما أن الطباعة ساهمت في نشر هذه الأفكار عندما طبعت هذه المقالات على ورق كبير الحجم ووزعت في مدن وقرى البلاد الألمانية. وقد ندد لوثر في هذه المقالات بالضرائب البابوية الباهظة على الشعب المسيحى. وحمل لوثر كذلك على المصالح الاقتصادية البابوية. حتى أن مكسمليان الامبراطور الالماني اعترف بأن دخل البابا من ألمانيا كان يساوى مائة مرة من دخله منها، كل هذه الأموال كانت تأتى من الأديرة والاقطاعيات الزراعية الشاسعة والضرائب والهدايا والصدقات والأوقاف . . . الخ.

«كان لكل شىء في المقر البابوى ثمنه المعلوم: سواء كان ذلك أبروشيات محلية

أو ألقابا دينية، أو كاردياليات، بل ان البابوية نفسها انتقلت من يد الى أخرى عن طريق المال. وعندما أبطل بيع هذه وتلك أصبح من الممكن بيع الغفران من الذنوب، وكانت هناك في الواقع تسعيرة معروفة لمسح كل خطيئة. فكان ثمن تسعيرة الغفران من خطيئة الزنـا ١٥٠ دوقات، وثمن الغفران من خطيئة قتل ابنتين ٨٠٠ دوقى وهكذا».

قال أحد الموظفين الكبار في بلاط البابا أنوسنت الثامن الذي اشترى خطيئته بالمال «ان الله لايريد موت الخاطىء، بل أن يحيا وأن يدفع ثمن خطيئته».

وكان تاج البابا نقولا الخامس فيه ماس ولآلىء متألقة في ثنايا التاج المصنوع على شكل اكليل الشكوك الذي وضع على رأس المخلص.

وجه لوثر نظره الى مصلحة الشعب الألماني، وهو واثق من أن أحياء الشعور الوطنى الألماني سيساعده في ثورته ضد البابوية المقيمة في روما. شرح لوثر أفكاره الرامية الى الاصلاح الديني الى أمراء بلاده، وطالبهم بتبنى هذا الاصلاح ليزول الفرق بين الرجل العلماني ورجل الدين في ألمانيا، فالجميع من مواطنى الدولة والجميع يخضع لقانونها عندها يصبح نفوذ البابا في ألمانيا في حكم المعدوم. وكان هذا الميل اللوثرى تجاه الجانب العلماني تخلصا من قبضة البابوية قد شجع الأمراء على تأييده ولو بشكل غير علنى.

ونلاحظ هنا أن لوثر بعمله هذا يكون قد ركز على الشعور الوطنى والقومى، وهذا بدوره كان أساسا من أساسات ظهور اللغات الحديثة المبنية على الشعور الـوطنى القومى، ثم ظهور الدول الأوربية الحديثة المبنية كذلك على الشعور نفسه، ومن هنا فان عقل لوثر كان ينطوى في أفكاره على أساس التصور السياسى للدولـة الحديثة في أوربا. وان مثل هذه الأفكار أثرت فيها بعد على أصحاب المدارس السياسية والنظريات الدائرة حول مفهوم الدولة الحديثة في أوربا وواجباتها تجاه المجتمع الذي يخضع لقانونها.

كما أن لوثر ركز على حرية الفرد المسيحى، فأبرز الفرد وأعطاه من السلطة ماتجعله يحس بحـريته، وهكذا فان لوثر يرى أن الفرد هو نواة المجتمع يجب الاهتمام به وبحريته ليصلح بذلك المجتمع الذي يعيش فيه مادام الفرد فيه قد

صلح وهـذا يخالف تمامـا أفكـار ومبادىء نظام الاقطاع والكنيسة في العصور الوسطى.

وركز لوثر على العمل في الحياة اليومية. وقال ان راحة القديسين هي في الحياة الآخرة، أما في الحياة الدنيا فعلى الانسان أن يعمل ويكافح لأن العمل خدمة مقدسة واجبة على كل فرد يستطيع أن يؤدى عملا ما. وصادف هذا الفكر عهد نهاية نظام الاقطاع وظهور عهد الرأسمالية الأوربية، فأدى هذا الفكر الى ثورة عارمـة، وبهذا يكون قد عرى لوثر قداسة الكهنة لأن الانسان لم يخلق لعمل بعينة، لذا لم يعد للكهنة طابع وظيفى مميز عن غيرهم وبالتالي نزول امتيازاتهم الطبقية.

موقف البابا والامبراطور من مارتن لوثر:

أو عز البـابا للامبراطور شارل الخامس بمعاقبة مارتن لوثر على فعلته التي اعتبرها البابا خروجا عن الدين، واعتبر مارتن لوثر هرطقيا ملحدا وجب ضده صك الحرمان.

طلب الامبراطور من لوثر حضور مجلس دينى يعقد لدراسة أفكاره الا أن لوثر ظل مصرا على أفكاره ومصرا كذلك على ضرورة الاصلاح الدينى، وكان هذا الموقف كفيلا باصدار صك الحرمان ضده، وقد صدر ذلك في قرار ورمس عام ١٥٢١م، فاعتبر لوثر طريدا وخارجا عن القانون ودمه مهدود.. الخ.

طلب لوثـر من حاكم منطقة «فردريك» مساعدته، فحماه فردريك بعد أن أخفاه عن الأعين مدة سنة كاملة في دير عكف فيه على ترجمة الأسفار المقدسة الى الألمانية(٥)، وهذا يفسر لنا الاتجاه الوطنى والقومىّ في حركة مارتن لوثر، وبهذا العمل أصبح الانجيل المتزاحم في متناول يد الجميع بخاصة بعد أن طبعات عدة

(٥) كانت ترجمة لوثر للأسفار المقدسة ترجمة عادية شعبية كان معظمها بقلمه دون أن يدخل فيها ماجاء في ترجمات سابقة لترجمته وان كانت بلغات غير ألمانيـة فجاءت الترجمة بعيدة عن جزالة اللغة، ومع هذه فقد أدت الغرض المطلوب منها وهو تنوير الرأى العام الألمانى وتبصيره بأخطاء البابوية وهذا في حدا ذاته يعتبر من أكبر مكاسب حركة لوثر، لان ترجمة الانجيل الى الألمانية كان من أعظم عوامل نجاح ثورة مارتن لوثر ضد البابوية.

بالمطبعة كانت أولها عام ١٥٢٢م. وفي مدينة ويتنبرج وحدها طبع كتاب «العهد الجديد» ست عشرة طبعة قبل عام ١٥٥٧م على حين كان هناك أكثر من خمسين طبعة في سائر ألمانيا، ومن سنة ١٥٣٤م حتى ١٥٨٤م بلغ عدد النسخ الكاملة من الكتاب المقدس التي خرجت من المطبعة في ويتنبرج مالا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ نسخة. لذلك لانعدو الحقيقة اذا قلنا ان الكتاب المقدس غمر ألمانيا تماما. وكان كل قارىء للكتاب المقدس قبل ترجمة لوثر هذه يقابله خمسون قارئا بعد الترجمة. وبعد أن كانت الكتب تنشر في صفحات طويلة ثقيلة تشد بالسلاسل الى الرفوف بالمكتبة، أصبحت صغيرة خفيفة الحمل تنقل في يسر من بيت الى بيت..(٦)

استغل لوثر هذه الفرصة ومزج كل الاشياء المعاونة لحركته في قالب واحد. مزج البواعث الدينية بالدوافع السياسية وسخرها لنجاح حركته، استغل كل الظروف المواتية، استمال بأفكاره الفلاح والعامل والاقطاعى والأمير، وحتى رجل الدين، وبهذا الجهد المضنى استطاع لوثر أن يقف على رجليه أمام كل التحديات التى قابلها من البابوية والامبراطورية.

كانت أفكار الناس في ألمانيا في نهاية العصور الوسطى، وفي عصر ثورة لوثر مضطربة، وهذا الاضطراب تمثل في غضب الطبقة الوسطى التي فقدت مركزها الاجتماعي بعد ضعف مركزها الاقتصادي، وتمثل هذا الاضطراب في غضب طبقة الفرسان الذين فقدوا أهميتهم القديمة بعد ضياع الأنظمة الاقطاعية في نهاية العصر الوسيط الأوربى، وتمثل هذا الاضطراب كذلك في غضب الأمراء الذين لم يصبحوا في وضع يجعلهم يطمئنون على سلامة اماراتهم، وعندما وجدوا أن أغلب موارد الأرض بيد الكنيسة الكاثوليكية، وقد حرموا هم منها، وتمثل كذلك بتذمر طبقة الفحجين الألمان الذين وقع عليهم العبء المالى المفروض عليهم من الأمراء والفرسان والطبقة الوسطى لسد احتياجاتهم من الأموال. وهكذا فان ثورة مارتن لوثر لاقت مساندة الأمراء والفرسان والطبقة الوسطى والفلاحين في بداية ظهورها، وهذا كذلك يفسر لنا مدى العنف الذي اتصفت به ثورة مارتن لوثر. فقد ظهرت حركات ثورية متطرفة ارتبطت بالثورة اللوثرية، مثل ثورة البروتستانت

(٦) انظر مقال «لوثر والاصلاح الدينى» ص ٧٣.

المتطرفين في سكسونيا سنة ١٥٢١م الذين يطالبون باعادة التعميد «وقالوا بأن تعميد الأطفال لايتفق مع تعاليم الانجيل وكادت هذه الحركة أن تخرج الثورة اللوثرية عن غايتها لو لا أن لوثر تنبه للأمر فخرج من مخفئه وخطب في هذه الفئة وساعده صديقه ملانكتون في هذا الأمر، مسا أعاد الأمور الى نصابها من جديد. قامت حركة الفرسان ضد الأمراء للتخلص من نفوذهم، وضد أملاك الكنيسة للسيطرة على أراضيها مستغلين ثورة لوثر، الا أن لوثر لم يؤيدهم، بل تخلى عنهم لشدتهم وعنفهم. ووقفت ضدهم كذلك طبقة الفلاحين الحاقدة عليهم، مما أدى الى هزيمتهم أمام أعدائهم، وبالتالي ضياع سلطتهم كطبقة كانت من أهم ركائز العصور الوسطى. وقامت كذلك ثورة عنيفة من الفلاحين ضد الفرسان والنبلاء والطبقة الوسطى والكنيسة. وأصبحت ثورتهم ضد كل سلطة قائمة. ومع أنهم دخلوا اللوثرية بجماعات كبيرة وبحماس شديد نتيجة لكثرة الضغط وشدة التذمر الذي عانوه من الطبقات المذكورة، الا أن لوثر تخلى عنهم لأن مطالبتهم كانت اقتصادية مادية اجتماعية، وفي نظره أن هذه المبادىء لا تمت لثورته الدينية بصلة، واستطاع لوثر بحماسه وخطبه أن يوجه الأمراء والفرسان ضد الفلاحين حتى استطاع القضاء على ثورتهم.

وعندما أحس الامبراطور شارل الخامس(٧) بأن انقساما دينيا سيحدث في الامبراطورية الرومانية المقدسة بعامة، وفي الولايات الألمانية بخاصة عندها دعا لعقد مجلس امبراطورى في بلدة سبير في بافاريا في يونيو سنة ١٥٢٦م وذلك لبحث المسألة الدينية وللنظر في موضوع تنفيذ قرار صك الحرمان. وقد ترأس هذا المجلس الملك فردينانـد ملك النمسا ـ وهو أخ الامبراطور ـ وصدر عن هذا المجلس قراران هما: وجوب عقد مجلس أو جمعية وطنية في وقت قريب لايجاد حل للازمة الدينية المتسببة عن ظهور الحركة اللوثرية. والقرار الثاني قال بأنه يحق لكل أمير أن يسلك مايراه بالنسبة لتنفيذ قرار ورمس بشكل يكون فيه مسئولا

(٧) كان شارل الخامس قد توج حديثا على الحكم، فكان عمره آنذاك لايتجاوز الحادية والعشرين من عمره وكان شارل الخامس في موقف حرج، اما أن يؤيد لوثر ويعادى البابوية، واما أن يسحق ثورة لوثر على أساس أنه من أسرة الهابسبورج الكاثوليكية وملك اسبانيا الكاثوليكية وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة المدعومة من قبل البابوية، لذا كان عليه أن يقف في صف البابوية ضد لوثر.

أمام الله والامبراطور. ونلاحظ من هذا القرار أن البروتستانت قد حصلوا على مركز قانونى. اذ أصبح لكل حاكم الحق في أن يتصرف بها يراه مناسبا في المسائل الدينية في مقاطعته، وله الحق في اختيار ما يريده من المذاهب والمعتقدات المسيحية. ومن هنا قامت المقاطعات اللوثرية بتفسير هذا القرار في مقاطعتها بشكل يتناسب مع ما تريده وهذا قوى مركز اللوثرية في المقاطعات الألمانية.

ولما تفاقم أمر الخلافات الدينية الامبراطورية دعا الامبراطور شارل الخامس الى عقد مجلس امبراطورى ثانٍ في بلدة سبير في مارس **١٥٢٩م** دياط سبير الثاني. ولقد ترأس الامبراطور هذا المجلس، وأعلن بمنتهى الصراحة أنه يجب عقد الجمعية الوطنية لدراسة المسألة الدينية من أجل تجنب أخطار الانقسام الدينى في الامبراطورية، والملاحظ هنا أن الامبراطور كان يرى ضرورة الحد من سلطة البابا كلمنت السابع الذي أصدر **قرار حلف كونياك** في **٢٢** مايو **١٥٢٦م**، والذي ينص على اخراج الامبراطور شارل الخامس من ايطاليا(٨). كما أنه كان لايرى اغضاب اللوثرية لأنه كان مشغولا في اعداد الخطط لمنع العثمانيين من التوغل في جسم الامبراطورية عدما وصلوا الى المجر. ومهما يكن فان المجلس الامبراطورى الأول المعقود في سبير سنة **١٥٢٩م** كان قد ألغى ماجاء من قرارات في المجلس الامبراطورى الأول المعقود في سبير سنة **١٥٢٦م** وأوصى المجلس بضرورة تنفيذ قرار ورمس، وأعلن المجلس كذلك أنه لن يسمح باتخاذ أي خطوة تعتمد على القوة والعنف لحمل الفرد في الامبراطورية على اعتناق أي مذهب مسيحى يريده. وأعلن المجلس كذلك أنه ليس من حق حاكم المقاطعة أن يختار المذهب الدينى الذي يريده. ومن هنا نرى مدى التخبط الذي سارت عليه قرارات المجلس الامبراطورى. ونلاحظ كذلك ان المجلس الامبراطورى الثانى أعلن بوجوب اقامة القداس على المذهب الكاثوليكى في المقاطعات اللوثرية، ولم يشر الى ضرورة أقامة القداس على المذهب اللوثرى فى المقاطعات الكاثوليكية، وهكذا فان قرارات المجلس الثاني كانت خيبة أمل للوثرية التى أعلنت أنها تحتج وتعتبر أن قرارات المجلس الامبراطورى الثانى لاغية ولا تلتزم العمل بها، وكان

(٨) ان هذا الاجراء يدل على مدى الخلافات العميقه بين السلطتين العلمانية والمدنية في أوربا. وقد حدث هذا القرار بعد أن كانت جيوش الامبراطور قد وصلت روما.

قد وقع على عريضة الاحتجاج هذه خمسة أمراء وأربعة عشر حاكما من حكام المدن الألمانية. وبهذا أطلق على جماعة اللوثرية فيما بعد باسم **المحتجين - البروتستانت** - لأنهم احتجوا على عدم صحة ما ورد من قرارات اعتبروها موجهة ضدهم، وفي هذا الاجراء نلمس التحدى من قبل الجماعات اللوثرية الى البابوية والامبراطور والكاثوليكية، وتلمس كذلك تحول النزاع من كونه نزاعا سلميا الى نزاع حرب أهلية مسلحة من اللوثرين والكاثوليك في ألمانيا وعامة أوربا.

حاول الامبراطور حسم النزاع الدينى بالطرق السلمية، لأنه كان يخشى اشتعال الحرب الأهلية في الامبراطورية. وهو في ظرف لايسمح له بالقيام بأي عمل اجرائي ضد اللوثريين، لأنه منشغل في محاربة العثمانيين، وكان يرى ضرورة توحيد العالم المسيحى ضد الأتراك، لذا دعا الى عقد مؤتمر يجمع الأمراء البروتستانت مع أمراء الكاثوليك العثمانيين في مدينة «أوجزبرج» في يونية سنة ١٥٣٠م من أجل حل النزاع والخلافات الدينية القائمة. وقد مثل اللوثرية واضع مبادىء العقيدة اللوثرية فيليب لانكتون ودعيت هذه المبادىء المعتدلة **باعتراف أوجزبرج** . إلا أن هذا المجلس رفض اعتراف أوجزبرج وأصدر الامبراطور أوامره بتنفيذ قرارات مجلس ورمس الأول سنة ١٥٢١م والقضاء على البروتستانتية بعد أن أعطى اللوثريين مهلة زمنية بسيطة للتخلى عن آرائهم. ورد الأمراء البروتستانت على هذا بأن اتحدوا فيما بينهم للرد على هذا التحدى وعرف هذا الحلف باسم حلف «شملكند» سنة ١٥٣١م وكان الامبراطور يرى ضرورة التوفيق بين المتنازعين، ولكنه كان منشغلا بحروبه مع الأتراك وحروبه في ايطاليا التى تحاول الانفصال عن جسم الامبراطورية. وحاول عدة مرات حل الأزمة الدينية، وكان آخرها ما عقد في «ترنت» سنة ١٥٤٥م الا أنه لم يأت بجديد. وفي هذه الأوقات العصيبة مات لوثر في ليلة ١٧-١٨ فبراير سنة ١٥٤٦م وظل النزاع قائما بين الكاثوليك وبين البروتستانت حتى سنة ١٥٥٥م عندما سوى **بصلح «أوجزبرج» الثاني** في فبراير من السنة نفسها بعد أن شهدت البلاد حربا واسعة بين الكاثوليكية والبروتستانتية، كان الكاثوليك فيها هم المتفوقين بعد أن انهزم البروتستانت في موقعة مشهورة تدعى بموقعة مهلبرج في أبريل سنة ١٥٤٧م.

ان أهم شروط صلح أوجزبرج الثاني هي:

١- إقرار المبدأ القائل بأن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذى يريده في امارته وعلى الأفراد الذين لايريدون الدخول في هذا المذهب مغادرة الامارة الى امارة فيهـا مذهبهم. وعلى الأسقف حرية الاختيار على شرط ان يفقد أسقفيته القديمة، ووظيفته الدينية.
٢- يجب ارجاع أملاك الكنيسة المؤخوذة بعد سنة ١٥٥٢م، أما ما أخذ قبل هذه السنة من أملاك الكنيسة فيبقى مع من أخذوه من رجال الدين أو العلمانيين.

ويلاحظ هنا أن المستفيدين من هذا الصلح هم الأمراء وليس جمهور الناس، لأن هذا الصلح دعم استقلالهم عن الامبراطور من الناحية العملية وقوى مركزهم عندما أصبحوا هم الذين لهم الحق في اختيار المذهب الدينى في امارتهم وأما الأفراد فتابعون والا فعلى من لايرغب اعتناق المذهب الذي يقره الأمير أن يرحل الى مقاطعة فيها مذهبة بعد أن يترك املاكه ووظيفته.. الخ. وظل هذا الصلح ساريا مفعوله حتى بداية القرن السابع عشر الميلادى عندما قامت حروب الثلاثين عاما.

انتشار اللوثريـــــة :

انتشرت أفكـار و آراء الاصـلاح الـدينى في أوربـا الشمالية وألمانيا الشمالية والجنوبية الغربية في حياة مارتن لوثر، ثم ما لبثت أن انتشرت هذه الأفكار في انجلترا على أسس لوثرية في جوهرة تمثل ذلك بالمذهب الانجليكانى، كما انتشرت اللوثرية في الممالك الاسكندنافية (الدانمارك والسويد) وكانت الأحوال السياسية تساعد على نشر اللوثرية، وبخاصة أن هذه البلاد لم يظهر فيها أي من المصلحين الدينيين. ونلاحظ أن الأمراء في هذه البلاد كانوا يشجعون الاصلاح طمعا في تدعيم استقلالهم وطمع النبلاء كذلك في أراضى وأموال الكنيسة الكاثوليكية. فكانت كل هذه الظروف تساعد اللوثرية على الانتشار في هذه البلاد والملاحظ أن اللوثرية لم تنتشر في كل البلاد الأوربية لأسباب منها:

- صعوبة العقيدة اللوثرية وتعقيدها وعجز المفسرين عن تفسيرها خصوصا في أمور القربان والتبرير بالايمان، فهما قائمان على فلسفة عميقة تحتاج الى تعمق في الأمور الدينية والدراسات اللاهوتية.

- لأن لوثر اعتمد على الأمراء والسلطة العلمانية مما جعل معظم الناس ينفضون من حوله بخاصة عندما أخذ يؤيد الأمراء ضد طبقات الشعب، وعندما أيد الفرسان والنبلاء ضد الفلاحين. . الخ.
- لم يحدد لوثر العقيدة البروتستانتية وكانت اعترافات أوجزبرج غير كافية لتحديد معالم اللوثرية واتجاهاتها وأفكارها بشكل يفهمه عامة الناس.
- عدم تفكير لوثر في نشر عقيدته خارج ألمانيا، لأن لوثر كان يعتمد في المقام الأول على الشعور القومى وعلى البواعث والأسس الوطنية تخلصا من فكرة عمومية البابوية في أوربا.
- ظهور مصلحين دينيين آخرين في بلاد أخرى اعتنق سكانها آراءهم وأفكارهم الدينية كما حدث في فرنسا وسويسرا عندما ظهر كالفن وزونجلى وكما حدث في هولندة وانجلترا عندما شارك رجال الاصلاح في نشر الآراء الاصلاحية مثل أرازمس وويكليف وتوماس وغيرهم.
- شدة الموقف البابوى والامبراطورى ضد الأفكار اللوثرية في أوربا، ومع أن هذا الموقف كان كالسيف ذو حدين، فان هذا الموقف الصلب أوقف انتشار المذهب اللوثري.

وكما كانت هناك عوامل أعاقت انتشار اللوثرية في عامة أوربا كانت هناك عوامل مساعدة على انجاح ثورة مارتن لوثر، منها:

- عصر مارتن لوثر الذي هو عصر النهضة الأوربية، العصر الذي تفتحت فيه عقول الأوربيين بعد أن أخذوا في التحرر من سلطة البابوية وعصر الاقطاع.
- الأخطاء الجسيمة التي لوثت سمعة البابوية وهزت من سموها وشككت في صلاحية عصمتها، كأحداث السيمونية (الرشوة بخاصة في تعيين رجال الدين في المناصب الدينية العليا) وصكوك الغفران، وعدم حفاظ البابوية أحيانا على القانون الدينى كالسماح لبعض الأفراد بالزواج من أكثر من واحدة، وكالسماح لأبناء الأعمام والأخوال بالزواج، وكالبذخ والترف والصولجان والبلاط الذي اتخذه بعض الباباوات والكاردينالات وأصحاب الوظائف الدينية العليا في الكنيسة.
- المساعدة التي قدمها الأمراء لحركة لوثر أمثال فردريك حاكم سكسونيا الذي

أخفاه في قلعة محصنة لمدة طويلة عن أعين الناس، وعدم تطبيقه قرار ورمس الذي صدر بحق لوثر والذي اعتبره هرطقي يحق هدر دمه. كما أن الكثير من أمراء أوربا كانوا يرون أن حركة لوثر هي حركة قومية ترمى الى التخلص من قبضة البابوية في روما وتنمنحهم سلطات أوسع على رعاياهم وأملاك بلادهم.

- المساعدة التي قدمها الفلاحون والطبقة الوسطى والفرسان لحركة مارتن لوثر في مطلع عهدها.
- المفكرون أمثال ملانكتون والكثير من أساتذة الجامعات الأوربية الذين أخذوا على عاتقهم نشر أفكار لوثر وتدريسها في الجامعات التى يعملون فيها.
- المقالات التي ألفها مارتن لوثر ونشرها وطبعها وعممها على أفراد الشعب الألمانى.
- ترجمة لوثر للانجيل الى الألمانية وطبع هذه الترجمة ونشرها وتوزيعها على الألمان.
- المطبعة التي كانت قد اخترعت حديثا فيي ألمانيا ساهمت مساهمة فعالة وجادة في نقل أفكار مارتن لوثر الى الألمان والى الأوربيين..
- اللياقة التي كان يتحلى بها مارتن لوثر في مناقشاته، والتأثير الذي كان يطبعه على المستمعين عند القاء خطبه الحماسية والمثيرة والمقنعة..
- الحجج التى برهنها على بطلان صكوك الغفران.
- التحدى والصلابة التى اتصف بها لوثر في أثناء ثورته ونشر مذهبه الاصلاحى

المصلح الدينى زونجلى (١٤٨٤ - ١٥٣١ م):

وهو من أصل سويسرى بدأ اصلاحه في مدينة زيورخ سنة **١٥١٩**م وذلك محتجا على بيع صكوك الغفران كما فعل لوثر، فانفصل عن روما سنة **١٥٢٥**م، وقاوم الجماعة المطالبة باعادة التعميد كما فعل لوثر.

لكن هناك ثمة خلافات بين زونجلى ولوثر، تتضح هذه الخلافات في آراء زونجلى بالنسبة للمسائل الدينية، وبالنسبة للعقائد والكيفية التي يجب أن يكون عليها نظام الكنيسة المصلحة، لقد خالف زونجلى لوثر والكنيسة في مسألة القربان

وقال بأن القربان حفلة تذكارية محضة، وحالف زونجلى لوثر عندما اعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية تتألف من جميع المسيحيين الذين يشتركون بواسطة هيئة منهم في الفصل في كل المسائل المتعلقة بشئون الكنيسة والتعيين في الوظائف الكنيسية. بينما اعتبر لوثر أن أمير البلاد هو دائما الرئيس الأعلى للكنيسة والمهيمن على شئونها.

وفي سنة ١٥٢٨م انقسمت البلاد السويسرية الى قسمين، قسم بروتستانتى من أنصار زونجلى، وقسم كاثوليكى من أنصار الكنيسة وكان هذا الانقسام الدينى في سويسرا قد أدى الى حروب أهلية دينية بين أتباع زونجلى وأتباع الكاثوليكية. وقد قتل زونجلي في موقعة كابل في اكتوبر سنة ١٥٣١١م. وبعد شهر من مقتله وقع صلح كابل الذي تقرر فيه أن يكون لكل مقاطعة ومدينة الحق في تقرير مسائلها الدينية واتباع المذهب الدينى الذي تختاره بملء حريتها. وهي كذلك تقرر أكثرية مجالسها الدينية من غير تدخل خارجى.

جون كالــفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤م):

ولد في بلدة نويون القريبة من باريس في ١٠ يوليو ١٥٠٩م وأخذ منذ حداثة سنة يعمل في الوظائف الدينية. وكان والده قد أرسله لدراسة القانون في عدة أماكن من فرنسا وفي أثناء دراسته للقانون كان يتجه الى دراسة المسائل الدينية التى كانت تشغل بال الكثير من مفكرى عصره. وفي مايو سنة ١٥٣٤م اعتزل الوظائف الدينية، وأخذ يعمل من أجل تقويم الكنيسة الكاثوليكية، هذا مما اضطره الى الخروج من فرنسا التى كانت تمارس فيها سياسة الاضطهاد الدينى التى اتبعها الملك فرانسوا الأول ضد البروتستانت في فرنسا. وتنقل كالفن في كثير من البلاد الأوربية وأخيرا استقر في مدينة جنيف بسويسرا سنة ١٥٣٦م.

لقد أخرج كالفن مؤلفا مشهورا له كتبه باللغة اللاتينية سماه «تعاليم الدين المسيحى» وقد ألف هذا الكتاب وهو في مدينة بال. وله رسالة مشهورة كان قد رفعها كالفن الى الملك فرانسوا الأول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٥٣٥م، تبحث في أصول العقيدة الكلفينية، وأصول نظام الكنيسة الجديدة المصلحة.

هناك توافق في آراء كل من كالفن ولوثر في اعتمادها على الكتاب المقدس.

وفي القول بأن السيد المسيح هو الذي يشفع وحده لدى الله وأن التبرير انما يكون بالايمان وليس بالأعمال..

أما جوانب الخلاف بين اللوثرية والكالفنية، فهى في مسألة الغفران فاعتبر كالفن الغفران من الأمور القديمة التى لاترتبط بأعمال الانسان. فالخلاص في رأى كالفن منحة من الله مقدرة للانسان من الأزل بصرف النظر عن فضائله أو نقائصه. وعرف هذا المذهب **بمذهب القدرية**. وبناء على ذلك قامت الكالفانية تحارب بعنف المخالفين لمذهبها لأنها تعتقد أن الغفران من الأمور المقدرة. واختلف كالفن عن لوثر وزونجلى في/مسألة القربان. فاعتبر كالفن العشاء الربانى الأخير حفلة تذكارية، ولكنه زاد عليها حين قال انها ضرورية لحمد الله وشكره. كما أن كالفن اعترف بسرين من الأسرار المسيحية السبعة وهي: الشكر والعمودية والمسيحية المقدسة والزيجة والكهنوت ومسحة المرضى والتوبة، ولم يعترف كالفن الا بالشكر وسر المعمودية.

ويقول كالفن بضرورة وجود القواعد الآتية:

اولا: ان الكنيسة ذات مهمة روحية، وهي بحاجة الى نظام حكومى يتفق مع مهمتها الروحية، ويكون هذا النظام سلطة مستقلة تماما عن الدولة لأن الدولة في نظر كالفن تخدم الأغراض العلمانية، بعكس النظام الحكومى الذي يريده كالفن فهو يخدم المسائل الدنيوية من خلال الأغراض الدينية التى قامت من أجلها الكنيسة. ومن هنا نجد كالفن يختلف مع زونجلى الذى يقول: بأن الكنيسة والدولة تجتمعان في نظام واحد.

ويطالب كالفن أن تقوم جماعة من الحكماء والرشداء والعقلاء من العلمانيين بتنفيذ القانون الكنسى المشار اليه. وهذا معناه أن كالفن يرى ضرورة مشاركة العلمانيين في شؤون الكنيسة.

ثانيا: يقول كالفن بضرورة وجود حكومة كنسية علمانية تشرف على الأمور الدينية وتحافظ عليها. ويدلل كالفن على رأيه هذا فيقول: كما أن الحكومة العلمانية في أى بلد تحافظ على حياة الانسان فيه، فان الحكومة الكنسية العلمانية هي كذلك من واجبها المحافظة على الأمور الدينية وعلى اتباع الكنيسة. وبالمقابل

فان على الانسان المسيحى أن يكون خاضعا للحكومة الكنسية العلمانية ومادامت هذه الحكومة تقوم بواجبها الدينى.

أخذ كالفن ينشر مذهبه في جنيف ابتداء من سنة ١٥٣٦م، وساعده الحظ عندما طلب منه وليم فارل أحد دعاة الاصلاح في جنيف أن يعاونه في تنظيم الكنيسة في المدينة المذكورة ومن هنا بدأ كالفن ينشر أفكاره وبالتالي شرع في نشر مذهبه الكالفنى الا أن هناك ملاحظات على الكنيسة الكالفينية وهي الشدة والعنف والصرامة في تطبيق التعاليم الكالفينية، هذا ما جعل الناس ينفضون عنها. حتى ان كالفن كان قد اضطر الى ترك جنيف سنة ١٥٣٨م، الا أنه عاد اليها مرة أخرى سنة ١٥٤١م بسبب استدعاء شعبها له. وبقى فيها حتى وفاته في ٢٧ مايو سن ١٥٦٤.

وبفضل دقة نظام الكالفنية وصرامته في تطبيق تعاليم المذهب الكالفنى، استطاعت الكالفنية أن تصمد بجدارة وبقوة أمام الهجمة الكاثوليكية ضدها.

اصلاح مفاسد الكنيسة الكاثوليكية

بعد قيام الحركة الاصلاحية الدينية في أوربا بزعامة مارتن لوثر وزونجلى وكالفن، تنبهت البابوية الى ضرورة قيامها باصلاحات دينية نتيجة لما شاب الكنيسة الكاثوليكية من مفاسد، وقد رأت الكنيسة ضرورة هذا الاصلاح من أجل أن تعمل على توحيد صفوفها ضد المذاهب الدينية المسيحية الجديدة التي ظهرت بشكل عملى في القرن السادس عشر الميلادى.

وفي هذا المجال نحاول أن نوضح «الاصلاح المضاد» أو ما يمكن تسميته بالانتعاش الكاثوليكى الذي كان رد فعل للحركات الاصلاحية الدينية التى عمت أوربا، والتى تطالب البابوية باصلاح مفاسد الكنيسة الكاثوليكية. وتحت هذا الضغط قامت الكنيسة الكاثوليكية باصلاحات واليكم هذه الاصلاحات.

مجلس ترنت :

لقد رأت البابوية ضرورة اصلاح جسم الكنيسة وبخاصة في القرن السادس عشر الميلادى. فقد دعا البابا بول الثالث رجال الدين الكاثوليك للحضور الى

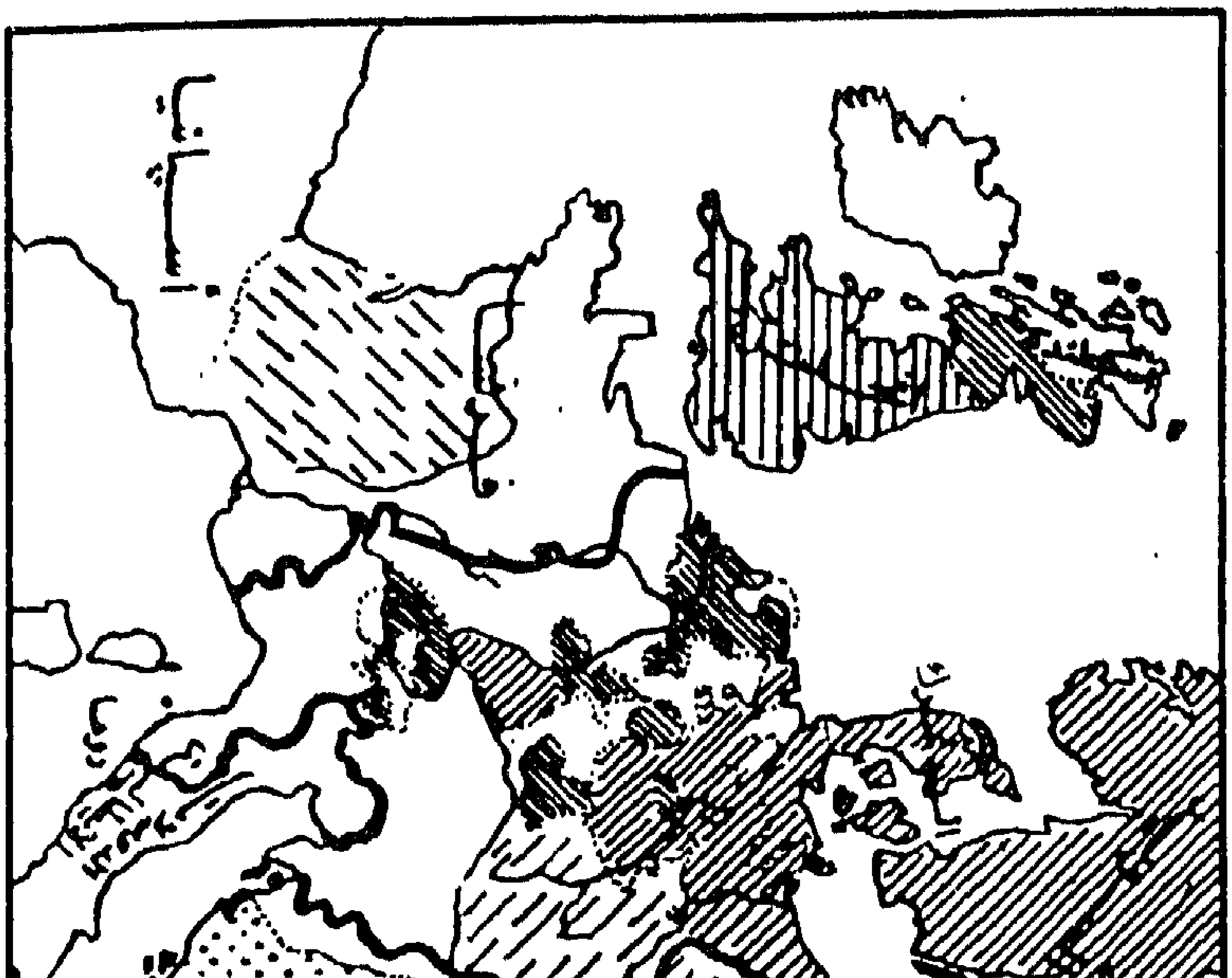

توزيع الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا في عام ١٦١٠

روما لبحث مسألة الاصلاح المرتقب، وما لبث أن دعا الى عقد مجلس براتزيون في أبريل سنة ١٥٤١م من أجل الاصلاح المذكور ومن أجل تحديد العقيدة الكاثوليكية. ولكن هذه المحاولة فشلت. هذا ما جعل البابا بول الثالث يتخذ قرارا حاسما في سبيل الاصلاح الكاثوليكي، فدعا الى عقد مجلس ترنت في ألمانيا. وعقدت أول جلسات المجلس في نوفمبر سنة ١٥٤٢م، الا أن الحرب بين الامبراطور شارل الخامس والملك الفرنسى فرنسوا الأول كانت قد أعاقت استمرار هذا المجلس في الانعقاد لقلة ما وصله من رجال الدين الايطاليين وغيرهم. وهذا ما جعل البابا يأمر بتأجيل المجلس الى ظروف أفضل. الا أن ضغط الامبراطور شارل الخامس الذي كان يريد أن يرى امبراطوريته متماسكة دينيا في مذهب واحد، لذا طلب من البابا أن يصدر أمرا جديدا بانعقاد المجلس الدينى في ترنت وهذا الضغط أدى بالبابا الى دعوة المؤتمر من جديد في مارس سنة ١٥٤٤م، وظل المجلس ينعقد حينا ويتأجل حينا آخر في عهد البابوات بوليوس الثالث وبول الرابع وبيوس الرابع.

أما قرارات مجلس ترنت فقد جاءت على قسمين، أولهما: في شأن نظام الكنيسة، واستعمال اللغة اللاتينية في الصلاة، وتحريم زواج القسيس، ومنع تجمع عدد من الأسقفيات بيد شخص واحد، وتحديد سن الأسقف بها لايقل عن ثلاثين سنة، وإنشاء مدارس لتعليم رجال الدين، وقال القرار بأن البابا هو خليفة المسيح، وله السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية، وثانيهما: كان متعلقا بتحديد العقيدة الكاثوليكية، فحدد موقف الكنيسة من سر الشكر، وعارض عقيدة التبرير بالايمان اللوثرية، ونفى مذهب القدرية الكالفنية، وقال بوجوب ابقاء أسرار الكنيسة السبعة، ورفض الاعتماد على الكتاب المقدس فان هناك تقاليد قديمة يجب مراعاتها. وقرر المجلس أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية هي المعتمدة فقط.

وهكذا نلاحظ أن عملية اصلاحات جذرية شملت نظام الكنيسة، وشملت كذلك العقيدة، وذلك من أجل مواجهة تحدى المذاهب الجديدة، وكانت هذه العملية عبارة عن عملية تأقلم قامت بها البابوية لتساير مع الأوضاع الجديدة في أوربا مثل تعدد الكنائس المصلحة، ونمو الشعور الوطنى الأوربى، وظهور الدول

الوطنية الأوربية الحديثة.

الجزويت او اليسوعيون :

وهي جماعة قامت للمحافظة على كيان الكنيسة، ومؤسسها هو «**اجناس لويلا**» (١٤٩١-١٥٥٦) الاسباني. وقد رأي هذا أن يكرس حياته لخدمة المسيح والسيدة العذراء. لقد اطلع على كتب سير القسيسين، وزادت معرفته وثقافته عندما حج الى بيت المقدس سنة ١٥٢٤م ودرس في جامعات اسبانيا كجامعة برشلونة والكالا وسلامنكا. وفي سنة ١٥٢٨م التحق بجامعة باريس.

لقد ظهرت هذه الجماعة في باريس سنة ١٥٣٤م، وكان أعضاؤها في أول الأمر سبعة فقط. ونادت بالطهر والعفة ونبذ الثروة والعيش في فقر. وتعهد الأعضاء السبعة بعد تخرجهم من باريس بالذهاب الى بيت المقدس لخدمة المسيح. ولكن تعذر عليهم الحج بسبب الحروب بين أوربا والعثمانيين. فعرضوا خدماتهم على البابا، فوصلوا روما في أكتوبر سنة ١٥٣٩م في الوقت الذي كانت فيه الخلافات الدينية شديدة بين الكاثوليك والبروتستانت. وفي روما عملوا على شكل وعاظ وخطباء وجماعة ارشاد بأمر البابوية. وأصدرت البابوية سنة ١٥٤٠م قرارا بالموافقة على جماعة الجزويت ونظامها الصارم الذي يخضع فيه الأفراد خضوعا تاما لنظام الحزب. وصار قائد الحزب هو صاحب السلطة العليا فيه، وعلى الجماعة اطاعته طاعة تامة. وفي المسائل الدينية يرجع الامر الى المجلس الذي يتألف من أكبر عدد مستطاع من الأعضاء قبل الفصل في المسألة الدينية. وفي سنة ١٥٤١م انتخب لويلا رئيسا للجماعة. وظل حتى وفاته في ٣١ يوليو سنة ١٥٥٦م.

وكانت خدماتهم قد أوقفت تيار البروتستانتية لدرجة كبيرة في فرنسا وبولندة، ومناطق الهابسبورج، ونجحوا في القضاء على البروتستانتية في ايطاليا واسبانيا، وقووا مركز الكاثوليكية في انجلترا والمناطق الاسكندينافية.

الفهــــرس :

وقد اختار البابا مجموعة من الكتب التى ترى الكنيسة تحريم الاطلاع عليها من قبل المسيحين الكاثوليك. ومنذ سنة ١٥٤٣م أصدرت البابوية فهارس بالكتب المحرمة، وكان أول هذه الفهارس الفهرس الذي أذاعة البابا بول الرابع سنة

١٥٥٩م وكان من بين الكتب المحرمة كتب ورسائل لوثر وزونجلي وكالفن، ولما عقد مجلس ترنت انتقد هذا الفهرس وعدله في سنة ١٥٦٤م ، ثم عدل وروجع مرات متعددة حتى سنة ١٥٩٦م، وظل العمل به حتى أواسط القرن الثامن عشر الميلادى.

وكان هذا العمل من بين معطلات الحضارة الأوربية لأن سكان أوربا الجنوبية (الكاثوليك) ظلوا بعيدين عن كتابات أوربا الشمالية (البروتستانيت) وزاد الطين بلة ظهور محاكم التفتيش التي تعاقب كل من يخرج عن هذا القانون البابوى.

محاكم التفتيـــش :

أصدر البابا بول الثالث أمرا بتأسيس محاكم التفتيش سنة ١٥٤٢م وكانت لهذه المحاكم سلطة فعلية، في محاكمة ما سمتهم البابوية بالهراطقة الملحدين الخارجين عن طاعتها وسلطتها. . وهذه المحاكم هي امتداد للمحاكم الأسقفية التي كانت تعمل على تعقب الهراطقة في القرن الثالث عشر الميلادى، وهي كذلك امتداد لمحاكم التفتيش التى قام بها جماعة الدومنيكان والفرنسيكان. وقبل أن تخفى هذه المحاكم قامت اسبانيا وطالبت بادخال محاكم التفتيش في بلادها لمكافحة المسلمين واليهـود في أيبريا. وقد وافق البابا سكستوس الرابع على ذلك في نوفمبر سنة ١٤٧٧م، وفي سنة ١٤٩٧م خرجت محاكم التفتيش من سلطة البابوية في اسبانيا لتشرف عليها المملكة الاسبانية.

وفي سنـة ١٥٤٢م أصدر البابا قرارا يأمر فيه بانشاء محكمة تفتيش مقدسة للكنيسة العالمية تتألف من ستة كرادلة أعطوا سلطات واسعة بوصفهم مفتشين في كل أنحاء أوربا الكاثوليكية. وجعل أعطاء هذه المحكمة اثنى عشر عضوا وأصبحت هذه المحكمة ترسل المفتشين من قبلها الى الجهات الكاثوليكية لمكافحة الخارجين على البابوية.

لقد نجحت محكمة التفتيش الرومانية التى أسست سنة ١٥٤٢م في القضاء على الـبروتستانتية في ايطالية، كما نجحت في اذكاء روح التعصب الدينى في الكنيسة، وكان تأسيسها هو بداية عهد الاصلاح الكاثوليكى في أضيق معانيه. وهذا الاصلاح كان قد استند على استخدام وسائل العنف والشدة والقوة التعسفية

من أجل ارجاع مكانة الكنيسة، كما كانت عليه في الأول، وذلك عن طريق القضاء على الذين شقوا عصا الطاعة عن البابوية.

اسبانيا في عهد فيليب الثاني وثورة الأراضى المنخفضة

لقد ظهرت في اسبانيا دولة موحدة بعد اتحاد كل من أرجوان بزعامة حاكمتها ايزابيلا في دولة واحدة. وكانت هذه الدولة كاثوليكية المذهب. ولقد عم هذه المملكة رخاء واصلاح في عهد الامبراطور شارل الخامس منذ سنة ١٥١٩م. وقد اعتزل شارل الخامس عرش اسبانية سنة ١٥٥٦م وتولى بعده ابنه فيليب الثاني من سنة ١٥٥٦م - ١٥٩٨م. وصار هذا الملك حاكما على كل البلاد التي كانت تابعة لحكم أبيه الامبراطور مثل: بلاد الأراضى المنخفضة ونابولى وميلانو وصقلية وأملاك اسبانيا في مستعمراتها في بلاد أمريكا الوسطى والجنوبية.

كان فيليب الثاني يعتبر نفسه حامى الكنيسة الكاثوليكية. وكان هذا الاعتقاد يصل عند هذا الملك حد التزمت. فقرر ان يقطع حد دابر الهرطقة والالحاد في البلاد التابعة لتاجه. ومع أنه فشل في تحقيق هذا المطلب وبالتالي أسدى هذا الفشل الى انفصال بعض المناطق التابعة له، الا أنه كان قد نجح الى حد ما في حروبه مع ايطاليا التى انتهت بمعاهدة «كاتو كمبريسس» سنة ١٥٥٩ والتى احتفظ فيليب الثاني بمقتضاها بميلانو ونابولى. كما نجح مع جمهورية البندقية والبابا في هزيمة الأسطول العثمانى في معركة ليبانتو البحرية في خليج كورنت سنة ١٥٧١م. وكان من نتائج هذه المعركة أن أصبحت القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط قوة ضعيفة. وفي سنة ١٥٨٠م انتقل حكم البرتغال الى فيليب الثاني بحكم الوراثة. وبهذا فانه يمكن القول إن اسبانيا كانت قد بلغت الأوج والعظمة في عهد هذا الملك الذي واجه ثورة الأراضى المنخفضة التي انتهت هذه الثورة باستقلال هولندا كما سنرى فيما بعد.

ثورة الأراضى المنخفضـــــة :

تتألف البلاد المنخفضة من مجموعة من البلاد التى تقع على أنهار الراين والموزل والشلدت، وهي بلاد غنية لأن مدنها ذات نشاط بحرى ومركز تجارى هام في أوربا الشمالية، الى جانب اعتمادها على الزراعة والأعمال الأخرى.

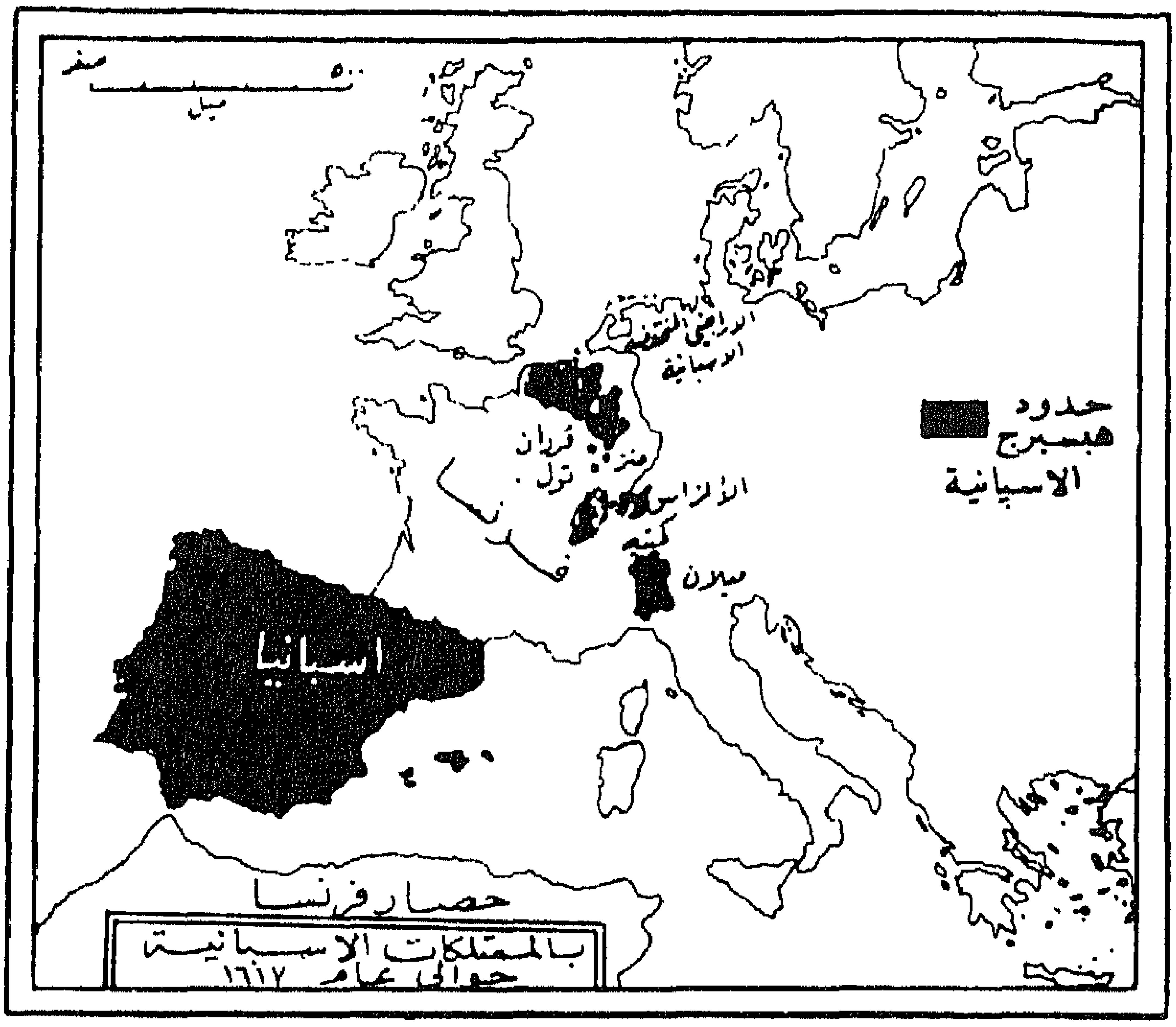
صفر
٥٠٠
ميل
الاراضي المنخفضة
الاسبانية
حدود
هبسبرج
الاسبانية
فردان
منز
تول
الألزاس
ميلان
اسبانيا
حصار فرنسا
بالممتلكات الاسبانية
حوالى عام ١٦١٧

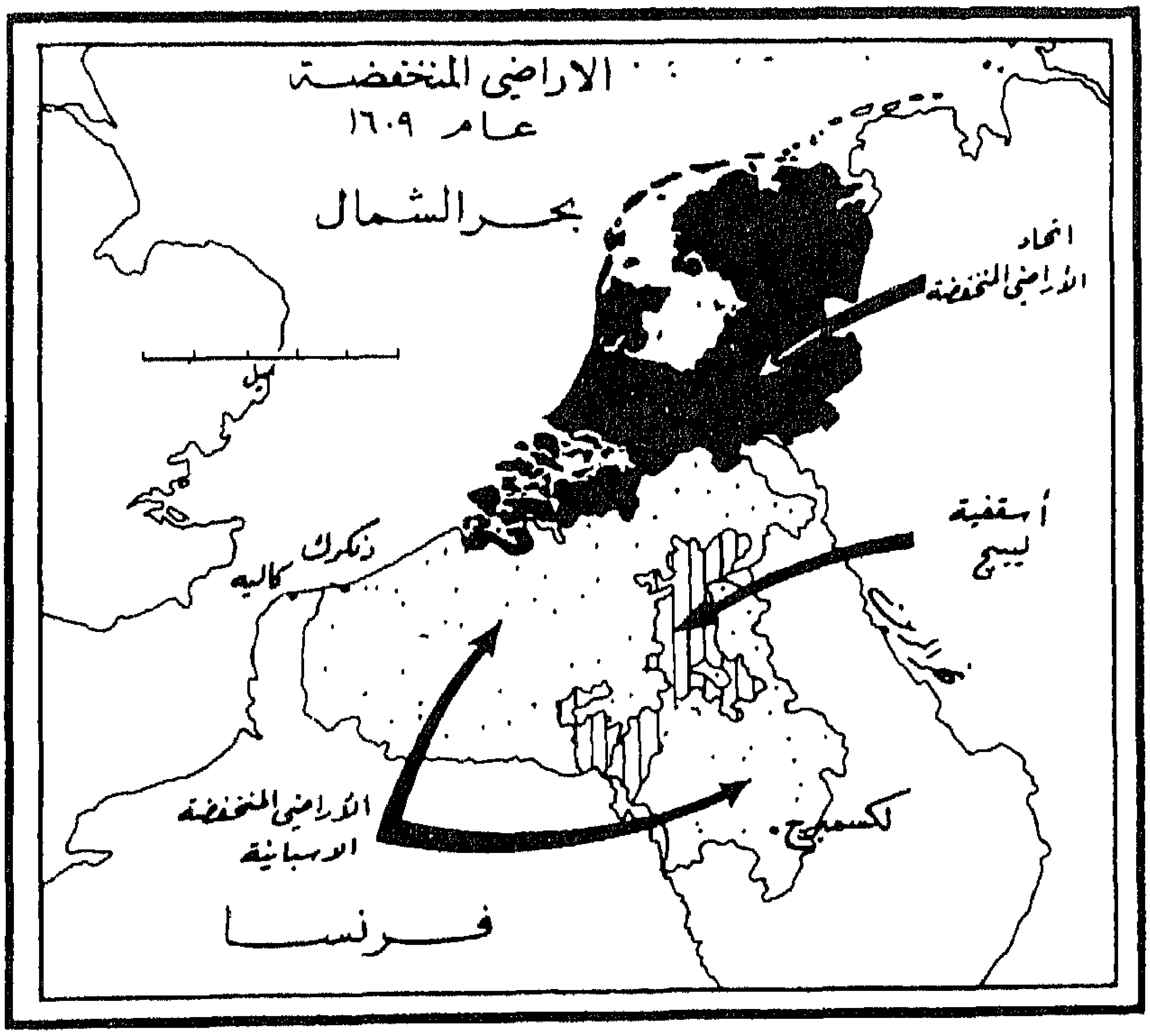
الاراضي المنخفضة
عام ١٦٠٩
بحر الشمال
اتحاد
الأراضي المنخفضة
أسقفية
لييج
دنكرك
كاليه
الأراضي المنخفضة
الاسبانية
لكسمبرج
فرنسا

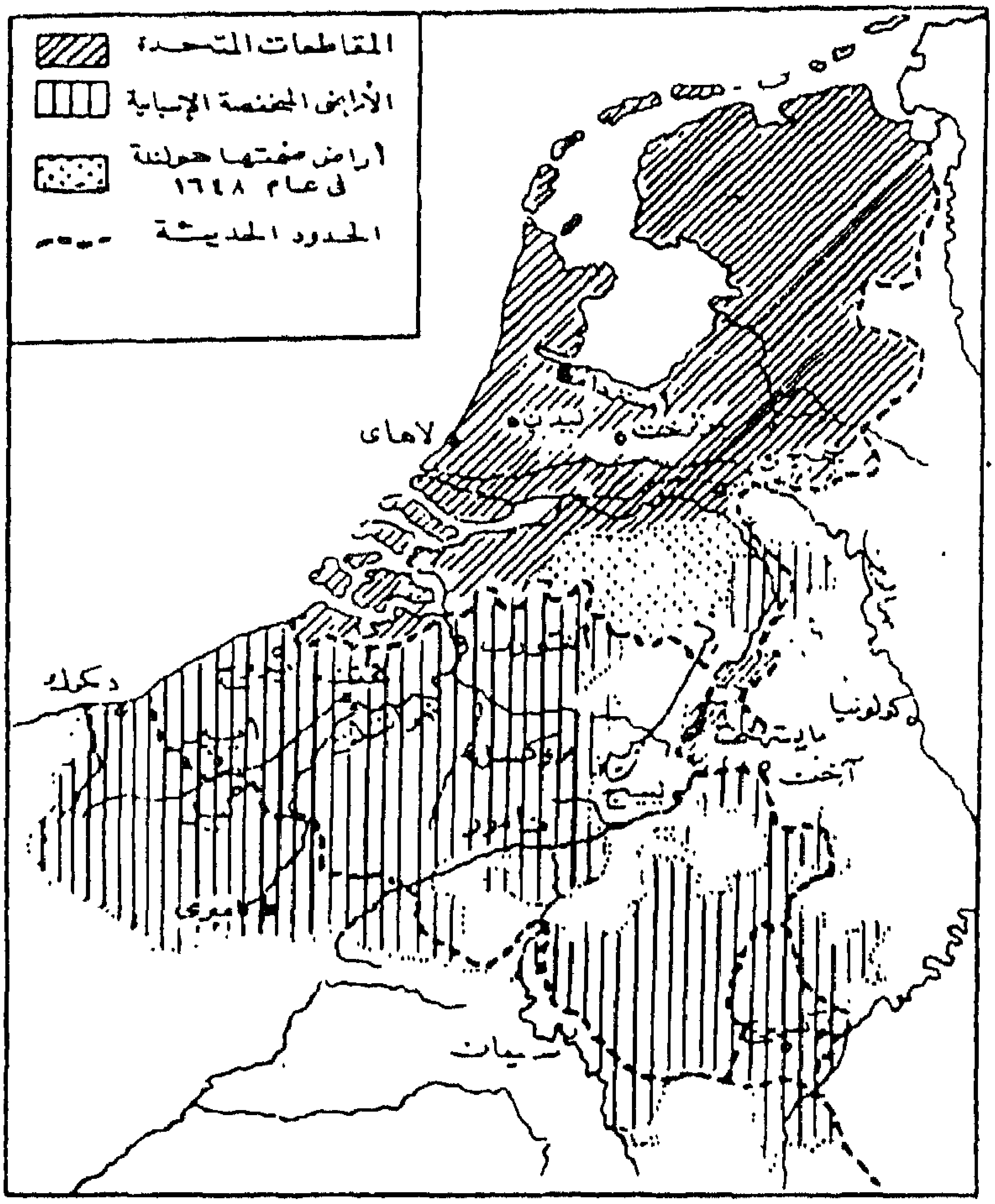

ثورة الأراضى المنخفضـــة

والسكان في هذه البلاد هم من الجنس التيتونى في الشمال، ومن الجنس الكلتى في الجنوب. ولقد تبعت هذه البلاد حاكم اسبانيا في عهد الامبراطور شارل الخامس الذي ورث هذه التبعية بحكم الوراثة عن جدة مكسليان.

لقد انتشرت المذاهب البروتستانتية في هذه البلاد. وقد أعلن الامبراطور شارل الخامس محاربته لهذه المذاهب، واعتبر أتباعها هراطقة ملحدين وخارجين عن الدين الكاثوليكي الذي هو حام له. فأصدر عدة مراسم تمنع التعامل مع البروتستانتية وأقام في البلاد محاكم التفتيش لتعقب البروتستانت. وكانت هذه الأعمال الانتقامية والاستفزازية في البلاد المنخفضة قد أوجدت فيها بعد نقمة

شديدة من سكان هذه البلاد ضد الاسبان. وعندما تجمعت أسباب الثورة انتفض السكان في الأراضى المنخفضة وثاروا على الحكم الاسباني.

ومن أهم أسباب ثورة الأراضى المنخفضة ضد اسبانيا ما يلى:

أولا : الاعمال التى قام بها شارل الخامس وخليفته فيليب الثانى ضد البروتستانت في هذه البلاد. وبخاصة لأن هذه الأعمال كانت قد اتصفت بالعنف الشديد ضد مخالفى الكاثوليكية.

ثانيا : كراهية السكان في الأراضى المنخفضة للحكم الأجنبى المتمثل في الحكم الاسبانى.

ثالثا : نشاط محاكم التفتيش ضد البروتستانت، ومدى التعصب الذي خيم على هذا النشاط من قبل هذه الجماعة الكاثوليكية المتزمتة.

رابعا : كان تأسيس اسبانيا الكاثوليكية لأسقفيات كاثوليكية جديدة في الأراضى المنخفضة أثر ثورة السكان في الاراضى المنخفضة ضد الاسبان.

خامسا : كثرة الضرائب التى فرضها فيليب الثانى على السكان في هذه البلاد من أجل أن يزودوه بالأموال اللازمة لاستمرار حروبه ضد أعدائه من المطالبين بالانفصال عن جسم دولته.

سادسا: لقد كان من أسباب الثورة تعيين فيليب الثانى ابنته غير الشرعية على حكم الأراضى المنخفضة. وكانت هذه من أم فلمنكية نشأت في الأراضى المنخفضة، لكن ابنتها مرغريت كانت قد نشأت وعاشت وترعرعت في ايطاليا. بالاضافة الى أن مرغريت وقعت في حكمها تحت تأثير أجناس لويلا والكاردينال جرنفيلا الذي كان قد استأثر بكل السلطات.

لقد تزعم ثورة الأراضى المنخفضة **وليم أورانج** البروتستانتى النشأة الا أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية عندما التحق بخدمة شارل الخامس. وقد أخذ أورانج يخطط من أجل افشال مشروعات فيليب الثانى التى كانت ترمى للقضاء على البروتستانت. ولكن أورانج كان صامتا في كل تصرفاته، حتى انه سمى فيها بعد «بالصامت» ولقد ساعده في الثورة كل من الكونت اجمونت والأميرال هورن وهما كاثوليكيان.

لقد حاول الكونت اجمونت والنبلاء في الأراضى المنخفضة اقناع فيليب الثانى بالعدول عن خطته الرامية لقلع جذور البروتستانتية، الا أن الجميع فشلوا في اقناع الملك الذي أمر بسحب الحاميات الاسبانية من البلاد سنة ١٥٦٠م، كما أمر بسحب الكاردينال جرانفيلا سنة ١٥٦٤م. وظل مصرا على تنفيذ المراسيم القائمة ضد البروتستانت.

كانت بداية الثورة عندما وقع حوالى ٥٠٠ نبيل على وثيقة فيما بينهم تقول بمقاومة محاكم التفتيش والعمل على ازالتها من بلادهم، والتضامن فيما بينهم للعمل بالأرواح والأموال ضد مايلقوه من اضطهاد من اسبانيا. ومع هذا فقد اعلنوا أنهم مازالوا من الأتباع المخلصين للملك فيليب. ولقد قدمت هذه المطالب الى مرغريت نائبة الملك التى رفضت السماع لمطالهم وسمتهم «بالشحادين»، ومن هنا تحولت الحركة من معارضة سلمية الى حركة عنف وشدة ابتدأت من أغسطس ١٥٦٦م.

ومرت الثورة في مراحل يمكن ايجازها كالآتى:

- ابتدأ الثوار بتحطيم الصور والتماثيل في الكنائس الكاثوليكية وهذا أثار غضب السكان الكاثوليك ضد الثوار عندما شاهدوا ما حل بكنائسهم من تخريب، وبهذا انقسمت البلاد الى قسمين بروتستانت وكاثوليك. وتوضح لنا هذه الحادثة مدى غضب الجماعات البروتستانتية ضد الجماعات الكاثوليكية المتسلمة زمام المبادرة في البلاد.
- كان رد فعل الملك فيليب أن أرسل للثوار قوة بقيادة الدوق ألفا الذي أخذ يضطهد الكالفنيين والبروتستانت الآخرين وعمل مجلسا سماه مجلس الدم للقضاء على الفوضى في البلاد، واستطاع تجزىء البلاد الى جنوب مؤيد للكاثوليك، وأصبحت مدينة انتورب مقرا له. وإلى شمال مناهضين للكاثوليك مؤيدين للبروتستانت، وأصبحت أمستردام مركزهم. وهكذا تمكن ألفا من تقسيم البلاد تقسيما يعتمد الى حد ما على الجنس والقومية والمذهب. وقد ترتب على هذا التقسيم ظهور دولتين حديثتين هما: هولندة وبلجيكا.
- اتحد أورانج الكالفيني مع كولينى الفرنسى زعيم الهوجونوت وشنا هجوما ضد ألفا من الشمال والجنوب ولكنهما فشلا بعد مذبحة سان باتلميو في باريس سنة

١٥٧٢م والتى قتل فيها كولينى. وهكذا فشل الغزو المشترك ضد الجيش الاسبانى المتواجد في الأراضى المنخفضة وكان هذا الفشل قد أرجح كفة ألفا.

- لقد استطاع الشحادون من رجال البحر الهولنديين (ثوار هولندا) من السيطرة على ثغرى «بريل» و «فلاشينج» في ساحل زيلند سنة ١٥٧٢م بعد أن ركزوا غاراتهم البحرية ضد هذين الثغرين.
- أعلنت مقاطعة هولندا وزيلند الحرب ضد ألفا. وعهدتا بالحكم فيها الى وليم أورانج. فانتقل اورانج الى هذه المناطق، واتخذ من بلدة «بريدا» مقرا لقيادته ضد ألفا. وتطور الأمر فانضمت اليه مقاطعة «أوترخت» و «فريسلند» وجرونجن (افريسل) ومن هذه جميعا تكونت هولندا الحديثة.
- اتسعت الولايات التي انضمت الى أورانج بعد موت «دى ركوسنس» الذي خلف الدوق ألفا الذى عزل من منصبه. وساعد أورانج قيام ثورة الجند الاسبان في الأراضي المنخفضة الذين ثاروا بسبب عدم دفع روابتهم في أوقاتها المحددة. ولقد نجح أورانج في ضم مقاطعات الشمال ومقاطعات الجنوب في اتحاد **أطلق عليه اسم «سلام غنيت» في نوفمبر سنة ١٥٧٦م**. وقد اعترف أورانج بسلطان فيليب الثانى مقابل طرد الجنود الاسبان من الأراضى المنخفضة، ونشر مبدأ التسامح الدينى بين البروتستانت الكاثوليك، وتأليف مجلس في الولايات يقوم بأعباء الحكومة الجديدة في الأراضى المنخفضة.
- لقد تصدع هذا التحالف المؤلف من الشمال والجنوب، مما اضطر أورانج الى عمل اتحاد جديد سماه «**اتحاد أو ترخت** الذي يتكون من الولايات السبع الشمالية فقط، وكان ذلك في يناير سنة **١٥٧٩م**. وتنص بنود التحالف: على الدفاع عن الحريات في هذه الولايات ضد الاسبان، مع اعطاء حرية العبادة لكل ولاية. وظلت الولايات السبع تعترف بسلطان فيليب الثاني. ونلاحظ من هذا الاتحاد أن الشمال ظل متمسكا ولاياته وآرائه ومبادئه. وظل الجنوب متمسكا ولاياته وآرائه ومبادئه. وصار كل من الشمال والجنوب منفصلا عن الآخر، وأنه لاأمل في التوفيق بينهما.

ولما سمع فيليب بهذا الاتحاد الجديد، أمر باخراج أورانج من القانون، وأباح

قتلة. وبهذا قررت الولايات الشمالية الانفصال عن اسبانيا في **مؤتمر عقد في لاهاى في يوليو ١٥٨١م**. وعندما خافت الولايات الشمالية من انتقام اسبانيا رأت التحالف مع فرنسا. الا أن هذه التجربة فشلت عندما تمادى الجند الفرنسى في اضطهاد السكان في الولايات الشمالية من الاراضى المنخفضة. ونتيجة لشدة وطأة الجند الفرنسى على السكان سمى هذا العمل باسم «الغضب الفرنسي»، وبالتالي ثار السكان في الأراضى المنخفضة من جديد ضد فرنسا وأخرجوها من بلادهم سنة ١٥٨٤م. وكانت هذه التجربة الجديدة لسكان الأراضى المنخفضة في الشمال قد أهلتهم لأن يحافظوا على وحدتهم واستقلالهم.

وهكذا استقلت الولايات الشمالية من الأراضى المنخفضة، ووضعت لها دستوراً مستقلا، وزعمت عليها أورانج الذي أعطى لقب كونت «هولندا وزيلند». وبعد اغتياله على يد أحد الكاثوليك عين ابنه «موريس نساو» في منصبه هذا.

حارب نساو اسبانيا في عدة معارك كان النصر فيها حليفه. كما أنه تحالف مع انجلترا زمن ملكتها الياصابات، وحصل سنة ١٥٨٥م على مساعدة منها ضد الاسبان، وذلك لأن انجلترا كانت في حالة حرب بحرية مع اسبانيا، وأسفرت هذه الحرب في النهاية عن تدمير**الأرمادا (الأسطول الاسباني) سنة ١٥٨٨م**، وهذا كان قد دعم استقلال هولندا. لقد صمم الهولنديون على التخلص النهائي من حكم الاسبان، فحاربوهم بحرا وبرا وانتصروا عليهم في عدا معارك برية وبحرية في سنة ١٥٩٦م و ١٥٩٧ و ١٦٠٧م، السنة التى حطم فيها الأسطول الهولندى أسطول اسبانيا، التى أصبحت بعد ذلك خاوية ضعيفة لاتصمد أمام منافسة انجلترا وفرنسا وهولندا وثورات ايطاليا. وبفضل هذا الكفاح البروتستانتى الهولندي الطويل ضد الاحتلال الاسبانى الكاثوليكي المتزمت، استطاع الهولنديون أن ينتزعوا من الاسبان استقلالهم التام في معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨م. وكان هذا الجهد الهولندى ما هو الا نتيجة من بين النتائج السياسية والاجتماعية والفكرية التي تمخضت عن الاصلاحات الدينية الأوربية.

حرب الثلاثين عاما «١٦١٨ ـ ١٦٤٨م»

لقد تمخضت حركة الاصلاحات الدينية في أوربا عن قيام حروب دينية طاحنة

في البلاد الأوربية كانت بين أتباع الكنيسة الكاثوليكية من جهة وبين أتباع الكنيسة البروتستانتية (لوثريين وكالفينيين زونجليين) من جهة أخرى. وما حرب الثلاثين عاما هذه الا نوع من هذه الحروب الدينية التى اجتاحت أوربا بعد قيام حركة الاصلاح الدينى الكبرى فيها.

أما عن أسباب هذه الحرب فتعود الى فشل صلح « أوجزبرج » سنة ١٥٥٥م، الذي أنهى الحرب الدينية في المقاطعات الألمانية لفترة ما. ويعود فشل هذا الصلح لأنه لم يوفق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت على السواء. فالبابوية تطالب أن تكون أملاكها مصانة في ألمانية من اعتداءات البروتستانت عليها. في حين يرى البروتستانت (الذين كانوا منتصرين) السيطرة على هذه الأملاك. وكثيرا ما اعتدى البروتستانت على أملاك البابوية، وكان هذا من أسبابا تذمر الكاثوليك، وكان كذلك من الأسباب التى هلهلت صلح وستفاليا، وبالتالى أدت الى اندلاع حرب دينية جديدة هي حرب الثلاثين عاما.

ومن جهة أخرى فقد استغل البروتستانت والكالفينيون هدنة الصلح هذه فعملوا على نشر مذهبهم في ألمانيا، فغدت ألمانيا الشمالية بروتستانتية. وتسربت البروتستانتية والكلفينية كذلك الى الجنوب في النمسا وبافاريا وهما من أكبر معاقل الكاثوليكية. ولولا فشل البروتستانت والكلفينيين في توطيد عرى الاتحاد فيما بينها لكان بامكانها السيطرة على جميع مقاطعات ألمانيا ونشر المذهب البروتستانتى في ربوعها.

ولقد حدث نشاط كاثولكى جديد تزعمة الجزويت (اليسوعيون) يطالب بعودة ألمانيا الى الكاثوليكية. واتخذ الجزويت مركز نشاطهم في كل من فينا وميونخ ومنها أخذوا يوسعون دائرة نشاطهم عن طريق فتح المدارس الكاثوليكية في البلاد، وعن طريق ارسال المبشرين اليها. وبهذا النشاط الجديد أمكن للجزويت من أن يعيدوا الكثيرمن المقاطعات الألمانية. الى خظيرة الكاثوليكية بعد نبذهم البروتستانتية. وهذا العمل كان قد أثار حفيظة البروتستانت في ألمانيا، **فعملوا حلفا فيما بينهم سنة ١٦٠٨م سمى «بالاتحاد البروتستانتى»** للدفاع عن مصالحهم المشتركة ضد الكاثوليك الذين أسسوا اتحادا دعى **«بالحلف المقدس»** سنة **١٦٠٩** من أجل محاربة أتباع الاتحاد البروتستانتى في الفرصة المواتية. والملاحظ أن الحلف

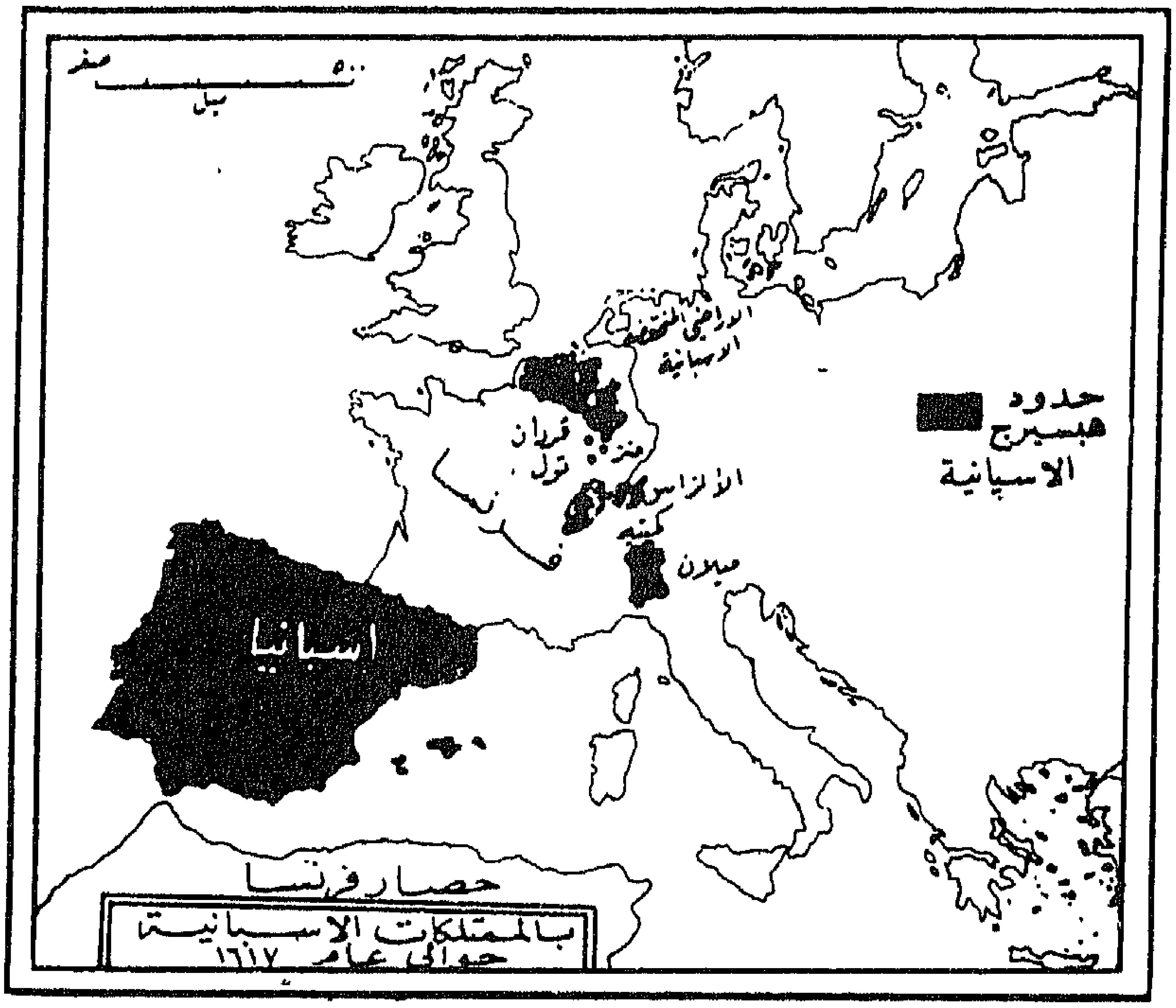
حدود هبسبرج الاسبانية
الاراضي المنخفضة الاسبانية
الالزاس
ميلان
اسبانيا
حصار فرنسا بالممتلكات الاسبانية حوالي عام ١٦١٧

الاراضي المنخفضة عام ١٦٠٩
بحر الشمال
اتحاد الأراضي المنخفضة
أسقفية لييج
دنكرك
كاليه
الأراضي المنخفضة الاسبانية
لكسمبرج
فرنسا

الكـاثـوليكي الـذي تزعمـه مكسمليان، دوق بافـاريا كان أقـوى من الاتحاد البروتستانتى لأن اللوثريين والكلفنيين لم يستطيعا توحيد جهودهما في اتحاد قوى مشترك ضد الاتحاد الكاثوليكي.

لقد بدأت الحرب المذكورة هذه على شكل نضال في مقاطعة بوهيميا في ألمانيا عندما أراد الامبراطور أدولف الثاني تأسيس حكومة مركزية قوية في ألمانية، لتتمكن من القضاء على الانقسام الدينى والخلافات الداخلية في بوهيميا. وكانت بداية هذا النضال عندما تحرك البروتستانت في بوهيميا ضد الاضطهاد الذي لحق بهم من قبل الامبراطور أدولف الثانى وأتباعه في القرن السابع عشر الميلادى. وقد **ثار البروتستانت والكلفينيون سنة ١٦١٨م في براج، وقبضوا على الأعضاء الكاثوليك في الحكومة، وألقوا بهم من النافذة**، وشكلوا حكومة جديدة من أعوانهم، وخلعوا الامبراطور الكاثوليكى وعينوا مكانه رئيس الاتحاد البروتستانتى. فردريك الخـامس، ناخب البـلاتين. وهكذا انتقلت الأمور من تهديد ونضال ومقاومة الى ثورة أهلية عارمة أدت الى حرب «أهلية أوربية دامت حوالى الثلاثين سنة»..

لقد مرت حرب الثلاثين عاما في أربعة أدوار هي :

- الدور البوهيمى البلاتينى (من سنة ١٦١٨ - ١٦٢٣ م).
- الدور الدانماركى (من سنة ١٦٢٤ - ١٦٢٩ م).
- الدور السويدى (من سنة ١٦٣٠ - ١٦٣٥ م).
- الدور الفرنسى - السويدى (من سنة ١٦٣٥ - ١٦٤٨ م).

الدور الأول (البوهيمى البلاتينى) :

ثار في هذا الـدور اللوثـريون والكلفنيون ضد الامـبراطور ماتياس وخليفته فرديناند وذلك لموقفهما المتعصب ضدهما. وبهذا ظهر حلف كاثوليكى يتألف من الامبراطور فرديناند يسانده مكسمليان، دوق بافاريا ورئيس الحلف الكاثوليكى المقـدس. وظهـر الحلف الـبروتستانتى الذي ضم اللوثريين والكلفنيين بزعامة فردريك الخـامس ناخب بلاتـين (الـراين) دارت معـارك حربية بين الحلفـين المتضادين، وكانت النتيجة أن انهزم البروتستانت سنة ١٦٢٠م في موقعة التل

الأبيض أمام الكاثوليك، وأسر من الكاثوليك فردريك الخامس. واستولى الكاثوليك على معظم المناطق البروتستانتية وأخذوا يعملون على عودة الكاثوليكية اليها وتثبيت دعائمها في هذه المناطق.

ونتج عن انهزام البروتستانت أمام الكاثوليك، أن قام بروتستانت أوربا بمساعدة بروتستانت ألمانيا، أخوانهم في المذهب. وكان على رأس هذه الجماعة جيمس الأول ملك انجلترا الذي كان يفضل أن تقوم مفاوضات بين أقوى دولة بروتستانتية وهى انجلترا وبين أقوى دولة كاثوليكية وهي اسبانيا من أجل حل النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا، وليكون ذلك من صالح فردريك الخامس زوج الياصابات ابنة جيمس الأول. كما ساعد حاكم سافوي شارل عمانوئيل البروتستانت عن طريق دفع الأموال اللازمة لتجنيد جيش مرتزق يحارب بجانبه ضد الكاثوليك. وقد تأسس هذا الجيش تحت قيادة «مانسفلد». كما أن هناك قوة سياسية قامت لتساعد البروتستانت في ألمانيا وهي قوة ملك الدانمارك كرسنتيان الرابع، وبهذا التحالف البروتستانتى الأوربى الجديد يبدأ الدور الثاني من أدوار الحرب.

لقد نتج عن حرب الدور الأول ما يلي:

- أخذ الاسبان (الكاثوليك) يحصنون منطقة الراين، وأخذوا يقومون مراكزهم ضد الفرنسيين والهولنديين.
- استعادت أسرة آل هابسبورج مركزها في بوهيميا، وأخذت تحشد قوتها على أعدائها. وانتخب فرديناند ملكا على بوهيميا. وصادر مايقرب من نصف ممتلكات النبلاء وأعطاها للكنائس الكاثوليكية، ولمن حاربوا بجانبه ضد البروتستانت والكالفنيين.
- تدفق الجزويت (اليسوعيون) على بوهيميا وأخذوا يؤسسون الكاتدرائيات والكنائس والمدارس والارساليات التبشيرية فيها. وهكذا تشكلت بوهيميا من جديد. وقد أخمدت أنفاس البروتستانت في النمسا.
- انحل الاتحاد البروتستانتى نتيجة لهذه الانتكاسة التى ألمت بهم بعد موقعة التل الأبيض.
- أصبحت السلطة العليا للبروتستانت بيد ملك الدانمارك الذي كان يضم تحت

سيادته مقاطعة هولشتاين التي تعتبر من الأراضي الألمانية الشمالية.

- العداء الجديد بين الكاثوليك والبروتستانت سيكون بين الكاثوليك بزعامة الامبراطور فرديناند وبين البروتستانت بزعامة ملك الدانمارك.

الدور الثاني (الدور الدانماركي):

في هذا الدور كانت الحروب الدينية الألمانية قد انتقلت من جنوب ألمانيا الى شمالها. وتزعم ملك الدانمارك كريستيان البروتستانت. الا أن النصر في هذه المرة ظل يحالف الجيوش الكاثوليكية التى تتفوق عددا على القوات البروتستانتية. وكان الجيش الكاثوليكى موزعا الى قيادتين الأولى يرأسها القائد تلى والثانية يرأسها القائد والنشتين النبيل الكاثوليكى الذى كان قد شكل جيشا من مختلف الجنسيات ممن اتخذوا القتال مهنة لهم. وممن فضلوا حياة النهب أداة طيعة بيده وليس بيد الامبراطور. وهذا ما أكسب ألبرت والنشتين قوة كبيرة حتى غدا لغزا محيرا في تاريخ حرب الثلاثين عاما.

ومن هنا فاننا نلاحظ أن الحرب الدينية في الدور الأول كانت حربا أهلية بين الولايات الكاثوليكية وبين الولايات البروتستانتية التى تعارض سيطرة الامبراطور لأنها كانت تعرف أنها سيطرة الكاثوليك عليهم، لأن الامبراطور هو زعيم الجانب الكاثوليكي في البلاد.

أما في المرحلة الثانية وما تبعها من مراحل حرب الثلاثين عاما فغدت الحرب الدينية حربا دولية أوربية تدخلت فيها كل من فرنسا وآل هابسبورج واسبانيا وهولندا، وملكى الدانمارك والسويد وأمير ترانسلفانيا.

والجدير بالذكر أن معظم المعارك قد دارت رحاها على الأرض الألمانية.

وتجدر الاشارة هنا أن الحرب الدينية المذكورة كانت قد تعقدت بسبب تعقد مصالح القوى المشتركة في الحروب، تلك المصالح التي كانت تنطوى على منافع شخصية، اذ أن كل واحد منهم طمع في اقامة امارة له. وكان كل قائد يحارب ويوقف القتال بالشكل الذي يريده ويوافق مصالحه، كما أن حلفاء الجانبين كانوا يخشون من ازدياد سلطة المنتصر، لذا كانوا دائما - ينقلبون على المنتصر لأنهم يخشون من اتساع سلطته.

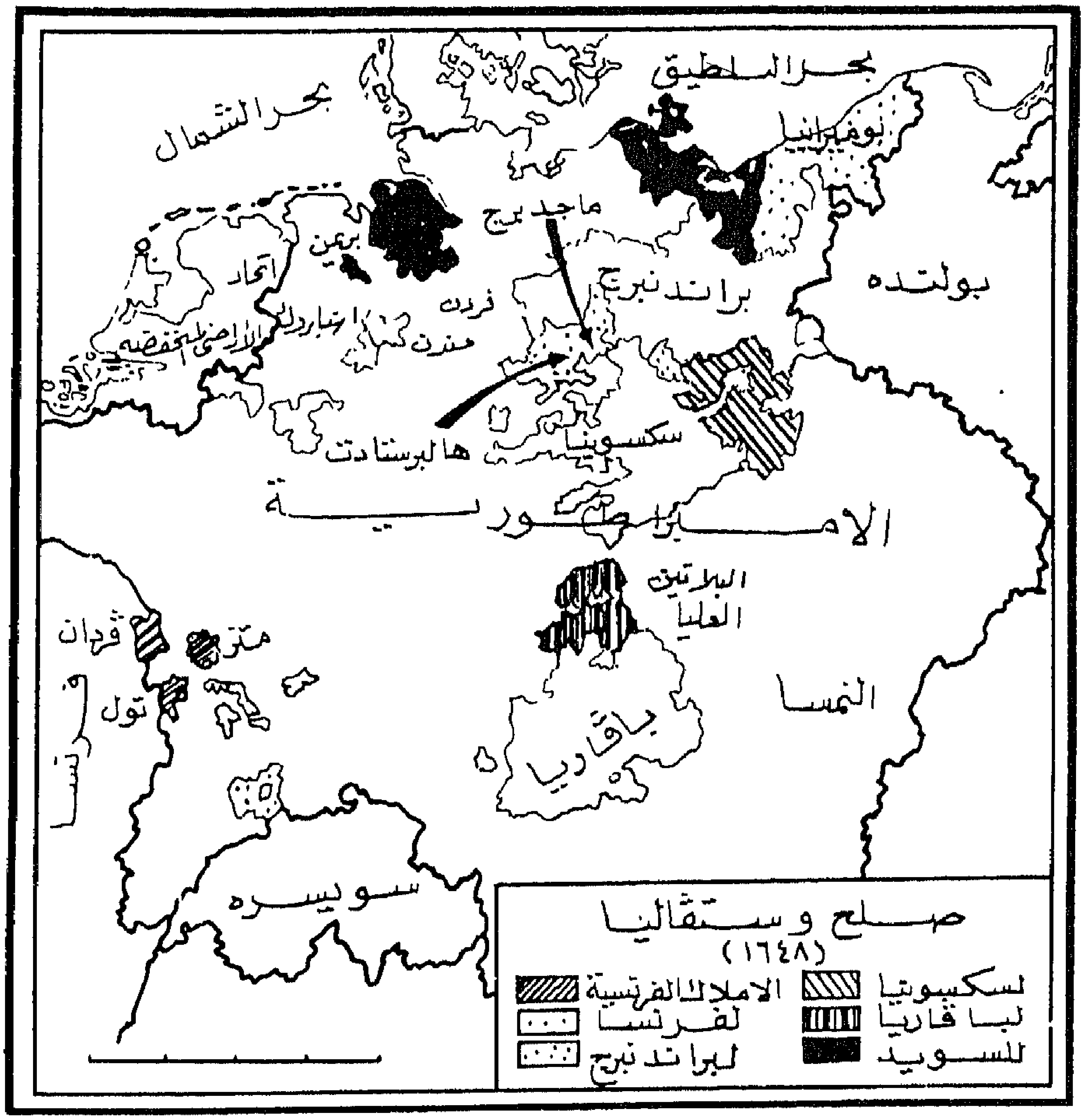

لقد كان ملك الدانمارك دوقا لامارة هولشتاين، وهي ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة. وكان ملك الدانمارك يهدف من وراء تدخله في الحرب الى جانب ما كان يتمتع به من عاطفة دينية تجاه البروتستانت اخوانه في المذهب، فالى جانب ذلك كانت هناك أهداف سياسية لهذا التدخل، فهو يأمل أن يمنحه الكاثوليك الألمان عددا من الأبرشيات في ألمانية تمكنه من انشاء مملكة باسم ولده الصغير، ولقد دخل الحرب معتمدا على مساعدة بعض الهولنديين والانجليز وعلى وعود ريشيلو الذي كان كاردينالا كاثوليكيا محنكا يهتم بمصالح الدولة الفرنسية من حيث الاطار الاقتصادى أكثر من أهتمامه بمصالح الكنيسة، ولذا كان كاردينالا دنيويا، وكان يشرف على شئون الدولة الفرنسية باسم ملك فرنسا

القاصر لويس الثالث عشر.

لقد تحاربت قوات الامبراطور فرديناند مع قوات ملك الدانمارك وأخذت تتدفق الأموال والأسلحة والجنود المرتزقة لمساعدة فرديناند من المؤيدين الكاثوليك وبخاصة في ألمانية، وبهذه القوة العسكرية زحف الكاثوليك على البلاتينات، وعلى بوهيميا مرة أخرى، ثم اتجهت هذه القوة نحو الشمال الى ا لمعاقل الداخلية للولايات البروتستانتية. **وأصدر الامبراطور الكاثوليكي مرسوما عام ١٦٢٩م** يأمر باعادة جميع الأقاليم الكنسية التى تعلمنت منذ سنة ١٥٥٢م الى الكنيسة الكاثوليكية. وقد شمل هذا المرسوم أبرشيتين واثنتى عشرة أسقفية وأكثر من مائة مقاطعة وكان مثل هذا الاجراء قد جعل البروتستانتية التى كان قد مر على ظهورها أكثر من قرن في ألمانيا، كان قد جعلها في وضع وكأنها لم تظهر في هذه البلاد الألمانية. وظهرت فكرة الامبراطور فرديناند القائلة بايجاد حكومة ملكية هابسبورجية تحكم أوربا بأمرها، وحاول أن يجعل من ألمانيا دولة بحرية تنافس دول الشمال. كما بحث امكانية تأسيس شركة تجارية ألمانية اسبانية لتنافس الشركة التجارية الدانماركية ـ الهولندية الانجليزية. ولقب قائده والنشتين بلقب أميرال البحر.

وقد نتج عن الحرب الدانماركية ـ الألمانية (بروتستانت ضد كاثوليك) ما يلى :

ــ أحرز الامبراطور فرديناند عدة انتصارات ضد جيش ملك الدانمارك، وذلك عن طريق الجيش الكاثوليكي بقيادة تيلى والجيش الامبراطورى بقيادة والنشتين. ولو كان لدى النشتين أسطول بحرى لاستطاع هذا دخول الدانمارك واحتلالها.

ــ ان صاحب الانتصارات الحربية في هذا الدور كان الجيش الامبراطورى بقيادة والنشتين. في حين كانت الانتصارات في الحرب الأولى تعود الى ما أحرزه الجيش الكاثوليكى من انتصارات سنة ١٦٢٣م. وكان هذا الجيش يتألف من حلف كاثوليكي، وكان الامبراطور في هذه الحالة عبارة عن سلطة تنفذ رغبات أعضاء الحلف.

ــ ظهرت أطماع والنشتين السياسية الرامية الى احياء سلطة الامبراطورية وتدعيم سيطرتها على أنقاض السلطات المحلية المتعدده في الامارات الألمانية،

ممـا أثار حفيظة الأمراء الكاثوليك والبروتستانت على السواء ضد أفكار والنشتين.

ـ أسس والنشتين لنفسه امارة في «ساجان» على أحد فروع نهر (الأورد)، وحصل من الامبراطور فرديناند على دوقية مكلنبرج، ممـا زاد من نقمة الأمراء على والنشتين.

ـ لقد أخذ الامبراطور ووالنشتين يفكران في احياء قوة ألمانيا البحرية في البحار الشمالية كي يتمكنا من القضاء على الممالك الاسكندنافية وأخذ يفرضان سيطرتهما على سواحل بحر البلطيق الجنوبي، فاحتلا ميناء ويسمار.

ـ حدث صلح لوبك سنة ١٦٢٩م وكان بين ملك الدانمارك كرستبان الرابع والقائد الامبراطورى والنشتين الذي فشل في فتح سترالسوند، ومن شروط هذا الصلح أن تسترد الدانمارك الأراضى التى أخذت منها نظير أن تتعهد بعدم تدخلها مرة ثانية في شئون ألمانيا.

ـ كانت محاصرة الجيش الامبراطورى لستر السوند وفشله في فتحها سنة ١٦٢٩م تمثل ذروة الانتصارات الكاثوليكية في ألمانيا. وكان الصلح قد أخرج الدانمارك من النضال البروتستانتى ضد الكاثوليك. وصار لا يوجد في كل البلاد الألمانية جيش يقدر على مقاومة الامبراطور. وبهذا العمل يكون القائد الكاثوليكي تيلى قد سيطر على جنوب ألمانيا. وأما القائد والنشتين وجيشه فسيطروا على شمالها.

لقد عزل والنشتين عن قيادة الجيش الامبراطورى في الأيام الأخيرة من الدور الثانى، وذلك تحت ضغط أعدائه من الأمراء الكاثوليك لأنه كان يرى أن يكون الامبراطور الألمانى هو صاحب السيادة في ألمانيا. وأن البلاد الألمانية ليست في حاجة الى ناخبين أو أمراء يقومون بانتخاب الامبراطور، وأن يعين ابن الامبراطور خليفة له بعد وفاته وذلك عن طريق الوراثة.

الدور الثالث (الدور السويدى) :

يعود السبب في دخول السويد الحرب الدينية المذكورة الى عدة أسباب هي:

أولا : الاندفاع العاطفى لملك السويد جوستاف أولف البروتستانتى الذي شعر أن انتصار الكاثوليك في ألمانيا الشمالية يشكل خطرا على البروتستانت الألمان،

ويشكل خطرا كذلك على السويد البروتستانتية. كما أن ملك السويد رأى التأييد الكامل الذي يلقاه ملك بولونيا من الامبراطور الألمانى الكاثوليكي، وهذا الموقف كان يضر بمركز جوستاف لأن الامبراطور الألمانى كان يرى ايصال ملك بولونيا الى عرش السويد لأنه من نفس عائلة ملك السويد. كما أن ملك السويد كان يرى أن تبقى ألمانيا الشمالية مناطق بروتستانتية لتكون حدا فاصلا بينه وبين امبراطورية الألمانية الكاثوليكية في الجنوب. وهناك سبب ربما يعود لتفكير ملك السويد في انشاء دولة بروتستانتية تتكون من السويد ومن شمال ألمانيا على غرار الامبراطورية الكاثوليكية في الجنوب.

ثانيا : كان ملك السويد يخشى من امتداد النفوذ الألمانى الكاثوليكى الى سواحل البلطيق، وكان ملك السويد يرى أن تكون السواحل البلطيقية الشمالية والشرقية والسواحل المتاخمة للحدود الألمانية كلها سواحل بحرية سويدية، كما أن ملك السويد كان قد أحس بخطورة الموقف عندما رأى التعاون البولونى - الاسبانى - الألمانى من أجل السيطرة على هذه السواحل.

ثالثا : شجعت فرنسا بواسطة وزيرها ريشيليو ملك السويد البروتستانتى ليدخل في الحرب ضد الامبراطور الكاثوليكى في ألمانيا، لأن فرنسا كانت ترى ضرورة اضعاف أسرة الهابسبورج في ألمانيا. وكانت فرنسا قد وعدت ملك السويد بمساعدته في هذه الحروب.

لقد توجه القائد تيلى الى مدينة مجدبرج سنة ١٦٣١ وأمعن جنده في نهبها. فكان هذا الحادث قد أثار حفيظة البروتستانت، فدخلوا في حلف مع ملك السويد البروتستانتى ضد الكاثوليك. وكان ناخب سكسونيا جون جورج وناخب براندنبرج جورج وليم في مقدمة هؤلاء البروتستانت.

تقدم ملك السويد وقابل جيش تيلى سنة ١٦٣١م في وقعة برايتنفاد بالقرب من ليبزج، وكان النصر في هذه الوقعة حليف ملك السويد. وكان هذا النصر نصرا حاسما مما جعل الكاثوليك يشعرون باليأس كما كان يشعر به البروتستانت من قبل.

كما أن الملك جوستاف تابع ملاحقته للجيش الكاثوليكى على نهر الدانوب

والمين والراين. وأنزل الجيش البروتستانتى هزيمة كبيرة بجيش تيلى في بافاريا. وكانت نتيجة المعارك أن سقطت بافاريا وميونخ في يد ملك السويد. وأصبحت مدينة فيينا مركز الامبراطور مهددة كذلك من قبل هجوم بروتستانتى عليها. وهذا ما دعا الامبراطور الى طلب النجدة من القائد الامبراطورى والنشتين. الا أن والنشتين اشترط في هذه المرة أن يكون هو القائد المسيطر على جيشه والحاكم المطاع عند هذا الجيش. -

اشتبك والنشتين مع جوستاف في معارك طاحنة حول نورمبرج وليبزج التى دارت فيها موقعة حاسمة بين الطرفين، انهزم فيها والنشتين وتقهقر جيشه. كما أن خسارة البروتستانت كانت فادحة لأنهم خسروا قائدهم القوى: وملكهم جوستاف في هذه المعركة.

وبعد موت جوستاف تولت ابنته القاصرة كريستينا العرض من بعده. وتابع البروتستانت حروبهم ضد الكاثوليك، الا أنهم هزموا أمام القوات الكاثوليكية في عدة مواقع حربية. فكانت نتيجة هذه الحروب أن استعاد الكاثوليك مكانتهم في ألمانيا.

وتجدر الاشارة الى أن الامبراطور الألمانى كان قد تخلص من قائد والنشتين الذي ضعف مركزه عندما انهزم أمام قوات جوستاف، وذلك عن طريق قتله بواسطة جماعة مغامرة من الأيرلنديين والاسكتلنديين في بلدة ايجر في فبراير سنة ١٦٣٤م قبل نشوب الحرب البروتستانية - الكاثوليكية الأخيرة.

وكانت نتيجة انهزام البروتستانت أن رأى ريشيليو الوزير الفرنسى أن تدخل بلاده الحرب ضد أسرة الهابسبورج الألمانية وهكذا أعلنت فرنسا الانضمام الى جانب السويد في الحرب.

الدور الرابع (الدور السويدى - الفرنسى) :

لقد تشجع ريشيليو ودخل الحرب بشكل مباشر عندما عرف أن مركز السويد سيصبح ثانويا بعد دخول فرنسا الحرب. وشجعة كذلك ارتماء البروتستانت في أحضان فرنسا من أجل أن تنقذهم من الهزائم المتلاحقة التى منوا بها من قبل الكاثوليكية بعد موت قائدهم الملك جوستاف. كما أن ريشيليو كان قد أسرع

للدخول في الحرب لأنه كان يتوقع نهاية الحرب الدينية في ألمانية، واذا لم تتدخل فرنسا فتصبح الفرصة عليها في خدمة مصالحها من جهة، وتكون كذلك قد سمحت لأسرة الهابسبورج في ألمانيا بتقوية مركزها من جهة أخرى.

لقد توصل ناخب سكسونيا البروتستانتى مع الامبراطور فرديناند الى **توقيع صلح جانبى في براج في مايو - يونية سنة ١٦٣٥م**. وكانت شروط هذا الصلح اعادة النظر في مرسوم استرجاع أملاك الكنيسة الذي كان قد صدر سنة ١٦٢٩م. فتم الانفاق في صلح براج على تعيين سنة ١٦٢٧م تاريخ لاسترجاع الأملاك الكنسية المأخوذة بعد هذه السنة الى الكنيسة الكاثوليكية على أن تبقى هذه الأملاك في حوزة أصحابها لمدة ٤٠ سنة، ثم بعد ذلك تعاد الى الكنيسة. وهذا يرينا أن صلح براج كانت بجانب البروتستانت، وكان مرحلة من مراحل التراضى بين الكاثوليك والبروتستانت. كما أن هذا الصلح كان يؤخر تنفيذ مرسوم مارس سنة ١٦٢٩م لمدة أربعين سنة.

كما ان الامبراطور كان قد استفاد من هذا الصلح عندما انضمت اليه مجموعة من الامارات البروتستانتية ما عدا امارة هس وكاسل وبادن وروتمبرج. والملاحظ أن صلح براج لم يشمل الكالفنيين، ويمكن القول إنه لولا تدخل فرنسا ذات المصالح في هذا الحرب لقدر لها أن تنتهى بشكل تدريجى، ويعود السلام الى ألمانيا ابتداء من سنة ١٦٣٥م، لذا يمكن القول إن حرب الثلاثين سنة في هذا الدور الأخير أصبحت حربا سياسية بحتة، أساسها النضال الفرنسى الأوربى ضد أسرة الهابسبورج نفس الأسرة الحاكمة في ألمانيا.

لم يستطع الامبراطور الصمود في وجه الحرب الجديدة لأن الألمان تعبوا من الحرب وويلاتها، وكانوا يتطلعون الى صلح وسلام دائم.

لقد أحرز الامبراطور نصرا مؤقتا على فرنسا حتى وصلت قواته الى قرب باريس، لكن الفرنسين استطاعوا فيما بعد أن يخرجوا الألمان من بلادهم. في حين تمكن السويديون من احراز انتصارات كبيرة في ألمانيا كما هو الحال في واقعة ويتستوك في أكتوبر سنة ١٦٣٦م، وسقطت بيد السويد مقاطعات براندبرج وبومبرانيا وسكسونيا وثورنجيا وجزء من فرنكونيا،وكان من حسن حظ البروتستانت

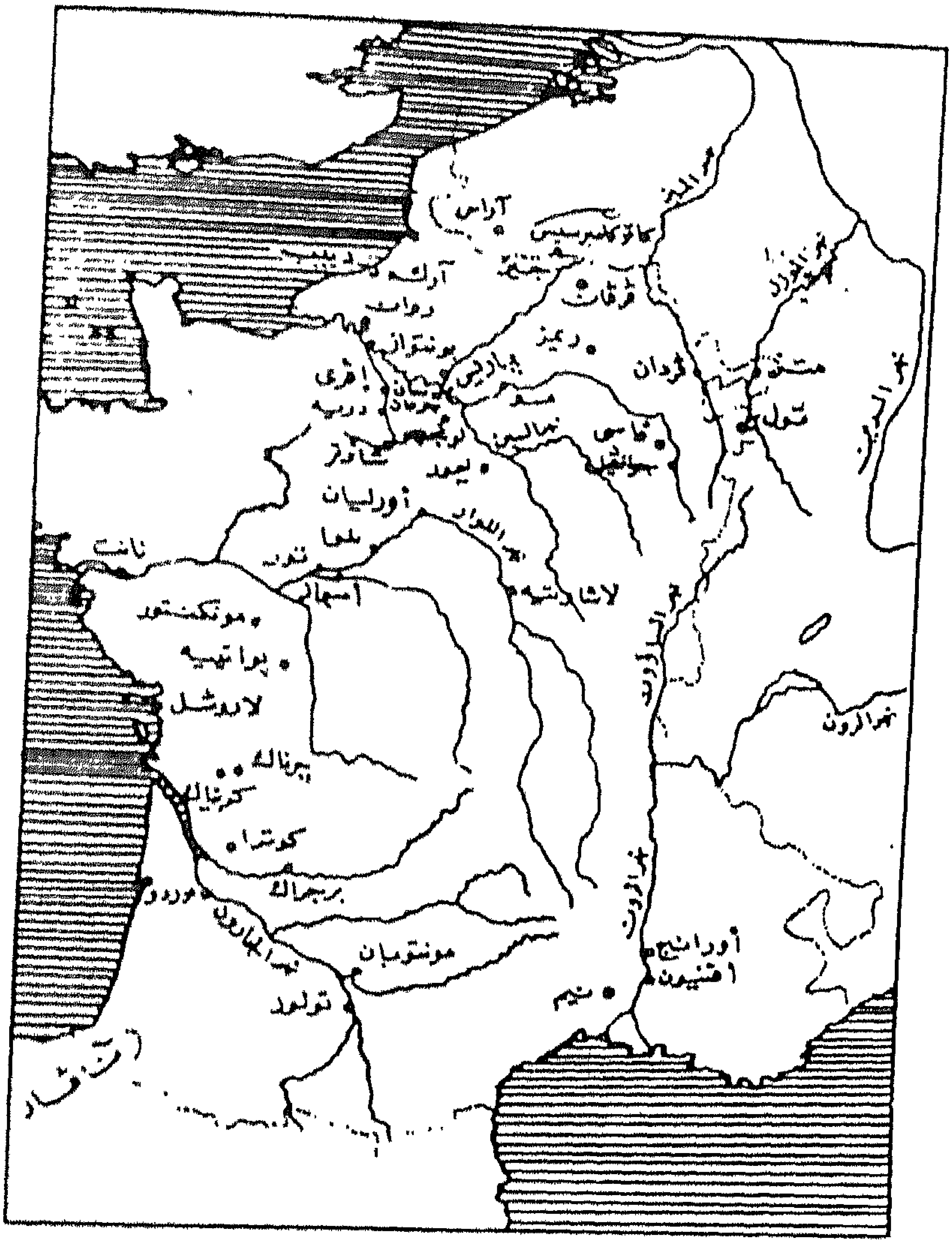

فرنسا أثناء الحروب الدينيـة

أن توفى الامبراطور فرديناند سنة ١٦٣٧م، وتولى ابنه ـ الاقل منه كفاءة ـ شؤون الحكم بعده.

وقد استمرت الحرب، واستطاع الفرنسيون أخذ الألزاس سنة ١٦٣٩م، وكانت هذه الانتصارات البروتستانتية قد جعلت البابا والامبراطور الألماني يعملان جادين من أجل إنهاء الحرب وبخاصة بعد أن أصبح البروتستانت يهددون فيينا عاصمة الامبراطور.

وأخيرا وبعد الهزائم المتلاحقة للامبراطور فرديناند الثالث، اضطر الى قبول الصلح. وكانت المفاوضات قد بدأت في الحال من أجل ايجاد صلح بين المتنازعين لأن الطرفين الكاثوليكي والبروتستانتى شعرا بخطورة الأعباء الجسيمة التى تكبدتها البلاد الأوربية نتيجة الحرب الطويلة هذه. فاجتمع المفاوضون في وستفاليا سنة ١٦٤٣م. ومع أن الحرب استمرت بعد مفاوضات وستفاليا، فان الامبراطور ظل يفاوض السويد والامارات البروتستانتية وظل يتفاوض كذلك مع فرنسا في مونستر.

وأخيرا تم توقيع الصلح في مونستر من أعمال وستفاليا في ٢٤ اكتوبر سنة ١٦٤٨م، وبهذا الصلح انتهت حرب الثلاثين عاما التى استمرت من سنة ١٦١٨م حتى سنة ١٦٤٨م.

صلح وستفاليا :

لقد كانت حرب الثلاثين عاما حربا دينية سياسية، كما أنها كانت حربا ألمانية أوربية. لذا كان على المفاوضين أن يضعوا حلولا للمسائل الدينية والسياسية التي أدت الى الحرب، وذلك لتجنب قيام حرب جديدة.

لقد كانت أهم هذه المسائل: المسائل الدينية. فكان لابد من وضع قاعدة قوية يرتكز عليها السلام بين الكاثوليك والبروتستانت. وهناك المسائل السياسية الناجمة عن القضايا الدينية، للأراضى التي ستحصل عليها كل من فرنسا والسويد من ألمانيا، وذلك كثمن لانتصار هاتين الدولتين. كما كان لابد من ايجاد ترتيبات سياسية واقليمة معينة في الامارات نفسها حتى يعود السلام الى ربوع البلاد الألمانية.

والمسائل التى سويت في هذا الصلح كانت كالآتى:

أولا ـ المسائل الدينية :

فقد أقر صلح وستفاليا القرارات التي صدرت في صلح بساو سنة ١٥٥٢م وصلح أوجزبرج سنة ١٥٥٥م في شأن الأمور الدينية، فكانت جميع هذه القرارات تنص على أن لكل أمير من أمراء ألمانيا الحق في اختيار المذهب الذي يريده في امارته. والاضافة الجديدة في صلح وستفاليا هو أن اعترف بمذهب كالفن. ويلاحظ من قرارات مؤتمرات الصلح وهذه أنها عملت على ايجاد تسامح دينى

مع الأمراء ولم تعمل على ايجاد تسامح دينى مع الأفراد. وهكذا نلاحظ أن هذه القرارات جعلت الأمور الدينية تقرر من قبل أمراء الامارات.

أما بالنسبة لاملاك الكنيسة الكاثوليكية فقد حددت سنة ١٦٢٤م سنة يقوم عليها الفصل في الأملاك المذكورة. فقرر الصلح أن يحتفظ كل من الكاثوليك والبروتستانت بالأملاك التي كانت في يده في أول يناير سنة ١٦٢٤م بدلا من سنة ١٥٥٢م. وكان من محاسن هذا القرار أن أبقى جميع الأسقفيات الكاثوليكية في الجنوب بيد الكاثوليك. وأبقى جميع الأسقفيات في الشمال بيد البروتستانت حيث ان البروتستانتية انتشرت في الشمال بشكل واسع جدا.

ثانيا ـ توزيع الأراضى بين الدول المتحاربة:

لقد حصلت السويد على عدة اسقفيات كاسقفيتى، بريمن وفردن في الشمال، وعلى الجزء الأكبر من مقاطعة بوميرانيا الغربية، وبهذا صارت السويد تسيطر على مصاب نهر الأودر والب.

أما فرنسا فقد حصلت على بلاد الألزاس النمساوية وكذلك بريسال وتبقى بيدها تول ومتز وفردان التي حصلت عليها سنة ١٥٥٢م. وحصلت على قلعة بنيرولو وسط مملكة بيدمنت الايطالية.

وهكذا نلاحظ من هذا التوزيع في الأراضى أن فرنسا أصبحت تيسطر على أعالى الرين، وهذا بدوره أدى الى استمرار العداء بين فرنسا وألمانيا.

ثالثا ـ الترتيبات السياسيــة داخل ألمانيا:

نال الأمراء حق السيادة في امارتهم وصار لهم حق عقد تحالفات فيما بينهم أو مع الدول الأجنبية. وبهذا صارت الامارات مستقلة، وهذا أدى الى تمزيق الوحدة الألمانية الى أوصال متعددة.

كما أن ناخب براندنبرج نال تعويضا عن بوميرانيا الغربية التى أخذت السويد. فأعـطى أسقفيات مجدبـرج، وهلبرستات وميدن وكامبن. كما أصبح وارثا شرعيا لبوميرانيا الشرقية، وأعيدت له سيادة دوقيات كليف، ورافنزبرج. وبهذا نال هذا الناخب حصة الأسد في هذا الصلح لم ينله أي أمير كاثوليكى أو بروتستانى في ألمانيا.

أما الدوق مسكمليان دوق بافاريا فقد احتفظ باقليم البلاتينات العليا، وبلقب ناخب في الامبراطورية أما البلاتينات السفلى فضمت الى ابن فردريك الخامس وأصبح ناخبا في الامبراطورية وبهذا ازداد عدد الناخبين في ألمانيا الى ثمانية بدلا من سبعة.

ونلاحظ مما سلف أن ألمانيا أصبحت بعد الحرب بلادا مفككة الأوصال، ومنهارة القوى الاقتصادية، ولا ترتبط اماراتها بعضها ببعض سوى بروابط ضعيفة مثل: الدياط (المجلس الامبراطورى). هذا وانفصلت سويسرا عن الامبراطورية الألمانية انفصالا قانونيا، في حين كانت في السابق ترتبط قانونيا بالامبراطورية المذكورة، وبذلك انقسمت ألمانيا الى ما يزيد على ثلثمائة وخمسين ولاية وأصبح كل أمير يدعى الاستقلال في ولايته.

ومن نتائج صلح وستفاليا أن أنهى هذا الصلح الحروب الطويلة بين أسبانيا والأراضى المنخفضة الهولندية، واعترف باستقلال هولندا رسميا.

ومن نتائج الصلح في أوربا أن دخلت البلاد الأوروبية في طور تاريخى حضارى جديد. فقد حمى الصلح البروتستانتية من الأخطار التي كانت تهددها. وقد اختفي الاضطهاد الديني بين الكاثوليك والبروتستانت في أوربا.

وكان من نتائج هذا الصلح أن انقسمت أوربا الى قوتين سياسيتين هما: الملكية المطلقة والديمقراطية الجمهورية. وقد دعم الكاثوليك الملكية المطلقة في أوربا. في حين دعم الكالفنيون الديمقراطية المحدودة. أما اللوثرية فقد اتخذت موقفا وسطا بين اللكاثوليك والكالفنيين بالنسبة لدعم القوتين المذكورتين، ولكنها كثيرا ما كانت تميل إلى الاستبداء أكثر من ميلها للديمقراطية، لأنها اعتدت على الأمراء الذين أرادوا زيادة سلطانهم في أوربا. وهكذا ظهرت في أوربا دول استبدادية مثل فرنسا وبروسيا ودول البلطيق واسبانيا، كما ظهرت دول ديمقراطية مثل هولندا وانجلترا.

ولقد أنهى الصلح الانقسامات الدينية في أوربا، وأنهى عهد الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى لحد ما، ومما ساعد الحكومات الأوربية على تقوية مركزها بنفسها دون الاعتماد على الكنيسة، وظهرت النزعة الأوربية القائلة باحترام

العقيدة، في حين أخذت الدول تقوى وتتطور بتطور مصالحها الاقتصادية وبتطور علاقاتها الخارجية مع جاراتها ومنافساتها.

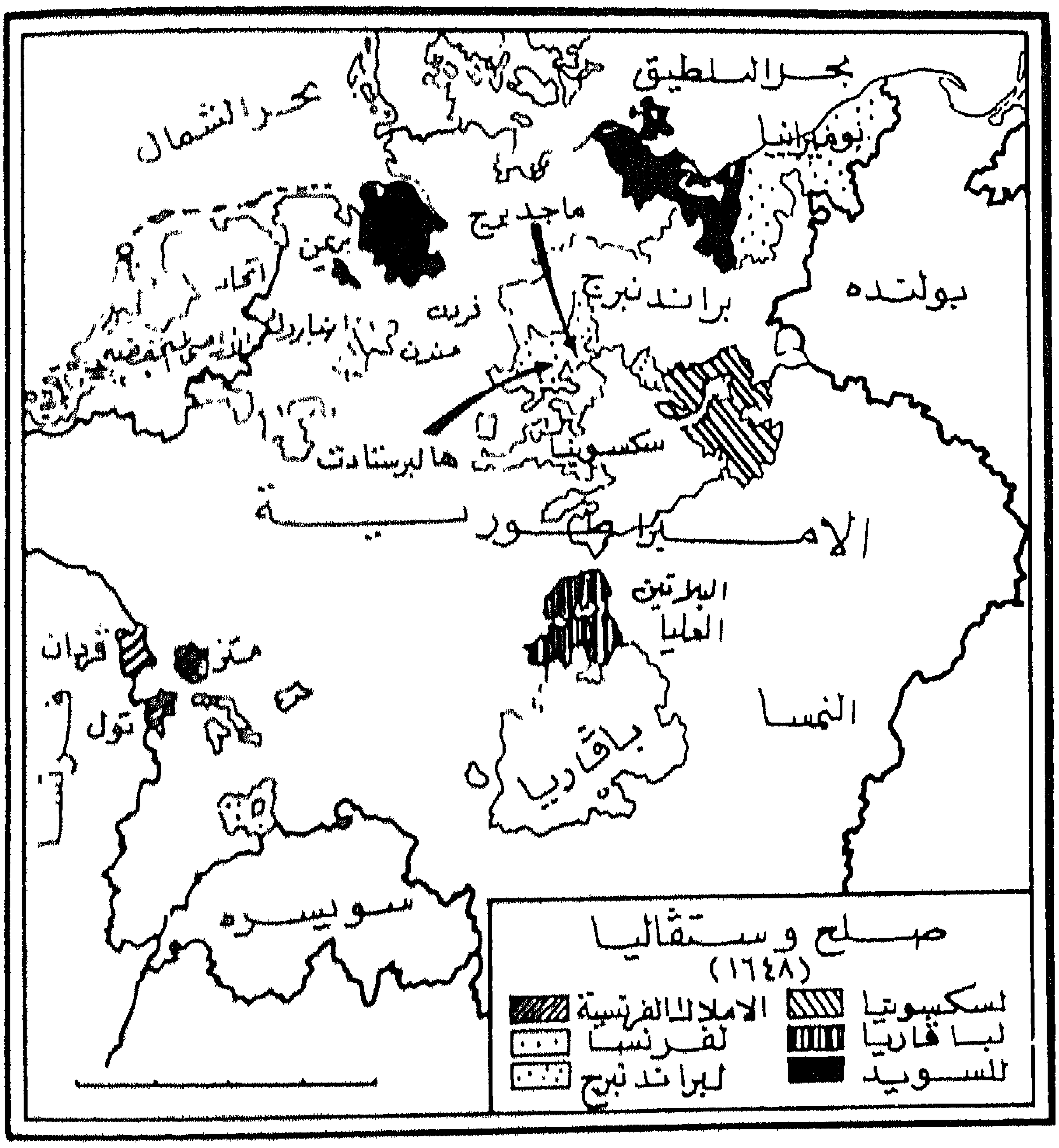

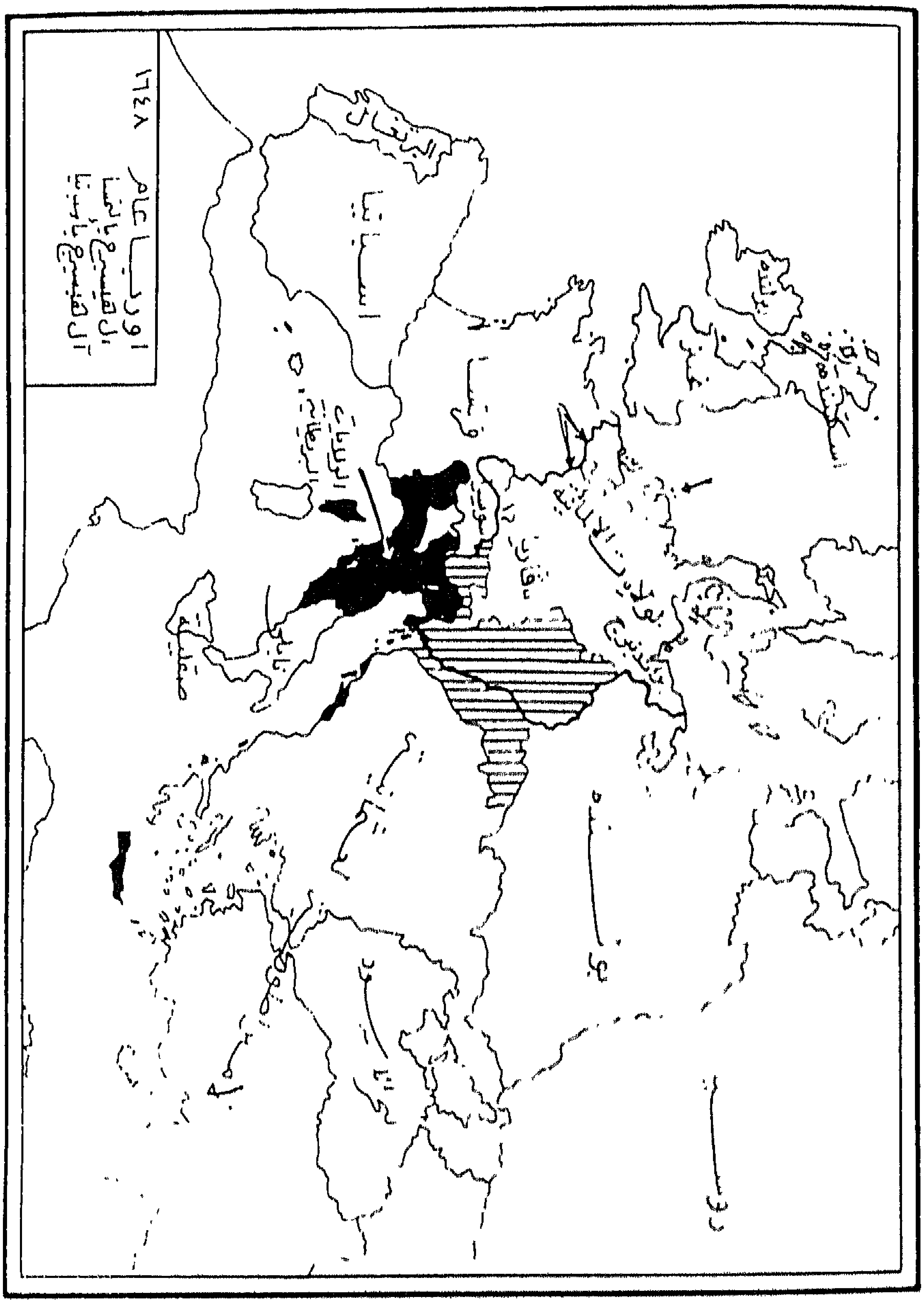
أوروبا عام ١٦٤٨

مراجع في موضوع الاصلاحات الدينية ونتائجها في أوربا يمكن الرجوع إليها :-

أولاً : المراجع العربيـــة : -

١- د. *محمد فؤاد شكرى* و د. *محمد أنيس* : أوربا في العصور الحديثة، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

٢- د. *عبد العزيز الشناوى* : أوربا في مطلع العصور الحديثة، دارالمعارف بمصر.

٣- د. *سعيد عاشور* : أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

٤- *جون هامرتن* : تاريخ العالم: المجلد السادس، مترجم، ادارة الثقافة العامة بمصر.

٥- د. *نور الدين حاطوم* : تاريخ عصر النهضة الأوربية، دار الفكر بلبنان

٦- *جيمس وستفال وآخرون* : حضارة عصر النهضة، دار النهضة العربية بالقاهرة.

٧- د. *جلال يحيى* و د. *جاد طه* : معالم التاريخ الأوربى الحديث، مطبعة المعارف بالاسكندرية.

٨- *هربرت فيشر* : أصول التايخ الأوربى الحديث (من النهضة الأوربية الى الثورة الفرنسية) مترجم، دار المعارف بمصر.

٩- *روبرت د. بالمر* : تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول (أوربا) مترجم، مكتبة الوفاء بالموصل.

١٠- *كريستوفر دوسن* : تكوين أوربا، مترجم، الناشر مؤسسة سجل العرب بالقاهرة.

١١- د. *سعيد عبدالفتاح عاشور* : أوربا العصور الوسطى، الجزء الثاني، (النظم والحضارة)، مكتبة النهضة المصرية.

المراجع الأجنبيـــــة :-

1. Cambridge Modern History, Vol II
2 T. M Lindsay, Luther and the German Reformation
3 P Smith The Life and Letters of Martin Luther
4 L Hausser The period of the Reformation
5. F C. Palm: Calvinism and the Religious Wars
6. W. Walker: John Calvin.
7. A. W. Ward: The Counter-Reformation
8 A. J Bulter: Wars of Religion in France (Cambridge Modern History, Vol III).
9 D. Neal· History of Buritans
10 H F. Henderson, Calvin in his Letters
11 J. L. Motley: Rise of the Dutch Republic (3 Vols)
12 D. Ogg. Europe in the 7th Century
13. S.R. Gardner: The Thirly Year's War
14. C Wedgewood: Thirty year's War.
15 Hallandorf and schuck, History of Sweden

الفصل الرابع
انجلترا في القرنين
السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

سنركز باهتمام في دراستنا لتاريخ انجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين على قضيتين بارزتين هما :

فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما الكاثوليكية في عهد أسرة آل ثيودور. وحركة التطور الدستورى في عهد أسرة آل ستيورات. ومما لاشك فيه أن هاتين القضيتين البارزتين قد لعبتا دورا خطيرا في تحديد شخصية انجلترا في تاريخها الحديث والمعاصر.

يبدأ تاريخ الشعب الانجليزي كأمة حديثة منذ فتح النورمنديون لبلادهم عام ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح دوق نورمندية، وقد استوطن النورماندیون البلاد وامتزجوا مع أهلها الانجليز ومن امتزاجهم هذا نشأ الشعب الانجليزي الحديث تحت حكم ملوك أقوياء لم يقتصر حكمهم على انجلترا فقط بل أصبحت نورمندية تابعة للتاج الانجليزي منذ أن اتخذ وليم الفاتح انجلترا مقرا له. ثم اتسعت الأملاك الانجليزية في فرنسا، وأدى ذلك الى «**حرب المائة عام**» التي كان لها أبعد الأثر في تاريخ الدولتين والتي يرجع أصلها الى تصميم ملوك انجلترا على البقاء في ممتلكاتهم الفرنسية، والى عزم ملوك فرنسا على اجلاء الانجليز عن بلادهم، وأخيرا لم يستطع الانجليز الاحتفاظ بالأراضى الفرنسية التي كانت تابعة لهم، لأن الشعب الفرنسي نفسه أخذته العزة وثارضد الاحتلال الانجليزي. وتجلت قوته الوطنية فيما قامت به جان دارك من بطولة نادرة، اذ تألبت بفضل حماستها وتضحيتها جميع القوى التي طردت الانجليز من الأراضى الفرنسية، وبعد عامين

فقط من جلاء الانجليز عن فرنسا نشبت في انجلترا نفسها حرب أهلية وهي حرب الوردتين (١٤٥٥ ـ ١٤٨٥م)، وهي الحروب التي سميت بهذا الاسم اشارة الى الوردة البيضاء التي كانت شعار آل يورك، والوردة الحمراء التي كانت شعار آل لانكستر وهما: أسرتان تنتميان الى أصل واحد ولكنها متنازعتان على العرش.

وقد فاز آل يورك في حرب الوردتين عام ١٤٧١م الا أن ملكهم (ريتشارد الثالث) لم يكن موفقا في حكمه، وأغضب الشعب بارتكابه أفعالا منكرة منها، وقتل ابنى أخيه ادوارد الرابع، فاستطاع هنرى ثيودور من أسرة لانكستر أن يكتسب تأييد الشعب وينتزع العرش من أسرة يورك ويؤسس أسرة ثيودور القوية التي قدر لها أن تقود البلاد حقبة من الزمن (القرن السادس عشر) كانت مليئة بالمصاعب الدينية والسياسية.

أسـرة آل ثيودور:

يعتبر هنري السابع (هنرى لنكستر) الذي حكم من سنة ١٤٨٥م الى ١٥٠٩ المؤسس لأسرة ثيودور. وقد تمكن هنرى السابع هذا من القضاء على منافسيه في السلطة، وسيطر على الأمور في انجلترا، ولقد استفاد هنرى من البرلمان الانجليزي فائدة كبيرة عندما استصدر من هذا البرلمان مجموعة قوانين وتشريعات برلمانية مكنته من تدعيم مركز الملكية في أسرة ثيودور. وكان من أهم هذه القوانين: قانون خاص بتأسيس قاعة النجم سنة ١٤٨٧م، وهي محكمة لها سلطة واسعة تعمل على مراقبة النبلاء، واضعاف نفوذهم في انجلترا. واستصدر قانونا يسمح بتقديم المعارضين للعرش الى محاكم خاصة تحاكم بتهمة الخيانة، وقد سن هذا القانون سنة ١٤٩٥م. واستصدر قانونا حرم على النبلاء جمع الأتباع والاعتماد عليهم في مهاجمة الخصوم سنة ١٥٠٤م. واستصدر قانونا خاصا بفرض سيطرة الملكية على الشئون الصناعية سنة ١٥٠٤م. وبهذه القوانين الأربعة استطاع هنرى السابع أن يؤسس حكومة ملكية ذات سلطة تامة في انجلترا. وأنهى بذلك عهدا من الحروب الاقطاعية والأسرية كانت قد أضعفت البلاد. لقد فتح هنرى عهدا جديدا من الاستقرار الذي كان فاتحة لتقدم اقتصادى وحضارى في البلاد.

الاصلاح الديني البروتستاني والملك هنري الثامن:

لقد خلف الملك هنرى الثامن أباه هنري السابع في حكم انجلترا سنة ١٥٠٩م، وظل في الحكم حتى سنة ١٥٤٧م.

وكانت أولى أعماله أن استصدر قوانين من البرلمان الانجليزى ساعدت على انتشار الاصلاح الدينى البروتستانتى في انجلترا، وأدت هذه القوانين الى اقرار فصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما الكاثوليكية. وكانت هناك مسألتان هامتان أدتا الى هذا الانفصال الدينى وهما أولا، أن الملك هنرى الثامن كان يريد التخلص من زوجته كاترين الأرغونية والزواج من آن بولين بدلا منها. وكانت كاترين هذه هي ابنة الملكين فرديناند وايزابيلا، وكانت متزوجة من الأخ الكبير الملك هنرى الثامن المسمى آرثر. وبعد موت آرثر تزوج الملك هنرى كاترين ليبقى على العلاقات الطيبة مع ملك الاسبان الكاثوليكي. ولقد تم هذا الزواج باذن من البابا يوليوس الثاني. ولما ساءت العلاقات بين هنرى الثامن وملك اسبانيا شارل الخامس، اغتنم هنرى الخامس الفرصة فطلق زوجته كاترين وتزوج من آن بولين احدى سيدات البلاط الانجليزي التي كانت تؤثره على الملك هنري. وهذا الطلاق كان السبب المباشر في الانفصال الدبلوماسي الذي حدث بين الامبراطور شارل الخامس والملك هنري الثامن. وثانيا: لقد شعر الملك هنري الثامن بضيق شديد بعد أن قوى مركز الامبراطور شارل الخامس عندما هزم الملك الفرنسي فرانسوا الأول في بافية سنة ١٥٢٥م، وكان هذا الضيق يعود لتفوق مركز الامبراطور شارل الخامس في أوربا. وتحت ضغط هذين العاملين اتخذ هنري الثامن عدة قرارات هامة منها: أمر هنري الثامن بعزل وزيره ولزى وعين بدلا من الوزير **توماس كرومول** الذي كان صلب العود، ويؤمن بسياسة الغاية تبرر الواسطة، ويؤمن كذلك بضرورة فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما. لذا أقنع كرومول الملك هنرى الثامن باتباع خطة أدت بالتالي الى فصل الكنيسة في انجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية في روما، وأصبحت كنيسة انجلترا بعد هذا الانفصال تحت سيادة هنرى الثامن، وقد كانت خطة كرومول أن يعمل الملك ما كان قد عمله الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية، وذلك عن طريق تأسيس كنائس أهلية في اماراتهم. وقد اقتنع الملك بالخطة، واقنع بدوره البرلمان الذي

وافق على انشاء كنيسة أهلية وطنية أصبح الملك رئيسا لها. وكان من الأسباب التي أدت الى اقتناع الملك بالفكرة الكرومولية رغبته الشديدة في الطلاق من زوجته الكاثوليكية كاترين والزواج من آن بولين، وكذلك حبه في السيطرة على جميع الأموال التي كانت ترسل الى كنيسة روما. ولأنه رأى في الخطة الكرومولية تقوية لسيادته على انجلترا عندما يصبح السيد الأعلى للعلمانيين والدينيين.

لقد كانت الظروف العامة في انجلترا في عهد هنرى الثامن تساعد على قيام الاصلاح الدينى فيها وتساعد على نجاح انفصال الكنيسة في انجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وذلك:

١ــ شعر الانجليز بضرورة قيام الاصلاح الدينى في الكنيسة بعد انتشار حركة التعليم والمعارف في انجلترا بعد قيام مصلحى أكسفورد هذا الى جانب ما لمسه الانجليز من مساوىء في الكنيسة الكاثوليكية. وخير ما يمثل هذه المساوىء: انتشار الجهل مما أفسد تلقين العقيدة الكاثوليكية. وزاد الطين بلة عندما انتشرت عملية بيع صكوك الغفران وأصبحت عملية مالية بحتة.

٢ــ كان الناس في انجلترا يرغبون في وضع حد للبابوية فيها لأنها في نظرهم تمثل قوة أجنبية تتدخل في حياة البلاد الدينية. لذا رأى الناس تأييد الملكية الانجليزية التي عملت على استتباب الأمن والاستقرار بعد حرب الوردتين.

٣ــ كان البرلمان الانجليزي مستعدا لتأييد الاصلاح الدينى مادام هذا لا يتعارض مع العقيدة وكان البرلمان لايرى مهاجمة الكاثوليكية أو المساس بها، وانما كان يرى ضرورة القيام باصلاحات لمفاسدها الكثيرة في انجلترا.

البرلمان والاصلاح الدينـــى:

اجتمع برلمان الاصلاح في سنة ١٥٢٩م (أو ما يسمى ببرلمان السبع سنوات) لأنه استمر في الانعقاد لمدة سبع سنوات متتالية من أجل اصدار القوانين الاصلاحية من جهة، ومن أجل إخضاع رجال الدين في انجلترا لسلطة الملك الذي أصبح يلقب حامي الكنيسة في انجلترا اعتبارا من سنة ١٥٣١م من جهة أخرى.

لقد اشتد هنرى الثامن في اخضاع رجال الدين الى سلطة الملك، فاستصدر

من البرلمان قوانين تمنع ارسال الأموال من انجلترا الى البابوية في روما. كما أنه استصدر قوانين تمنع رجال الدين في انجلترا من اصدار قوانين أو لوائح تنظيمية تتعلق بأمور الكنيسة من غير موافقة الملك. كما أن القوانين المستصدره حرمت على رجال الدين تعيين الأقارب في الوظائف الكنسية من غير موافقة الملك، كما عملت على ازالة بعض المساوىء الكنسية الأخرى. وفي سنة ١٥٣٣م عين الملك توماس كرانمر في مركز رئيس الأساقفة في كانتربري على الرغم من رفض الباب مكنث السابع لهذا التعيين. ومن أجل أن يثبت الملك هنرى الثامن زواجه من آن بولين التي تزوجها سرا في يناير سنة ١٥٣٣م، ومن أجل منع زوجته الأولى كاترين من أن ترفع قضية في روما، لهذا كله استصدر قانونا يقضى بمنع استئناف القضايا في روما. وفي ٢٣ مايو ١٥٣٣م صدر قرار كرانمر رئيس أساقفة كانتربري بالغاء زواج الملك من كاترين الأرغونية وأقر شرعية زواجه من آن بولين التي توجت ملكة على انجلترا ولهذه القرارات أصدر البابا في روما قرار الحرمان سنة ١٥٣٣م ضد هنرى الثامن وأعلن البابا كذلك أن زواج هنرى الثامن من كاترين لايزال قائما. وكان رد هنرى على قرارا الحرمان بأن استصدر من البرلمان قانونا يجعل وراثة العرش لابنته آن بولين بدلا من ابنته مارى من زوجته الأولى كاترين على اعتبار أن مارى كانت قد ولدت خارج نطاق الزوجية الشرعية. وفي سنة ١٥٣٤م استصدر البرلمان الانجليزي قانونا ينص على أن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة في انجلترا، وأعطى الملك كل السلطات السياسية والقانونية التي كان البـاباوات يتمتعون بها سابقا في انجلترا. واستصدر قانونا آخر يقضى باعتبار المعـارض والمنتقد لشخص الملك خائنا يجب معاقبته تحت قانون الخيانة. وفي مارس ١٥٣٦م أصـدر الـبرلمان قانونا يحل الأديرة الصغيرة وكانت ٣٧٦ ديرا، واستـولى الملك على ايراداتها. ثم صدر قانون آخر سنة ١٥٣٩م بحل الأديرة الكبيرة وكانت ٢٠٠ دير، وحصل الملك على ايرادتها، وقدرت ايرادات الأديرة بـ ١٣٥,٠٠٠ جنيه سنويا.

وجدير بالذكر أن الملك هنري الثامن لم يكن قد أتجه باصلاحاته الدينية الى حد تغيير العقيدة الكاثوليكية الى البروتستانتية، وانما ظل هنري كاثوليكيا، وظلت القوانين المستصدرة تدعو الى نبذ الخلافات في العقيدة. وكان البرلمان الانجليزي

قد أصدر قوانين المواد الست من أجل اقرار العقيدة الكاثوليكية في أهم مسائلها: القربان والاعتراف. ومع هذا كله فان هنرى الثامن كا قد سمح للمذاهب الاصلاحية اللوثرية والكالفينية والزونجلية بالانتشار في انجلترا. وكان الوزير كرمول يرى أن يظل الباب مفتوحا لعودة الوئام بين انجلترا وكنيسة روما، وأن عددا كبيرا من رجالات انجلترا كانوا لايرون الانفصال النهائي عن كنيسة روما، وكان الجميع متفقين على اصلاح المفاسد وتطهير الطقوس الكنيسة مما يشوبها من البدع، ولهذا أمر هنرى الثامن بترجمة الانجيل الى الانجليزية، واستخدمت ترجمة وليم تنديل في كنيسة انجلترا.

أما الأسباب التى أدت بهنرى الى عدم تناوله العقيدة فتعود الى: وقوع الاضطرابات العديدة التي صاحبت حركة الاصلاح الدينى في انجلتر والى تبدل الظروف السياسية اذ تحول هنرى الثامن في علاقاته الخارجية عن مساعدة الحلف البروتستانتى (حلف شمالكد). وصار جل اهتمامه مركزاً على موضوع النزاع القائم بين فرانسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس امبراطور اسبانيا في ايطاليا. وبهذا يكون هنرى قد وجد فرصة سانحة للتخلص من مساعدة هذا الحلف لأنه رأى لا ضرورة لاستمالة البروتستانت في ألمانيا. كما أنه كان قد طلق زوجته آن بولين وتزوج بعدها جين سيمور ثم آ كليف الألمانية ثم كاترين هوارد الكاثوليكية التي تخلص منها بعد اعدامها سنة ١٥٤٢م، ثم تزوج بعدها من زوجته الأخيرة كاترين بار. وبعد هذا الزواج عدل قانون الوراثة سنة ١٥٤٣م وجعله من نصيب ادوارد ابنه من زوجته جين سيمور، واذا مات هذا بدون أن يخلف وريثا فتكون مارى ابنته من كاترين الأرغونية خلفا له، واذا لم يكن لمارى خلف ورثتها أختها الياصيات ابنة آن بولين. ويهمنا هنا أن القانون الانجليزي كان قد اعترف بشرعية مارى ابنة كاترين الأرغونية الكاثوليكية. وتوفي الملك هنرى الثامن في ٣٨ يناير ١٥٤٧م بعد أن كان قد وضع جذور قضية فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما، تلك القضية التي استمرت أحداثها في عهد خلفاء هنرى.

الملك ادوارد السادس
وقضية فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما:

تولى ادوارد الحكم من سنة ١٥٤٧م حتى سنة ١٥٥٣م. وكان هذا الملك

صغيرا، يبلغ التاسعة من عمره عندما تولى الحكم. ولكن والده هنرى الثامن كان قد رباه تربية بروتستانتية، وذلك عندما عهد بتدريسه الى جماعة من المدرسين الذين يميلون للنهضة والعلوم والاصلاح الدينى كما أن الملك هنرى كان قبل وفاته قد عين لابنه مجلس وصاية من جماعة تؤيد الاصلاح الدينى والاستمرار فيه الى أبعد مما كان عليه في عهد هنرى الثامن نفسه. وكانت هذه الاجراءات كفيلة لأن تحافظ على استمرار عملية الاصلاحات الدينية في انجلترا بعد موت هنرى الثامن.

لقد ساعدت الظروف السياسية في انجلترا عملية الاصلاح الدينى عندما تولى منصب حامى المملكة شقيق والدة الملك الدوق سوموست الذي كان يعتبر من مؤيدى الاصلاح الدينى في البلاد، وكان سومرست من الذين اعتنقوا مذهب كالفن، وتعاون سومرست مع كرانمر فسارا بالاصلاح الديني شوطا أبعد مما كان عليه زمن الملك هنرى الثامن. فتناول التغيير العقيدة الكاثوليكية نفسها. وهكذا بدأت عملية الاصلاح بتحطيم الصور والتماثل الدينية، وبالغاء الطقوس الكاثوليكية والقداس وأبيح الزواج للقس، وتقرر قراءة الكتاب المقدس باللغة الأهلية (الانجليزية) الى جانب اللاتينية، ووضع كتاب جديد للصلاة سنة ١٥٤٩م أعدته لجنة كانت تحت اشراف كرانمر، وأصدر البرلمان قانون العقيدة الواحدة سنة ١٥٤٩م، ويقول هذا القانون بالتزام نظام واحد للعبادة في انجلترا، وكانت جميع هذه الاصلاحات تقوم على أساس المبادىء البروتستانتية.

ولقد نتج عن هذه التغيرات في انجلترا في عهد الملك ادوارد السادس ما يلي:

أولا : قامت اضطرابات داخلية في انجلترا نتيجة للتغيرات الدينية الجديدة ونتيجة لقيام حركة سميت «بحركة اغلاق المزارع» أي أن أصحاب المزارع فضلوا تربية الأغنام للاستفادة من صوفها بدلا من الاهتمام بالزراعة. فأخرجوا الزراع الصغار من أراضيهم وأحاطوا بأسوار من حولها حتى لايدخلها الزراع الصغار.

ثانيا : قامت فوضى أخرى نتيجة لسيطرة كبار الملاك على أملاك الأديرة المحلولة.

كما تغير النبلاء وكبار الملاك والأغنياء على سومرست لأنه حاول العطف على صغار المزارعين. فتآمروا عليه مما أدى الى سقوط حكومته في أكتوبر سنة ١٥٤٩م، وانتهى الأمر باعدامه سنة ١٥٥٢م. وبسقوط سومرست نقلت الوصاية من بعده

الى دوق نورثمبرلاند الذي أنهى نظام الوصاية، وتسلم الملك سلطاته الاسمية لأن السلطات الفعلية كانت بيد دوق نورثمبرلاند.

سار نورثمبرلاند على النهج الاصلاحى نفسه الذي سار عليه الملك هنرى الثامن. فاستصدر قوانين برلمانية جديدة ككتاب الصلاة الجديد. وأمر باتلاف كل كتب الصلاة القديمة واستصدر القانون الثاني للمذهب الواحد الذي يؤيد القانون الأول بنصه، وينص هذا القانون على معاقبة كل من يخالف هذه التعليمات. واستمر في عملية تحطيم التماثيل والصور. وأصدر البرلمان سنة ١٥٥٢م قانونا يتهم بالخيانة كل من يعارض التاج الانجليزي ولو كانت المعارضة شفوية. وكانت هذه الاجراءات من أجل ضمان سلطان الملكية في انجلترا.

واجه نورثمبرلاند صعوبات منها، زيادة الاضطرابات الداخلية نتيجة لزيادة الاصلاحات الدينية، ونتيجة لاستمرار عملية اغلاق المزارع هذا الى جانب مشكلة الوراثة، وهي أن نورثمبرلاند أراد أن يغير قانون الوراثة من مارى والياصابات لأنهما غيرشرعيتين، إلى جين جراي وهي حفيدة احدى شقيقات هنرى الثامن. ومن أجل اتمام هذه الغاية أراد نور ثمبرلاند أن يزوج جين بأحد أبنائه كوسيلة للسيطرة على الحكم. ولكن هذه المؤامرة كانت قد فشلت عند وفاة ادوارد السادس في يوليو سنة ١٥٥٣م. وانقلب الوضع ضد جين جراى ونور ثمبرلاند وأعلنت ملكية الملكة مارى ثيودور الوريثة الشرعية بعد أن ألقى القبض على نورثمبرلاند.

ماري ثيـــودور:

وهي ابنة كاترين الأرغونية، وهي كاثوليكية متعصبة لكاثوليكيتها تسلمت الحكم من سنة ١٥٥٣م. وقد رأت هدم الاصلاح الدينى كله في انجلترا، وارجاع عهد الكنيسة الكاثوليكية في البلاد. فبدأت بتنفيذ هذه الرغبة على مرحلتين:

المرحلة الأولى (١٥٥٣ - ١٥٥٤ م):

أمرت مارى باحراق كرانمر وهو حى مع عدد من الأسافقة البروتستانت الذين زاد عددهم على مئتى أسقف. واستصدرت قانونا برلمانيا يأمر بالغاء كتابى الصلاة

المعمول بهما في انجلترا منذ حكم هنرى الثامن. وألغت جميع الاصلاحات والتعديلات التى أدخلت على العقيدة.

المرحلة الثانية (١٥٥٤ - ١٥٥٨ م):

تزوجت مارى ثيودور من فيليب الثاني ملك اسبانيا الكاثوليكى في يناير سنة ١٥٥٤م. وفي سنة ١٥٥٥م صدر قانون الالغاء الثاني الذي يشمل الغاء القوانين الصادرة ضد البابوية منذ أيام هنرى الثامن مثل: قانون «السيادة العليا» لسنة ١٥٣٤م، والقوانين الأخرى التي صدرت زمن الملك ادوارد السادس، وظل القانون المتعلق بحل الأديرة سارى المفعول، فاستحوذ النبلاء على قسم كبير من أراضى الأديرة وأملاكها في انجلترا. وكان هذا الاجراء هو ضريبة دفعتها مارى ثيودور للنبلاء الانجليز نظير استئناف العلاقات الدينية مع كنيسة روما، وارجاع سيادة البابوية من جديد في انجلترا.

وكان هذا التطرف الكاثوليكي في عهد مارى قد قابلة تذمر شعبي لذا أطلق الانجليز على مارى اسم «مارى الدموية» لأنها تشددت في اضطهاد المخالفين. وهذا الأمر أدى الى ازدياد الفتن والاضطرابات. وهذا بدوره أدى الى ضرورة التفكير في ايجاد حل وسط بين التطرف البروتستانتى وبين التطرف الكاثوليكي في انجلترا، والعمل على تأسيس كنيسة في انجلترا تحفظ التاج موحدا، وترضى الجانب البروتستانتى والكاثوليكي معا وتكون هذه الكنيسة مؤيدة تماما للملكية في انجلترا. ولذا اعتبر عهد مارى عهد رجعة بالأمور الدينية والسياسية الى ما قبل عهد والدها هنرى الثامن. وتكون مارى قد قلبت الأوضاع في انجلترا رأسا على عقب.

الياصابات (١٥٥٨ - ١٦٠٣ م):

كانت الياصابات قد تلقنت العقائد المسيحية زمن الملك ادوارد السادس، وكانت معجبة باعتراف أو جزبرج اللوثرى. وكانت تميل الى الهجونت في فرنسا، ومع هذا فهي غير متعمقة بالدراسات الدينية. فكانت تجهل تماما الكاثوليكية، مما جعل الكاثوليك المتطرفين يعملون على عرقلة توليها عرش انجلترا، واعتبروها ابنة غير شرعية، وحاولوا كذلك اغتيالها في أثناء القداس الكاثوليكي

الذي تم زمن الملكة مارى ثيودور وحضرته الياصابات مرغمة، وبهذا فقد علق البروتستانت آمالا كبيرة على الياصابات.

قررت الياصابات اتباع سياسة معتدلة لأنها لم تكن متعصبة لأي مذهب وبأسلوبها هذا استطاعت أن تقيم صرحا قويا للكنيسة الانجليكانية أو **نظام الياصابات الكنسى**. وقام هذا النظام على قانونين هما: قانون السيادة العليا وقانون المذهب الواحد، وكلاهما صدر في سنة **١٥٥٩**م. وينص قانون السيادة العليا على ارجاع العلاقة بين الكنيستين: الانجليزية والرومانية، كما كانت في عهد هنرى الثامن. وهذا يعنى انفصال الكنيستين مع خضوع كنيسة انجلترا لسيطرة السلطة الزمنية مع فارق بسيط، وهو أنه بدلا من أن يستخدم لقب رئيس أعلى للكنيسة كما كان في عهد هنرى الثامن، أصبح يستخدم لقب «الحاكم الأعلى للمملكة» وألزم رجال الدين والعلمانيين بأن يحلفوا يمين الطاعة للملكة، وألا يكونوا خاضعين لسلطة أجنبية (أي سلطة البابا). وكان الغرض من هذا القسم هو حرمان الأساقفة الكاثوليك من تبعيتهم لروما حتى تكون الأكثرية الدينية والعلمانية مؤيدة للملكة في مجلس اللوردات. ونص القانون الجديد على معاقبة المعارضين والمخالفين لهذا القانون ومعاقبة من يقبلون سيادة أجنبية عليهم في جميع الشئون الروحية والزمنية.

أما بالنسبة لقانون المذهب الواحد. فكان معناه تخلى الياصابات عن موقف والدها هنرى الثامن من العقيدة. وسارت شوطا بعيدا في تغيير العقيدة لدرجة جعلتها قريبة من العقيدة التي صارت بعد التغيير الذي حدث على يد كرانمر في عهد الملك ادوارد السادس. فقررت كتاب الصلاة الثاني لسنة **١٥٥٢**م، وأدخلت تعديلات جعلت العدد الكبير من الناس ينحازون الى العبادة الجديدة. وبهذا فان التعديلات في عهد الياصابات تنحاز الى الاصلاحات الدينية البروتستانتية.

وجاء التغيير في عهد الياصابات على نوعين، أولا: تغيير متعلق بالتماثيل والطقوس وملابس القساوسة، وكان هذا التغيير الشكلي أميل الى الكاثوليكية منه الى البروتستانتية.

وثانيا: تغيير متعلق بالعقيدة وبخاصة في موضوع القربان فقد اعتبرته الكنيسة

الانجيكانية بأنه عبارة عن حفلة تذكارية لاسداء الشكر والحمد، وهو من أهم أفكار زونجلى. وجاء في نصوص قوانين المذهب الانجليكانى بأن زواج رجال الدين (القساوسة) أمر قانوني ولكن مع عدم التشجيع عليه. وطلب من القساوسة اختيار الملابس البسيطة ، وترينا هذه الأمور مدى سلطان الملكية على الشئون الدينية والزمنية على جميع رعاياها. ونلاحظ أن التغيير الذي جاء في البند الثاني كله تغيير يعتمد في أصوله وجوهره على المذهب البروتستانتى.

ويمكن القول إن الكنيسة الانجليكانية كانت في مظهرها كاثوليكية وفي عقيدتها بروتستانتية. وقد عارض **المتطرفون البروتستانت** الياصابات وانقسموا الى فريقين؛ فريق متطرف معتدل أنكر على الكنيسة الانجليزية الجديدة مظاهرها الكاثوليكية، ولكنهم رضوا بها لأنهم كانوا يقولون بأنها ستتعدل تدريجيا بشكل يتلاءم وعقائدهم. **وعرفت هذه الجماعة «بالمتطهرين»**.

وفريق ثان وهم من **غلاة المتطرفين من البروتستانت** الذين رفضوا الخضوع للنظام الانجليكانى **وعرفوا باسم «الانفصاليين»**. وقد عاقبهم القانون الانجليزي، وكانوا يرون ان تكون الكنيسة بروتستانتية في المظهر والعقيدة. كما لاقى الوضع الجديد معارضة شديدة من **الكاثوليك المتزمتين**، حتى انهم أخذوا يعملون على التخلص من الملكة والنظام الانجليكاني. وكانوا يرون أن خلاصهم من هذه الورطة يكون بمساعدة فيلب الثاني ملك اسبانيا والبابا لهم ضد الياصابات. أما الياصابات فمالت الى البروتستانت في الأراضى المنخفضة والهجونوت في فرنسا، وهكذا ظهر عداء جديد بين مؤيدي البروتستانت ومؤيدى الكاثوليك. وظهرت بداية هذا النزاع عندما ظهرت بوادره بتوتر العلاقة بين الياصابات وبين مارى ستيورات ملكة اسكتلندة التي كانت في فرنسا عندما تزوجت من الملك الفرنسي فرانسوا الثاني، وبعد وفاته عادت مارى الى اسكتلندة وبدأت تحيك المؤامرات والدسائس ضد الياصابات، لأنها كانت تحلم بعرش انجلترا. ولكن حدثت ثورة في اسكتلندة من الشعب والنبلاء ضد مارى ستيورات، فهربت مارى على أثرها الى انجلترا، وهناك فكرت الياصابات في التخلص منها، وتم لها ذلك بعد ان نفذت فيها حكم الاعدام سنة ١٥٨٧م. وبعد هذا رأي الكاثوليك في شخص فيليب الثاني وسيلة لعودة الكاثوليكية الى

انجلترا. فقدموا له الشكاوي المتعددة والوفود المتلاحقة ضد الياصابات. فأرسل هذا الملك الاسباني الكاثوليكي أسطولا اسبانيا ضخما (الأرمادا) لمحاربة انجلترا سنة ١٥٨٨م، لكن الأسطول الانجليزي استطاع تحطيمه عندما تراجع من القتال الانجليزي تحت ضغط الملاحين الانجليز وسفنهم الحربية، وتحت ضغط الريح المعاكس لحركته وتعرضه لعاصفة شديدة في بحر الشمال. وهكذا تحطمت تماما سفن الأرمادا على شواطىء اسكتلندة وايرلندة في أغسطس سنة ١٥٨٨. وهكذا انتهت سيادة أسبانيا على البحار. وتحطمت كل آمال الكاثوليك الانجليز والاسكتلنديين والرومان من عودة كنيسة انجلترا الى الكاثوليكية. وقضى كذلك على أحلام الكاثوليك الرامية للتخلص من الياصابات. وهكذا توطدت الكنيسة الانجليكانية في انجلترا، وخرجت انجلترا من نضالها ضد اسبانيا ظافرة دينيا وسياسيا.

وفي ٢٤ مارس سنة ١٦٠٣م توفيت الياصابات بعد حكم طويل، وبوفاتها انتهى عصر الأسرة الثيودورية في انجلترا وبدأت أسرة جديدة تحكم انجلترا هي أسرة ستيورات.

اسرة آل ستيوارت والثورة الدستورية:

بعد انتهاء عهد أسرة ثيودور في انجلترا، جاءت أسر ستيورات الى الحكم، وكانت هذه الأسرة ترى تقليد نظام الحكم في فرنسا، وأن تكون لها حكومة ملكية انجليزية على نمط حكومة فرنسا في عهد كل من لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر. الا أن هذا الأسلوب فشل في انجلترا بسبب قيام الثورة الدستورية التى تؤيد النظام البرلماني فيها. وقد نجحت هذه الحركة الدستورية في ادارة شئون البلاد السياسية والمالية والتجارية والحربية. وهكذا نلاحظ أن قضية جديدة ظهرت بوادرها في عهد أسرة آل ستيورات وهي تطور الحركة الدستورية في البلاد.

جيمس *الأول* (١٦٠٣ - ١٦١٥ م):

حكم جيمس الأول بعد الملكة الياصابات. وهو ابن لمارى ستيورات وأقرب وريث للعرش الانجليزي. وقد كان ملكا على اسكتلندة. وارتقى عرش انجلترا بسبب أن هناك رغبة في عمل اتحاد بين انجلترا وأسكتلندة. والملاحظ على هذا

الملك أنه كان يؤمن ايمانا تاما بنظرية حق الملوك المقدس السائدة آنذاك في أوربا. وكانت شخصيته تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية الياصابات.

لقد عجز جيمس عن اكتساب محبة الشعب بسبب ميله الى الحكم المطلق (نظرية التفويض الالهي). وكان يرى أن من حق الملك أن يصدر أي قانون دون أن يستشير فيه أعضاء البرلمان. وكان يدعي أنه فوق القانون بحجة أنه هو الذي يصدر القوانين، وأن الملك لايستمد قوته من الشعب بل من الله الذي اختاره لحكم شعبه، وأنه وحده الذي منحه الله السلطة لتوطيد النظام واقامة العدل في البلاد، فهو مسئول أمام الله وحده، وليس لأحد من الشعب أن يحاسبه على أعماله.

على أنه أثار سخط البرلمان بسبب تجاهله للدستور، وتحدى البرلمان في اختصاصاته المالية عندما حاول أن يفرض ضرائب غير مباشرة أو قروضاً متذرعا بماله ما حقوق، كما صارح اللوردات وأعضاء مجلس العموم بأن اختصاصاتهم ليست قائمة على حق لأنها منحة من الملك، وأن واجب النواب مقصور على اقرار موارد الدولة والتعبير فقط عن آراء ناخبيهم. أما تخطيط السياسة العليا للدولة والكنيسة فمن شئون الملك الانجليزي وحده ولا يشاركه فيها أحد من أبناء الشعب الانجليزي.

وقد أثارت تلك الأفكار الاستبدادية أعضاء البرلمان، فتقدموا باحتجاج سجلوا فيه أن حرية البرلمان امتيازاته واختصاصاته حقوق أصلية قديمة لاشك فيها وقد توارثها الشعب الانجليزي. وأن المسائل الخطيرة والشئون العاجلة المتعلقة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة انجلترا ووضع القوانين وصيانتها وانصاف المظلومين كلها موضوعات ومسائل من اختصاص البرلمان يتشاور فيها أعضاؤه ويتناقشون.

اصطدم حكم الملك جيمس الأول بمعارضة البرلمان الانجليزي له لتمسكه الشديد بنظرية الحق المقدس للملوك في أوربا وبخاصة أن البرلمان الانجليزي كان برلمانا قويا وله سلطة نافذة منذ أيام الملك هنرى الثامن وطيلة فترة حكم أسرة ثيودور. وكان هذا البرلمان الانجليزي يشارك الملك في حكم البلاد. وهذا ما جعل من الصعب حلة في عهد أسرة ستيورات. وهكذا حدث اصطدام بين الملك جيمس الأول والبرلمان الانجليزي بسبب تمسك جيمس بموقفه وتمسك البرلمان في

المحافظة على سلطتة وشخصيته.

ومع أن الظروف التي تولى فيها الحكم جيمس الأول كانت حسنة، حيث تم انتصار الأسطول الانجليزي على الأسطول الاسباني الأرمادا سنة ١٥٨٨م، وحيث تمت لانجلترا السيطرة البحرية على بحار الشمال والبلطيق والمتوسط، وزال الخطر في الداخل باعلان سيادة الكنيسة الانجليكانية والمذهب الواحد، ودخول المتطهرين في الكنيسة الانجليكانية. ومع هذا كله فان جيمس الأول اختلف مع المتطهرين (البيوريتان) وذلك نتيجة لسوء تصرفه، فقد حمل عليهم في اجتماع هاملتون كورث وعدهم من أعداء الاصلاح الدينى الكنيسى، وكان بالامكان استرضاء هذه الجماعة بشكل بسيط في تعديل بعض الطقوس الدينية والمظاهر الشكلية. كما أن الملك جيمس طرد القساوسة الذين لم يقوموا بالطقوس الدينية بشكل دقيق من وظائفهم الدينية، وبهذا العمل يكون جيمس قد ضم القساوسة المطرودين الى جانب اعدائهم المتطهرين. وما لبث أن حنق عليه الكاثوليك وأخذوا يتآمرون عليه وعلى الحكومة وأعضاء مجلس اللوردات والعموم ووضعوا المتفجرات لنسف البرلمان الانجليزي في **٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥م**، أو ما تسمى في التاريخ الانجليزي **«بمؤامرة البارود»** وكانت هذه الفعلة قد أثارت حفيظة البروتستانت ضد الكاثوليك الذين ظلوا ولمدة قرابة قرنين من الزمان مضطهدين في انجلترا.

دخل الملك جيمس الأول في نزاع آخر مع البرلمان حول المسائل المالية. وكان بالامكان استمالة البرلمان بقليل من الحنكة والصبر، الا أن جيمس الأول عمل اجراءات عنفية حين أمر بفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان، فأدى هذا الاجراء الى نزاع سافر بين الملك والبرلمان كان من نتائجه أن أمر الملك بحل مجلس النواب ثم مجلس اللوردات.

وزاد في حقد الشعب الانجليزي على الملك عندما رفض الملك دخول الحرب الى جانب البروتستانت الألمان، وأيد سياسة السلم في أوربا، لأنه أصبح مقتنعا بعدم قدرته على دخول الحرب الأوربية بسبب حاجته الماسة للأموال. وتطبيقا لسياسة السلم التي انتهجها جيمس فقد رأى أنه من الأفضل ايجاد تفاهم مع اسبانيا الدولة الكاثوليكية الكبرى. وكان الملك جيمس الأول قد أمر **باعدام**

السيرولتر في سنة ١٦١٨م، وهو أحد أبطال عهد الياصابات لأنه كان قد هاجم قرية صغيرة في ممتلكات اسبانيا بأمريكا الجنوبية. كما أن جيمس الأول كان قد التزم الحياد في الصراع بين البروتستانت والكاثوليك في ألمانيا. وكانت نتيجتها أن طرد صهرالملك جيمس الأول وهو فردريك الخامس من حكم البلاتينات بعد أن دخلها الكاثوليك. ومع أن جيمس حاول حل الأزمة عن طريق تزويج ابنه من أميرة اسبـانية، فان خططه باءت بالفشل. ومات سنة ١٦٢٥م قبل أن يدخل مع اسبانيا في حرب. وبعد موته خلفه ابنه شارل الأول في حكم انجلترا.

***شارل الأول** (١٦٢٥ - ١٦٤٩ م) :*

تولى الحكم بعد موت أبيه جيمس الأول سنة ١٦٢٥م. ومن صفاته أنه شديد التسمك بنظرية الحق المقدس للملوك. وكان يميل الى الحكم المطلق. وكان كثير التشبث في آرائه وخططه وأفكاره.

لقد واجه شارل الأول القضايا نفسها التي واجهها والده جيمس الأول، مثل مقاومة البيوريتان، واصطدامه مع البرلمان الذي غدا ينتقـد الحكم بصراحة، في حين كان البرلمان يحترم شخص الملك احتراما كبيراً زمن الياصابات ومن قبلها ادوارد السادس وهنرى الأول. وظل هذا البرلمان مطيعا حتى نهاية حكم جيمس الأول.

وقد زادت المشكلات في عهد شارل الأول، عندما تزوج من أميرة فرنسية هي هنرييت ماريا، شقيقة لويس الثالث عشر ملك فرنسا الكاثوليكي. واتفق شارل كذلك مع لويس الثالث عشر بأن يكون للويس حق السيادة على الكاثوليك الانجليز.

وقد تأزمت الأوضاع بين الملك والبرلمان عندما عين الملك دوق بكنجهام قائدا للحملة الموجهة ضد اسبانيا. ولما انكسر هذا القائد طالب البرلمان الملك باعفائه من الخدمة العسكرية لعدم مهارته القتالية، الا أن الملك لم يقبل هذا الطلب بالرغم من أن دوق بكنجهام كان موضع سخط الشعب منذ عهد والده جيمس.

وزاد الطين بلة عندما دخل الملك الحرب ضد فرنسا لمساعدة الهجونت الذين حاصرهم ريشيليو في مدينة لاروشيل. ولما كان يتعذر حصول الملك على ضرائب

برلمانية، اضطر لأن يفرض على الأغنياء ضرائب اجبارية، الأمر الذي أدى الى زيادة السخط الشعبى ضد الملك وبخاصة بعد فشل هذا التدخل سنة ١٦٢٧م. وقد أدى ذلك بالملك الى طلب المزيد من الأموال عن طريق موافقة البرلمان على ضرائب جديدة، ولكن البرلمان أصر على ألا يوافق على القيام بمثل هذه الاجراءات، الا بعد أن يصلح الملك المفاسد التي يشكو منها البرلمان والشعب. وقدمت للملك **عريضة عام ١٦٢٨م عرفت «بملتمس الحقوق»** وهو عهد جديد يعترف للأمة بحقوقها منذ قيام العهد الأعظم سنة ١٢١٥م، وقد وافق الملك على هذه الحقوق. واعتبرت وثائق ملتمس الحقوق من أهم وثائق التاريخ الانجليزي. وضمت **وثيقة ملتمس الحقوق** مجموعة مطالب منها: ألا تفرض ضرائب أو قروض على الشعب بدون موافقة البرلمان. وألا يسجن أحد من أبناء الشعب الانجليزي سجنا تعسفيا الا بما تقتضية قوانين البلاد. وألا يسخر الشعب لايواء الجند والبحارة في منازلهم أو استضافتهم بأي حال من الأحوال.

ولكن السخط الشعبى استمر في انجلترا بعد أن أرسل الملك حملة أخرى سنة ١٦٢٨م الى فرنسا لمساعدة الهجونت وعادت هذه الحملة الى انجلترا فاشلة للمرة الثانية. ومع أن الملك الانجليزي حاول ان يبهر الأمة الانجليزية بانتصارات حربية في الخارج، الا أنه فشل في ذلك.

طالب الملك البرلمان باعتماد الضرائب الجمركية المعتاد اعتمادها عند تولى أي ملك أو ملكة الحكم. وهي ضرائب على البضائع تظل سارية المفعول في فترة حكم الملك، الا أن البرلمان رفض توقيع هذه اللائحة الضرائبية مالم يعمل الملك حكما سليما في البلاد، وهذا أحدث تصادما بين الملك والبرلمان سنة ١٦٢٩م وبخاصة بعد محاولات ا لمصالحة التي لم تفلح بين الطرفين. ومما زاد الأمر خطورة تفاقم النزاع الديني بين الملك والبرلمان. وكان الشعب الانجليزي يؤيد البرلمان ويدعمه ضد الملك بسبب ماذاع من أنه يميل الى العودة الى المذهب الكاثوليكي ولا سيما أن زوجته كانت كاثوليكية. وهكذا فان العوامل المالية والدينية عملت على قيام الحرب بين الملك والبرلمان. ولقد حكم الملك بدون برلمان من سنة ١٦٢٩م الى ١٦٤٠م. وكانت الأزمات المالية والبرلمانية والدينية قد أجبرت الملك على توقيع صلح مع اسبانيا وفرنسا سنة ١٦٣٠م.

لقد حكم الملك شارل انجلترا حكما دكتاتوريا مطلقا، وجمع بيديه كل السلطات السياسية والدينية، واستعان بمستشارين لادارة شئون الأسقفية في البلاد كانوا يؤيدون سياسة الملك المطلقة على الشعب، ومن هؤلاء: المستشار وليام لود الذي عمل رئيسا لأسافقة كانتربري والذي حاول اجبار جميع رجال الدين على استعمال كتاب الصلاة، ودفع الشعب الانجليزي الى قبول طقوس دينية كان أميل نحو طقوس الكاثوليكية الرومانية. كما استعان الملك بالمستشار توماس ونتورث في ادارة شئون الدولة.

وزاد الموقف سوءا عندما طلب الملك شارل من الشعب ضريبة السفن التي فرضها على الموانى في البلاد وعلى المدن الداخلية كذلك. فكان على كل ميناء ومدينة أن يمد الملك بسفينة. ولكن الملك شارل طلب أن تستبدل هذه السفن بمبالغ من المال، وكانت جميع هذه الاجراءات بدون استشارة البرلمان فكانت هذه قد أثارت حفيظة الشعب الانجليزي ضد شارل وحكومته. ولقد تمرد أحد أشراف الريف على طلب الملك هذا معتمدا في حركته على مبادىء العهد الأعظم وملتمس الحقوق التي تمنع جباية الضرائب بدون موافقة البرلمان.

وزاد الأمر سوءا عندما أجبر شارل الشعب الاسكتلندى بأن يقبل كتاب الصلاة الانجليزي وطقوس الكنيسة الانجليكانية، مما أدى الى مقاومة أسكتلندة لمثل هذه الاجراءات، لأن الاسكتلنديين كانوا من البروتستانت غير الانجليكان. وقد أدت هذه الاجراءات الى تأسيس جيش أسكتلندى أخذ يغزو انجلترا، وعرفت هذه الحرب «**بالحرب الأسقفية الأولى**» **سنة ١٦٣٩م**، والتي انتهت بهزيمة الملك شارل وعقده هدنة مع الاسكتلنديين، وكان لهذا الانكسار أثر على شارل الذي اقتنع بضرورة انشاء جيش انجليزي قوى، وهذا بدوره يحتاج الى أموال لابد من فرضها على الشعب الانجليزي، وعندها لابد من عودة البرلمان الى الانعقاد لاصدار مثل هذه الضرائب، لذا قرر الملك استدعاء البرلمان الى الانعقاد سنة ١٦٤٠م.

لم تطل مدة هذا البرلمان الا بضعة أسابيع فقط، لذا أطلق عليه اسم البرلمان القصير. والسبب في قصر حياة هذا البرلمان تعود الى أن البرلمان رفض الموافقة على فرض معونات مالية كان قد طلبها الملك من الشعب، بل أخذ يذكر

بمساوىء الحكم، وطالب الملك بأن ينفذ قانون ملتمس الحقوق، فكان هذا قد باعد بين الملك والبرلمان. فاضطر الملك أن يدخل الحرب بدون أموال معتمدة ضد الاسكتلنديين. وسميت الحرب الجديدة «**بالحرب الأسقفية الثانية**». الا أن شارل انهزم في الحرب، ودعا البرلمان للانعقاد من جديد مرة أخرى. وفي هذه الحالة دام البرلمان فترة طويلة نسبيا من سنة ١٦٤٠م حتى سنة ١٦٥٣م، لذا دعى هذا البرلمان بالبرلمان الطويل. وأصدر البرلمان مجموعة جديدة من القوانين تحد من سلطة شارل والحكومة. فاتهم لود بالخيانة فأعدم سنة ١٦٤٥م. وأصدر البرلمان قرارات تحمية من انتقام الملك. فطالبت هذه القرارات بعدم حل المجلس الا بارادة النواب، وطالبت بالغاء الجمارك والضرائب المفروضة بدون موافقة البرلمان، وألغت مجلس الكنيسة الأعلى وقاعة النجم وهما هيئتان: دينية وقضائية عزز سلطة شارل.

لقد حدث انقسام في مجلس البرلمان الانجليزي مما جعل شارل يستغل الفرصة، فحاول القبض على خمسة من النواب المعارضين لسياسته في يناير سنة ١٦٢٤م، برغم تمتعهم بالحصانة البرلمانية. ولكن أعضاء البرلمان ساعدوا الخمسة على الهروب من قاعة البرلمان، وفشل الملك في مشروعه هذا الذي أثار الشعب والبرلمان من جديد ضده. وبعد هذا كله فان شارل لم يستطع الصمود أمام كل هذه المشكلات فقرر الهرب في ١٠ يناير سنة ١٦٤٢م من مدينة لندن، فأدى هذا الى اشتعال نار الثورة الأهلية في انجلترا.

لقد انقسمت البلاد الى جماعة تؤيد الملك الذي فر الى مدينة نوتنجهام، والى جماعة تؤيد البرلمان. وسمى جماعة الملك «بالفرسان» وهم أتباع الكنيسة الانجيلكانية والأشراف، ولهم مراكز قوية في الشمال والغرب في يورك وأكسفورد. أما جماعة البرلمان فسموا «بذوى الرءوس المستديرة» لأن معظمهم من البيوريتان الذين يقصون شعر رؤسهم. وكانت مراكز هذه الجماعة في الشرق والجنوب، وكانت مدينة لندن من أقوى مراكزهم. لقد دارت حرب بين الجماعتين كانت على مراحل: في الأولى انتصر الملك وكادت قواته دخول لندن. ثم في الثانية تغير الموقف لصالح البيوريتان عندما تزعمهم قائد شباب وهو «**أوليفر كرومويل**» وزادت قوة هذه الجماعة عندما اعتمد البرلمان لها أموالا لتحسين أحوالها. وانتهى

الأمر بأن سلم الأسكتلنديون الملك الهارب الى البرلمان مقابل مبلغ من المال عام ١٦٤٧م. ومع أن الحرب الأهلية ظلت مستمرة بعد هذا التسليم، فان الأمر انتهى باعدام الملك بعد محاكمته من قبل محكمة عليا مؤلفة من مائة وخمسين قاضيا ومحلفا في ٣٠ يناير سنة ١٦٤٩م، وبعد ذلك أجرى كرومويل عملية تطهير واسعة في صفوف المؤيدين للملك. فطرد حوالى مائة وأربعين نائبا من مجلس العموم الانجليزي، وعرف هذا الوضع الجديد باسم «حركة التطهير». وأبقى في مجلس العمـوم من ٥٠ ـ ٦٠ عضوا أصبحوا أداة طيعة بيد كرومويل ثم أصدرقرارا بالغـاء مجلس اللوردات سنـة ١٦٤٩م. وألغيت الملكية الانجليزية، وأقيمت جمهورية أطلق عليها اسم رابطة الشعوب البريطانية **«كومنولث»** بدلا منها في ٧ فبراير سنة ١٦٤٩م. وانتخب «البرلمان العاجز» (مابقى من أعضاء البرلمان) هيئة حكم أطلق عليها اسم مجلس الدولة، تتألف هذه الهيئة من ٤١ عضوا منهم كرومويل. وفي ١٩ مايو تم الاعلان بأن انجلترا جمهورية ودولة حرة.

الجمهوريـــة في انجلترا :

هناك مشكلات متعددة واجهتها الجمهورية عندما تسلمت السلطة في البلاد. فقد نادت كل من أسكتلندة بالملك شارل الثاني ملكا عليهما بدلا من أبيه، وهذا أدى بحكومة الجمهورية الى ارسال قوة بقيادة كرومويل الى أيرلندة فذبحت الكثير من الناس فيها، واستطاعت هذه القوة ضم أيرلندا الى انجلترا. وكان من نتائج ذلك أن هاجر الكثير من الايرلنديين الى الخارج. وفي أسكتلندا انتصر كرومويل على الأسكتلنديين في موقعة «دار مير» سنة ١٦٥٠م وموقعة «ورستر» سنة ١٦٥١م واضطرت أسكتلندة أن تخضع لانجلترا بعد قرار الملك شارل الثاني الى أوربا. وبهذا أصبحت الجمهورية في انجلترا العظمى وأيرلندة.

لقد قرر كرومويل انهاء البرلمان العاجز ليجل محله برلمان منتخب من الشعب. ولكن كرومويل كان يعلم أن البرلمان الجديد سوف يعيد شارل الثاني ملكا على البلاد، وهذا معناه عودة الملكية، وهذا لايرضى كرومويل. ولحل الأزمة عمل كرومـويل دستـورا للبـلاد أطلق عليه اسم «أداة الحكم» في ١٦ ديسمبر سنة ١٦٥٣م. ويتكون الدستور من ٤١ مادة. على أثر ذلك تسلم كرومويل السلطة في البلاد ولقب «بحاكم الجمهورية». ثم انتخب برلمان كسلطة تشريعية كان جميع

الأعضاء من المؤيدين للجمهورية. وقد حل كرومويل هذا البرلمان سنة ١٦٥٥م وبقيت البلاد بدون برلمان لأن البرلمان حاول أن يغير نظام الحكم الجمهوري. وهكذا عادت المشكلات لتظهر من جديد ضد الجمهورية واكتشفت عدة محاولات كانت تهدف إلى قتل كرومويل. وتحت الضغوط دعا كرومويل البرلمان للاجتماع ثانية سنة ١٦٥٦م. وساد جو من التفاهم المؤقت بين كرومويل والبرلمان، حتى ان البرلمان كان قد عرض على كرومويل تاج انجلترا وأيرلندة. ثم بعد ذلك تجدد النزاع بين البرلمان وكرومويل مما أدى الى حل مجلس البرلمان سنة ١٦٥٨م.

وفي أول الأمر سار كرومويل على سياسة التسامح الدينى بين الأنجليكانيين والبيوريتانيين، الا أن شدة الخلاف وشدة التعصب الدينى جعله ينحرف عن اتجاهه هذا، فأصبح شديدا على مخالفى مذهبه البيوريتاني.

ومع ان كرومويل فشل في الداخل بسبب مسألة البرلمان والمسألة الدينية، فانه نجح في سياسته الخارجية. فحارب هولندا من سنة ١٦٥٢ - ١٦٥٤م بسبب قانون الملاحة. فقد كان الهولنديون يحتكرون النقل البحرى. وقد استطاع كرومويل أن يهزم الهولنديين واضطرهم الى قبول الصلح سنة ١٦٥٤م.

وكانت شروط الصلح :

- ان تشارك انجلترا بسفنها في نقل المواد التجارية.
- أن تطرد هولندة أسرة ستيوارت اللاجئة عندها.

حارب كرومويل أسبانيا بعد أن تحالف مع فرنسا. واستطاع ضم جاميكا من جزر الهند الغربية الى ممتلكات الانجليز، وكذلك فقد استولى على دانكرك احدى المدن الهولندية. وأصبحت انجلترا ذات مركز وسمعة كبيرة في قارة أوربا وفي المستعمرات.

وهكذا فان الجمهورية الانجليزية - الأيرلندية ماتت بموت كرومويل في ٣ سبتمبر ١٦٥٨م. وسادت البلاد فوضى دامت مدة سنة. وسيطر الجيش على الأمور. وأخيرا طلب من عائلة ستيوارت العودة الى انجلترا. وعاد شارل الثاني بعد موافقة البرلمان في ٢٥ مايو سنة ١٦٦٠م وأعلن العفو العام والتسامح الدينى في البلاد.

عودة الملكية في انجلترا :

عاد شارل الثاني الى حكم انجلترا في جو عانى منه الشعب معاناة شديدة من نظام حكم الجمهورية، حيث الحروب الداخلية التي مزقت البلاد، حيث الحكم الاستبدادى المطلق الذي انتهجه كرومويل. عاد شارل الثاني وهو يحمل معه سياسة الانفتاح والتسامح الذي تلقنه في أثناء اقامته في المنفى في فرنسا. وبهذا فقد كسب عطف الشعب الانجليزي الذي كان ينقم على سياسة العنف التي تبناها البيوريتان ومنهم كرومويل ولذا سماه الشعب الانجليزي بالملك المرح.

كان شارل يميل الى الحكم المطلق كوالده، الا أنه كان حذرا في علاقاته بالبرلمان الذي خلع والده وطرده عن العرش.

ومع هذا فان هذا العهد الجديد لايخلو من محاسبة رجال العهد الجمهورى السابقين. فأعدم ثلاثة عشر ممن اتهموا بقتل الملك شارل الأول. ومثلت بجثة كرومويل بعد اخراجها من القبر. وقد أثار هذا الاجراء البيوريتان الذين تزعمهم الشاعر ملتون، الا أن أثرهم كان ضعيفا لأن الجو الحاضر كان أميل باتجاه الملكية الانجليزية. وإن الطبقات الممثلة في البرلمان كانت قد سئمت من كثرة الاضطرابات التي حدثت بالبلاد على مدى عشرين سنة. لذا ظل البرلمان على وفاق مع الملك حتى ان البرلمان المنتخب عام ١٦٦١م كان يسمى ببرلمان الفرسان أي أنه برلمان الملك. وظل هذا البرلمان مدة ثماني عشرة سنة. وقد صدرت عدة تشريعات جميعها كانت إلى جانب الملك ولصالحه. وصدر قرار برلماني دعا الجميع الى الخضوع للكنيسة الانجليزية. وصدر قرار آخر يحرم على أي انجليزي أن يعمل في أي وظيفة حكومية الا اذا كان تابعا للكنيسة الانجليزية وصدر قرار بمعاقبة الذين لايعملون بقرار الخضوع للكنيسة بالترحيل الى ممتلكات انجلترا (المستعمرات الانجليزية). ولما كانت الأسرة المالكة الانجليزية متأثرة بفرنسا الكاثوليكية، فقد أدى ذلك بالكثيرين منها الى عودتهم إلى الكاثوليكية حتى ان شارل الثاني نفسه أعلن عن كاثوليكيته بدون خوف. كما أن الملك شارل الثاني تعهد باعلان الكاثوليكية في انجلترا تحت ضغط ملك فرنسا لويس الرابع عشر الذي وعده بالمساعدة اذا ماثار الشعب الانجليزي عليه. ولكن هذا العمل أضعف شخص شارل الثاني في نظر الشعب الانجليزي الذي أجبره على سحب

قراره هذا.

وزاد البرلمان الانجليزي تمسكه بكنيسة انجلترا حيث تحدى الملك وأصدر تشريعا سمى «بتشريع الاختيار» سنة ١٦٧٣م، وينص هذا على ضرورة تبعية أصحاب المناصب المدنية والعسكرية في الدولة للكنيسة الانجليزية. وكان هذا القرار ضربة للملك لأن هذا يعنى ضرورة تنازل أخى الملك دوق يورك عن منصبه كقائد للبحرية لأنه يعتنق الكاثوليكية. وزاد الطين بلة عندما أخذ كل من البروتستانت الانجليز والكاثوليك الانجليز يشك بعضهم بالآخر، مما أدى الى زيادة حدة التوتر في انجلترا. فأصدر البرلمان الانجيزي نصا جديدا أضيف الى قانون الاختيار يحرم على الكاثوليك دخول البرلمان.

وبعد موت الملك شارل سنة ١٦٨٥م كان ولى عهده أخوه جيمس الثاني دوق يورك. الا أن جيمس الثاني هذا كان كاثوليكيا. فظهرت جماعة من أنصار البيوريتان في انجلترا تدعى «الهويج» تقول باقصاء جيمس عن عرش انجلترا لأنه كاثوليكي. وظهرت جماعة من المحافظين مضادة تدعى «التورى» طالبت بالتمسك بحق الوراثة. وقد تبلورت مفاهيم هاتين الجماعتين، فظهر في انجلترا ولأول مرة حزبان مختلفان لكل منهما برنامجه السياسى ومفاهيمه المختلفة عن الآخر. وأصبح الحزبان متنافسين على السلطة وأصبح لهما اسمان معروفان الى وقتنا الحاضر وهما: حزب الأحرار وحزب المحافظين. وسار جيمس الثاني في سياسة مؤيدة للكاثوليك. وعمل بقانون اعلان الغفران الذي يوقف كل الأعمال المناهضة للكاثوليك في انجلترا. وتغاضى عن قاون الاختيار. وبهذا فان جيمس الثاني كان يتحدى اتباع الكنيسة الانجليكانية. وكان بعمله هذا يعيد الى الأذهان ماقامت به الملكة مارى من أسرة آل ثيودور مع فارق في الظروف.

وزاد في هياج الشعب الانجليزي موقف جيمس الثاني من ثورة الدوق مونمارث البروتستانتى. وهو ابن غير شرعى لشارل. حاول هذا القيام بثورة مسلحة في غرب انجلترا، الا أنه هزم وألقى القبض عليه وأعدم. وقد جرت هذه الحادثة عواقب وخيمة، حين أخذ جيمس يعتقل ويضطهد أتباع هذا الثائر. ولقد ذهب أكثر من ثلاثمائة ضحية نتيجة للمحاكمات التي أجراها قضاة جيمس ضد أتباع الثائر. وعرفت هذه المحاكمات بالمحاكمات الدموية. واضطر حوالى ثمانمائة رجل

الى الرحيل الى جزر الهند الغربية هربا من الاضطهاد.

ونتيجة لتردى هذه الأوضاع اتفق زعماء الهويج والتورى على معاداة الملك. فاتصلوا بوليم أورانج الهولندى وزوجته مارى وهى من آل ستيورات يدعوانهما الى نجدتهما في انجلترا ضد جيمس.. فجاء وليم أورانج بجيش الى انجلترا. فأيده الشعب الانجليزي والتفوا من حوله. ومع أن الملك أرسل جيشا لمقابلة جيش أورانج، الا أن الملك جيمس الثاني شعر بحراجة الموقف فاضطر الى ارسال أسرته الى فرنسا ثم ما لبث أن لحق بهذه الأسرة. وعندها اجتمع البرلمان وأعلن خلع الملك جيمس وعرض العرش على وليم ومارى بالاشتراك. وهكذا انتهى العمل في انجلترا بنظرية الحق المقدس للملوك. وأصبح الملك يحكم باختيار الشعب والبرلمان.

والجدير بالذكر أن قاون ملتمس الحقوق الصادر سنة ١٦٢٨م. كان قانونا يحد من سلطة الملك في انجلترا. ولكن بعد الانقلاب ومجيء الجمهورية ثم عودة الملكية الى انجلترا من جديد، عادت معها سلطة الملك ولكن بشكل يختلف عما كان عليه الوضع في عهد جيمس الأول. ومع هذا فقد ظل الملك في بريطانيا يدعى أنه فوق القانون، وبامكانه تنفيذ أي قانون أو ايقافه. ولكن هذا الادعاء أبطله البرلمان **سنة ١٦٨٩م**، عندما أعلن **«قانون الحقوق»** القائل بخضوع الملك للقانون الانجليزي وجعل جميع التشريعات التي أصدرها الملك جيمس الثاني تشريعات لاغية وغير قانونية. وبصدور قانون الحقوق هذا فقد انهى النزاع الدستورى الطويل الذي انتهى بانتصار البرلمان الانجليزي على الملك. وهكذا فان انجلترا انتقلت بعد هذا القانون الى عهد جديد هو عهد الحكومات البرلمانية المنبثقة عن الاحزاب التي ينتخبها الشعب الانجليزي.

هذا وان البرلمان أصدر قانون التسامح الديني، وذلك لحل المسألة الدينية كما حل المسألة الدستورية. وقد منح هذا التسامح المخالفين حق العبادة العلنية. وهكذا أصبح البروتستانت غير الأنجليكان يتمتعون بحرية دينية وسياسية وهذا التسامح يوضح لنا سبب ضعف الروح البيوريتانية العنيفة التي كانت سائدة قبل مبدأ التسامح هذا. وهكذا فان انجلترا دخلت في جو دينى وسياسى مغاير تماما عما كانت عليه من قبل. واعتبر قانون التسامح الدينى وقانون الحقوق حركة

تاريخية مهمة في انجلترا. لأنها ثورة نافعة أصلحت ماكان قد وقع من خلافات سياسية ودينية في انجلترا. وأرست كذلك أسس ودعائم الحكم الديمقراطى فيها. فتأسست المجالس النيابية والتمثيل بحسب الدوائر الانتخابية والوعى السياسى لحقوق الأفراد. وتأسست الاحزاب السياسية، ونظام مجلس الوزراء. وظهرت نظرية سيادة الشعب وهي أسس الديمقراطية الانجليزية.

حكم وليم الثالث ومـارى:

وصل وليم الثالث ومارى عرش انجلترا بعد خلع الملك جيمس الثاني الذي لجأ الى فرنسا وحماه ملكها لويس الرابع عشر. كان وليم الثالث ومارى قد انضما الى المعسكر المعادى لفرنسا. ولقد تشجع وليم وانضم الى صفوف أعداء فرنسا لأنه من أصل هولندى وكان يرى أن من واجبه الوطنى أن يدافع عن هولندا ضد الغزو الفرنسى لها سنة ١٦٨٨م.

لقد استفادت انجلترا من موقفها المعادى لفرنسا لأن هذا الموقف دفعها أن تخطط سياسة بحرية استعمارية في القرن الثامن عشر الميلادى.

ولقد ساعدت فرنسا جيمس الثاني المخلوع حين أرسلته الى أيرلندا وعملت على اقناع الأيرلنديين بالالتفاف من حوله. وكان وصول جيمس الى أيرلندا قد أحيا النزاع البروتستانتى - الكاثوليكي أو النزاع الكلتى الايرلندي لولا وصول قوات أورانج وانتصارها على قوات جيمس الذي تخلى عن أعوانه وفر مرة ثانية الى فرنسا. وبعد هذا النزاع اتخذ أورانج تدابير صارمة ضد المقاومة الأيرلندية، مما أدى الى انهيار مقاومة الايرلنديين لعدة قرون لاحقة.

لقد زادت سلطة البرلمان في عهد وليم أورانج زيادة ملموسة، فأصدر تشريعات مالية تمنح الملك دخـلا سنـويا معينا بدلا مما كانت عليه الماضى حين كانت البرلمانات تقر منحا للملك تكفية طيلة حياته كلها. وهذا جعل الملك يضطر أن يعرض ميزانية سنوية على البرلمان من أجل الموافقة عليها. ممـا يعطى البرلمان اشرافا حقيقيا على الخزانة والحكومة. ثم صدر قانون برلمانى بمقتضاه أصبحت أعمال المحاكم العسكرية لاتمتد أكثر من سنة واحدة، وبهذا تمكن البرلمان من السيطرة التدريجية على الجيش. ثم صدر قرار برلمانى سنة ١٦٩٥م يقضى بمنع

تجديد قانون المطبوعات القديم الذي يخضع المطبوعات للرقابة الرسمية، مما أدى الى تمتع بريطانيا بحرية صحافية. ولقد توفي وليم أورانج الثالث سنة ١٧٠٢م وكانت زوجته قد توفيت أيضا سنة ١٦٦٤م. وهكذا فقد انتقل عرش انجلترا إلى أخت ماري وهي «آن» لأن ماري توفيت وهي بدون ذرية.

الملكـــــة آن :

كانت هذه الملكة ضيقة الأفق، وشديدة التحمس للكنيسة الانجليزية وكانت ميالة الى حزب التورى الذي اعتمدت عليه ضد الهويج حتى طردتهم من الحكومة سنة ١٧١٠م. وألفت وزارة تورية تفاوضت مع فرنسا بشأن النزاع القائم حول «الوراثة الاسبانية» التي دخلتها انجلترا في عهد الملكة آن. وكانت انجلترا ترى اقتسام عرش اسبانيا بعد موت ملكها سنة ١٧١٠م مع فرنسا زمن لويس الرابع عشر. الا أن فرنسا أهملت التفاوض مع وليم أورانج في هذا الأمر، وأرسل ملكها لويس الرابع عشر حفيده، فيليب ليرث عرش اسبانيا بناء على وصية من الملك الاسباني المتوفى والتي تقول بشرعية حكم آل بوربون في اسبانيا.

لقد تفاوض الهويج مع فرنسا بشأن هذه المسألة، وانتهت المفاوضات بعقد صلح اترخت سنة ١٧١٣م. ولقد استفادت انجلترا من هذا الصلح فاستولت على نيوفاوندلند ونوفاسكونيا ومنطقة هوس من فرنسا، وعلى جبل طارق وجزيرة منورقة من اسبانيا. وهكذا ضمنت انجلترا السيطرة البحرية على البحر الأبيض. كما اتفقت انجلترا مع اسبانيا في اتفاقية اسينتو على أن ترسل انجلترا سنويا الى بلاد أمريكا الاسبانية مركبا تجاريا محملا بالبضائع الانجليزية والعبيد السود. وهذه الاتفاقية ترينا أن الحروب الأوربية أصبحت حروبا تجارية.

وفي عهد الملكة آن قام البرلمان الأسكتلندى سنة ١٧٠٧ بمبادرة سياسية وافق فيها على أن تمثل أسكتلندة في مجلسى اللودرات والعموم في وستمنستر وأطلق على هذا الاتحاد رسميا باسم «بريطانيا العظمى».

جورج الأول :

ماتت آن سنة ١٧١٤م. وكانت وراثة عرش انجلترا من حق المتوفية صوفيا، التي كانت قد تزوجت من ناخب هانوفر المسمى أرنست أوجست، فانتقل هذا

الأرث الى ابنها جورج الأول ولكن ما ان تولى جورج الأول العرش حتى ظهر مطالب جديد بالعرش وهو ابن جيمس الثاني الذي تسمى باسم جيمس الثالث. لقد نزل جيمس الثاني سنة ١٧١٥م في أسكتلندة، وأخذ يطالب بعرش انجلترا، الا ان حركته هذه كانت قد فشلت فعاد الى فرنسا.

لقد أثر الهويج على جورج تأثيرا كبيرا لأنهم كانوا قد أوصلوه الى عرش انجلترا. وظل هذا الملك غير الانجليزي الأصل يحكم البلاد بدعم من حزب الهويج. وأصبحت البلاد الانجليزية تحكم من قبل حزب واحد، ولمدة لاتقل عن نصف قرن. وقد أفاد هذا الاستقرار السياسى البرلمان الذي أصبح بيده السيطرة الكاملة على الدولة حين اتفق على أن يختار الملك الوزارة من بين حزب الأغلبية في مجلس العموم البريطاني. وبهذا وصل الدستور الانجليزي الى مرحلة واسعة في تطوره، استقرت بعدها الوزارات الحزبية واتجهت انجلترا بعد ذلك الى عملية التطور الصناعى، وأخذت تشجع عمليات الانتاج والتصدير. وبهذا نمت تجارة بريطانيا الخارجية، وقامت فيها مجموعة من الصناعات ثم قامت حكومة الهويج بتحسين أحوال الملاك الزراعيين عن طريق منحهم اعانات مالية، وعن طريق تشجيع تصدير القمح. وكانت جميع هذه الاجراءات قد أدت الى تقوية مركز حزب الهويج الذي ترأس الوزارة الانجليزية زمن جورج الأول، وكان رئيس الحزب السير روبرت والبول هو رئيس هذه الوزارة الهويجية. كان والبول ذكيا ومحنكا وواقعيا. اعتمد على سياسة احلال السلام في البلاد. وعن طريق معاهدة الاسينتو السالفة الذكر أخذت بريطانيا توسع تجارتها مع المستعمرات الاسبانية في أمريكا الجنوبية، ومع أن الاسبان قاوموا هذا التوسع البريطاني في مناطقهم، فان أصحاب التجارة في انجلترا كانوا يضغطون على الحكومة البريطانية حتى تعمل جادة للوصول الى الأسواق الاسبانية حتى ولو أدى هذا الى دخول بريطانيا الحرب ضد اسبانيا. وكان هذا الضغط الداخلي على الحكومة وذاك العنف الاسباني الذي تواجهه البضائع البريطانية في أمريكا الجنوبية، كانا قد أديا الى اعلان بريطانيا الحرب على اسبانيا سنة ١٧٣٩م من أجل حصول بريطانيا على حقوق تجارية أكثر في المياة الاسبانية، وعرفت هذه الحرب باسم حرب «أذن جنكر» الذي سار في شوارع لندن بشكل مظاهرة وأذنه مقطوعة وعليها القطن مدعيا أنه فقدها في أثناء

حربه ضد خفر السواحل الاسبان. وكانت هذه المظاهرة تعبيراً عن رغبة أصحاب المصالح البريطانية في توسيع تجارتهم مع الممتلكات الاسبانية.

الملك جورج الثاني:

حكم جورج الثاني بعد أبيه جورج الأول من سنة ١٧٢٧م - ١٧٦٠م وكان هذا الملك قد وقع تحت تأثير حزب الهويج كما كان والده جورج الأول. وفي زمنه دخلت بريطانيا في الصراع الدائر في أوربا حول وراثة عرش النمسا. فلما توفي الامبراطور النمساوى شارل السادس سنة ١٧٤٠م ورثته في حكم النمسا ابنته ماريا تريزا. الا أن فرنسا لم يعجبها الأمر، وقامت بتقسيم أملاك الامبراطورية النمساوية. وهذا يعني أن فرنسا ترى أن تكون الدولة صاحبة الهيمنة على قارة أوربا، الا أن انجلترا وقفت ضد فرنسا وأيدت ماريا تريزا. ولقد دارت نتيجة حادثة الوراثة النمساوية حروب أوربية دامت من سنة ١٧٤٠م حتى سنة ١٧٤٨م وانتهت هذه الحرب بفشل التدخل الفرنسي، وبالتالي قبول فرنسا بهزيمة مشروعها الرامى الى تقسيم النمسا، واعترفت بحق ماريا تريزا في حكم الامبراطورية النمساوية. وكانت هذه الحرب بادرة من بوادر النزاع الفرنسي البريطاني، ومرحلة أولى من مراحل التنافس الاستعمارى للدولتين.

وفي عهد جورج الثاني ظهر منافس جديد يطالب بعرش بريطانيا وهو شارل ادوارد المسمى بشارل الصغير من أسرة ستيورات. فنزل هذا سنة ١٧٤٥م في سواحل اسكتلندة عندما كانت جيوش انجلترا مشغولة بحربها ضد فرنسا بسبب مسألة الوراثة النمساوية. واستغل شارل الظرف السياسى في اسكتلندة حيث ان الأسكتلنديين لا يعترفون إلا بالسيادة الأسمية للملك جورج الثاني. ولقد بذل شارل الصغير جهودا من أجل استمالة الأسكتلنديين، واستطاع السيطرة على أدنبرج، الا أنه بعد عودة قوات بريطانيا من حروبها في أوربا استطاعت هزيمة الأسكتلنديين سنة ١٧٤٦م وذبحت منهم أعدادا كبيرة. وتمكن الأمير شارل الصغير من الهرب وتعد هذه العملية آخر محاولة من قبل أسرة ستيورات لاسترداد حكم بريطانيا.

المراجع التي يمكن الرجوع اليها عند دراسة تاريخ انجلترا في عهد أسرتى آل ثيودور وآل ستيورات . . .

أولاً : المراجــع العربيـــــة :

١ ــ هربرت فيشــر : أصول التاريخ الأوربى الحديث، من النهضة الأوربية الى الثورة الفرنسية، مترجم، دار المعارف بمصر.

٢ ــ روبرت بالمــر : تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول، أوربا من القرون الأولى حتى سنة ١٧٤٠م. مترجم مكتبة الوفاء بالموصل.

٣ ــ السيرجون هامرتن، تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية.

٤ ــ دكتور محمد فؤاد شكرى والدكتور محمد أحمد أنيس، أوربا في العصور الحديثة، مكتبة الانجلو المصرية.

٥ ــ دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوربا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، دار المعارف بمصر.

٦ ــ عمـر الاسكندري وسليم عثمان : تاريخ أوربا الحديثة وآثار حضارتها، مطبعة دار المعارف بمصر.

٧ ــ لانجـــــر : تاريخ العالم، مترجم، القاهرة.

٨ ــ هـ. ج. ولـــز : موجز تاريخ العالم، مترجم، القاهرة.

٩ ــ محمد قاسـم وزميلـه : التاريخ الحديث والمعاصر ـ، دار المعارف بمصـــر.

١٠ ــ يحيى جلال : معالم التاريخ الأوربى الحديث، القاهرة.

١١ ــ كريستوفر دوس : تكوين أوربا، مترجم، القاهرة.

ثانياً : المراجــع الأجنبيـــــة :

1. W. E. Lunt, History of England.
2. J. S, Brewer, The Reigh of Henry VIII.
3. R. W. Dixon, History of Church of England.
4. J. M. Stone, History of Mary, Queen of England.
5. Solyman, England in Tudor times.

6. D. Hartley and M. Elliot, Life and Work of the people of England in the 16th Century.
7. Hackett, Hency VIII
8. J Neal, Queen Elizabeth.
9 J A. Froude, History of England.
10. A. Lang, History of Scotland.
11. M. Creighton, The Age of Elizabeth.
12. D Neal, History of the puritans.
13. Cambridge Modern History, Vol. III, Ch. XI.
14. D Ogg. Europe in the 17th Century.
15. E. P. Cheyney, A Short History of England.
16. S.R. Gardiner, The puritan Revolution.
17. C.H Firth, Oliver Cromwell.
18. C. H. Firth, J. Morley and Buchan, Lives of Oliver Cromwell.
19. C.G Roberson, England Under the Hanoverians.
20 H. Robinson, The Development of The British Empire.
21. J. B. Botsford, English Society in the 18th Century. Eighteenth Century.
22 Lord Rosebery, William pitt.
23. G. L. Beer, British Colonial Policy.
24. A.C. Lyall, The Rise and Expension of the British Dominion in India.
25. England in the Seven Year's War.
26 W. V. Moody and R. M. Lovett, A History of England Literature.
27. H. J Laski, political Thought in England from Locke to Bentham.

الفصل الخامس

فرنسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

عصر التفوق الفرنسي

كانت أسرة فالوا تحكم فرنسا في بداية العصورة الحديثة وقد تربع على عرش البلاد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أقدر ملوك هذه الأسرة لويس الحادى عشر (١٤٦١-١٤٨٣) الذي يرجع اليه الفضل في تدعيم التاج والقضاء على نفوذ الأشراف وتثبيت الحدود الفرنسية عن طريق القوة، وحكم البلاد حكما فرديا بعد أن عطل المجلس النيابى الذي كان قائما وهو مجلس الطبقات، وأصدر الملك المراسيم وسن القوانين على مسئوليته الخاصة، وقضى على الحقوق المكتسبة لعدد كبير من المدن وعلى استقلالها المحلى في ادارة شئونها، وكان وحده يعقد المعاهدات ويقرر الشئون الخارجية لفرنسا.

وقد زجت فرنسا نفسها في السياسة الأوربية بمشروعها الذي بدأه ملكها شارل الثامن بغزو الأراضي الايطالية عام ١٤٩٤م، وبذلك زرعت بذرة الصراع بين ملوك أسرة فالو وأباطرة أسرة الهابسبورج في محاولات لمنع تسلط الأسرة الأخيرة على القارة الأوربية، ومع انشغال ملوك فرنسا الذين تولوا العرش بعد ذلك بالحرب الايطالية فانهم لم يتوانوا في تدعيم عروشهم بل أصبحت السلطة الملكية أكثر تحكما وأشد قوة.

ومن خلال الحروب الدينية التي أثارتها طائفة الهيجونوت في فرنسا تزعزعت هيبة التاج فترة من الزمن، وخبا الشعار الذي كان يرفعه الملك فرانسوا الأول وهو «ملك واحد، ودين واحد، وقانون واحد».

ولكن بعد أن اعتلى هنرى الرابع العرش، وعاد السلام عام ١٥٩٤م، استطاع الملك بفضل وزيرين نابغين متتاليين هما الكاردينال ريشيلو والكاردينال مازران أن يستعيد للملكية مكانتها وهيبتها وقوتها. وتجلت تلك الثورة بأجلى مظاهرها في عهد الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٨-١٧١٥م)، حيث كان له الفضل الأكبر في ازدهار النفوذ الفرنسي في القارة الأوربية بأكملها.

فرنسا والبروتستانتية :

لقد تميزت فرنسا في أن أكثرية سكانها من الكاثوليك. ولكن السلطة الزمنية في فرنسا كانت ترى أن تكون لها يد في تعيين رجال الدين في الوظائف الدينية في فرنسا. وكانت السلطة السياسية الفرنسية ترى أن تكون مشرفة على الكنيسة الفرنسية بدلا من تبعية هذه الكنيسة لروما. ويوضح لنا قرار الملك شارل الرابع الذي صدر سنة ١٤٣٨م مدى تطلع السلطة الزمنية في فرنسا للاشراف على الكنيسة الفرنسية. فقد نص هذا القرار على أن تكون الوظائف الكنسية في الدولة بيد الملك والحكومة الفرنسية. ويوضح هذا كذلك ما جاء في الاتفاقيات التي عقدها الملك الفرنسي فرنسوا الأول مع البابا ليو العاشر سنة ١٥١٦م، تلك الاتفاقيات التي أدت الى ما عرف باسم المذهب الانجليكاني.

أخذت المذاهب البروتستانتية تنتشر في فرنسا زمن فرانسوا الأول الذي كان يشجع هذه المذاهب في أول الأمر، ألا أنه بعد سنة ١٥٢٨م انعكس الأمر فأخذ فرنسوا الأول يضطهد أصحاب المذاهب البروتستانتية في فرنسا. ومع هذا كله فان البروتستانتية انتشرت وأصبحت حركة دينية منظمة في بلاد فرنسا بعد سنة ١٥٣٥م، في الوقت الذي انتشرت فيه مبادىء كالفن وبخاصة بعد أن أرسل هذا المصلح رسالته الدينية المشهورة الى الملك فرانسوا الأول، وبعد أن نشر كالفن كتابه عن «تعاليم الدين المسيحي».

ولقد انتشرت البروتستانتية في فرنسا بين أفراد الطبقة الوسطى والطبقة العليا في المجتمع الفرنسي. وبهذا الانفتاح الشعبى على الكالفنية في فرنسا ظهر عهد جديد في تاريخ الحركة البروتستانتية الكالفنية في فرنسا.

ولقد تمتع البروتستانت بحرية دينية زمن الملك هنرى الثامن، حيث تم انشاء

أول كنيسة بروتستانتية كالفنية في فرنسا سنة **١٥٥٥م**. وبعد هذا التاريخ أخذت تنتشر الكنائس الكالفنية في أنحاء البلاد الفرنسية حتى وصلت الى حوالى مائتي كنيسة، وبلغ عدد البروتستانت حوالي أربعمائة ألف نسمة.

ولما أحست فرنسا بقوة البروتستانتية اللوثرية في ألمانية أخذت تفكر في اضطهاد البروتستانت الكالفنيين في البلاد الفرنسية، وكانت قد تعاونت مع أسبانيا في هذا المجال، ومما أدى الى انقسام داخلي كبير في فرنسا بعد موت هنرى الثاني سنة ١٥٥٩م. وفي زمن خلفه فرانسوا الثاني الذي وقع تحت تأثير زوجته مارى ستيورات الانجليزية الكاثوليكية وشقيقا أمها وهما فرانسوا دوق جيز وشقيقه شارل كاردينال اللورين من أكبر أنصار الكاثوليكية في فرنسا، وبهذا الزواج استأثرت أسرة جيز الكاثوليكية بكل سلطة في البلاد الفرنسية، مما أغضب الأسر البروتستانتية النبيلة في فرنسا وأدى بهم الى معاهدة رجال الاصلاح البروتستانت في فرنسا. وهكذا فاننا نلاحظ أن الحركة الكالفنية في فرنسا اتخذت طابعا سياسيا ثورياً خطيرا الى جانب كونها ثورة دينية. وأدى هذا النزاع على السلطة في فرنسا بين الأسر الكاثوليكية والأسر البروتستانتية إلى قيام حرب أهلية دينية في فرنسا.

مراحل النزاع الأهلى الديني الفرنسي :

بدأ هذا النزاع الديني في فرنسا كالتالي:

قرر الكالفنيون القضاء على نفوذ أسرة جيز واختطاف الملك فرانسوا الثاني سنة ١٥٦٠م. الا أن مؤامراتهم على الملك في امبواز أخفقت، فكانت هذه المؤامرة سببا قويا أدى بالملك والسلطة الكاثوليكية الى اضطهاد الهيجونوت (بروتستانت فرنسا). الا أن شدة الفظائع ضد الهيجونوت في فرنسا أثارت الشعور العام في فرنسا ضد أسرة جيز، وأدى هذا الحادث بالملكة الوالدة كاترين دي مدتشي إلى أن تطالب الملك باتخاذ سياسة معتدلة. لكن موت فرانسوا الثاني وتولى شارل التاسع العرش، وهو أخو الملك فرانسوا الثاني الذي كان عمره حوالي العاشرة، جعل كاترين أن تصبح وصية شرعية على الملك الصغير . وعندها سارت على سياسة الاعتدال، فعهدت الى ميشيل لو تبال بتشكيل الوزارة، وكان هذا من المحنكين السياسيين ويميل الى سياسة الاعتدال في الحكم. وسارت كاترين

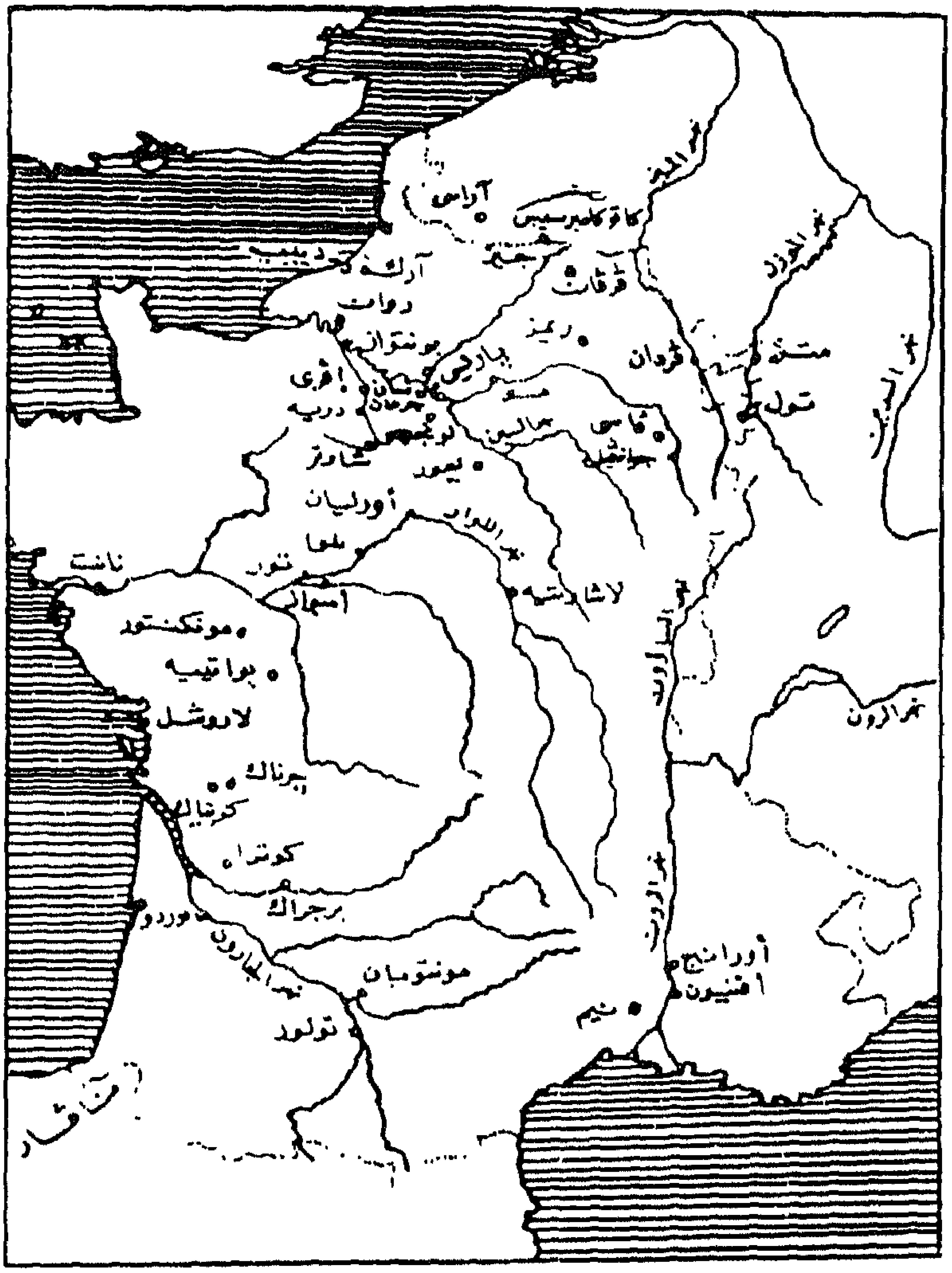

فرنسا أثناء الحروب الدينيـة

في حكمهـا على سياسة التوازن بين الكاثوليك في الحكم. وسارت كاترين في حكمها على سياسة التوازن بين الكاثوليك والهيجونوت. الا أن هذه السياسة فشلت لأنها جاءت في جو متكهرب ومشحون بالعداء الديني والسياسي.

وتركزت سياسة كاترين في هذا المجال على منع الهيجونوت من اقامة طقوسهم الدينية بطريقة علنية، الا أنها سمحت لهم بممارستها في بيوتهم. وعقدت مؤتمر بواسي سنة ١٥٦١م للتوفيق بين الطرفين المتعاديين الا أنها لم توفق في ذلك.

ثم أصدرت مرسوما سنة ١٥٦٢م بسمح للبروتستانت بالعبادة في خارج المدن المسورة الا أن هذا القرار لم يلق موافقة البروتستانت ولا الكاثوليك.

ولقد ظل الوضع كذلك الى أن أمر فرانسوا دوق جير باطلاق الرصاص على جماعة بروتستانتية كانت تؤدى شعائرها الدينية داخل مدينة فاسى. وكان هذا الحادث الدموى في مدينة فاسى قد أدى الى قيام مذابح أهلية في المدن الفرنسية الأخـرى. ودارت مذابح كبيرة بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا أدت في النهاية الى صدور مرسوم يقضى بمنع البروتستانتية في فرنسا، واعتبار البروتستانت هراطقـة خارجين، وهكذا بدأت الحرب الدينية في فرنسا بين الكاثوليك وبين البروتستانت الكالفنيين وكانت كالآتي:

أولًا: في الفترة الأولى دامت الحرب من سنة ١٥٦٢-١٥٩٣م. وهي تنقسم الى دورين، الأول يبدأ من ١٥٦٢ حتى سنة ١٥٧٢. والثاني يبدأ بسنة ١٥٧٢ حتى سنة ١٥٩٣م. وكان عدد الحروب في الدورين ثمانية وكان قادة الكاثوليك هما جيز وموتنمورنس ويساعدهما فيليب الثاني ملك أسبانيا. أما زعماء وقادة البروتستانت (الهيجونوت) هم: كولينى وكونديه وتساعدهما الياصابات ملكة انجلترا.

وفي الدور الأول انتصر الكاثوليك في بداية الأمر مما جعل الملكة الوالدة كاترين تخشى من اتساع نفوذهم. فاتفقت مع كونديه زعيم الهيجونوت وأصدرت مرسوما سنة ١٥٦٣م. يسمح للهيجونوت النبلاء بممارسة شعائرهم في أملاكهم ومنازلهم وضواحيهم. ولكن هذا المرسوم أثار باقى البروتستانت لأنه يسمح لطبقة النبلاء فقط بممارسة شعائرها الدينية. ويهمل الطبقات الأخرى. ونشير هنا الى أنه في هذه الآونة كانت الكاثوليكية قد ثبتت مركزها ضد البروتستانت في مجلس ترنت، كما أن جماعة الجزويت أصبحت على أهبة الاستعداد لمقاومة البروتستانت، كما أن الكاثوليك دعموا بمساعدة فيليب الثاني ملك اسبانيا. وكان القائد ألفا يعقد مجلس الدم ضد البروتستانت في الأراضى المنخفضة. فكانت جميع الظروف تشير الى قرب اندلاع الحرب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، وكانت بداية الحرب هي محاولة الهيجونوت اختطاف الملك سنة ١٥٦٧م. لكنهم فشلوا فكانت هذه الحادثة بداية الحرب الدينية الثانية.

وفي الحروب الثانية انتصر الهيجونوت في أول الأمر، الا أن كاترين مدتشى

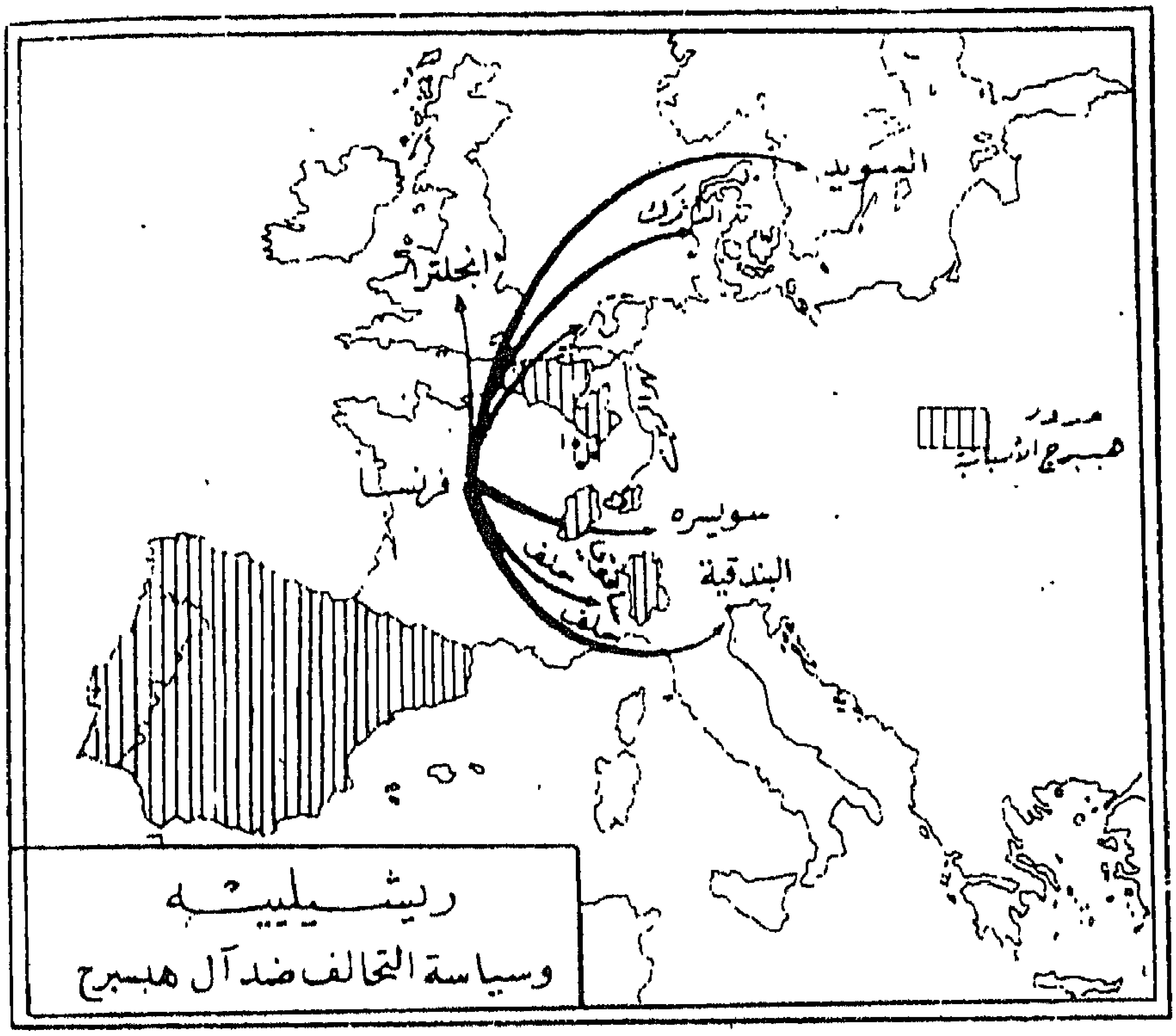

خافت من تزايد سلطة الهيجونوت، فحاولت التوازن بين القوتين المتنازعتين، فعقدت مؤتمرا دعى «سلام لونجمو» سنة ١٥٦٨م عززت فيه اتفاق امبواز، الا أن هذا لم يأت بشيء جديد. وفي سنة ١٥٦٩ بدأت الحرب الثالثة.

وفي الحرب الثالثة انهزم الهيجونوت، وقتل قائدهم كوندية، وخلفه في الزعامة البروتسانتية كوليني. وعندما ساءت حال الهيجونوت تدخلت كاترين مدتشى خوفا من سيطرة دوق جيز. وأصدرت مرسوم سان جرمان سنة ١٥٧٠م أبقى للهيجونوت مدنهم الأربعة لاروشيل وكونيال ومونتبان ولاشارتية.

رأى الملك شارل التاسع الذي بلغ عمره ٢١ سنة أن أمه ومن حوله يستأثرون بالسلطة. ورأى أن يتخلص من سلطة فيليب الثاني الاسباني، وذلك عن طريق تطهير البلاد من النفوذ الاسباني. لذا رأي أن يتقرب من الهيجونوت وقرر أن يغير سياسة البلاد الخارجية الى صالح البروتستانت. وصار يتودد الى أمراء ألمانيا البروتستانت، وتقرب من كوليني، وأخذ يعطف على البروتستانت في الأراضى

المنخفضة، وأيد كوليني في ارسال حملة عسكرية لمساعدة وليم أورانج. وبهذا أخذ البروتستانت يتمتعون بسلطة واسعة في فرنسا في عهد شارل التاسع.

أخذت الملكة الوالدة كاترين تعمل مع أسرة جيز ضد مشروع الملك شارل التاسع الذي تقرب من البروتستانت. وانقسمت السلطة في فرنسا بشأن ارسال النجدات الى وليم أورانج في الأراضى المنخفضه. فكان كولني يؤيد ارسال النجدات، في حين كانت كاترين وأسرة جيز تعارض ذلك. لذا قررت الملكة الوالدة أن تتخلص من كوليني الذي يوثر على الملك بشكل واسع، وكانت في النتيجة أن أقنعت الوالدة الملك شارل بأن ينحاز بجانبها وبجانب الكاثوليك للتخلص من كوليني. وقد وافق الملك على ذلك، وبذلك دبرت مؤامرة مذبحة سان برثليمو في سنة ١٥٧٢م، اذ أوقع الباريسيون بزعامة دوق جيز مذبحة عظمية بالهيجونوت كان ضحيتها كوليني مع عدد عظيم من الرجال والنساء والأطفال، وأستمرت المذبحة مدة ثلاثة أيام وبلغ عدد الضحايا من عشرين الى ثلاثين ألف نسمة. وكانت هذه المذبحة قد أفرحت كاثوليك أوربا، حتى ان البابوية صلت صلاة الشكرة بهذه المناسبة.

ثانيا : تبدأ حروب المرحلة الثانية بسنة ١٥٧٣م وتنتهى في سنة ١٥٩٣م. وهي امتداد للحروب الدينية السابقة. اذ بعد مذبحة بارثليمو التي أقامها الكاثوليك عند الهيجونوت في باريس ازدادت مقاومة البروتستانت، وهذا التحدى البروتستانتي للكاثوليك كان قد زاد في متاعب الملكة الوالدة كاترين. لقد تحصن البروتستانت في مدينة لاورشيل التي حاصروها الكاثوليك مدة ثمانية شهور، ولكن دون جدوى. وأخيرا عقد سلام لاروشيل سنة ١٥٧٣م. فحصل الهيجونوت من هذا السلام على حق العبادة في أماكنهم في مدينة لاروشيل ونيم ومونتبان، واعترف لهم كذلك بحرية العقيدة. وقد استطاعوا استعادة أملاكهم المصادرة، واستطاعوا كذلك العودة الى وظائفهم وأخذ مرتباتهم المقطوعة عنهم منذ بداية الحرب الدينية التي تفوق فيها الكاثوليك. وفي سنة ١٥٧٤ توفي شارل التاسع فخلف على عرش فرنسا هنرى الثالث. وفي هذه الأونة كانت قد بدأت الحرب الدينية الخامسة.

والجدير بالذكر أن الكلفنيين أصبحوا بعد هذه الحروب الدينية لايأملون في تحقيق هدفهم الرامى لانشاء دولة كالفنية في فرنسا وصار همهم الوحيد هو العيش

في سلام وهدوء ضمن نطاق الدولة الكاثوليكية على شرط أن تحفظ لهم حريتهم الدينية. وقد عرفت هذه الجماعة الكالفنية التي رأت بهذا الاتجاه باسم الكالفنيين المتعدلين. ولقد لقى هذا التحول في النظرة الكالفنية تجاوبا عند الكاثوليك المعتدلون الذين رأوا في هذا وسيلة قوية لانهاء الحروب الدينية في فرنسا. وقد عرف الكاثوليك المتعدلون هؤلاء باسم «السياسيين». ولقد أدى التقارب في وجهتى النظر الكاثوليكية المعتدلة والكالفنية المعتدلة الى ايجاد ائتلاف فيما بينهما كانت حصيلته أن تكون جيش من الطرفين اشتبك مع قوات الملك هنرى الثالث ومع الكاثوليك في معارك دينية منذ سنة ١٥٧٤م.

وكان نتيجة الحرب هذه لصالح الكاثوليك، الا أن كاترين مديتشى قررت ان تعمل توازنا جديدا بين المتنازعين أدى الى قيام صلح جديد دعى **بصلح «يوليو» سنة ١٥٧٦م**. وكانت بنود الصلح هذا لصالح الهيجونوت لأن الصلح ألغى كل الأحكام الصادرة سابقا ضدهم، وأعطى الهيجونوت حق العبادة العلنية في أي مكان يريدونه عدا باريس والبلاط الملكى. كما وحصل الهيجونوت على ثمانى مدن يلجأون اليها.

رفض الكاثوليك الصلح وشكلوا اتحادا سمى «بالحلف الكاثوليكي» أو «الحلف المقدس» لأنه تألف من الجزويت بزعامة هنري دوق جيز سنة ١٥٧٦م. ويلاحظ أن هذا الحلف كان موجها ضد الهيجونوت وضد التاج الفرنسي. ولما شعر الملك بأطماع هنري دوق جيز في العرش معتمدا على الحلف المقدس وعلى فيليب الثاني ملك اسبانيا، اضطر الملك تحت هذا الضغط أن يقبل زعامة الحلف المقدس. وكان هذا ايذانا ببدء الحرب الدينية السادسة.

لقد قامت حرب دينية سادسة انتهت **بصلح «برجراك» سنة ١٥٧٧م**. الا أن هذا الصلح لم يكن حاسما فعادت الحرب الدينية من جديد لتدخل الحرب الدينية السابعة التي بدأت سنة ١٥٨٠م، وانتهت بعد عدة شهور فقط بصلح «فيلكس» سنة ١٥٨٠م.

ولما اعتلت صحة الملك، انقسم الفرنسيون الى قسمين: قسم يؤيد هنرى نافار البروتسانتى ويؤيده البروتستانت. وقسم يؤيد هنري دوق جيز، ويؤيده الحلف

الكاثوليكي وفيليب الثاني ملك اسبانيا. ولقد قرر الحلف الكاثوليكي أن يقضى على الهراطقة في فرنسا والأراضى المنخفضة الثائرة ضد اسبانيا. وكان الكاثوليك يلقون تأييد البابا سكستوس الخامس. وأعلن الحلف خلع هنري نافار عن وراثة العرش، وعينوا مؤقتا كردينال بربون عم هنري نافار. وقد أيد الملك هنري الثالث هذه الاجراءات.

قامت حرب ثامنة جديدة بين البروتستانت والكاثوليك كانت في البداية الى جانب هنرى نافار ثم تغير الوضع فصارت الى جانب دوق جيز. ونلاحظ أن الألمان في الشمال كانوا قد دخلوا هذه الحرب ليساعدوا الهيجونوت حلفاءهم. وهذا الانتصار للكاثوليكية أدى الى تعلق الكاثوليك بشخص دوق جيز. وقد ألف الحلف الكاثوليكي حكومة سرية في باريس حاولت الاطاحة بحكم الملك والقبض عليه. كما أن الشعب الكاثوليكي ثار ضد الملك ولولا حراسه لاستطاعوا قتله. مما جعل الملك يفكر في قتل دوق جيز وتم له ذلك في سنة ١٥٨٨م.

لقد زاد هياج الشعب بعد مقتل دوق جيز، وثار البابا على الحادث وأعلن قرار الحرمان ضد هنري الثالث. وأعلن الشعب وجامعة السوربون أنهم في حل من ولائهم للعرش. وتشكلت حكومة مؤقتة تزعمها أبناء شقيق دون جيز المقتول. ومن سوء حظ الملك أن أمه ماتت سنة ١٥٨٩م. وبهذا يكون قد فقد أكبر نصير له. ولذا قرر الاعتماد كليا على هنري نافار والهيجونوت. وقد تقدم الهيجونوت مع أنصار الملك الى باريس ليسيطروا عليها، وبلغوا أسوارها بجيش من حوالي أربعين ألف محارب سنة ١٥٨٩م. لكن أحد رجال الجزويت تمكن من الوصول الى معسكر الملك وطعنه بحربة أودت بحياته. وقبل وفاة الملك أعلن أن هنرى نافار هو الوريث الشرعى له، وطلب من هنرى نافار أن يعتنق الكاثوليكية. وهكذا انتهى عهد أسرة فالوا وانتقل التاج الى أسرة بربون في فرنسا.

الملك هنرى الرابع ومرسوم «نانت»:

لقد واجه هذا الملك صعوبات جمة وهي: كونه بروتستانتيا ومحروما من الكنيسة، وأن معظم البلاد الكاثوليكية لا تؤيده، ويعارضة الاتحاد الكاثوليكي بزعامة ما بين وأسرة جيز. ويعارضة فيليب ملك اسبانيا الذي كان يطمع في

تأسيس أسرة اسبانية تحكم فرنسا.

سار هنرى الرابع على الأسلوب السياسي الآتي:

أولا : اعتبر الكاثوليكية دين الدولة الفرنسية الرسمي.

ثانيا: رأي ضرورة تمتع المذاهب المصلحة بالحرية التامة في العبادة والعقيدة.

الا ان هذه السياسة لم تنجح. وقامت معارك بين هنري والحلف الكاثوليكي اتصف بالنضال السياسي أكثر من كونها نضالا دينيا. وقد انتصر هنري وكان لهذا الانتصار نتائجه الخطيرة. فقد اعترفت به الدول البروتستانتية مثل: انجلترا والسويد والدانمارك والأراضى المنخفضة. ثم اعترفت به البندقية، وهي دولة كاثوليكية واتخذ البابا موقفا مترددا. ووقفت ضده اسبانيا والحلف الكاثوليكي. كما أن الكاثوليك انشقوا على أنفسهم نتيجة أطماع اسبانيا واللورين وسافوى السياسية.

ان هذا الانقسام ساعد هنري على ضرب التجمع الكاثوليكي ضربة قوية سنة ١٥٩٠م. وتقدم بجيشه وأخذ يضيق الحصار على باريس. واضطر هنرى الرابع أن يفك الحصار تحت ضغط القوات الاسبانية وقوات كاثوليكية جاءت من الأراضى المنخفضة التابعة لأسبانيا. ولقد دعم هنري الرابع مركزه حين أعلن كاثوليكيته في سنة ١٥٩٣م. وبعدها فتحت باريس أبوابها للملك في مارس سنة ١٥٩٤م، وسلمت باقي المدن.

سار هنري على سياسة حكمية وهي: استمالته للكاثوليك، واستطاع اقناع البابا كلمنت الثامن بالغاء صك الحرمان عنه سنة ١٥٩٥، والاعتراف به ملكا على فرنسا. وبعد هذه الاجراءات رضخ مابيين أخيرا للأمر الواقع سنة ١٥٩٦م. واضطر فيليب الثاني المريض وصاحب المركز المتدهور أن يوقع مع هنري الرابع معاهدة فردان سنة ١٥٩٨م.

كما أن هنري الرابع أصدر مرسوم **ثاني سنة ١٥٩٨م**، وهو مرسوم أنهى الحرب الدينية في فرنسا، وشمل التسامح الديني مع أتباع كالفن. وأجاز للبروتستانت اقامة شعائرهم الدينية في المدن الخاصة بهم. وسمح للهيجونوت بتولى المناصب العامة العسكرية والمدنية وأنشأ للبروتستانت محكمة قضائية خاصة

ضمن برلمان باريس، ومحاكم أخرى في المقاطعات. وسمح لهم بعقد مجلس عام يمثلهم ينعقد كل ثلاث سنوات للبحث في أمورهم وأحوالهم.

وهكذا نجح هنري الرابع في انهاء المشكلة الدينية وأقر مبدأ التسامح الديني في فرنسا، وأثبت أنه رجل سياسى بارع قدير في حل المشكلات. وبرهنت أعماله هذه على أنه حاكم مستنير. وبهذا الاجراء يكون هنري الرابع قد توصل الى ماتوصلت اليه الياصابات في انجلترا وفي الفترة الزمنية نفسها. وتكون البلدان قد قطعتا شوطا كبيرا نحو عهد الاستقرار والأمن والتوسع الاستعماری.

فرنسا في عصر العظمة :

بعد انتهاء فرنسا من الحروب الدينية التي كانت قد أنهكت البلاد، وأرهقت الشعب لما حل به من يؤس وشقاء نتيجة لويلات الحروب، اتجهت نحو تحسين الأوضاع الداخلية. فلما تولى الحكم هنري الرابع مؤسس ملكية آل بوربون بفرنسا، اهتم بالاصلاحات الداخلية، فعنى بتنظيم شئون البلاد عن طريق انعاش الزراعة والصناعة والتجارة في البلاد. وقد ساعده في هذه الأعمال الاصلاحية مجموعة من الاداريين مثل الدوق صلى البروتستانتى الذي اهتم بالاصلاحات المالية، فنظم المصروفات العامة والميزانية، وجمع الضرائب من الأغنياء الذين كانوا لايدفعون هذه الضرائب من قبل، ونظم طرق الجباية، وشق الطرق ليساعد على تقدم التجارة، وشق القنوات ليساعد على تقدم الزراعة في البلاد، وكان صلى ينظر الى الزراعة على أنها المورد الأساسي للثروة الوطنية. ولقد اهتم هنري الرابع بالصناعة والتجارة، وأسس مدينة كوبيك في كندا سنة ١٦٠٨م، وبهذا يكون هنري الرابع أول من وضح حجر الأساس في الامبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار.

لقد اتحد هنري الرابع مع الأمراء الألمان من البروتستانت ضد الامبراطور الألماني رودلف الثاني. وقد انضمت لهذا الحلف: انجلترا وهولندا والاتحاد الألماني البروتستانتي والبندقية وسافوى. وأسس هنري جيشا قويا ليخرج به لمحاربة هذا الامبراطور، الا أن هنري قتل غيلة على يد أحد المتعصبين من الكاثوليك في سنة ١٦١٠م.

الملك لويس الثالث عشـــر:

تولى هذا الملك الحكم سنة ١٦١٠م بعد أبيه هنري الرابع، الا أنه كان قاصرا فتولت الوصاية عليه أمه الايطالية ماري مديتشـــى.

لقد وقعت هذه المرأة تحت تأثير كونسيني أحد المتنفذين في البلاط وقد أوصلته ماري الى رتبة مارشال فرنسا. وتحت تأثير هذا الرجل غيرت ماري سياسة فرنسا تغييرا كليا. فعملت علاقـة وثيقة مع اسبانيا الكاثوليكية (مع أسرة الهابسبرج) فزوجت ابنها لويس الثالث عشر من الأميرة النمساوية آن ابنة فيليب الثاني ملك اسبانيا. وزوجت ابنتها الياصابات أخت الملك الفرنسي من ابن ملك اسبانيا. وقد أدى هذا التغيير الجذرى في السياسة الفرنسية الى استقالة صلى الذي اعتزل العمل في السياسة حتى وفاته سنة ١٦٤١م.

ولقد أثارت هذه الأعمال الهيجونوت في فرنسا، فعملت مارى على استمالتهم وتطمين خواطرهم، لكنها لاقت صعوبات في معالجة موقف الأمراء الأقطاعيين الـذين رأوا في ضعف الملكية الفـرنسية فرصـة لتحقيق آمـالهم في الاستقـلال باماراتهم. ولكن الملكة في النهاية ألقت القبض على زعيم هؤلاء الأمراء: الأمير كوندية وأودعته في سجن الباستيل سنة ١٦١٦م.

ولما بلغ الملك سن الرشد - ١٣ سنة - رأي أن يتخلص من كونسيني فألقى القبض عليه وقتله سنة ١٦١٧م. وأدى هذا الحادث الى انزواء الملكة الوالدة. ولقد ظهرت أخطار تهدد الملكية الفرنسية مثل أخطار الأمراء والنبلاء الحاقدين على الملكية الفرنسية، وأدت هذه الأخطار إلى عودة الوئام بين الملك وأمه سنة ١٦٢٠م، من أجل مواجهة هذه الأخطار.

وحدث خطر جديد على الملكية الفرنسية من قبل جماعة الهيجونوت الذين ثاروا بسبب النزاع القائم بين الملك وأعوانه وبين الملكة وأعوانها في فترة الخلاف بين الملك وأمه. وزاد خطرهم في حرب الثلاثين عاما التي برهنت على أن الشعور الديني مازال قويا في فرنسا بالرغم من الصمت الظاهرى بعد مرسوم نانت سنة ١٥٩٨م. فأخذ الهيجونوت ينفصلون في مدنهم التي حصنوها، وأسسوا حكومات على طراز حكومة جنيف الجمهورية الكالفنية. ثم أنشأوا من هذه المدن حكومات

محلية، وربطوها في اتحاد قوى، وأصبحوا دولة داخل دولة. وقد دعا هذا الموقف كل من الملك والمملكة الى حرب الهيجونوت. وبعد نضال استمر حتى سنة ١٦٢٢م تم عقد صلح مونبلييه بين الملك والهيجونوت سنة ١٦٢٢م، تم بمقتضاه عدم السماح للهيوجونوت بعقد المجالس المحلية، واستولت الحكومة على مدنهم المحصنة. وكان هذا الصلح ضربة قوية للهيجونوت. وقد أطلق على هذه الفترة من حكم لويس الثالث عشر بفترة حكم الوزيرين كونسينى وعدوه دىَ لوين الذي أيد الملك ضد كونسينى وأمه. وبعد أن توفى دى لوين بالحمى بدأ عهد جديد لوزير جديد يسمى ريشيليو الذي استطاع أن يقبض على زمام الأمور السياسية في فرنسا لمدة ١٨ سنة من سنة ١٦٢٤م الى سنة ١٦٤٢م.

الكاردينـــال ريشيلـــو:

كان ريشيليو قد وصل الى مركز كاردينال، وكان قد توسط في الصلح بين الملك وأمه في عهد وزارة دي لوين. ومن هنا كانت بداية ثقة الملكة الوالدة في ريشيليو. فعملت على ترقيته الى رتبة كاردينال سنة ١٦٢٢م، ثم بعد سنتين دخل الوزارة، ثم صار رئيسا لمجلس الملك، وصار بعد ذلك يتمتع بالنفوذ الأعلى في فرنسا.

لقد خطط ريشيليو سياسته في الحكم على أساسين هما: تقوية سلطة الملكية على أساس أن تصل الى السلطة المطلقة الفعلية. ثم احراز تفوق سياسي لفرنسا في أوربا. ومن أجل تنفيذ هذه السياسة عمل ما يلي:

- أرغم النبلاء على الخضوع التام للملكية في فرنسا.
- قضى على الأعمال الانفصالية التي يقوم بها الهيجونوت في فرنسا.
- عاد الى سياسة هنري الرابع المعادية لأسبانيا الكاثوليكية، من أجل رفع كيان الملكية الفرنسية في الداخل والخارج.

وقد تعرض ريشيليو للامتيازات السياسية للهيجونوت وليس لعقائدهم الدينية. وقد ألحق بالتجمع الهيجونوتى في مدينة لاروشيل هزيمة كبرة بالرغم من المساعدات التي كانت تقدمها بريطانيا للهيجونوت. وفي سنة ١٦٢٨م اضطر الهيجونوت الى توقيع صلح مع ريشيليو كان بمقتضاه أن انحل التجمع

الهيجونوتى، وفقد الهيجونوت امتيازاتهم السياسية، فيي حين أبقى رشيليو لهم حرية العقيدة والمساواة بينهم وبين الكاثوليك في البلاد، وأكد ريشيليو من جديد مرسوم نانت الذي يعطى الهيجونوت حريتهم العقائدية والقانونية. واستمر في تعيين الهوجونوت في وظائف الدولة والجيش والقضاة من أجل منهم الثقة التي عن طريقها يمكن ضمان طاعتهم للتاج الفرنسي. وهكذا اندمج الهيجونوت في صفوف المواطنين، ويعطينا هذا الأسلوب السياسي الذي نهجه ريشيليو فكرة عن مدى نجاح سياسته في معالجة مشكلة الهيجونوت.

قرر ريشيليو التخلص من مؤامرات النبلاء الذين أخذوا يتآمرون على ريشيليو مع جاستون شقيق الملك، ومع الملكة الوالدة التي رأت أن ريشيليو بدأ يأخذ السلطات الواسعة جميعها بيده. ولأنه اتخذ موقفا عدائيا لاسبانيا، مع أن الياصابات ابنة/الملكة الوالدة هي ملكة اسبانيا وقتذاك. كما أن النبلاء ثاروا في مقاطعة لانجدوك في جنوب فرنسا. فكانت هذه المشكلات قد أدت بريشيليو الى أن يتخذ موقفا شديدا ضد المتآمرين عليه بعد أن حصل على التأييد المطلق من الملك لويس الثالث عشر. فضرب النبلاء ضربة قاصمة قضى فيها على نفوذهم، وهدم قصورهم وحصونهم الاقطاعية. وأوجد نظام المأمورين أو نظام الملك للتفتيش على شئون القضاء والمالية والأمن في الأقاليم، وللاشراف على الحكام المحليين، وللاشراف على المجالس المحلية البرلمانية. وقد خدم المأمورون الملكية الفرنسية خدمة قوية.

وقد خطط ريشيليو لأن تكون فرنسا صاحبة التفوق السياسي في أوربا. ورأى من أجل أن يتم هذا المشروع أن تدخل فرنسا في حرب ضد اسبانيا والنمسا، أي ضد عائلة الهابسبورج. وأخذ يتعاون مع الدول البروتستانية، مع أنه كاردينال كاثوليكي في سبيل تحقيق أهدافه الخارجية.

لقد استغل ريشيليو فرصة ثورة الكاثوليك في جمهورية جريسون البروتستانتية التي تحدها النمسا من الشمال والتيرول من الشرق والبندقية وميلانو من الجنوب وسويسرا من الغرب. وكانت جمهورية جريسون تربط بين أملاك اسبانيا في ايطاليا وبين النمسا. وقد تدخلت اسبانيا من أجل نصرة الثوار الا أن هذا التدخل قابلة تدخل آخر من فرنسا لصالح حكام الجمهورية البروتستانتية. وقد تمكنت جيوش

فرنسا من اخراج الجند الاسباني والبابوى من جريسون، مع اعادة الأراضى التي كانت قد استولى عليها الاسبان، الا أن انشغال ريشيليو في الداخل جعله يعقد صلحا مع اسبانيا سنة ١٦٢٦م.

ثم تجددت الاشتباكات بين فرنسا واسبانيا بسبب وفاة دوق مانتوا الذي لم يعقب خلفا لتولى العرش من بعده، وكان أقرب شخص لتولى الحكم من بعده هو من الموالين لفرنسا، فكان هذا قد أغضب اسبانيا صاحبة السلطة والسيادة في ايطاليا، فقررت التدخل، الا أن فرنسا أرسلت جيوشها بقيادة ريشيليو من أجل دعم الوريث المؤيد لها في هذه الدوقية. وقد انتصرت الجيوش الفرنسية واضطرت اسبانيا أن توقع صلحا مع فرنسا تم بمقتضاه: اعتراف اسبانيا بوارث عرش الدوقية المؤيدة لفرنسا. واستولت فرنسا على مدينة بينير ولو في مملكة بيدمنت. وهكذا فان هذا النصر الفرنسي في ايطاليا جعل فرنسا تعمل على نشر نفوذها فيها. وصار بامكانها أن تجتاز ممرات الألب.

وبالرغم من الدسائس والمكائد التي كان يحيكها أعداء ريشيليو له فانه بالرغم من هذا كله فقد نجحاً باهراً في سياسته الخارجية. ومع هذا فقد ظل سائرا في تدخله في الحروب الأوربية. فقرر دخول حرب الثلاثين عاما. وقد توفى ريشيليو في ٤ ديسمبر سنة ١٦٤٢م. ويكون بذلك قد انتهى عهد الملك لويس الثالث عشر لتدخل البلاد تحت ظل حكم الملك لويس الرابع عشر.

لويس الرابع عشر:

ينقسم عهد لويس الرابع عشر الى ثلاثة أدوار هي: ادارة مزران من سنة ١٦٤٣ ـ ١٦٦١م ودور عظمة المملكة من سنة ١٦٦١ ـ ١٦٨٤م. وعصر الانحلال في فرنسا من سنة ١٦٨٤ ـ ١٧١٥م.

عهد لويس الرابع عشر في ظل ادارة مزران:

كان لويس الرابع عشر صغيرا وقاصرا فتولت الوصاية عليه أمه آن النمساوية. وقد عينت آن مزران وزيرا لها ليخلف روشيليو الذي كان يحب مزران. حتى ان ريشيليو أوصى أن يتسلم مزران الوزارة من بعده. ومزران هذا ايطالى وصل الى منصب كاردينال سنة ١٦٤١م.

لقد انتهج مزران نفس سياسة ريشيليو الداخلية والخارجية، وكان يرى أن تكون الملكية الفرنسية ملكية مطلقة، وذات اعتبار كبير في أوربا. الا أن شخص مزران يختلف عن شخص ريشيليو الذي كان يفضل المصلحة العامة، في حين أن مزران كان دائماً يفضل مصلحته الخاصة. ومع هذا فقد وصلت البلاد في فترة حكم وزارته شأوا عظيماً في السياسة الخارجية.

لقد دخلت فرنسا حرب الثلاثين عاما في عهد ريشيليو واستمرت في تدخلها هذا زمن مزران. وبعد نهاية الحرب استطاعت فرنسا بموجب صلح وستفاليا أن تحصل على الألزاس، وثبت حقوقها في أسقفيات تول ومتز ومزران.

لقد واجهت مزران مشكلات داخلية كقيام النبلاء بحركات ضد حكم مزران أدت الى استرداد ما فقدوه من امتيازات زمن ريشيليو. الا أن الملكة آن ومزران تمكنا من انزال العقوبات الشديدة بالنبلاء.

كما واجه مزران ثورات عرفت باسم ثورة «الفروند». فقد ثار الشعب الفرنسي الذي أرهق من شدة الضرائب والاجراءات المالية الصارمة لأن فرنسا كانت قد صرفت أموالها في الحروب الخارجية وفي الأمور التي من شأنها تقوية الملكية الفرنسية في الداخل. فأحدثت ضرائب جديدة، وبيعت الوظائف والألقاب، وكثرت استدانة الحكومة من الأغنياء. فكانت هذه الأعمال قد زادت في بؤس الشعب الفرنسي، وأدت بالتالي الى ثورة «الفروند».

كانت بداية الثورة سنة ١٦٤٤م عندما رفض البرلمان الفرنسي اعتماد الأوامر المالية الخاصة بالضرائب الجديدة. وقدم هذا البرلمان عرائض الى البلاط الملكي يطلب منه الموافقة على جعل البرلمان مشرفا على الضرائب، وطالبه كذلك بالغاء وظائف المأمورين، وطالبه بعدم ادخال الأفراد في السجن من غير محاكمة. وكانت غاية البرلمان هي الحد من سلطة الملك المطلقة في البلاد. ومن هنا نلاحظ مدى التقارب في الأحداث الداخلية في كل من فرنسا وانجلترا عندما حاول البرلمان في كلتيهما تقليص سلطة الملك المطلقة.

لقد تصدى مرزان للبرلمان فأمر باعتقال أفراده المعادين للحكومة، الا أنه تحت ضغط ثورة الشعب في باريس أمر باخراج المعتقلين، وأجاب الى مطالب البرلمان.

وكانت غاية البرلمان الفرنسي أن يلعب دورا كبيرا في السياسة الفرنسية كما هو الحال في البرلمان الانجليزي. ولقد حل مزران المشكلة البرلمانية بأن عقد صلحا مع البرلمان سنة ١٦٤٩ كان بمقضاه قد حصل البرلمان على حق الاشراف على بعض الأمور المالية مقابل تخليه عن التدخل في الشئون السياسية.

ثم حدث خلاف آخر بين مزران وبين النبلاء وقادة الجيش. حتى ان القائد الفرنسي تورين قرر التعاون مع اسبانيا ضد فرنسا الا أنه فشل في مخططه هذا وعاد فيما بعد الى حظيرة الملكية الفرنسية. وبعد انتهاء فرنسا من حربها مع اسبانيا سنة ١٦٥٢م. تمكن مزران من القضاء على الخلافات الداخلية. وبهذا انتهت المرحلة الثانية من مراحل ثورات الفروند، التي انتهت بفوز الملكية التي استطاعت أن تبعد البرلمان عن التدخل في السياسة، وأعادت المأمورين والنبلاء الثائرين الى طاعتها.

وعندما تمكن مزران من فرض النظام في الداخل توجه للأعمال الخارجية التي كانت من أهمها حرب فرنسا مع اسبانيا. ومن أجل ذلك تعاون مزران مع انجلترا ضد اسبانيا. وقد أرسلت انجلترا جيشا انجليزيا زمن كروموبل ليحارب مع الجيش الفرنسي ضد الأسبان. وانتهى الأمر بانهزام اسبانيا، واضطرارها الى طلب الصلح مع فرنسا، فتم ذلك في معاهدة البرانس سنة ١٦٥٩م. وبمقتضى هذه المعاهدة ثبتت فرنسا أقدامها في منطقة اللورين وثبتت أقدامها كذلك في الأراضى التي أخذتها بعد صلح وستفاليا. ومن أجل أن يسود السلام بين فرنسا واسبانيا نص الصلح على زواج ابنة ملك الاسبان ماريا تريزا من لويس الرابع عشر بعد أن تتنازل ماريا تريزا عن جميع حقوقها في وراثة عرش اسبانيا. وهكذا حقق مزران لفرنسا نتائج هامة ومفيدة من جراء دخوله في حروب مع أسرة الهابسبورج في أسبانيا والنمسا. فكان من هذه الفوائد أن ضمنت فرنسا السيطرة على أوربا الغربية، وأخذت تتمتع بالنفوذ القوى الذي كانت تتمتع به أسرة الهابسبورج في أوربا وفي سنة ١٦٦١م. تو في مزران بعد أن قوى شأن الملكية الفرنسية، ونشر الأمن في الداخل، وأوصل فرنسا الى قمة مجدها.

أوج عظمة الملكية الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر:

كان لويس الرابع عشر يؤمن ايمانا قويا بنظرية حق الملوك المقدس. هذه

النظرية التي عمت بلاد أوربا لفترة طويلة. وكان لويس يقول بأن الملك يمثل الاله في الأرض وله سلطة مقدسة مستمدة من الله. ولا يجوز تجزيء هذه السلطة أو التنازل عنها للغير، لأنها حق للملك وأن الله يسأله عنها. والوزارة هي أداة يختارها الملك لتنفذ أوامره وليس للشعب أي حق في أن يشترك معه في تأليف الحكومة. ويقول كذلك على الملك أن يحكم بالعدل والحق. وبهذه النظرية يكون لويس الرابع عشر قد حصل على سلطة مطلقة في فرنسا.

لقد قام لويس الرابع عشر بعدة اصلاحات داخلية مثل: تأليف المجالس والهيئات المساعدة له من أجل المشورة وتنفيذ ما يأمر به بخصوص الحكم والادارة والحرب والبحرية والقضاء ومسائل البروتستانت. وبهذا يكون لويس الرابع عشر قد ركز كل السلطات بيده. وقد أعطى المأمورين المؤيدين لحكمه في الأقاليم سلطات واسعة. وكان هو الذي يختارهم من الطبقة الوسطى التي يعتمد أفرادها على الوظائف والخدمة.

ولقد اختار الملك رجالا أكفاء ليعاونوه في الحكم مثل: كولبير رجل المالية القدير ووزير الخارجية في حكومة الملك. فقد أصلح هذا الوزير الشئون المالية مما أدى الى ازدهار الأوضاع الاقتصادية وبالتالي الى اصلاح الأوضاع الداخلية.

فعمل على انعاش الصناعة الأهلية. ورفع الضرائب الجمركية على البضائع الأجنبية. واهتم بايجاد أسواق للمصنوعات الوطنية في جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية وفي بلاد القارة الافريقية وفي بلاد أوربا الشمالية. وأسس شركة الهند الشرقية ابتداء من سنة ١٦٦٤م. واهتم بوسائل النقل. وأنشأ القنوات. واهتم بالبحرية والموانىء. وركز اهتمامه على تقدم العلوم والفنون في فرنسا.

الا أن نزاعا حدث بين كولبير ووزير الحربية لافوا. وانحاز الملك في النهاية الى وزير الحربية مما أدى الى فقدان كولبير لنفوذه القوى قبل عدة سنوات من وفاته في سنة ١٦٨٣م.

وقبل وفاة هذا المصلح بسنوات بدأت فرنسا تسير نحو الضعف والانحلال بسبب حروبها الطويلة التي أنهكت الشعب وأفرغت الميزانية وعطلت موارد البلاد. وبسبب أخطاء الملك في سياسته الداخلية من حيث التنظيم الادارى الداخلي.

دور الضعف والانحلال :

لقد سارت سياسة لويس الرابع عشر سيرا أدى بالبلاد الى الضعف والهلاك. فقد اعتمد على وزير حربيته لافوا الذي دفع بالبلاد الى مجموعة من الحروب الخارجية أنهكت البلاد وأفرغت ميزانيتها، كما أن الملك كان قد وقع تحت تأثير صديقته المتدينة «مدام منتون» التي تزوجها الملك بعد وفاة زوجته ماريا تريزا. ولقد كانت منتون كاثوليكية متعصبة وعن طريقها زاد نفوذ رجال الدين الكاثوليك في الدولة. ومما زاد الطين بلة أن الملك كان يسير على سياسة يريد بها بسط سيطرة الملكية سيطرة كاملة ومطلقة على جميع الشئون المدنية والدينية في فرنسا. فعقد اجتماعا سنة ١٦٨٢م أقر فيه سيادة الملك العليا على الكنيسة والدولة معا. وهذا معناه اقصاء سيطرة البابوية كقوة أجنبية عن فرنسا، وهذا أوجد انقساما في فرنسا بين الكاثوليك القائلين ببقاء سلطة البابوية وعلى رأس هؤلاء الكاثوليك المتعصبين وجماعة الجزويت. والى جماعة كاثوليكية معتدلة قالت بالقدرية الكالفنية وقالت بفائدة المجالس الدينية من أجل الحد من سيادة البابوية. وهؤلاء هم جماعة الكاثوليك المطهرين الذين كانوا موضع عداء الجزويت والبابوية والملكية معا. هذا الى جانب أن الهيجونوت قوة معادية ومضطهدة من قبل الملك والجزويت والبابوية. وفي بلد كهذا البلد. لابد وأن تحدث فيه عوامل الضعف والانحلال لأن مجتمعه مجتمع مفكك ومقسم. وزاد الأمر سوءا الغاء لويس الرابع عشر لمرسوم نانت في ٢٢ أكتوبر سنة ١٦٨٥. وبهذا فقد الهيجونوت جميع الامتيازات المدنية والدينية التي تمتعوا بها. وطرد رجال الدين البروتستانت من فرنسا وعطلت جميع مدارسهم. وهدمت معابدهم. وكان لالغاء مرسوم نانت نتائج سياسية واقتصادية وخيمة على البلاد. وكان تصرفا ارتجاليا من الملك. فقد هاجر مائتان وخمسون ألفا من البروتستانت الى انجلترا وهولندا وبرندنبرج. فكانوا خسارة لفرنسا ومكسبا للبلاد التي هاجروا اليها لكثرة ما نقلوا اليها من الفنون والعلوم والمعارف والصناعات التي كانت معظمها بيد الهيجونوت. كما ضعف الجيش والبحرية عندما هجرهما البروتستانت. كما أن الاضطهاد الديني للهيجونوت أدى الى اثارة الدول البروتستانتية وشعوبها ضد لويس الرابع عشر.

هذا وأن الحروب الطويلة التي خاضتها فرنسا مع الدول الأجنبية كانت قد

أربكت ميزانية الدولة. ومما أدى الى فرض ضرائب جديد على السكان بالقوة. والى اصدار أوراق نقدية بكميات كبيرة. والى عقد قروض اجبارية مع الأغنياء. فقد أفقرت هذه الاجراءات السكان وأكسدت التجارة، وأنهكت الدولة والبلاد.

الحروب في عهد لويس الرابع عشر:

أولا - حروب الوراثة في الأراضي المنخفضة (بين فرنسا واسبانيا):

طالب لويس الرابع عشر بحكم الأراضي المنخفضة لأن زوجته ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع من زوجته الأولى الياصابات الفرنسية استنادا الى حقه القانوني في الوراثة حسب قانون الوراثة النمساوي قديما في أحد الأقاليم الأراضي المنخفضة الاسبانية. ولكن علينا أن نعلم جيدا أن هذا الادعاء كان يمنعه سبب قانونى وهو أن ماريا تريزا تنازلت عن جميع حقوقها الوراثية في اسبانيا في صلح برانس ١٦٥٩م.

لقد اعترض على هذا الادعاء الملك الأسباني شارل الثاني خليفة فيليب الرابع. ولهذا فان شارل الرابع عشر هاجم فلندرا بدون اعلان حرب سنة ١٦٦٧م. وكانت مقاومة الاسبان مقاومة ضعيفة فاستطاع لويس الرابع عشر فتح فلندرا التي كانت من المراكز الهامة التي بواسطتها يمكن الاستيلاء على أجزاء أخرى من الأراضى المنخفضة.

وعندما انتصرت فرنسا في فلندرا خافت الدول الأوربية فتكون حلف ثلاثى من هولندة وانجلترا والسويد ضد فرنسا. فكان هذا التحالف قد جعل لويس الرابع عشر يوافق على قبول صلح في مايو ١٦٦٨ مع اسبانيا والأراضى المنخفضة بموجبه أرجع منطقة فرانس كومتيه واحتفظ باقليم فلندرا

ثانيا - حرب فرنسا مع هولندا:

قرر لويس الرابع عشر الانتقام من هولندا لأنها كانت صاحبة فكرة التحالف ضدة في أثناء قيامه بحرب الوراثة في الأراضى المنخفضة. كما أن هولندا كانت دائما تدعم هيجونوت فرنسا. هذا الى جانب أن الملك كان يؤيد الحكومات الملكية في أوربا. بالاضافة الى منافسة فرنسا لهولندا في البحار والتجارة. فكان وزير

حربية الملك يرى أن اخضاع هولندا معناه السيطرة على الأراضى المنخفضة الاسبانية (يعنى بلجيكا).

ومن أجل دخول فرنسا الحرب عقدت عدة معاهدات سرية كانت مع انجلترا زمن الملك شارل الثاني، ومع السويد ومع بعض الأمراء الألمان (بفاريا وبراندنبرج). لقد اندلعت الحرب سنة ١٦٧٢م. بعد أن هيأ لها لويس الرابع عشر جميع الظروف منذ سنة ١٦٧٠م. واستغل فرصة انشغال هولندا بمواصلة نشاطها التجارى دون الاهتمام بجمع جيش قوى لأن هذا يكلفها الأموال الطائلة، وكانت هولندا ضعيفة ولا تستطيع الدفاع عن نفسها.

لقد سلم الهولنديون أمرهم الى وليم أورانج بعد أن عزلوا زعامة جون دى وت. وكان أورانج رجلا ذكيا وحازما وله خبرات حربية ضد الأسبان في هولندا والأراضى المنخفضة. فعمل أورانج على اخراج هولندا من عزلتها السياسية. فألف حلفا دعى بتحالف «لاهاى الأعظم» ضد فرنسا كان الامبراطور الألمانى وحكام كل من براندنبرج وبرونزويك وهس واتحاد الراين والدانمارك واسبانيا. وعقد أورانج مع شارل الثاني ملك انجلترا صلحا في فبراير ١٦٧٤م.

وكانت المعارك الأولى بجانب هولندا حتى أجبرت الفرنسيين على التقهقر. الا أن نهاية الأمر دارت الدائرة على هولندا والحلف الأعظم. فهزم الألمان، وخلص الفرنسيون بزعامة كوندية الألزاس من جيوش الامبراطور. وانتصر الفرنسيون على وليم اورانج في البر والبحر.

وقد انتهت الحرب بصلح «نمويجن» وتم فيه ابرام أربع معاهدات بين فرنسا وهولندا واسبانيا والامبراطور من أغسطس ١٦٧٨م حتى فبراير ١٦٧٩م.

وانتهى الأمر بتنازل اسبانيا عن ولاية فرانش كومتيه. واستولت فرنسا على مواقع هامة لتأمين جدودها الشمالية الشرقية مع الأراضى المنخفضة الاسبانية. وكان هذا الصلح هو ذروة انتصارات فرنسا في أوربا، حتى لقب لويس الرابع عشر بالملك العظيم. الا أن هذا الصلح كان ينذر ببدء وقوع مصائب ومشكلات وصعوبات في فرنسا. فقد نتج عن هذه الحروب الطويلة ما يلي:

- أنهكت قوى فرنسا.

- خسرت فرنسا صداقة الأمم الصغيرة بعد حربها ضد هولندا النامية.
- تكونت تحالفات من الأمم الصغيرة التي تخشى بطش فرنسا للعمل ضد مشروعاتها التوسعية.
- تكون حلف قوى من دول أوربا ضد فرنسا لأن فرنسا رأت أن تستغل موقفها العسكرى المتفوق من أجل تفوقها في أوربا. ويوضح هذا طلب لويس الرابع عشر حق وراثة حكم منطقة البلاتينات في ألمانيا لزوجة أخيه بعد وفاة منتخب البلاتينات سنة ١٦٨٥م. وقد تمكن لويس الرابع عشر من احتلالها سنة ١٦٨٧م. وكتدخل فرنسا في مشكلة النزاع الدستورى في انجلترا بين جيمس الثاني المخلوع والبرلمان الانجليزي.
- تكتل بروتستانتى ضدة نتيجة سياسته الكاثوليكية المتعصبة في فرنسا وخارجها.
- تكون حلف «أجزيرج» ضد فرنسا كان قد ألفه أورانج من هولندا والامبراطور الألماني واسبانيا والسويد وبفاريا وسوابيا وفرانكفورت وسكسونيا والبلاتينات، من أجل المحافظة على بنود معاهدتى وستفاليا ونمويجن. ثم انضمت فيما بعد الى الحلف بفاريا وسافوى ثم البابا بشكل سرى سنة ١٦٨٧م. ثم دخلت انجلترا سنة ١٦٨٩م. وعرف هذا الحلف فيما بعد بحلف «المحافظة العظيمة» سنة ١٦٨٩م.

والجدير بالذكر أن صلح نموجين كان صلحا هامشيا لأن لويس الرابع عشر قرر استغلال انتصاراته لمصالحه راميا عرض الحائط مصالح الدول الأوربية الداخلة في الصلح. وعلى هذا فان فترة السلام لم تدم، بل اندلعت الحرب بين فرنسا وبين المتحالفين في حلف أجزبرج.

ولقد تعددت ميادين هذه الحرب في ايرلندا والأراضى المنخفضة الاسبانية والراين وايطاليا والمستعمرات وفي البحار. وقد انتصر الفرنسيون سنة ١٦٩٠م. في البحر على أسطول انجليزي - هولندي، الا أن الفرنسيين انهزموا في موقعة بحرية تدعى بموقعة هيج سنة ١٦٩٣م. كما أن الفرنسيين انتصروا على أورانج في سافوى في ايطاليا وانتصروا على الاسبان كذلك سنة ١٦٩٧م.

والواقع أن هذه الحروب ذات الميادين المتعددة والمتشابكة أقنعت الطرفين أن

لا فائدة منها لأنها صرفت واستنفذت موارد هذه البلاد. وبالتالي تم توقيع **صلح «روزويك» سنة ١٦٩٧م**. وكان هذا الصلح يتكون من أربع معاهدات: مع انجلترا وهولندا والامبراطور الألماني واسبانيا. وبموجب هذا الصلح اعترف لويس الرابع عشر بـ «وليم أورانج» أو ما يسمى بوليم أورانج الثالث ملكا على انجلترا. وتنازلت فرنسا عن كل ما أخذته من ممتلكات أوربية منذ صلح نموجين ما عدا ستراسبورج.

ثالثاً ـ حرب الوراثة الأسبانيــــة :

أن أهم سبب أدى بلويس الرابع عشر للاسراع في عقد صلح روزويك الذي تنازل فيه عن كثير من البلاد التي احتلتها فرنسا، هو أن لويس الرابع عشر أراد التفرغ لمشكلة الوراثة الاسبانية لأن ملك اسبانيا شارل الثاني اعتل جسمه وأصبح على وشك الموت.

كان الامبراطور ليوبولد الأول يدعى حق وراثة اسبانيا لأسرة الهابسبورج. وقد ادعاها كذلك جوزيف فرديناند منتخب بفاريا. هذا الى جانب لويس الرابع عشر الذي يطالب بوراثة حكم أسبانيا لابنه الأكبر من زوجتـه ماريا تريزا.

وأصبحت المسألة مسألة دولية. وقررت انجلترا دخول المعركة لأن هذا بغير التوازن الدولى الأوربى. ولقد توصلت انجلترا الى حل وسط وهو تقسيم أملاك اسبانيا بين الثلاثة في لاهاى سنة ١٦٩٨م. الا أن موت جوزيف فجأة سنة ١٦٩٩م. أدى الى اعادة التوزيع مرة أخرى. لكن حدثت مشكلة وهي أن شارل الثاني عند وفاته كان قد ترك وصية في نوفمبر ١٧٠٠م. أوصى فيها بأملاكه الى فيليب آنجو حفيد لويس الرابع عشر من أجل انقاذ اسبانيا من الانقسام ولتدافع فرنسا عن هذا الحق.

قبل لويس الرابع عشر الوصية وأعلن ملكية حفيدة. وأعلن كذلك أن حقوق حفيدة في فرنسا لاتسقط باعتلاله عرش اسبانيا.

وهكذا تألف حلف من انجلترا وهولندا والأمراء الألمان والامبراطور الألماني ضد فرنسا سنة ١٧٠١م. وقابل لويس السابع عشر هذا الحلف بتحد كبير لوليم أورانج الثالث، فأعلن شرعية حكم جيمس الثاني لانجلترا. وأعلن اعترافه من جديد

بابن جيمس الثاني ملكا على انجلترا باسم جيمس الثالث. وفي هذه الآونة توفي وليم أورانج الثالث سنة ١٧٠٢م.

لقد تعددت ميادين الحروب وتشابكت. واندحرت فرنسا سنة ١٧٠٧م. وتوالت انتصارات الحلفاء في اسبانيا سنة ١٧٠٨. وفي سنة ١٧٠٩ انتشرت المجاعة في فرنسا، وانهزم الفرنسيون أمام الحلفاء في معارك أخرى. ومع أن لويس رغب في السلام، فان الحلفاء أصروا على مواصلة انتصاراتهم. وقدموا شروطا قاسية للويس الرابع عشر من أجل احلال السلام لم يقبلها. وتحت الأمر الواقع قررت فرنسا أن تواصل الحرب بعد أن قويت عزيمتها. وبدأت تتحرك عسكريا حتى كسرت الحلفاء سنة ١٧١٢. وكان هذا قد حد من غلو الحلفاء الذين قبلوا المفاوضات في أوترخت سنة ١٧١٣م. والتي كانت من نتيجتها صلح أوترخت بين فرنسا واسبانيا ثم وقعت معاهدة مع الامبراطور الألماني في روشتادر سنة ١٧١٤م. ثم مع الأمراء الألمان في صلح بادن سنة ١٧١٤م. وعرفت معاهدات أوترخت ورشنادر وبادن جميعها باسم صلح أوترخت الذي أعاد السلام الى أوربا. ومن شروط هذا الصلح ما يلي:

١ ــ الاعتراف بفيليب الخامس (انجو) ملكا على اسبانيا ومستعمراتها على أن يتنازل عن حقوقه في فرنسا.
٢ ــ استولى الامبراطور شارل السادس على بلجيكا ونابولى وميلان وسردينيا.
٣ ــ أخذت فرنسا الألزاس وستراسبورج، وسلمت ما استولت عليه من قلاع في الراين الأيمن.
٤ ــ أعيد منتخبو كولون وبفاريا الى امارتيهما.
٥ ــ اعترف بحق أسرة هانوفر بوراثة عرش انجلترا. وانتهى مطلب جيمس الثالث بهذا الحق.
٦ ــ أخذت انجلترا جبل طارق ومينورقة ونيوفوندلند وهدسن من فرنسا في أمريكا الشمالية. كما أخذت امتيازات تجارية عديدة.
٧ ــ اعترف بمملكة بروسيا. وأعطى لدوق سافوى بعض الأملاك في ميلانو.
٨ ــ هدمت تحصينات دانكرك.

ونلاحظ هنا أن المنتصر في هذه التقسيمات هي انجلترا التي أخذت حصة

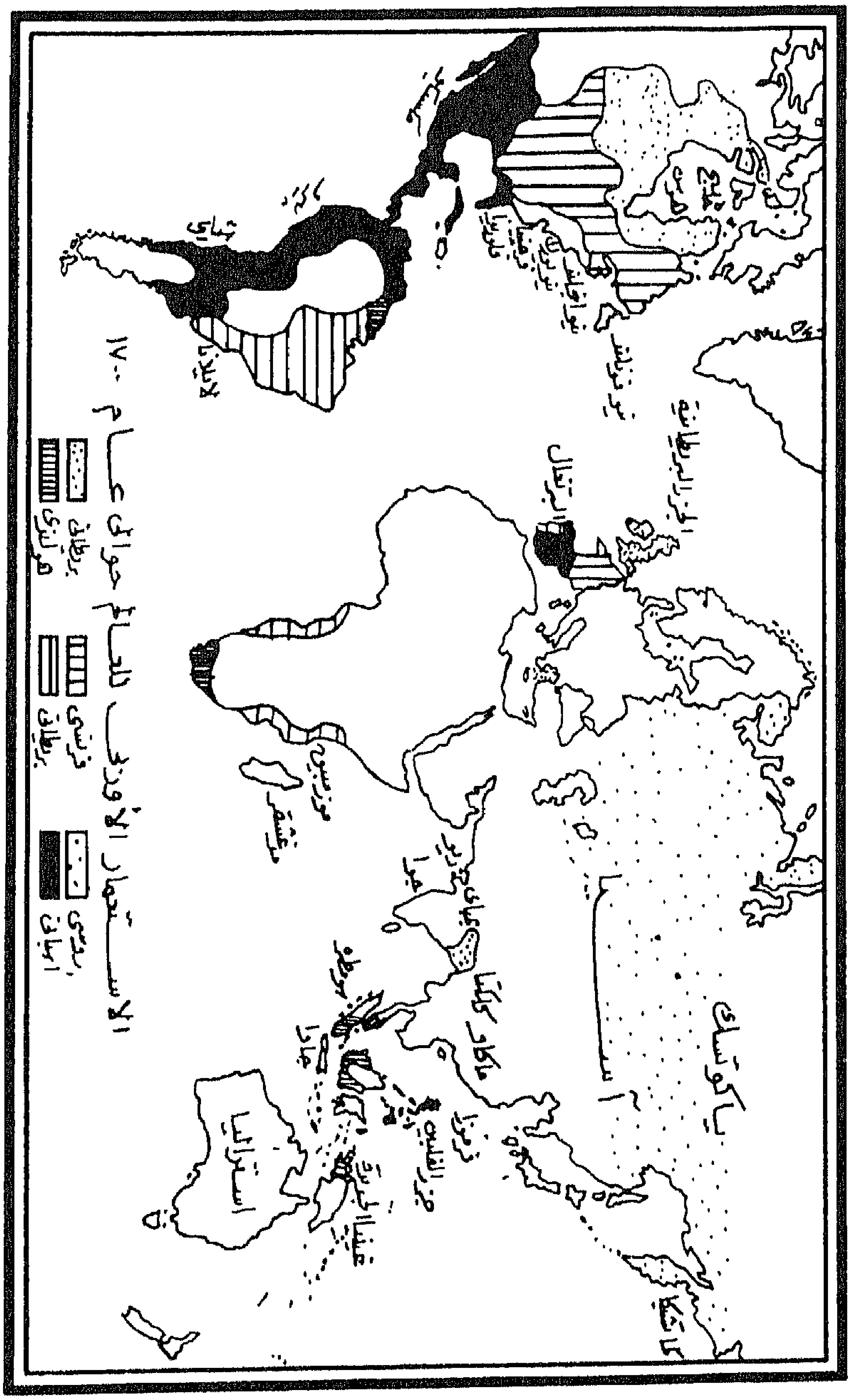
الاستعمار الأوروبي للعالم حوالي عام ١٧٠٠م

الأسد في المستعمرات الأسبانية والفرنسية وفي الأمور البحرية والتجارية. ونلاحظ أن فرنسا خرجت منهكة القوى، فأثر ذلك على أوضاعها الداخلية في المستقبل، وكان هذا من بين الأسباب العميقة التي أدت الى قيام الثورة الفرنسية فيما بعد.

المراجع التي يمكن الرجوع إليهـا :

أولاً : المراجع العربيـة والمعربـة :

١ ــ ***هربرت فيشـر :*** أصول التاريخ الأوربى الحديث، مترجم.
٢ ــ ***روبر بالمـر :*** تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول، مترجم.
٣ ــ ***السيرجون هامرتن :*** تاريخ العالم، مترجم.
٤ ــ ***لانجـر :*** تاريخ العالم، مترجم.
٥ ــ د. ***محمد فؤاد شكرى و د. أنيس :*** أوربا في العصور الحديثة.
٦ ــ د. ***عبدالعزيز محمد الشناوى :*** أوربا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول.
٧ ــ ***عمر الاسكندرى وسليم عثمان :*** تاريخ أوربا الحديثة وآثار حضارتها.
٨ ــ ***محمد قاسم وزميلـه :*** التاريخ الحديث والمعاصر.
٩ ــ ***هـ. ج. ولـز :*** موجز تاريخ العالم، مترجم.
١٠ ــ د. ***يحيى جلال :*** معالم التاريخ الأوربى الحديث.

ثانياً : المراجـع الأجنبيـة :

1. T. H. Dyer, The Life of John Calvin.
2. A. Bossert, Calvin.
3. F. C. Calvinism and the Religious Wars.
4. W. Walker, John Calvin.
5. E. Armstrong, The French Wars of Religion.
6. J. A. Grant, the Huguenots.
7. A. J. Butler, Wars of Religion in France (Cambridge Modern History, Vol. III. Ch. 1).

8. L. B. Packard, Age of Louis XIV.

9. . Head Lam, France.

10. C. Hugon, Social France in the 17th Century.

11. Perkins, France Under Mazarin.

12. C. L. Morris, Maria Theresa.

13. A.G. Bradley, The fight Wittre France for the North America.

14. Corbett, England in the Seven year's War.

15. G.L. Beer, British Colonial Policy

16. P. Gaxotte, Louis the XVth and His times.

17. H. See, Economis and Social Conditions in France During the 18th Century.

18. L. Ductors, French Society in the 18th Century.

19. D. Mornet, French political Thought in the 18th Century.

20. J. A. Grant, The Huguenots.

ثم ان فردريك بصفتـه ناخب براندنبرج كان يتبع الامبراطور وبصفته دوق بروسيا كان يدين بالولاء لملك بولونيا، مما أفقد البلاد وحدة الولاء السياسي. كما أن البلاد كان يسودها الاضطراب السياسي والضائقة الاقتصادية بسبب أحداث حرب الثلاثين عاما. ولذا فقد وضع منذ تسلم الحكم سياسة واضحة المعالم لتغيير أوضاع بلاده أخذ يعمل على تنفيذها تدريجيا طيلة فترة حكمة الطويل الذي امتدت حتى سنة ١٦٨٨م وأبرز وجوه هذه السياسة:

١ ــ ضرورة العمل على اخراج البلاد من أتون الحرب وجعلها تتخذ موقف الحياد من أحداثها مع العمل في الوقت نفسه على تكوين نواة جيش صغير ضمن امكانيات البلاد الاقتصادية المحدودة. وقد حقق نجاحا قويا في هذا المجال بإخراج القوات الأجنبية من أراضيه. وقد تمكن بفضل سياسته الحكيمة من الحصــول على مغــانم ممتازة بموجب صلح وستفــاليا فحصـل على دوقية بوميرانيا على بحر البلطيق وكذلك أربع أسقفيات ألمانية.

٢ ــ العمل على انشاء سلطة مركزية قوية مطلقة، وتكوين جيش قوى دائم يدين بالولاء لهذه السلطة وحدها. وقد أمكنه تحقيق ذلك تدريجيا بعد أن جرد النبلاء ومجالسهم من السلطان السياسي. وسلبهم سلطاتهم الادارية وأخذ منهم صلاحية جباية الضرائب مما ساعده على تحقيق وحدة الحكم واخضــاع المقــاطعــات لادارة مركزية واحدة. وتمكن من القيام باصلاح اقتصــادي. فشجـع الصناعة والزراعة وبنى شبكة من الطرق والجسور والقنوات المائية وشجع على استصلاح الأراضى الزراعية.

٣ ــ عمل على توحيد أجزاء بلاده، فاستغل الحرب التي نشبت بين السويد وبولندا، وخرج منها بالحصول على سيادته الكاملة في بروسيا وتحرره من سلطان ملك بولندا السياسي. وكذلك حاول عن طريق استغلال الحروب الهولندية التي قامت زمن لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢م. الا أن فرنسا أفسدت عليه خطته وخرج من هذه الحرب دون تحقيق مكسب مهم.

ملكية آل هوهنز لرن:

خلف فردريك الثالث والده بعد وفاته سنة ١٦٨٨م. ونظرا لضعفه ومرضه لم يستطع أن يتبع سياسة طموحة الا أنه حقق نصرا كبيرا لعائلته ولبروسيا.

ثم ان فردريك بصفتـه ناخب براندنبرج كان يتبع الامبراطور وبصفته دوق بروسيا كان يدين بالولاء لملك بولونيا، مما أفقد البلاد وحدة الولاء السياسي. كما أن البلاد كان يسودها الاضطراب السياسي والضائقة الاقتصادية بسبب أحداث حرب الثلاثين عاما. ولذا فقد وضع منذ تسلم الحكم سياسة واضحة المعالم لتغيير أوضـاع بلاده أخذ يعمل على تنفيذها تدريجيا طيلة فترة حكمة الطويل الذي امتدت حتى سنة ١٦٨٨م وأبرز وجوه هذه السياسة:

١ ــ ضرورة العمل على اخراج البلاد من أتون الحرب وجعلها تتخذ موقف الحياد من أحداثها مع العمل في الوقت نفسه على تكوين نواة جيش صغير ضمن امكانيات البلاد الاقتصادية المحدودة. وقد حقق نجاحا قويا في هذا المجال بإخراج القوات الأجنبية من أراضيه. وقد تمكن بفضل سياسته الحكيمة من الحصــول على مغــانم ممتازة بموجب صلح وستفــاليا فحصـل على دوقية بوميرانيا على بحر البلطيق وكذلك أربع أسقفيات ألمانية.

٢ ــ العمل على انشاء سلطة مركزية قوية مطلقة، وتكوين جيش قوى دائم يدين بالولاء لهذه السلطة وحدها. وقد أمكنه تحقيق ذلك تدريجيا بعد أن جرد النبلاء ومجالسهم من السلطان السياسي. وسلبهم سلطاتهم الادارية وأخذ منهم صلاحية جباية الضرائب مما ساعده على تحقيق وحدة الحكم واخضـاع المقـاطعـات لادارة مركزية واحدة. وتمكن من القيام باصلاح اقتصـادي. فشجـع الصناعة والزراعة وبنى شبكة من الطرق والجسور والقنوات المائية وشجع على استصلاح الأراضى الزراعية.

٣ ــ عمل على توحيد أجزاء بلاده، فاستغل الحرب التي نشبت بين السويد وبولندا، وخرج منها بالحصول على سيادته الكاملة في بروسيا وتحرره من سلطان ملك بولندا السياسي. وكذلك حاول عن طريق استغلال الحروب الهولندية التي قامت زمن لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢م. الا أن فرنسا أفسدت عليه خطته وخرج من هذه الحرب دون تحقيق مكسب مهم.

ملكية آل هوهنز لرن :

خلف فردريك الثالث والده بعد وفاته سنة ١٦٨٨م. ونظرا لضعفه ومرضه لم يستطع أن يتبع سياسة طموحة الا أنه حقق نصرا كبيرا لعائلته ولبروسيا.

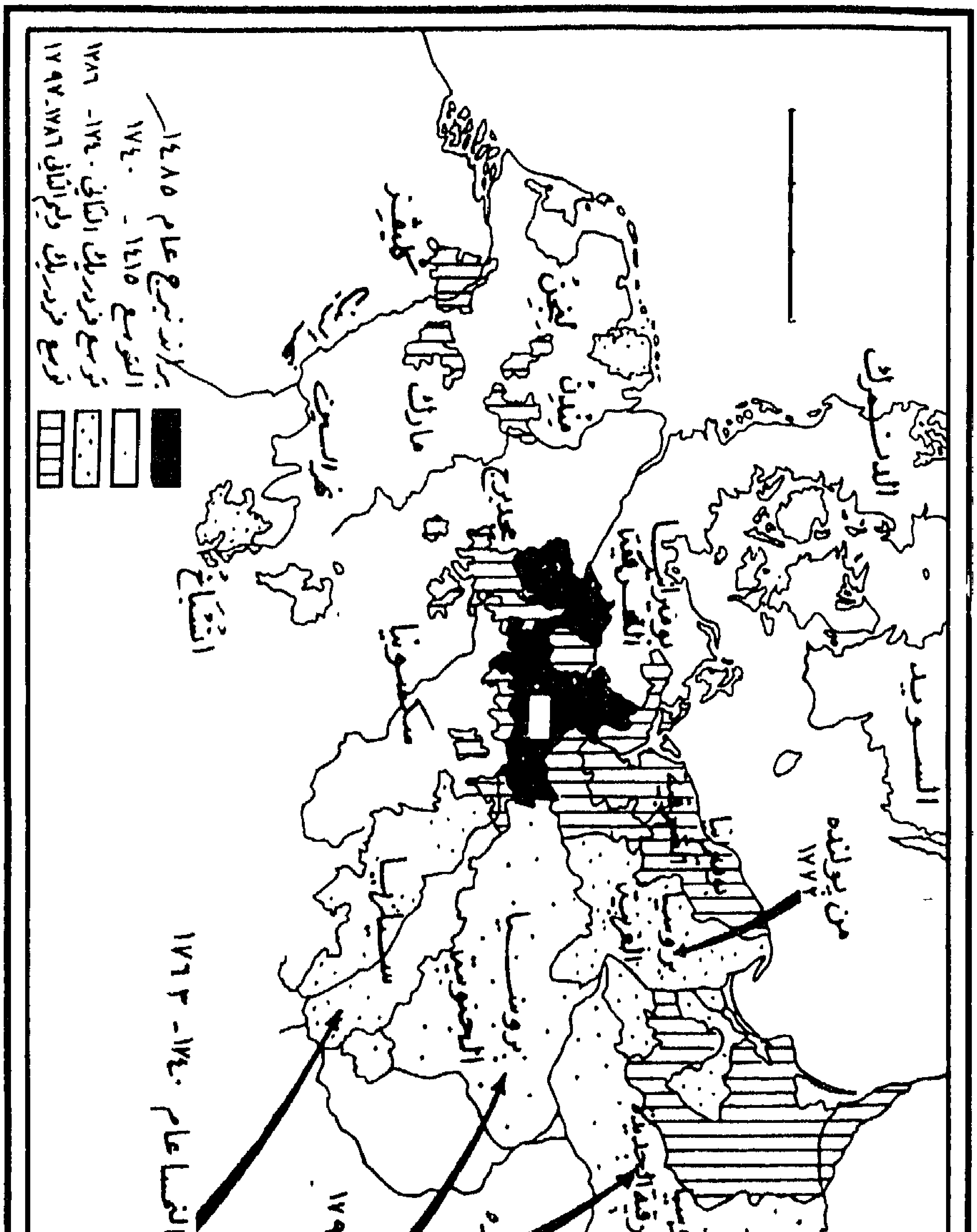
من بولنده ١٧٧٢
من بولنده ١٧٩٣
من بولنده ١٧٩٥
من النمسا عام ١٧٤٠ - ١٧٦٣
السويد

فقد استغل نزاع الامبراطور الألماني ليوبولد مع العرش الفرنسي حول قضية الوراثة الاسبانية فحصل بموجب دعمه للامبراطور على وعد بمساعدة عسكرية ومالية في حال نشوب الحرب مع فرنسا كما حصل على لقب ملك بروسيا. وتوج ملكا في سنة ١٧٠١م. تحت اسم فردريك الأول ملك بروسيا. وأطلق على أملاك الهوهنزلرن في ألمانيا اسم مملكة بروسيا.

فردريك الأول وظهور مملكة بروسيا

يعتبر فردريك الأول المؤسس الثاني للدولة البروسية. واتصف هذا الملك بالبخل الشديد وفي الوقت نفسه كان عنجهيا وجادا.

لقد رأي ان يجمع السلطة في يده. وعمل على اضعاف سلطة النبلاء والمجالس المحلية في مملكته. وعمل مجموعة من الاصلاحات في الدوائر الحكومية. كما عمل على اصلاح الشئون المالية. وكان يمر في الشوارع والطرقات، ويضرب بعصاه كل رجل عاطل عن العمل ويحثه على العمل في أي عمل كان، وبهذا أصبحت البلاد عبارة عن أسرة نشيطة جادة، وهذا أدى الى ارتفاع مستوى الحياة الاقتصادية. كما أخذ الناس في مملكته يجففون المستنقعات ويقومون بزراعة الأراضى البور.

ثم عمل على زيادة الثروة عن طريق تشجيع الصناعة. فاستدعى مجموعة من الصناع البروتستانت الى بلاده مستغلا عملية الاضطهاد الدينى التي حدثت في أوربا ضد البروتستانت. فعمل على استقطاب هذه الجماعات المضطهدة الى بلاده. ثم عمل المشروعات الاصلاحية الخاصة باصلاح الضرائب وغيرها من الشئون المالية.

لقد وجه هذا الملك عناية واهتماما لاصلاح الجيش البروسى، لأن الجيش هو الساعد الأكبر للملك والأساس الذي تعتمد عليه الدولة. فوصل عدد الجيش في زمنه الى ٨٠،٠٠٠ جندى، واهتم بتنظيمه وتدريبه اهتماما كبيرا. وكان يستدعى الرجال العظام من أنحاء أوربا ويستخدمهم في تنظيم الجيش وادارة البلاد من حيث الشئون الداخلية والادارية والمالية. وقد استخدم فردريك حرسا كبيرا له اعتمد فيه على ضخام الرجال، وسمى هذا الحرس باسم «حرس بتسدام». وفتح

باب التطوع في الجيش لجميع الصالحين من الرجال في أنحاء البلاد الأوربية ليستفيد بذلك من خبراتهم ونشاطهم. والمشهور عنه أنه كان مولعا بالرجال الضخام، وقيل ان هولندا طلبت منه علماء بروسيين ليدرسوا في جامعاتها، الا أنه رد عليها بالعبارة التالية: «إذا لم تعطونا رجالا ضخاما فنحن على غير استعداد لنعطيكم علماء من عندنا».

والجدير بالذكر أن هذا الملك لم يخض معارك أوربية، بل ظل يقف موقفا محايدا في أثناء الخلافات والحروب الأوربية المتعددة التي حدثت في أثناء فترة حكمة الطويلة. ويعتقد أنه كان يفضل السلام والاستقرار على الحروب، وذلك من اجل أن تكون دولته الناشئة دولة قوية.

هذا ولقد اهتم هذا الملك بالعلوم: كالطب والاقتصاد والتعليم الادارى والفنون الخاصة بالأمور الحربية. ولم يهتم بالفلسفة والآداب والفنون الجميلة وكان يقول: «ذرة من العلم خير من جامعة زاخرة بأنواع العلوم الأدبية والفلسفية والانسانية والمعارف الأخرى».

وفي الختام فقد كان هذا الملك شديدا وقاسيا في تطبيق النثام بدقة على أبناء أسرته وحاشيته. وبهذا استطاع أن يقوى بلاده. ولقد توفي هذا الملك سن ١٧٤٠م. وخلفه ابن فردريك.

الملك فردريك الاكبر (الثاني) ١٧٤٠ - ١٧٨٦ م:

لقد تمت عدة أعمال في عهد هذا الملك أثرت على بروسيا وعلى أوربا وأصبح هذا الملك محور السياسة الأوربية في أثناء فترة حكمه الطويلة. وسمى بفردريك الأكبر لما لأعماله من أثر عظيم في تاريخ بروسيا بخاصة وفي تاريخ أوربا بعامة.

نشـــأة هذا الملـــك:

لقد نشأ هذا الملك تعيسا لشدة قسوة والده عليه ولسوء معاملته له، لأنه كان يحب الفلسفة والموسيقي والأدب الى حد الولع بها، وكان هذا لايوافق عليه والده.

لقد قرر فردريك الأكبر في أثناء حكم أبيه الهروب الى انجلترا، ولما سمع والده بالخبر السرى شكل له محكمة عسكرية حكمت عليه بالاعدام، ولم ينج من

الاعدام الا بعد محاولات طويلة ومعقدة. وقد خلقت هذه الحياة التعسة من الملك فردريك شخصا يعتمد على نفسه وأخرجت منه انسانا قويا معتدا على نفسه.

أبدى فردريك مقدرة فائقة على ادارة شئون الحكم وقدرة على الاستفادة من الجيش، كما أظهر عقلية استبدادية مطلقة ونزعة نحو الحكم الفردى تحول معها وزراؤه ومعاونوه الى موظفين مهمتهم تلقى أوامره وتنفيذها. لقد أدرك فردريك أن وضع بروسيا يحوى في اطار تكوينه ضعفا يفرض عليها استعمال جيشها بكثير من الحذر والتروى. فهى ذات امكانيات اقتصادية محدودة وعدد سكانها قليل، ولا تكون وحدة جغرافية وهذه أهم نقاط ضعفها. وانطلاقا من هذه المعطيات رسم فردريك الثاني سياسة لبلاده تنسجم مع أوضاعها وتحقق لها أهدافها تدريجيا وبصورة خاصة تلك المتعلقة بضم أراض جديدة تساعد في اقامة الاتصال بين مقاطعاتها المتفرقة. وقد أمكن لهذا الملك تحقيق الكثير من أهداف بلاده عن طريق دأبه المتواصل واخلاصه في العمل جاعلا من نفسه الخادم الأول لبروسيا مظهرا في القيادة موهبة عظيمة في الحرب كما في السلم مما جعل الألمان يطلقون عليه بحق فردريك الثاني العظيم. وقد رافق بداية حكمة أزمة قوية في الامبراطورية فسحت له المجال لاظهار مواهبة كرجل دولة وكقائد عسكري.

لقد ألغى الملك رقابة الصحف، وكان هذا العمل قد حبب الشعب فيه. كما منح حرية العبادة لجميع المذاهب الدينية في بروسيا. وألغى العقاب الجثماني الصارم. وأبطل حرس بتسدام، ورأى أنه لا فائدة من حراس ضخام الأجسام.

وفي الحقل الخارجي فقد صرف هذ الملك جهدا في السياسة الخارجية بعد وفاة الملك شارل السادس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

لقد سعى الامبراطور شارل السادس الى ارضاء الأمراء والملوك من أجل موافقتهم على تعيين ابنته ماريا تريزا خلفا له. ولقد وافق معظمهم ومن بينهم فردريك ملك بروسيا. وعرف هذا التعيين في التاريخ «بالضمان الوراثي».

حروب فردريك الأكبر:

لقد قام فردريك الأكبر بحروب منها: انقضاضه على سيليزيا التي كانت ولاية نمساوية، والمعروف أن هذه الولاية النمساوية غنية جدا بخيراتها، وادعى فردريك

أنها تشكل جزءا من ولاية براندنبرج. ومع أن أدعاء فردريك الأكبر كان ادعاء واهيا ولم ينتظر رد الملكة ماريا تريزا عليه، فانه صمم خوض معركة مع النمسا. ولقد استطاعت قواته من اكتساح سيليزيا سنة ١٧٤١م. بعد هزيمة الجيش النمساوي في موقعة «ملوتز».

ونتج عن الحرب البروسية النمساوية ما يلي:

- أن انتصار فردريك الأكبر على النمسا حرك أطماع الدول الأوربية الأخرى في أملاك ماريا تريزا.
- تنافس أوربى حول تقسيم أملاك ماريا تريزا.
- ظهر تحالف فرنسى - بروسي - اسباني - بافاري - سكسوني ضد ماريا تريزا.
- قامت حرب أوربية جديدة عندما زحفت جيوش فرنسا على ألمانيا وساعدتها قوات بافاريا. ثم زحف السكسونيون على بوهيميا. وكانت من أهم النتائج التي تركتها الحرب الجديدة هي استيلاء أرشيدوق بافاريا على بوهيميا، وتنويجه ملكا عليها في عاصمتها براج سنة ١٧٤٣م. وكذلك فقد انتخب هذا الأرشيدوق امبراطور للدولة الرومانية المقدسة وتسمى بالامبراطور «شارل السابع».

والجدير بالذكر هنا أن هذه الحرب الأوربية التي أشعلها فردريك بزحفه على سيليزيا عرفت بحرب «الوراثة النمساوية» وعرف العمل الذي قام به فردريك هذا بالحرب السيليزية الأولى والثانية.

الحرب السيليزيــــة الأولـــى :

وأما ماريا تريزا فقد التجأت الى أمراء المجر الذين هبوا لمساعدتها وعقدوا العزم على حماية ملك ملكتهم. ولقد جمع الأمراء المجريون جيشا قويا تقدم فغزا بافاريا واستولى على ميونخ في اليوم الذي توج فيه شارل السابع امبراطورا على الدولة الرومانية المقدسة.

لقد تخوف فردريك من اتساع نفوذ فرنسا فعقد مع ماريا تريزا معاهدة سرية دعيت بمعاهدة كلين شفلندورف في سنة ١٧٤١م. وتنص هذه على حياد فردريك الأكبر مقابل اعطائه سيليزيا العليا.

لكن فردريك الأكبر كان قد تخوف من نية ماريا تريزا فنقض العهد وساق جيوشه على ولاية مورافيا سنة ١٧٤١م، الا أن بقاء الفرنسيين والسكسونيين في بوهيميا وتمسكهم بها أدى بفردريك الى الانسحاب من مورافيا والتوجه الى بوهيميا لمحاربة الجيوش النمساوية، واستطاع الانتصار عليها في موقعة «ستوزتز» سنة ١٧٤٢م.

ونتج عن هذا الانتصار أن اعترفت ماريا تريزا لفردريك بسلطته على سيليزيا. ووقعت صلحا سمى «**بصلح برزلو**» **سنة ١٧٤٢م**، اعترفت بموجبه ماريا تريزا بملكية سيليزيا لفردريك، وهكذا انتهى عهد الحرب السيليزية الأولى.

لقد انتصرت فيما بعد جيوش النمسا على أعدائها وكان هذا الانتصار يقلق فردريك الأكبر. واستطاعت النمسا أن تجبر الفرنسيين على الجلاء من بوهيميا. وأخذت بريطانيا تساعد النمسا ضد فرنسا. وبهذا ظلت النمسا متفوقة، وهذا التفوق هو الذي أدى بفردريك الخامس أن يعود مرة أخرى الى الحرب ضد النمسا. وبهذا فقد ابتدأت **الحرب السيليزية الثانية** التي دامت فترة من سنة ١٧٤٤ ـ ١٧٤٥م. وقد انتصر فردريك على النمسا وسكسونيا في ثلاث مواقع فاصلة وهي موقعة «هوهنفريدبرج» و «صر» و كسلزدورف». وهذه الانتصارات المتلاحقة لفردريك الأكبر حدا بالملكة مارياتريزا إلى عقد صلح «درزون» في ديسمبر ١٧٤٥م. وكانت بريطانيا قد توسطت في هذه المرة بين المتحاربين. ونتج عن هذا الصلح ما يلي:

ـ اعتراف النمسا بنفوذ فردريك المطلق في سيليزيا.
ـ اعتراف فرديك الأكبر بزوج ماريا تريزا وهو «فرنسيس الأول» امبراطورا.
وضمان فردريك الأكبر لأملاك النمسا في ألمانيا.
ـ أنهى هذا الصلح الحرب السيليزية الثانية.

أما بالنسبة لفرنسا فظلت تواصل الحرب، وأخذت تحرز انتصارات متلاحقة ضد النمسا ومع أن انجلترا كانت تساند النمسا فان النمسا أخيرا اضطرت الى عقد صلح مع فرنسا سمى **بصلح «اكس لاشبل»** سنة ١٧٤٨م. ومن أهم شروطه «أن ترجع الأمور كما كانت عليه قبل الحرب بين فرنسا والنمسا». أما بالنسبة لسيليزيا فظلت لفردريك الأكبر. وقد أنهى هذا الصلح الحرب المسماة

«بحرب الوراثة النمساوية».

ولقد أعاد صلح «اكس لاشبل» الوضع الأوروبى كما كان عليه. وظل الوضع كذلك نحو عشر سنين عم فيها الاستقرار والأمن في أوربا، وكادت هذه السنين أن تغسل ما لطخته الحرب الأوربية بين الدول الأوربية نتيجة للأطماع التوسعية لدولها، وما حدث عن تنافس بين هذه الدول نتيجة اختلاف مصالحها.

ولقد تفرغ فردريك الأكبر للقيام بمجموع اصلاحات داخلية مثل: دراسته لأوضاع بلاده بنفسه، فكان يدرس كل موضوع دراسة جادة ويعطى أوامره بتنفيذ مايراه مناسبا. وكان يعرف كل صغيرة وكبيرة في دولته. وبيده كل الأمور. فهو حاكم مطلق مستبد بالسلطة. وهذه الشدة في ادارة أمور الدولة من قبل فردريك أدت بجميع من هم دونه الى الاهتمام القوى بما هو مطلوب منهم القيام به، والا عوقبوا معاقبة شديدة. فقام فردريك بالأعمال الداخلية التالية:

- لقد أحيا المجمع العلمى الذي اندثر زمن أبيه.
- اهتم بتنظيم الأمور الاقتصادية (الصناعية والزراعية). واهتم بصناعة الحرير.
- عمر الأقاليم المهجورة وأسكن فيها الأقوام المهاجرة.
- حفر مجموعة من الترع وجفف المستنقعات.
- اهتم باصلاحات الجيش في تدريبة وأسلحته. فزاد جيشه على ١٦٠٫٠٠٠ جندى.
- أعطى الحرية الدينية والسياسية للجميع، وهذا ما جعل أهل سيليزيا جماعة مطيعة له لأنه سمح لهم بحرية المذهب. ورحب باليسوعيين.
- اهتم بالقيام بعدة مبان وفنون جميلة. واهتم بالآداب فضم الى حاشيته الشاعر الفرنسي الشهير «فولتير».

فردريك الأكبر وحرب السنين السبع من (١٧٥٦ - ١٧٦٣) م:

لقد كان صلح اكس لاشيل هدنة فقط. وظلت ماريا تريزا تعمل من أجل الحرب. فقامت بمجموعة اصلاحات داخلية في امبراطوريتها. ثم أخذت تفتش عن حلفاء جدد ليساعدوها مساعدة جادة ضد أعدائها. وكانت تحقد على بريطانيا لأنها كانت ترى أنها ضغطت عليها فجعلتها تتنازل عن سيليزيا، وأن بريطانيا

لاتساعدها مساعدة جادة.

لقد تحالفت ماريا تريزا بمشورة وزيرها مع فرنسا عدوتها في حرب الوراثة النمساوية، وذلك ضد فردريك الأكبر من أجل استرجاع سيليزيا. وبهذا عقدت بين النمسا وفرنسا معاهدة فرساى الأولى سنة ١٧٥٦م ولم يأبه فردريك بهذا الاتفاق الجديد لعدة أمور فيها:

- ضعف فرنسا زمن ملكها لويس الخامس عشر. كما كانت خطيبته «مدام دى بمبادور» هي صاحبة الكلمة العليا في فرنسا، لذا ظل الملك صاحب النفوذ الأسمى في البلاد.
- لأن فرنسا منشغلة في نزاعها مع بريطانيا في مستعمراتها في أمريكا.
- لأن بريطانيا والنمسا على علاقة سيئة بعد حرب الوراثة النمساوية.
- ولأن فردريك كان قد اتفق مع بريطانيا أن تحرس الأخيرة هانوفر ولا تسمح للجيوش الروسية من اختراق ألمانيا في معاهدة وستمنستر سنة ١٧٥٦م.
- أدت هذه المعاهدة بدولة روسيا الى أنْ تتفق مع النمسا ضد بريطانيا وفردريك الأكبر.

ونلاحظ ان الوضع الأوربى في هذه الفترة كان قد انقلب رأسا على عقب.

وعرف هذا التغيير في تاريخ أوربا «بالانقلاب السياسي». وهكذا أخذت تلوح بوارد الحرب المسماة بحرب السنين السبع التي استمرت في أوربا من سنة ١٧٥٦ حتى سنة ١٧٦٣م.

مراحل حرب السنوات السبع :

- بدأ فردريك الأكبر هذه الحرب بهجومة على سكسونيا بعد أن رفضت الانضمام اليه، لتكون قاعدة لحروبه. وقد استطاع أن يكتسح سكسونيا بعد أن تقهقر جيشها سنة ١٧٥٦م. ولقد هبت النمسا لمساعدة سكسونيا الا أن جيشها انكسر أمام الجيش البروسي سنة ١٧٥٦م. ولقد أثارت هذه الحرب حفيظة أوربا ضد فردريك لأنه دخل الحرب ضد ولاية سكسونيا الصغيرة دون سابق انذار. وشكلت أوربا حلفا ضد فردريك. فعقدت القيصرية الروسية معاهدة بطرسبورج سنة ١٧٥٧م مع النمسا ضد فردريك. ثم عززت معاهدة فرساى مع النمسا

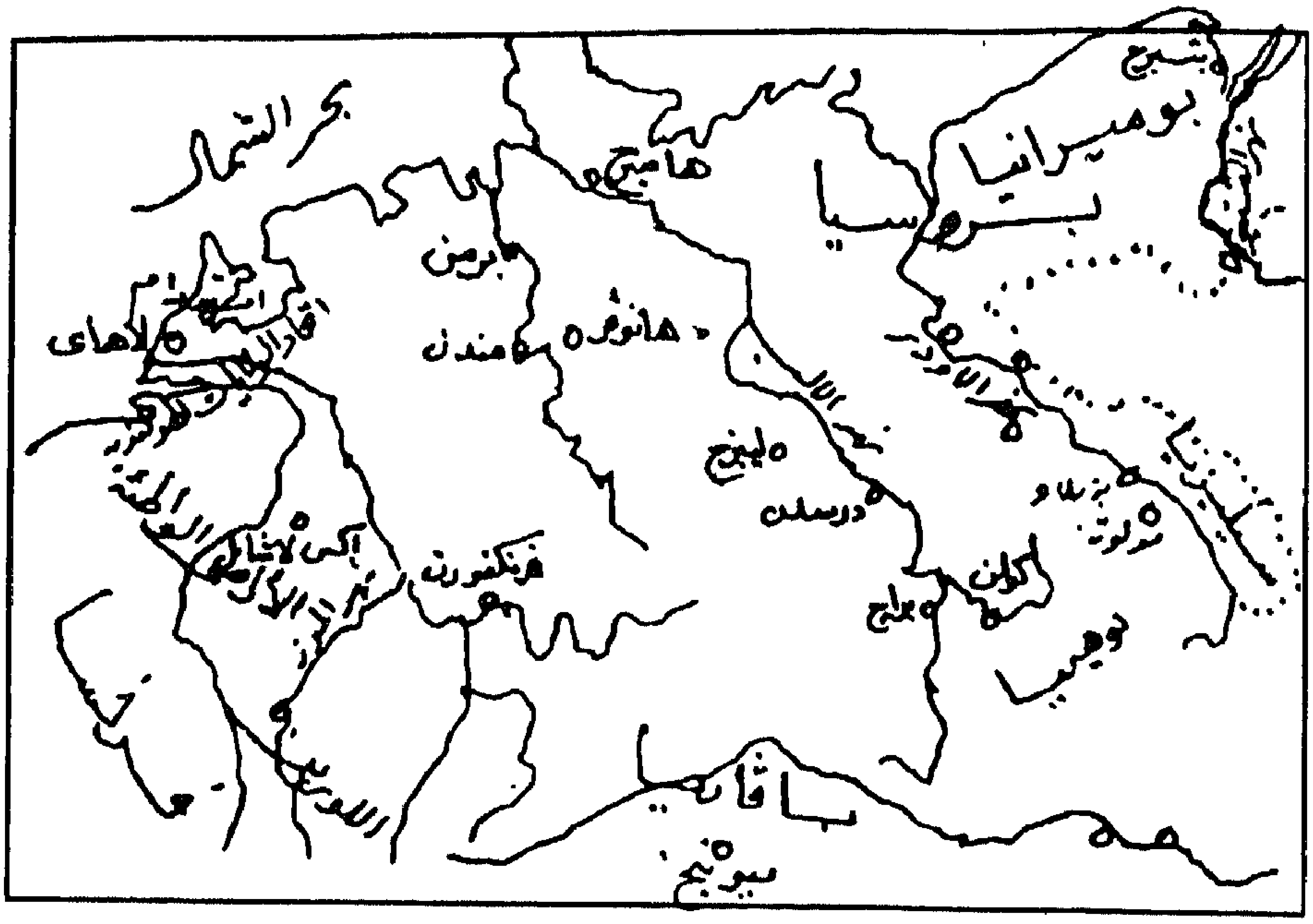

حروب الوراثة النمساوية وحرب السبع سنوات

مرة أخرى أطلق على ذلك بمعاهدة فرساى الثانية سنة ١٧٥٧م. وانضمت السويد الى النمسا وأعداء فردريك. ولم يبق لفردريك صديق غير بريطانيا.

ـ أسرع فردريك الأكبر بعد هذه التحالفات الأوربية فاجتاز بوهيميا وباغت النمساويين قرب براغ سنة ١٧٥٧م. ولقد تضافرت عليه جهود النمسا وجهود بوهيميا، ولما شعر فردريك بالحصار الملفوف عليه اضطر الى الجلاء عن بوهيميا. وهنا لاحقته جيوش النمسا فدخلت جزءاً من سيليزيا. كما أن بريطانيا حليفة فردريك كانت قد خسرت في هانوفر بعد هزيمتها في موقعة «خستنيك» أمام القوات الفرنسية واضطرت الى عقد صلح «كليستر سفن». سنة ١٧٥٧م. وخرجت القوات البريطانية من «هانوفر» و «برونزويك». وهكذا، أصبح فردريك في الميدان الحربى بمفرده. وأخذت جيوش أعدائه تهاجمه من كل الجهات.

ومع هذا فقد خرج فردريك الأكبر من هذه الأزمة وهو منتصر على أعدائه. فقد استطاع فردريك أن يكسر القوات المتحالفة في موقعة «رسباخ» سنة ١٧٥٧م. ثم تابع هذا الانتصار بانتصار آخر ضد النمسا في موقعة «لوبن» بسيليزيا. وبعد

استرجاع سيليزيا طار صيته في أوربا حتى ان نابليون قال عن هذا الانتصار انه لوحده يكفى أن يضع فردريك الأكبر في مصاف أكابر قواد العالم.

ـ وفي سنة ١٧٥٨م انتصر فردريك على الجيش الروسى عند «دورندورف» واستطاع دحر الروس الى بولندا.

ثم تابع فردريك هجومه ضد سكسونيا وأرغم النمساويين على الجلاء عنها. وفي سنة ١٧٦٠م أخذت الهزائهم تتوالى على فردريك الأكبر بعد أن تضافرت جهود أعدائه وبعد أن قرروا الفتك به. فهزم في موقعة كونرزدورف في برندنبرج أمام القوات الروسية. واستولى النمساويون على مدينة درزدن. ولكن الخلاف دب بين صفوف أعدائه. ولولا هذا الخلاف لكان باستطاعة هذه الدول القضاء عليه في هذه السنة.

ـ وفي سنة ١٧٦١م تغير الأمر فكان الوضع الحربي بجانب فردريك. فقهر النمساويين في موقعة «لجنتز». ثم هزم النمساويين ثانية في موقعة «ترجو» في سكسونيا واستطاع بعد ذلك من استرجاع سكسونيا بكاملها ما عدا «درزدن».

ـ وفي السنوات الأخيرة من الحرب فان بروسيا كات قد تضررت كثيرا من هذه الحروب الطويلة المستمرة خاصة بعد ما أحدثه الروس والسويد من خراب ودمار وسلب ونهب في بلاد بروسيا. كما أن بريطانيا تخلت عن مساعدة فردريك.

لكن موت القيصرة الروسية «الياصابات» وتولى بطرس الثالث الحكم، كان من مصلحة فردريك لأن روسيا توقفت عن حرب بروسيا لأن قيصرها كان معجبا بشجاعة فردريك. كما أن السويد حذت حذو روسيا في هذا الموضوع. كما أن تفاهما حدث بين فرنسا وبريطانيا واسبانيا أدى الى توقيع **صلح باريس سنة ١٧٦٣م** ـ الذي أنهى الصراع بين هذه الدول في مستعمراتها، ولما رأت ماريا تريزا أنها بقيت وحيدة ضد فردريك قامت فعقدت صلحا معه في «هيوبر تسبرج» سنة ١٧٦٣م على أن تعود الأمور السياسية العسكرية كما كانت عليه قبل حرب السبع سنوات وأن تبقى سيليزيا في يد فردريك. وهكذا انتهت حرب السبع سنوات دون طائل الا ما كان من نتائجها الضارة على معظم البلاد الأوربية وبخاصة النمسا وبروسيا وألمانيا.

لقد نتج عن هذه الحرب ما يلي:

ــ الآثار الاقتصادية السيئة التي حلت ببروسيا نتيجة لهذه الحرب. وكذلك آثار اقتصادية سيئة حلت بكل من النمسا وفرنسا نتيجة للحرب المذكورة.

ــ استفادت بروسيا سياسيا فظلت بيدها سيليزيا وارتفعت سمعة ملكها وجيشها في نظر جميع البلاد الأوربية وغيرها.

ــ ظلت بروسيا تراقب عن كثب تحركات النمسا في الولايات الألمانية.

ــ غدت بروسيا زعيمة الامارات الألمانية وأقواها وعليها تقع مهمة توحيد ألمانيا. وأصبحت بعد قرن ونصف من هذه الحرب صاحبة السيادة العظمى في ألمانيا. وبفضل جهود فردريك الأكبر تمكن ملك بروسيا «وليم الأول» - فيما بعد - من تشييد امبراطورية واسعة هي الدولة الألمانية الحديثة.

وعلينا أن نلاحظ ان النمسا في زمن ملكها يوسف الثاني الذي خلف أمه ماريا تريزا في حكم امبراطورية النمسا ظلت تنافس فردريك، ودارت بين النمسا وبروسيا حروب جديدة ولكنها ظلت صغيرة وذلك حول النزاع البروسى النمساوى في ولاية بافاريا.

وأخيرا فان فردريك الأكبر توفي سنة ١٧٨٦م بعد حياة طويلة كلها كفاح ونضال استطاع أن يؤمن سلامة بلاده وتوسيع رقعة دولته بعد أن ضم لها المنطقة الحيوية سيليزيا. وكانت أعماله البداية لظهور دولة ألمانيا المتحدة سنة ١٨٧١م. وبعد وفاته خلفه ابنه فردريك وليم الثاني الذي اتصف بالضعف الشديد.

المراجع التي يمكن الرجوع إليهـا :-

المراجع العربيــة والمعربـــة :

١ ـ د. *محمد فؤاد شكرى* و د. *محمد أحمد أنيس*، أوربا في العصور الحديثة.

٢ ـ *روبرت بالمـــر* : تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول.

٣ ـ د. *يحيى جلال* : معالم التاريخ الأوربى الحديث.

٤ ـ *محمـــد قاسم وزميلـه* : التاريخ الحديث والمعاصر.

المراجع الأجنبيـــة :

1. F.W. Longman, Fredrick the Great.
2. W.F. Reddaway, Fredrick the Great and the Rise of prussia.
3. T. Carlyle, Fredrick the Great.
4. C.L. Morris, Maria Theresa.
5. Brogile, Fredric et Marie-Therase.
6. R. N. Bain, Scandinavia: A Political History of Denmark Norway, and Sweden from 1513.
7. S. R. Gardner, The Thirty Year's War.
8. Ginderly, Thirty Year's War.
9. C. Wedgewood, Thirty Year's War.

الفصل السابع

روسيــــا

كانت أوربا الكاثوليكية تمتد من شواطئها الغربية حتى بولندا وإلى ماوراء ذلك في اتجاه الشرق ـ حيث كانت توجد دوقية موسكو ـ فكانت الأرثوذكسية هي المذهب الشائع، والسلافية هي اللغة السائدة. ويبدأ تاريخ هذه الدوقية في عهد ايفــان المــرعب (١٤٦٢ـ١٥٠٥م) الــذي استطاع أن يعلن استقلالــه عن الامبراطورية المغولية فكان ذلك بداية لنمو دولة جديدة. وكانت الدوقية تقع وسط سهول فسيحة ولا تستطيع أن تجد حدودا طبيعية ترتكز عليها. فاتجه الروس الى الشرق، ولم يكن اتجاههم نحو الشرق مجرد عمليات غزو وتوسع، وانما كانوا يقومون بعمل حضارى متعدد الجوانب حتى بعد أن عبروا جبال الأورال وتوغلوا في سيبيريا. فكانوا يقومون ببناء المدن، ويقومون بأعمال تجارية ناجحة وبخاصة تجارة الفراء والتي أدت الى انتعاش البلاد ماديا، كما جاء المغامرون الأوربيون الى سيبيريا بحثا عن الفراء والثروة عن طريق ميناء اركانجل الشمالي.

وحينما أطل القرن السابع عشر على قارة أوربا لم تكن تلك الشعوب السلافية التي انتشرت في شرق أوربا قد اندمجت في حياة القارة الأوربية أو أقامت اتصالا حضاريا مع شعوبها ودولها. وذلك بسبب اعتناق الروس المذهب الأرثوذكسي الذي باعدهم عن أوربــا الكاثوليكية. ومن الناحية الحضارية كان الروس لايزالون خاضعين لتأثير الحضارات الآسيوية بسبب اتصالهم بشعوب آسيا من ناحية، ولكونهم قد خضعوا ولفترة طويلة لحكم قبائل التتار الذين أغاروا على بلادهم وحكموها لمدة طويلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى. ومن الناحية الجغرافية فهم

مطوقون بأمم قوية تسد عليهم المنافذ وتمنع عنهم كل اتصال بأوربا وحضارتها.

ففي الجنوب كانت الامبراطورية العثمانية القوية تسيطر على جميع الأراضى المحيطة بالبحر الأسود ـ ومن الغرب دولة بولندا القوية والتي لم تكن تترك فرصة دون ان تستغلها للتوسع نحو الشرق على حساب جيرانها الروس. ومن جهة البلطيق فقد كانت دولة السويد من أقوى دول أوربا آنذاك، تحتل شواطىء هذا البحر وتسيطر على الملاحة فيه وتسد على الشعب الروسى كل امكانية للاتصال بالعالم الخارجي عن طريق سواحله.

ولم يكن لروسيا أنذاك اتصال بحري إلا مع بحار الشمال الذي تتجمد مياهه في أكثر فصول السنة عن طريق مرفأ أركانجل ومع بحر قزوين الآسيوى المغلق. ومن هذا تتضح مدى عزلة الشعب الروسى القوية عن العالم المتحضر ومدى تخلفه حتى ان روسيا كانت في أول القرن السابع عشر تعتبر من الناحية الحضارية والعلمية وكأنها لاتزال في العصور الوسطى. ولم تبدأ المحاولة الجديدة لاقتحام العصور الحديثة الا في ظل عائلة رومانوف وبصورة خاصة تحت حكم بطرس الأكبر.

روسيا في عهد بطرس الأكبر:

الروس أو المسكوف هم من الصقلب (السلاف) وهم قبائل منتشرة في شرق أوربا مثل قبائل الصرب والبولنديين والدلماشيين والبوهيميين وغيرهم. وظل الروس ليس لهم أي أثر في تاريخ أوربا حتى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى، وذلك لأنهم ظلوا لفترة طويلة تحت حكم التتار وغزوهم الشديد.

ويقسم تاريخ الروس الى: دور الامارات المستقلة، وعهد المغول، وعهد القياصرة الأوائل وعهد الامبراطورية الروسية الحديثة التي تبتدىء ببدء حكم مؤسسها القيصر الروسى بطرس الأكبر.

بطرس الأكبر (١٦٨٩ ـ ١٧٢٥ م):

لقد خلف حكم أبيه القيصر الكسيس. وكان صغيرا فعملت أخته صوفيا كوصية على أخيها بطرس الأكبر. ولما شب وبلغ سن السابعة عشرة تسلم زمام

الأمور بنفسه. وقد نفي أخته صوفيا في أحد الأديرة لأنه كان يحقد عليها لتسلمها جميع الأمور في أثناء فترة وصايتها عليه.

من صفاته أنه محب للحرب وللعلم. ولقد تربى تربية عسكرية وتعلم على يد أساتذة مشهورين اختارهم بنفسه من الأجانب. وكان يختار ما يريد أن يدرسه من العلوم بنفسه. فتعلم الرياضة والفنون الحربية البرية والبحرية. وكان يتصف بأنه شديد الاستقلال برأية حتى العناد. كما أنه غير مبال بالتقاليد القديمة الموروثة وبالعادات المتبعة في بلاده. وهو بلاشك كان ذكيا جدا، وكان كذلك بعيد النظر وشديد البأس قوى الجأش.

اصلاحات بطرس الأكبر الداخلية

يعتبر بطرس الأكبر واحدا من مؤسسى الدول. ولكنه كغيره من مؤسسى الدول، شديد التمسك بالسلطات المطلقة والكاملة. ولعل هذا هو طبيعة التطور في مثل هذه الظروف. فعندما تسلم بطرس الحكم كانت بلاده لاتزال تعيش من الناحية الحضارية في مجاهل القرون الوسطى. فالزراعة متخلفة وبدائية وكذلك النظم الادارية والسياسية والعسكرية كانت على درجة كبيرة من التخلف. ولكن هذه الأوضاع السيئة والعقوبات لم تحل دون اصلاحات بطرس التي قام بها لتحويل روسيا الى دولة كبرى متأثرا بأساليب الحضارة الأوربية. ولكى يقوم باصلاحاته كان لابد له من الحصول على سلطات استثنائية حتى يواجه مرحلة الانتقال ويقضى على المعارضة في وجه حركة الاصلاح فحكم البلاد حكما مطلقا الى أبعد حد ليحافظ على ما قام به من انجازات وليحقق لروسيا كيانا دوليا. الا أن بطرس في مشروعاته الاصلاحية كانت تعوزه الخطة المنظمة والتصميم المدروس، فاصلاحاته كانت أحيانا وليدة الساعة وتلبية لحاجة آنية أو نزوة في ذاته. ولكن هذا لم يمنع على الاطلاق امتداد الاصلاح إلى جميع أوجه الحياة. وسنحاول هنا أن نستعرض أبرز وجوه. هذه الحركة الاصلاحية.

أبدى اهتمامه بشكل رئيسى ومنذ بدء عهده بالجيش والأسطول، فقد اعتبرهما الدعامة الأساسية لحكمه والسبيل لتطوير بلاده. . فأنشأ أسطولا روسيا كبيرا يتكون من ٤٨ مركبا للأسفار البعيدة وحوالي ٨٠٠ قطعة صغيرة. واهتم بالجيش

فقضى على التنظيم القديم وأصبح عدد الجيش في عهده مائة ألف جندى نظامى ألحق بهم مائة ألف أخرى من القوزاق والمرتزقة، وقام نظام الجيش على الجندية الاجبارية لجميعة فئات الشعب والمساواة بين المواطنين في وظائف الجيش.

وقد فرض أقسى الأنظمة داخل الجيش كما فرض عقوبات قاسية تصل الى حد الأشغال الشاقة أو الموت لمن يهربون من المعرفة أو من الجندية.

وأنشأ عاصمة جديدة أسماها سان بطرسبرج على صورة أمستردام الهولندية جعلها رمزا لرغبته في الاتصال بأوربا وحضارتها، وقد ازداد عدد سكانها بسرعة كبيرة بسبب تحولها الى مركز رئيسى لتجارة روسيا وبسبب هجرة السكان اليها بعد حريق موسكو سنة ١٧١٢م.

واهتم بالصناعة فأنشأ الصناعات المختلفة في البلاد وفرض الرسوم الجمركية المرتفعة لحماية الصناعة المحلية الناشئة من المنافسة. وكان يقدم المساعدات المالية للمصانع ويساهم في رأسمالها. وفي كثير من الأحيان كانت الدولة تتولى انشاء المصانع واستثمار المناجم كما حصل في جبال الأورال. وبفضل هذا الاهتمام والرعاية قامت في عهده مئات من مصانع النسيج والحديد والدباغة والميكانيك وترسانات السفن.

واهتم باستخراج المعادن كالحديد والذهب والنحاس فأصبحت روسيا تكفى نفسها بالحديد وتصدر للخارج. كما أصبحت مصانع الحديد تسد حاجة الجيش والأسطول من السلاح.

وعنى بطرس بالتجارة وتأسيس الشركات التجارية الوطنية الانتاجية حتى ترتفع معدلات التصدير بواسطة الأسطول التجارى الروسي، ويصبح الميزان التجارى لصالح البلاد بعد أن تكون صادراتها أكثر من وارداتها. واهتم كذلك بأمور الزراعة فاستبدل الأدوات القديمة بأخرى حديثة وأكثر فعالية منها. ما اهتم بطرق التربية الحيوانية. وعمل أيضا على بناء الجسور وشق الطرق في جميع أنحاء البلاد.

واهتم بالحياة الاجتماعية فعمل على استبدال الملابس الروسية الواسعة الفضفاضة بالملابس الغربية الضيقة. وعمل على اخراج المرأة الروسية من عزلتها

وجعلها تشارك في الحياة العامة كالمرأة الغربية. وأخذ يقيم الحفلات المختلفة في قصرة. وفرض كذلك التعليم الاجبارى على أبناء النبلاء وفرض عليهم ارسال أبنائهم الى أوربا لاكمال تحصيلهم العلمى. كما أصلح نظام العملة الروسية وحذف ثمانية حروف لافائدة منها من الأبجدية. وتبنى التقويم الحديث بعد أن كانت سنتهم تبدأ في أيلول (سبتمبر).

أما مجلس النبلاء والأعيان الذي يضم كبار الاقطاعيين والذي كان يشكل سياسة تقليدية كثيرا ما نافست سلطاته فقد استبدله القيصر بمجلس الشيوخ الذي يضم وزراء البلاط ويتولى ادارة شئون البلاد في غياب القيصر.

ويعتبر تكوين هذا لمجلس ضربة قوية للنبلاء اذ كان يشترط في أعضائه أن يكونوا من الموظفين. كما أن القيصر قضى على احتكار النبلاء للوظائف العامة والوظائف العليا في الجيش وجعل الكفاءة والعلم هو الأساس في الحصول عليها. فقد تكافأت الفرص أمام الجميع وبات بامكان كل مواطن بالفعل أن يرتفع الى أعلى الوظائف ومنها الى ألقاب الشرف التي صار يتم الحصول عليها فقط عن طريق الكفاءة وقد أنيط بهذا المجلس الذي يرأسه مدعى عام مهمته الاشراف على الادارة الحكومية التي أعيد تنظيمها على النمط المعمول به دوائر الحكومة في السويد.

وكان على هذا المجلس بصورة خاصة أن يحارب الرشوة والفساد في صفوف الموظفين.

وقد تصدى بطرس الأكبر للكنيسة الأرثوذكية الروسية التي كان لها ثروة كبيرة ونفوذ على الاكليروس (رجال الدين) المنتشرين بأعداد كبيرة في كل البلاد. وتشكل قوة كبيرة تدعم التقاليد القديمة وتحارب التيارات الحضرية الآتية من الغرب. وكان لسيدها بطريرك موسكو نفوذ يكاد يعادله نفوذ القيصر.

ولذا فحين شغر الكرسي البطريركى سنة ١٧٠٠ أبقاه القيصر هكذا حتى سنة ١٧٢١م حين ألغى وظيفة البطريرك وأوكل شئون الكنيسة لمجلس مقدس يضم قسيسين وأساقفة. وكان يرأس هذا المجلس موظف علماني يعينة القيصر ويهتم بصورة خاصة بالحيلولة دون تدخل الكنيسة في شئون الدولة. ولم يلبث هذا

الموظف أن أصبح الرئيس الفعلي للكنيسة. ولما كان القيصر بطرس رجل عمل فانه لم يفهم كثيراً حياة الزهد والانقطاع عن الحياة، ولذا فقد خفض عدد الأديرة والرهبان وصادر الكثير من ثروات الكنيسة حين كان يحتاج اليها لتسديد مصاريف اصلاحاته. كما أنه حول الكثير من الأديرة الى مستشفيات ومآوى للعجزة والمشوهين. وبالرغم مما وجه الى اصلاحاته الكثير من النقد الصحيح في معظمه، كارهاق الشعب بالضرائب وارهاق الفلاحين بالعمل وبانتشار نظام رقيق الأرض ؛ رسخ جذور الدولة الروسية القائمة على الأسس الثلاثة للدولة الحديثة وهي :

الجيش والأسطول والادارة المدنية. كما فتح وبصورة نهائية أبواب بلاده أمام الحضارة الغربية مما جعلها تدخل بسرعة نظام أوربا السياسي وتصبح أحدى أكبر دول القارة وأقواها وأغناها.

وكان أولى أعمال بطرس البحرية هي السيطرة على مدينة «آزوف» على نهر الدون سنة ١٦٩٦م. وكانت هذه المدينة الحصينة تتبع الدولة العثمانية. ومن هنا فتح باب الصراع مع الدولة العلية الممتدة بسلطانها الى أبعد من البحر الأسود.

لقد قام بطرس برحلة أوربية عامة ليطلع بنفسه على صناعة السفن فزار كلا من هولندا وانجلترا ودخل هولندا وهو بشكل متتكر واستطاع هناك أن يتعلم صناعة السفن وما يتبعها من أصول الملاحة. وكان يعمل على شكل عامل صغير في «أمستردام» في مصانع السفن. وكان يسمى نفسه «بطرس ميخائيلوف». ثم تعلم صناعة الحبال والقلاع. وفي سنة ١٦٩٨م زار انجلترا وكان على شكل زائر رسمي فأكرم من ملكها «وليم الثالث». وهناكَ تدرب كذلك على فن الملاحة وصناعة السفن.

وفي أثناء اقامته في انجلترا والتي دامت مدة ثلاثة شهور، ثار الجند الروسى فأسرع بالعودة الى مدينة موسكو. وعند وصوله وجد قائدة الامين «غرون» قد أخمد نار الثورة وبعدها انتقم من رؤساء الثوار حتى انه قتل بيده عشرين منهم في ساعة واحدة.

اطماع بطرس في املاك تركيا «الدولة العثمانية» وموقف الدول الأوربية من هذه السياسة :

لقد طمع بطرس بالسيطرة على سواحل البحر الأسود التركية. وأخذ يبحث عن دول أوربية تساعده في تحقيق أطماعه هذه. فجرب اثارة العواطف الدينية عند الأوربيين من أجل شن حروب صليبية على الأتراك، ولكنه لم يجد من يصغى اليه لأن دول أوربا منشغلة في أمورها الداخلية وحروبها حول مسألة الوراثة الأسبانية.

بعد هذا الفشل اتجهت أنظار بطرس الى بحر البلطيق وبخاصة عندما لمس أن السويد أصبحت دولة منهوكة القوى نتيجة الفتن الداخلية والحروب الطويلة التي خاض غمارها ملكها «جستاف أودلف» وخلفائه في حرب الثلاثين عاما.

لقد اتحد بطرس مع بولندا ثم الدانمارك من أجل محاربة السويد وتقسيم أملاكها البلطيقية الشرقية. والخطة هي أن تأخذ روسيا «انجريا» و «كارليا»، وتأخذ الدانمارك «هلشتين»، وتسترجع بولندة «لفونيا» و «استونيا». وقد تم ابرام حلف بين الدول الثلاث.

وصادف هذا أن السويد كانت تحكم من قبل ملك صغير يدعى «شارل الثاني عشر». فظن بطرس الأكبر وحلفاؤه أنه بامكانهم اقتسام السويد في عهد هذا الملك الذي لم يتجاوز بعد الثامنة عشر من عمره.

الا أن الملك السويدي الشاب خيب ظنهم فيه. فكان عسكريا مدربا. تقدم على رأس جيش برى وبحرى عام ١٧٠٠م وحاصر مدينة «كبنهاجن» الدانماركية، وأنزلت قواته الذعر بين صفوف الشعب الدانماركي الذي طلب الصلح منه. ثم سار لملاقاة جيش بطرس الأكبر على الشاطىء الجنوبي من خليج فنلندة سنة ١٧٠٠م. وهناك شتت شمل الجيش الروسى. ولكن هذه الهزيمة للروس لم تجعل بطرس الأكبر يفقد الأمل، كما أن الملك شارل أغار بجيش سويدى على بولندة وأخضعها بعد ثلاث وقعات فاصلة، وخلع ملكها وعين بدلا منه ملكا آخر سنة ١٧٠٣م. وقد رفعت هذه المعارك منزلة ملك السويد.

أما بطرس الأكبر فأعاد تنظيم جيشه وأغار على شواطىء السويد البلطيقية مثل

«انجريا» وليفونيا الشرقية. وهناك انتصر بطرس الأكبر في عدة مواقع بعد أن هزم قوات ملك السويد. وهكذا تحقق لبطرس ماكان يهدف اليه من حروبه ضد السويد. وعدنها شرع في تأسيس عاصمة جديدة وهي بطرسبورج عند مصب نهر النيفا. وظل يقيم في وسط العمال حتى تم بناء هذه المدينة.

لقد خرج شارل بجيش قوي من سكسونيا لغزو رروسيا. الا أن روسيا فلتت من مأزق شديد حرج كاد أن ينهى جميع أطماع وأحلام بطرس الأكبر. لقد أخطأ شارل مع أنه الرجل العسكري القديم في خططه الرامية لغزو روسيا. فأخذ يضرب عدوه في منطقة الأوركرين، تلك المنطقة التي يتجمع فيها القوزاق الثائرون على الروس. الا أن بطرس الأكبر لم يلتق مع جيش السويد في هذه المنطقة. ولما عادت الجيوش السويدية من رحلتها الحربية هذه فتكت بها الأمراض نتيجة قلة المؤن وشدة البرد وصعوبة المواصلات. وبعد أن اشتد بالجند السويدي الجوع هجم بهم شارل على مدينة «بلطاوة» الا أن جيش بطرس الأكبر أنقذها. وقد أصيب شارل بجروح. ومع أن الجيش السويدي حارب بشكل استبسالي فان الروس ظلوا متفوقين في المعركة. وبالتالي فتك الروس بالسويد فتكا ذريعا. وفر شارل من المعركة الى احدى موانىء الدولة العثمانية. ونتج عن هذه المعارك السويدية ـ الروسية مايلي:

- ذهبت شوكة السويد وظهرت قوة روسيا في شرقى أوربا وأصبحت أقوى وأوسع الممالك الأوربية.
- عرفت تركيا أن انتصار بطرس الأكبر معناه تعرض حدودها مع روسيا للخطر الروسي الذي أخذ يستفحل أمره. فتحالفت تركيا مع فرنسا ضد روسيا وأعلنت الدولتان الحرب على الروس. مما أدى الى قيام حروب تركية سويدية فرنسية ضد روسيا.
- حققت روسيا بعضا من مخططها الرامى لاحتلال مناطق بلطيقية.

لقد تحرك بطرس الأكبر بجيش روسى لمحاربة تركيا سار به الى ملدافيا. ولما وصل نهر «البروث» فاجأة الجيش التركى هناك وحاصرة حصارا محكما، ولو لا أن زوجة بطرس الأكبر «كاترين الكسينا» قدمت جميع حليها ومجوهراتها للقائد العثماني الخائن «بلطجى باشا» الذي أمر بفك الحصار عن بطرس الأكبر، لو لا

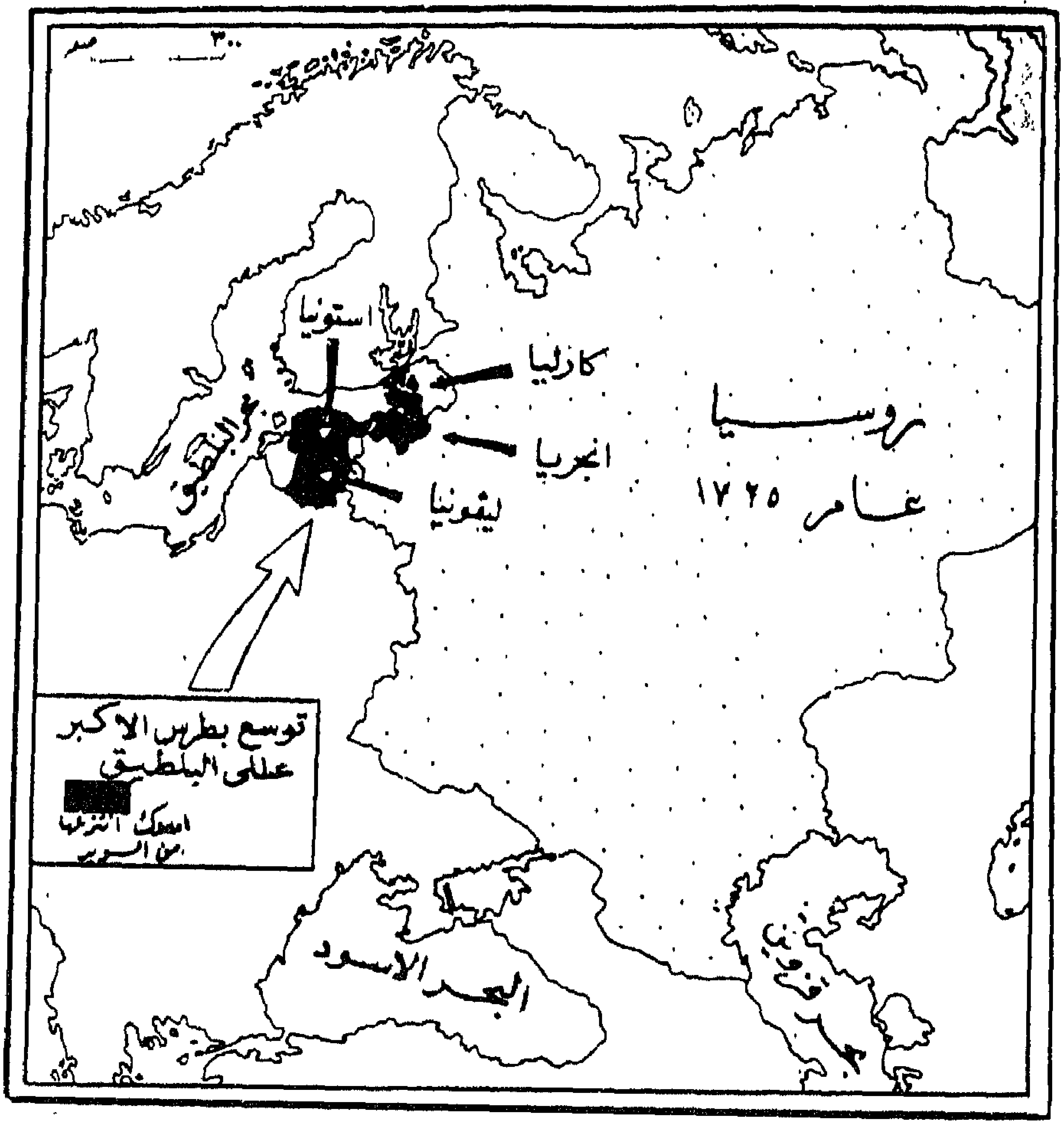

هذا لقضى على الدولة الروسية الفتية. ووقع الروس والعثمانيون معاهدة «البروث» تنازلت روسيا للأتراك عن مدينة «آزوف» التي كانت قد انتزعتها من الدولة العثمانية سابقا.

وفي سنة ١٧١٨م مات شارل وهو يحارب النرويج. وظل بطرس يحارب السويد وينتزع منها أملاكها شيئا فشيئا. وأخيرا عقدت معاهدة «نيستات» سنة ١٧٢٠م وبهذا استولت روسيا نهائيا على «انجريا» و «كارليا» و «ليفونيا» و «استونيا» وجزءا من «فنلندا».

وفي سنة ١٧١٨م زار بطرس الأكبر البلاد الأوربية الا أنه قطع الرحلة عندما سمع بقيام ثورة ضده كان من بين الثائرين ابنه «الكسيي» الذي سجن ومات

في السجن سنة ١٧١٨م.

وآخر حروب بطرس الأكبر كانت في فارس من أجل أن يؤمن منطقة بحر قزوين. وأخيرا توفي بطرس الأكبر سنة **١٧٢٥**م بمرض الحمى.

هذا وكان بطرس الأكبر قد قام بعدة مشروعات اصلاحية داخلية. فنظم المصالح الحكومية، وأصلح الجيش، وأنشأ البحرية، وأدخل الكثير من الصناعات الغربية في بلاده وحسن صناعة النسيج ودباغة الجلود، وسهل أمر التجارة الخارجية وسهل التعليم لمعظم الناس في دولته. ولما عرف أن رجال الدين يعارضون اصلاحاته ألغى منصب «البطريق» ونصب نفسه رئيسا أعلى للكنيسة، وأمر بترجمة الانجيل الى اللغة الروسية، وأطلق الحرية الدينية لجميع الملل والطوائف ما عدا اليسوعيين واليهود.

والواقع أن بطرس الأكبر كان رجلا مصلحا كبيرا بالنسبة لروسيا القيصرية، الا أنه كان متسرعا في حركته الاصلاحية هذه فيعطي الشعب أكثر مما كان يتقبل في ذلك الوقت، وهذا التسرع قلل كثيرا من ثمرة اصلاحاته المتعددة في البلاد الروسية. ويؤخذ عليه أنه ظل خشنا في طباعه وأسلوبه بالرغم مما قام به من زيارات ورحلات وخبرات حربية. ومهما يكن فهو بلاشك من أعظم قياصرة روسيا، وهو الذي تمكن من نقل الروس من حالة البربرية الى حالة أكثر حضارة.

كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٦٩):

تولت الحكم بعد أن كانت الفوضى قد عمت البلاد الروسية نتيجة ضعف الملوك الروس الذين خلفوا بطرس الأكبر. لقد أخذت كاترين تعمل جادة من أجل النهوض بالبلاد والعمل على اتمام ما كان يهدف اليه جدها بطرس الأكبر.

ففي حقل السياسة الخارجية قررت كاترين توسيع رقعة الدولة في الغرب والجنوب وكانت فاتحة أعمالها أن أغارت بجيشها على «كورلندة» وهي مملكة صغيرة بين البحر البلطيق والأراضي الروسية. وسبب الحرب أن ملك هذه البلاد كان قد منع الروس من المرور ببلاده عند عودتهم من حرب السنين السبع. ولقد استطاعت كاترين تغيير الملك وتعيين ملك غيره يؤيد روسيا ثم بعد ذلك عملت تدريجيا على ضمها.

كاترين وبولنـــدة :

كانت بولندة مملكة أوربية عظيمة في العصور الوسطى، الا أنها كانت تسير على الأنظمة الاقطاعية، ولم تأخذ بأساليب النهضة الأوربية الحديثة كغيرها من ممالك أوربا. لذا كانت تسود البلاد حالة من الاضطرابات والفوضى.

وكان ملك بولندا ينتخب من قبل الاشراف، ومنهم يتألف مجلس خاص للنظر في شئون البلاد. وكان من عيوب هذا المجلس أنه لاينفذ أي قرار الا بعد موافقة الجميع. كل هذه الامور كانت من العوامل المساعدة لروسيا للانقضاض على بولندا وتقسيم بلادها.

لقد تفاهمت روسيا مع بروسيا ومع النمسا لاقتسام الأراضي البولندية. ووقعت هذه الدول فيما بينها معاهدة بطرسبورج سنة ١٧٧٢ لهذه الغاية.

لقد استولى فردريك ملك بروسيا على «بروسيا البولندية» أي بروسيا الغربية، وصارت بروسيا صاحبة السيادة في حوض نهر «الفستولا».

كما أن النمسا أخـذت مقاطعة «زيس». وأخذت روسيا «ليفونيا البولندية» وجزءا من «لتوانيا». وهكذا ضاع من بولندة ثلث أراضيها. وعرف هذا العمل بالتقسيم الأول لبولندا.

ونتج عن هذا أن قام الوطنيون البولنديون باصلاح نظام حكومتهم، فجعلوا الملك وراثيا، وأصلحوا مجلس الاشراف وزادوا سلطة الملك عليه. الا أن هذا دفع روسيا والنمسا وبروسيا على العمل على اضعاف هذه الاصلاحات خوفا من أن تؤدى هذه الى تقوية بولندا.

لقد انقضت روسيا على الأراضي البولندية بجيش قوى. وكذلك فعلت النمسا وبهذا تم تقسيم بولندة مرة أخرى. ودعى هذا «بالتقسيم الثاني لبولندا» وكان ذلك سنة ١٧٩٣م. وقد استولت روسيا على الأقاليم الشرقية التي يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين.

لقـد قام الـوطنيون البـولنـديون فقـاومـوا هذا الاحتـلال بزعـامـة الـوطنى «كزيسكى». ولكن هذا الجهد اصطدم بأطماع بروسيا والنمسا وروسيا، وقوبل

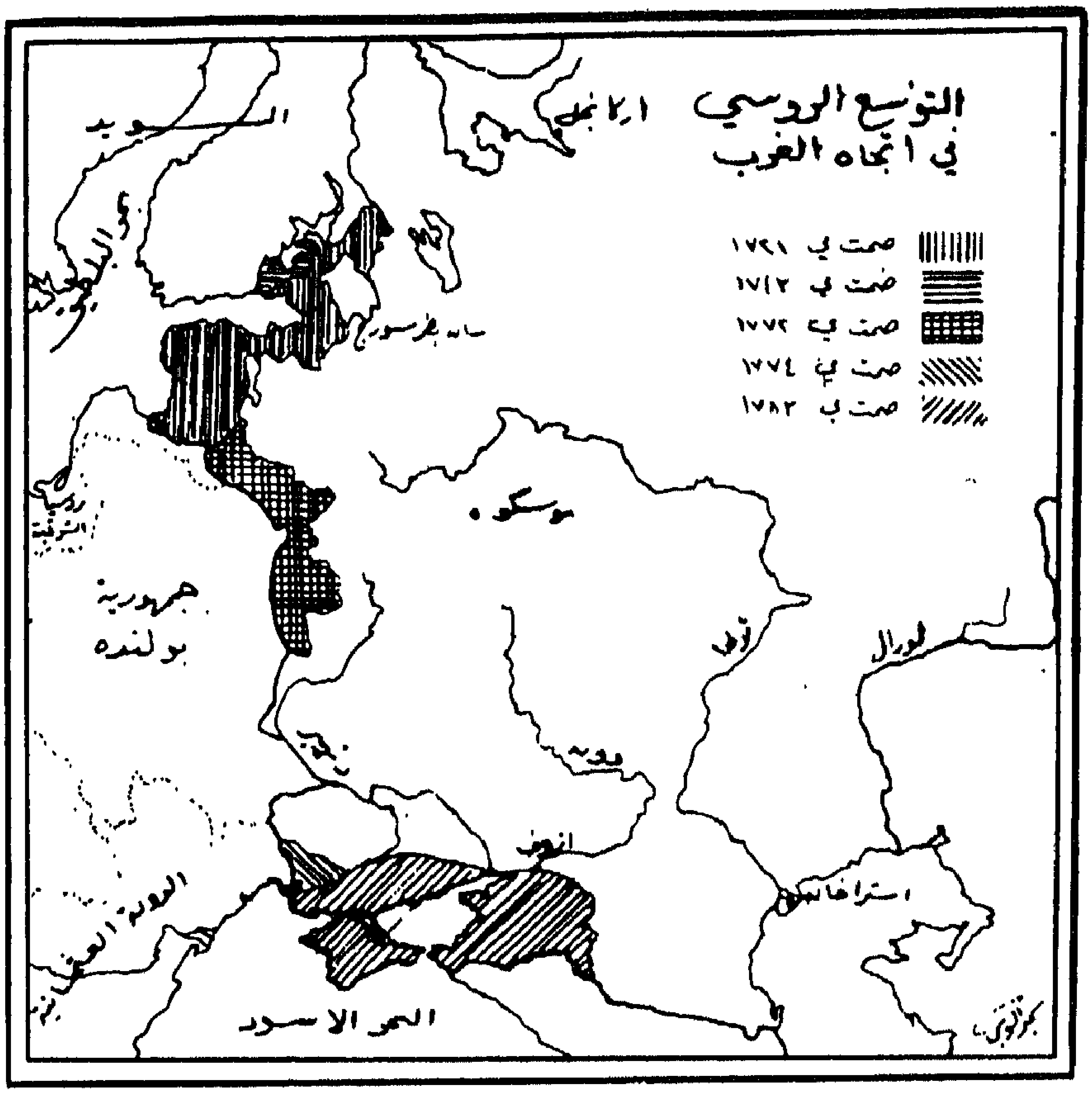

هذا التحـدى الوطنى بتقسيم جديد لبولندا دعى «بالتقسيم البولندى الثالث» الذي تم سنة ١٧٩٥م. وبهذا التقسيم خرجت هولندة من الخريطة الأوربية ونتج عن هذا ما يلي:

- اتساع روسيا اتساعا كبيرا وبخاصة في منطقى الغرب والجنوب.
- بداية التحرشات الروسية التركية بعد أن أصبحت روسيا على حدود تركيا بشكل مباشر.
- خشيت فرنسا من توسع الروس فأخذت تعمل على تحريش الترك لمهاجمة روسيا.

لقد شنت تركيا الحرب بتحريض من فرنسا على روسيا ولكن هذه الحرب كانت ضد تركيا حيث انتهت بمعاهدة «قينارجة» سنة ١٧٧٤م. وعلى اثر هذه المعاهـدة ثبتت روسيا أقدامها في الدانوب وعلى شواطىء البحر الأسود، ورفعت السيادة

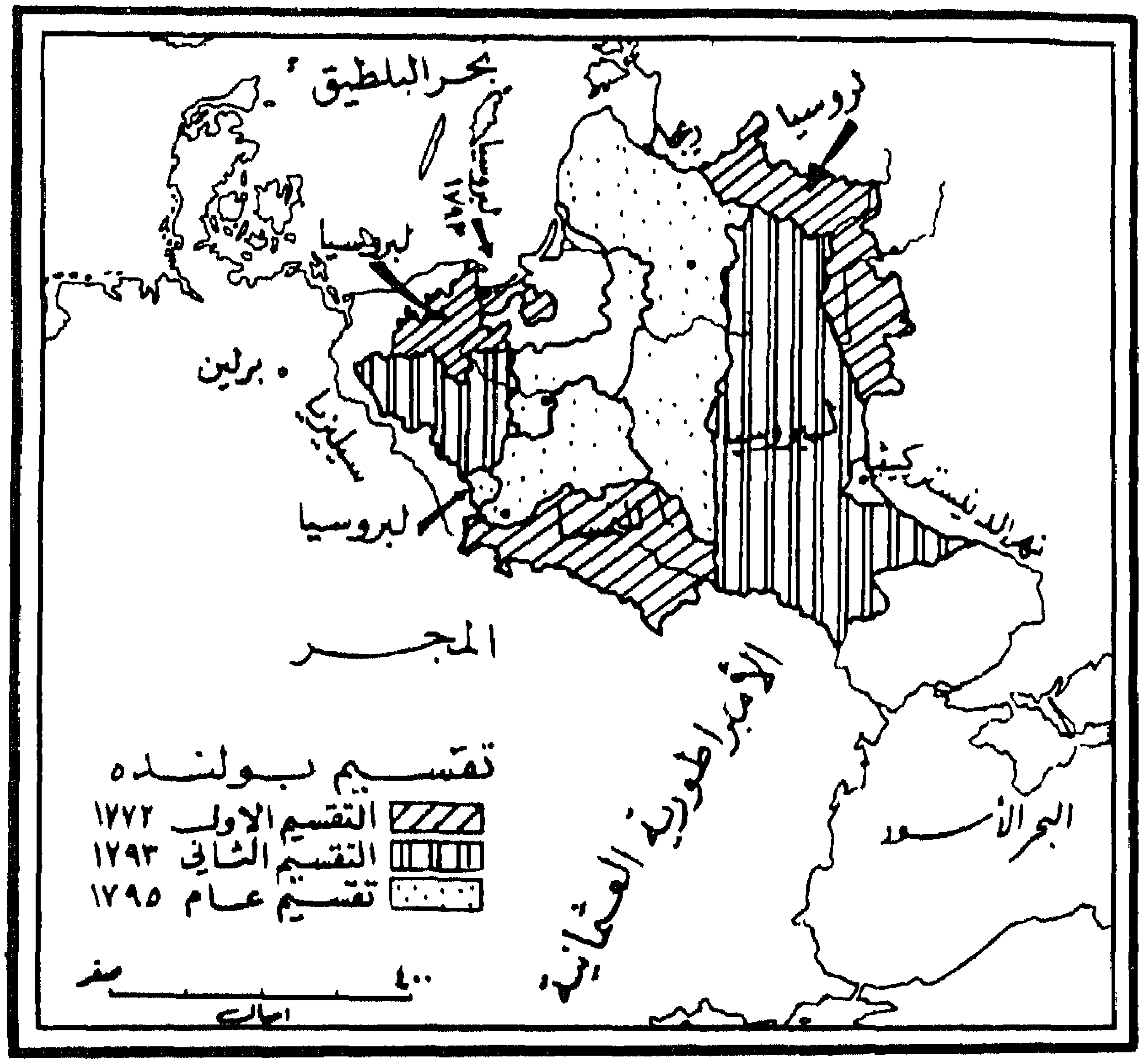

الروسية عن تتار القرم، واستولت روسيا على مدينة «آزوف» وسائر الأماكن الحصينة في القرم، وفتح البسفور والدردنيل لسفن روسيا التجارية.

وبعد عشرين سنة نقضت روسيا هذه المعاهدة وضمت اليها جميع القرم وأصبحت روسيا هي المسئولة عن معظم حوادث المسألة الشرقية التي يبدأ تاريخها منذ سنة ١٦٩٦ عندما استولى بطرس الأكبر على مدينة «آزوف».

لقد قامت كاترين بمجموعة اصلاحات داخلية في مجالات شتى كالعمران وصبغ البلاد صبغة حضارية راقية في الشئون الاجتماعية. وعن طريق نشر المعارف والعلوم والآداب بين الروس. وكانت فرنسا هي رائدة لها ومنهاجها التقليدي وأستاذها في المجالات الحضارية.

المراجـــع الأجنبيـــة :

1. Nowak, Medieval Slavdom and the Rise of Russia.
2. Platonov, History of Russia.
3. Rambaud, History of Russia.
4. S. Graham, Peter the Great.
5. M. Jones, Peter, Called the Great.
6. G. Kaus, Catherine.
7. K. Arthony, Catherin the Great.
8. W. A. Phillips, History of Poland.
9. Dyboski, Poland.

الفصل الثامن

حرب الاستقلال الأمريكيــــة

مر معنا كيف شارك الانجليز في عملية الكشوف الجغرافية حينما وصل الملاح «جـون كابوت» الى «نيوفوندلاند» وسار محاذيا للساحل، ومن ثم أصبح ملك انجلترا صاحب ملكية ما يسمى بالولايات المتحدة الأمريكية متمشيا مع القاعدة السائدة آنذاك والقائلة إن البلاد التي تكتشفها الدول الأوربية المسيحية هي ملك لها. ومن هذا المنطلق فقد أسس الانجليز أول مستعمرة لهم في البلاد الجديدة عام ١٦٠٧م، اذ عرفت باسم «جيمستون».

لقد اتخذت انجلترا أسلوبا فريدا في استعمار البلاد الجديدة، حين سلمت الأمر الى شركات وجماعات من أصحاب رؤوس الأموال ليقوموا باستعمار الأراضي الجديدة والافادة من خيراتها، وهكذا بدأت الهجرات الانجليزية، المتلاحقة صوب البلاد الجديدة، ومن هنا بدأت لأول مرة تظهر المستوطنات الانجليزية في القارة الجديدة حتى استطاعت فيما بعد تشكيل (١٣) ولاية، تتمتع كل منها بحكم ذاتي، الا انها تتبع حكم الملك الانجليزي والـبرلمـان الانجليزي. وأصدرت انجلترا تشريعـا يلزم الـولايات الأمـريكية بأن تتـاجر مع انجلترا، وكان هذا الأسلوب قد لفت انتباه الآمريكيين الجدد إلى أن انجلترا كدولة لايهمها الا مصالح انجلترا، لا مصالح سكان المستوطنات خارج انجلترا.

والجدير بالذكر أن الاستيطان الانجليزي في أمريكا كان قد تفوق على غيره كالاستيطان الاسبـاني والـبرتغـالي والفرنسي فيها. اذ أثبت المهاجرون الانجليز قدرتهم على الاستعمار بشكل أكثر مما هو عند غيرهم.

بالرغم مما كانت عليه البلاد الأوربية في آواخر القرن الثامن عشر من فوضى واضطراب وعدم استقرار. وبالرغم من عدم وجود فكرة سياسية أو دينية جامعة تدعو هذه البلاد الى الوحدة والتآلف، فبالرغم من هذا كله فقد استطاعت أوربا عن طريق كشوفها الجغرافية، وعن طريق المعرفة العلمية في شتى مجالات العلوم، وبخاصة في علم الجغرافيا والمصورات وعلم صناعة السفن، بفضل هذا كله فقد امتلأت قارة أمريكا بأقوام غرب أوربا.

لقد ألف الأوربيون المهاجرون الى أمريكا الحياة هناك، وتشبثوا فيها لاعتقادهم أنها بلد الذهب والفضة وأنهم يتعاملون مع سكان أصليين هم اقل حضارة وأخفض في الانتاج منهم. لقد كان من بين الاسباب التي أدت الى هجرة الأوربيين الى أمريكا هو البحث عن المعادن النفيسة. ومنهم من ترك بلاده تحت ضغط التعصب الديني المسيحي، ومنهم من جاء لينقب عن منتجات البلاد من الثروات الطبيعية. الا أن معظم هؤلاء المهاجرين قد تحولوا الى العمل في الزراعة، وكانوا في شمال أمريكا يجمعون الفراء. وقد تطلب العمل في الزراعة الى وجود نوع من حياة الاستقرار الزراعى، وهنا نشأت المستوطنات الأوربية في بقاع المعمورة ا لأمريكية، وهكذا تشكلت المستوطنات الأوربية فيما وراء البحار ويعد هذا النوع من الاستقرار اخذت أوربا تدفع بالمهاجرين الجدد الى هذه البلاد، من أجل هدف صريح وهو أن تكون لهم أوطانا جديد يسكنونها الى الأبد. وهذا ما حدث عندما هاجر مجموعة البيوريتان (المتطهرون) الى منطقة نيو انجلاند بأمريكا (القسم الشرقى في أمريكا الشمالية) وذلك في أوائل القرن السابع عشر الميلادى، فرارا من الاضطهاد الديني. وكما خدث حين ارسلت أقواما استخلصتهم من سبحونها الى ولاية جورجيا الأمريكية في القرن الثامن عشر الميلادى.

وعندما جاء القرن التاسع عشر وجاء معه اختراع السفينة البخارية زاد عدد المهاجرين الى أمريكا من بلاد غرب أوربا، تاركين بلادهم الأصلية متجهين الى بلاد جديدة كي يسكنوها ويستوطنوها. وهكذا تضخم عدد الجماعة الأوربية المهاجرة الى أمريكا، وهكذا أخذت تبرز في أمريكا ثقافة جديدة هي الثقافة الأوربية التي حملها المهاجرون معهم الى هذه البلاد. وأخذت هذه الثقافة تطغى

وتسيطر على ثقافة السكان الأصليين من الهنود الحمر.

وقد غاب عن قادة أوربا وسياسييها أن يضعوا تنظيما لهذه الجماعة المهاجرة، أو على الأقل أن يحددوا خطة سياسة لها. وانما ظلت الأمور تسير على شكل بديهي وطبيعي. وظل ينظر الى المستوطنات الأوربية في أمريكا على أنها مستعمرات عسكرية لدول غرب أوربا، وموارد ايراد لها في تلك البلاد (بلاد تابعة). وما حسب قادة أوربا أن هذه الأقوام المهاجرة بدأت تأخذ في الابتعاد عن أوضاعها الاجتماعية والثقافية الأصلية، وها هى الان تسير في نهج وحياة اجتماعية واقتصادية مغايرة عما عهدته في الماضي. وهنا خف الضغط السياسي وعمليات التأديب ضدها، وبخاصة وأنها في منأى عن السلطة الأوربية التي ضعفت لبعد المسافة بينها وبين تلك الأقطار البعيدة والتي تنفصل عنها بواسطة محيط بحري واسع.

وفي حدود الربع الأخير من القرن الثامن عشر كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطاني، وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا، فيما عدا البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال.

وكانت منطقة فلوريدا ولويزيانا وكاليفورنيا وجميع ماتبقى من أمريكا الجنوبية تابعة لاسبانيا. وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة الى الجنوب من نهر المين وبحيرة أونتاريو هم أول من أظهر حركة الاستقلال في مجتمعات ماوراء البحار.

كانت هذه المستعمرات متباينة في النشأة والصفة. فكان بينها مستوطنات فرنسية وسويدية وهولندية. وكان سكان منطقة الماري لاند من الكاثوليك. وسكان نيوأنجلاند من البروتستانت المتطرفين، وكان البريطانيون سكان نيوأنجلاند يعملون في زراعة أراضيهم، ويعيبون امتلاك الرقيق، في حين كان البريطانيون سكان فرجينيا وجنوبها زراعا يستخدمون العبيد بأعداد كثيرة، وكان العبيد من البشر المجلوبين من أفريقيا وغيرها. لذا فان مثل تلك المستوطنات لا يمكن أن تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة.

غير أن الاتحاد بين هذه المستويات والجماعات ذات النشأة والصفة المتباينة كان

قد فرض عليهم. لأنهم كانوا يعانون من شدة الضرائب المفروضة عليهم من قبل حكومة لندن. وكانوا يعلمون أن هذه الضرائب لاتصرف في ادارة شئونهم أو تحسين أحوالهم، وانما ترسل الى بلاد ليس موطنهم الآن، وأن صلتهم بها أصبحت قليلة. وكانت تجارتهم ومصالحهم التجارية يضحى بها في سبيل مصلحة بريطانيا. ومع أن سكان فرجينيا عارضوا تجارة الرقيق فان تضخما حدث في منطقتهم من هؤلاء المجلوبين، الا أن الحكومة البريطانية لم تلب مطلبهم لأنها كانت تستفيد كثيرا من تجارة الرقيق هذه.

نظام الحكم في الولايات الامريكية :

ارتكز نظام الحكم في الولايات الأمريكية في أثناء تبعيتها لانجلترا على قواعد هي: الحاكم، والمجلس النيابى، والمجلس الاستشارى.

والحاكم هو المسئول الأول عن رعاية شئون الولاية واستتباب الأمن فيها على شرط ألا يتعارض ذلك مع مصالح انجلترا الدولة الأم. وكان الملك الانجليزي هو الذي يعين هذا الحكم بقرار منه.

أما المجلس النيابى فينتخب من قبل الشعب في الولاية. ومسئوليته تنحصر في سن الضرائب، ورقابة الموظفين في الولاية، وتقرير رواتبهم بما في ذلك حاكم الولاية نفسه. وأصبح بهذا المجلس سلطة نافذة، كما أنه أصبح رمزا للحكم الذاتي المبنى على أساس ديمقراطى في ظل السيادة الانجلزية. كما أن هذا المجلس أعطى الأمريكان الجدد حق المطالبة بمساواتهم بالانجليز في انجلترا، اذ أن الحكومات الانجليزية كانت تنظر الى سكان المستعمرات في أمريكا بأنهم أقل من الانجليز، وأن قدرتهم على ادارة دفة الحكم تبقى أقل مما هي عند الانجليز في انجلترا. وأن هذا المبدأ في التمييز قائم على أساس فكرة السيادة المطلقة للدولة الانجليزية الأم على مستعمراتها وبخاصة في عهد الملك جورج الثالث وحكومته. كما أن حكومة انجلترا كانت ترى ضرورة تحمل المستعمرات أعباء المصاريف المالية التي تنفقها انجلترا على الحروب بخاصة في الحرب السبع سنوات. وأن من حق انجلترا أن تفرض الضرائب التي تراها على سكان المستعمرات التابعة لها، وهذا الأمر يقلص نفوذ المجلس النيابى في المستعمرات الذي هو السلطة الشرعية التي

تصدر عنها الضرائب، وهذا بدوره يقلص نفوذ المستعمرات في ممارسة الحكم الذاتي. وهنا ظهر البون الشاسع بين سكان المستعمرات في أمريكا وبين حكومة انجلترا ذات السيادة المطلقة في المستعمرات.

أما المجلس الاستشارى فهو سلطة استشارية في الولاية تعمل الى جانب السلطة النيابية فيها، وعلينا أن نلاحظ أن الحاكم في الولاية له حق الاعتراض على قرارات كل من المجلس الاستشاري والمجلس النيابي في ولايته.

مراحل حرب الاستقلال الأمريكية :

ظهرت ملامح حرب الاستقلال الأمريكية عندما فرضت الحكومة الانجليزية ضريبة عرفت **بضريبة الدمغة ١٧٦٥م** (Stamp Tax) فثار سكان المستعمرات الانجليزية ضدها، لأنهم اعتبروا مثل هذا الاجراء تقليصا لنفوذهم في مستعمراتهم، ولأن فرض الضرائب هو من حق مجلسهم النيابى. ومن أجل هذا الأمر عقد مؤتمر في نيويورك اشتركت فيه تسع ولايات سنة ١٧٦٥م، وانتهى المؤتمر بمطالبة المجتمعين لحكومة انجلترا بالغاء هذه الضريبة، وبالرغم من ان حكومة انجلترا قد ألغت الضريبة المذكورة، فان البرلمان الانجليزي ظل يحتفظ لنفسه بحق فرض الضرائب على المستعمرات التابعة لانجلترا، وهكذا ظل عدم الوفاق قائما بين سكان المستعمرات في أمريكا وبين الحكومة الانجليزية في لندن.

وفرضت حكومة انجلترا ضرائب جديدة على بعض المواد كالزيت والزجاج والورق، وكان أشد هذه الضرائب ما فرضته الحكومة الانجليزية على استيراد الشاى، مما جعل الأهالى في المستعمرات الأمريكية يعملون على شراء الشاى بطرق غير رسمية عن طريق الهولنديين الذين كانوا يدخلون الشاى الى أمريكا بشكل غير رسمى. مما جعل الحكومة الانجليزية في لندن تعمل على ارسال كميات كبيرة من الشاى من انجلترا الى ميناء بوسطن في أمريكا لاجبار الأهالى الأمريكان على شرائه.

لقد عرف السكان الأمريكيون الجدد أن تشريعات الحكومة الانجليزية الأم في الشئون التجارية كلها أميل لصالح شركة الهند الشخصية الانجليزية، فهي تخدم الانجليز في انجلترا أكثر مما تخدم مصالح الانجليز في المستعمرات. كما أن

التشريعات التجارية التي كانت تسنها حكومة انجلترا الأم كانت تشريعات لا تخدم مصالح أصحاب السفن الأمريكية بقدر ما تخدم مصالح الانجليز. لذا قرر الأمريكيون الجدد مقاطعة هذه التشريعات والعمل على عدم تطبيقها في البلاد. فهاجمت جماعة من الأمريكان المتنكرين بزى الهنود الحمر ثلاث سفن انجليزية راسية في ميناء بوسطن ومحملة بالشاى عام ١٧٧٣م، وألقت في الماء كل ماكانت تحمله هذه السفن من شاى مستورد في ظل التشريعات الجديدة. وهكذا بدأ الاحتكاك المسلح بين سكان المستعمرات في أمريكا وحكومتهم في انجلترا. فعزمت حكومة انجلترا على انزال العقاب بمدينة بوسطن ومن هنا نشب الصراع بين حكومة انجلترا وسكان مدينة بوسطن احدى مدن المستوطنات الانجليزية في أمريكا الشمالية.

لم تقف الولايات الأمريكية موقف المتفرج مما يحدث في بلادهم. بل أعلنت أن أي اعتداء على أي ولاية أمريكية هو اعتداء على جميع الولايات الأمريكية. وتطورت الأوضاع السياسية بشكل سريع، فقررت الولايات الأمريكية عقد مؤتمر في مدينة فيلادلفيا في سبتمبر ١٧٧٤م لدراسة الأوضاع الناجمة عن تردى الأوضاع السياسية والاقتصادية في ولاياتهم، وعن سوء الظن القائم بين الأهالى والحكومة الانجليزية الأم، اذ بدأت تنعدم الثقة بين سكان المستعمرات والحكومة الانجليزية في لندن.

انعقد المؤتمر في مدينة فيلادلفيا، وكان من بين الزعماء المجتمعين: الزعيم الأمريكي «جورج واشنطن» وصدرت عن المؤتمر مجموعة قرارات أهمها:

١ ــ الاحتجاج الذي أبدته الولايات الأمريكية ضد الاجراءات التعسفية التي اتخذتها الحكومة الانجليزية في لندن ضد سكان بوسطن.

٢ ــ تأسيس الكونجرس الأمريكي الأول من مندوبى الولايات التي اشتركت في مؤتمر فيلادلفيا.

٣ ــ حذر المؤتمر الشعب الانجليزي من أن حكومته تقوم باجراءات طائشة تضر بالعلاقات الودية القائم بين الامريكان والشعب الانجليزي.

وبالرغم من هذه الاحتجاجات فقد استمرت الحكومة الانجليزية في سياستها، وأرسلت قوات عسكرية جديدة الى بوسطن في الوقت الذي أخذت فيه الولايات

الأمريكية تعد قواتها المحلية لمقاومة القوات الانجليزية، ولتكون سندا للولايات الأمريكية في حركة استقلالها عن انجلترا الأم.

ثم عقدت الولايات الأمريكية مؤتمراً ثانيا في مدينة فيلادلفيا في ١٠ مايو ١٧٧٥م، قررت فيه:

١ ــ انشاء جيش موحد من الولايات المشتركة في المؤتمر.

٢ ــ ارسال التماس الى الملك جورج الثالث يطلبون فيه اعادة نظر حكومته في الاجراءات التعسفية ضد ولاياتهم وبخاصة ضد الأعمال التعسفية في مدينة بوسطن. وكان هذا الالتماس بمثابة الحل الأخير للوصول الى تفاهم مع الملك الانجليزي يحصلون بواسطته على حل وسط يرضون به ويرضى به الملك جورج وحكومته.

لم يأبه الملك الانجليزي بكل ما حدث، ولم يتحرك بقدر ما تقتضيه المصالح السياسية وأخذ يعمل على ايجاد نوع من التوازن بين حكومته وبين شعبها في الولايات الأمريكية، ولم يرغب الملك الانجليزي جورج مناقشة هذا الأمر بقد ما كان يهمه موضوع السيادة المطلقة له ولحكومته على المستعمرات التابعة. فأصر على ضرب الثورة الأمريكية منذ البداية كى يجهضها. وهذا الموقف جعل الأمريكيون يستعدون أكثر لخوض معركة طويلة ضد الحكومة الانجليزية لاتتوقف الا أذ أحرزوا نصرا مرضيا لهم، أو فشلا يعطى الحكومة الانجليزية ما تشاء. وعين جورج واشنطن قائدا عاما للعمليات الحربية في يونية ١٧٧٥م. وكان لجورج واشنطن أكبر الأثر في نجاح حركة الاستقلال الأمريكية.

استمر نضال الأمريكان ضد الانجليز ست سنوات، وشملت المعارك جميع المستعمرات الأمريكية. وبالرغم من الظروف القاسية التي عاناها الأمريكان، فانهم صمدوا ضد قوات الحكومة الانجليزية. فقد هزم جورج واشنطن **القائد الانجليزي «بورجوين»** وقواته عند مزرعة «فريمان» واضطره الى التسليم عند «ساراتوجا» في أثناء محاولته التقدم من كندا نحو مدينة نيويورك. ازدادت معنوية الأمريكيين بعد الانتصارات المتلاحقة على قوات الحكومة الانجليزية. فالأمريكيون جماعة تحارب في أرضها، وتعرف المناطق والتضاريس. وتتلقى الامدادات بشكل سريع، ومدعومة من قوة الشعب، ويتحلى رجال قواتها بالعزيمة الأكيدة عندما

قرروا التخلص من الحكومة الانجليزية الأم، وساعد في ذلك ما منحوا به من قيادات عسكرية قوية وصادقة، وخير مثال على ذلك ما قدمه القائد جورج واشنطن من أجل شعبه وبلاده.

كان الجنود الانجليز يحاربون في مستعمرات تابعة لبلادهم، وتبعد عنها حوالى ثلاثة آلاف ميل، فالمواصلات مع بلادهم صعبة، والامدادات غير متلاحقة، والمعنوية القتالية عندهم أقل من معنوية الثوار الأمريكيين. كما أن المعارك فتحت عليهم من كل صوب، من كل الولايات المتحدة الامريكية المتسعة الأرجاء، زد على ذلك سوء ادارة قيادتهم وتعنت حكومتهم وتشبثها بالحكم الاستبدادي.

ساهمت فرنسا بدور غير بسيط في مساعدة الثوار ضد الحكومة الانجليزية وقد أرادت فرنسا أن تثأر من عدوتها التقليدية انجلترا التي سلبتها معظم مستعمراتها في العالمين القديم والجديد.

قدمت فرنسا للثوار الأمريكيين المساعدات العسكرية والمالية وما يحتاجون اليه من مؤن وعتاد، حتى قدمت لهم الرجال والمحاربين ليحاربوا بجانبهم ضد حكومة انجلترا. كانت المساعدات التي تقدمها فرنسا للثوار مساعدات سريعة ومستعمرة وتأتى من مكان قريب للمعارك من كندا. وأخذت فرنسا تجمع المتطوعين الفرنسيين وترسلهم الى أمريكا لمساعدة الثوار، حتى بلغ عدد المتطوعين في حدود ستة آلاف جندى مدرب.

وساعدت اسبانيا الثوار الأمريكيين نكاية بانجلترا التي رأت اسبانيا فيها دولة ذات أطماع خطيرة قد توثر على الاستعمار الاسباني. وكانت ترى في اضعاف انجلترا مكسبا لها بخاصة في طردها من جبل طارق.

وساعدت هولندا الثوار لأنها تحقد على انجلترا لاستئثارها بكل المستعمرات في العالم. كما أن هولندا دولة جرب شعبها الظلم عندما عاشوا تحت الاستعمار الاسباني، وأن شعبها ذاق طعم الحرية والاستقلال عندما حاربوا الاسبان وأخرجوهم من بلادهم وحصلوا على استقلالهم باعتراف دولى في صلح وستفاليا الذي أنهى الحروب الدينية في أوربا عام ١٦٤٨م.

وكان الرأي الأوربى يعطف على الثوار الأمريكيين وعلى مبادىء ثورتهم

وبخاصة عندما لمسوا منهم صلابة مواقفهم ومشروعية مطالبهم. فكانت هذه الصفات من مقومات دعم الرأى العام الأوربى لهم. كما أن زعيمهم جورج واشنطن كان قد أكسب الثوار قوة معنوية عندما أثبت قدرته وجدارته في الحرب والادارة. فكان محاربا شجاعا يتميز بالاستقامة وسمو الخلق وبعد النظر في تحليل الأوضاع. كما أن اليأس لم يجد سبيلا الى عزيمته.

كانت آخر الهزائم التي منى بها الانجليز في أمريكا هزيمة **القائد الانجليزي «كورنواليس»** "Corn Wallis" عندما ارتد الى مدينة يوركتون "York Town" عند مصب نهر يورك بعد أن هاجمه جورج واشنطن بجيش خليط من الأمريكيين والفرنسيين، قوامه ستة عشر ألف رجل. كما أن مواصلات القوات الانجليزية كانت قد قطعت بواسطة الأسطول الفرنسي الذي منع القوات الانجليزية أيضا من الهرب بطريق البحر. وتعتبر هذه المعركة من أقوى المعارك وأشدها ضد الانجليز الذين هزموا فيها هزيمة شنعاء في أكتوبر ١٧٨١م ولم يبق بيد بريطانيا الا مدينة نيويورك.

وهكذا لم يعد في مقدور انجلترا استعمال العنف في حل قضاياها في أمريكا بعد هذه الهزائم المتلاحقة ضدها. عندها لجأت الى طلب الصلح والى التفاوض. وقد تم توقيع معاهدة بين الأمريكيين وانجلترا عام ١٧٨٣م من أهم بنودها:

١ ــ اعتراف انجلترا باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية و منحها كل الأراضى الواقعة بين جبال اللجاني وبين نهر المسيسبى. وظلت الحدود الشمالية كما هي عليه.

٢ ــ العمل على تحسين العلاقة بين الحكومة الانجليزية والدولة الأمريكية المستقلة.

٣ ــ أن تقوم علاقات تجارية واقتصادية بين الدولتين على أساس الند للند.

قامت الولايات المتحدة الأمريكية بشراء مستعمرة لويزيانا الاسبانية من فرنسا التي كانت قد أخذتها من اسبانيا في عهد نابليون بونابرت كى تعمل على استكمال وحدة أراضيها. كما اشترت الولايات المتحدة الأمريكية من فرنسا مستعمرة نيوأورليانز. وقد باعت فرنسا هاتين المستعمرتين في عهد نابليون لانها كانت تدرك مدى صعوبة الدفاع عنها اذا صمم الأمريكيين على أخذهما بالقوة. هذا بالاضافة

الثورة الأمريكية
واشنطن ١٧٧٦ - ٧٧
بيرجوين
سنت ليجيه
١٧٧٧
هاو ١٧٧٦-١٧٧٧
كورنواليس ١٧٧٨-٨١
واشنطن ١٧٨١
كندا
كويبك
مونتريال
بحيرة هورون
بحيرة اناتاريو
بحيرة ايري
ساراتوجا
ألبان
نيويورك
بنسلفانيا
بوسطن
رود أيلند
لونغ أيلند
١٧٧٦
نيوجرسي
مونموث
فالي فورج
بتسبرج
فرجينيا
يوركتون
جيلفورد
كارولينا الشمالية
كارولينا الجنوبية
تشارلزتن
سافانا
ولمنجتن
كوبنز
١٧٨١

الى أن فرنسا كانت غالبا ترى ضرورة المحافظة على علاقاتها الودية مع الولايات المتحدة الأمريكية خوفا من أن تستغل انجلترا جو الخلاف بينهما لصالحها. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت ترى ضرورة المحافظة على بقاء علاقاتها الطيبة مع فرنسا التي قدمت لها المساعدات في أثناء حروب استقلالها من جهة، ولأنها ترغب في أن تقف موقف الحياد بين فرنسا وانجلترا من جهة أخرى، ولو أنها دائما كانت تميل الى انجلترا على اعتبار أنها الدولة الأم.

وما لبث أن ساءت العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين انجلترا بسبب تفتيش الأخيرة للسفن الأمريكية في أثناء اعلان فرنسا قرار الحصار القارى ضد بريطانيا في عهد نابليون. فكانت بريطانيا تفتش كل السفن في سواحلها مما أدى الى فتور في العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية التي رفضت أن تفتش سفنها، ثم تطور هذا الفتور الى حروب بين انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية انتهى أخيرا **باتفاقية «غنت** Chent » **عام ١٨١٤م**، وعادت الأمور الى سابق عهدها.

ظلت الولايات المتحدة الأمريكية ولمدة أربع سنوات تحكم من قبل حكومة ضعيفة، وظهرت بين الولايات بوادر الانقسام، الا أن نشوب الحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين انجلترا. كانت باعثا جديدا للوحدة القوية بين الولايات. وكانت هناك مجموعة عوائق تعيق الاتحاد التام بين الولايات منها: ضعف المواصلات حيث أن وسيلة المواصلات الوحيدة كانت الحصان. كما أن التعليم لم يكن موحدا، ولم يكن هناك فكر موحد كذلك. ولكن سرعان ما ظهر الزورق البخارى فقضى على كل العوائق. ثم ما لبث أن مدت السكك الحديدية، وكذلك التلغراف، فساهمت هذه المخترعات في انقاذ الولايات المتحدة من التمزق، وساعدت على ضم السكان في بوتقة اجتماعية وسياسية واحدة.

وبعد حوالى **٢٢** سنة حذت المستعمرات الاسبانية حذو الولايات المتحدة الامريكية. وقطعت علاقاتها كليا مع أوربا. الا أنها لم تستطع أن تضم شملها لأنها كانت موزعة في أرجاء القارة، ولأن بلادها تنفصل بعضها عن بعض بسلاسل جبلية وصحارى وغابات. اذ أصبحت هذه المستعمرات مجموعة من الجمهوريات التي انشغلت في اشعال نار الحروب والثورات فيما بينها.

أما البرازيل فكانت مستعمرة برتغالية، الا أن حدثا جديدا وقع وهو اعتداء نابليون على البرتغال الأم وضمها الى ممتلكاته الفرنسية. ففرت الأسرة الحاكمة البرتغالية الى البرازيل وأقامت هناك، ومنذ ذلك الحين أصبحت البرتغال الأصلية هي التابعة للبرازيل وليس العكس. وفي عام ١٨٣٣م أعلنت البرازيل استقلالها كجمهورية مستقلة تحت حكم بدور الأول، أحد أبناء ملك البرتغال. وفي عام ١٨٨٩م حدثت ثورة سلمية ضد الامبراطور في البرازيل الذي نقل الى أوربا، وغدت البرازيل منذ ذلك الحين جمهورية مستقلة.

امتداد رقعة الولايات المتحدة الأمريكية واتساعها:

كانت هناك مجموعة عوامل أدت الى امتداد واتساع رقعة الولايات المتحدة الأمريكية منها: تطور وسائل المخترعات الحديثة، خصوصا وسائل النقل. ثم الأفكار الحرة والسياسة الرأسمالية المفتوحة. ثم الحفاظ على الحرية وعدم السماح بقيام الألقاب، بل منحت الولايات المتحدة كل بالغ عاقل فيها حق التصويت. ثم السماح للأحزاب بممارسة نشاطها المفتوح بالرغم من أن هذا أوقع البلاد في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم. وقد استغرقت مدة الاستقرار في أمريكا الشمالية من الساحل الشرقى الى نهر الميسورى حوالى مئتى سنة. وأول ولاية أسست وراء هذا النهر كانت ولاية الميسورى المعتمدة كليا على الزورق البخارى وكان زحف السكان ينتشر ببطء نحو ولايتى أنديانا وكنتاكي وغيرهما. وبعد عام ١٨١٠م نشطت مجارى الأنهار الأمريكية، وعندها نشط الزحف السكانى الأمريكي الى الولايات المحيطة بالأنهار، كما هو الحال في أراضى كنساس ونبراسكا وغيرهما. وزاد في عملية الانسياح السكانى في مناطق مجارى الأنهار ما حدث من تقدم في مد شبكة السكك الحديدية في المناطق الامريكية. وأصبح عدد المدن التي تضم أكثر من مائة ألف نسمة كثيرة وموزعة. كل ذلك كان بفضل تقدم وسائل المواصلات الذي أدى بدوره الى تنشيط عملية التبادل التجارى بين الولايات وبينها وبين الخارج.

الخلافات بين ولايات الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الأمريكية:

نشبت صراعات وخلافات بين الولايات الأمريكية في الشمال وبين الولايات

الأمريكية في الجنوب، ويعود هذا الصراع الى:

(أ) بروز فكرة تغلب أحد القسمين على الآخر. وهل تكون الغالبة هي الولايات الشمالية أو الولايات الجنوبية.

(ب) امتلاك الرقيق. فكانت الولايات الجنوبية تمتلك الرقيق. وكانت الثانية تعتبر كل فرد فيها حرا طليقا. وان تقدم المواصلات كان في البداية من العوامل التي ساعدت على زيادة حدة الصراع الفكري بين الولايات المختلفة في الآراء والأفكار.

(جـ) كانت الولايات الشمالية تؤمن بالحرية الفردية المطلقة. أما الولايات الجنوبية فكانت تؤمن بتسلط السادة على السوقة لأنها اتجهت نحو المزارع الضخة، فكانت امتداداً لنظام الاقطاع الأوربى.

وهكذا نمت في البلاد الأمريكية نزعتان متناقضتان بسبب جمعية الغاء الرق العام في البلاد الغاء تاما. ولم تلبث المسألة أن تحولت الى صراع صريح حول موضوع ادخال ولاية تكساس في الاتحاد وهي في الأصل جزء من جمهورية المكسيك بالرغم من أن معظم سكانها من الأمريكيين الذين نزحوا اليها من الولايات التي تبيح الرق. وقد ألحقت بالولايات المتحدة عام ١٨٤٤م أي بعد اعلان المكسيك استقلالها بتسع سنوات على الأقل. وكان الرق محظورا بتكساس بمقتضى القانون المكسيكي. ولكن الجنوب طالب باباحة الرق فيها وضمها اليه، وتم له ماأراد.

ازداد عدد المهاجرين من أوربا الى الولايات الأمريكية فزاد عدد سكان الولايات الشمالية، فأخذت هذه الولايات تزحف تدريجيا نحو الغرب، واستطاعت تحويل المناطق الزراعية أيوا وويسكنسن ومينيسوتا وأوريجون الى ولايات شمالية، وهكذا تفوقت ولايات الشمال على الجنوب في مجلس الشيوخ ومجلس النواب. وهكذا بدأت تتفوق الولايات المانعة للرقيق والقائلة بالغائه. ولكن شرع الجنوب يطالب بالانفصال عن الشمال الذي أخذ يتفوق عليه في مجلس الشيوخ والنواب. وأخذ الجنوب يطالب بضم المكسيك وجزائر الهند الغربية، وانشاء دولة عظيمة تبيح الرق وتنفصل عن الشمال وتمتد حدودها حتى بنما.

ولما انتخب **أبراهام لنكولن** رئيسا للدولة ١٨٦٠م وهو يدين بمذهب الاتحاد

وتحرير العبيد على مراحل. سارع الجنوب الى الاقدام على الانسلاخ عن الاتحاد. وأصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوما بالانفصال، وتأهبت لخوض غمار الحرب. وانضمت اليها ولايات المسيسيبى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس. وعقد بمدينة منتجمرى بولاية ألاباما مؤتمر انتخب فيه جفرسون دافيز رئيسا لولايات الجنوب المؤتلفة. واعتمد الدستور الذي يناصر بوجه خاص نظام الرقيق الزنجى.

ولد أبراهام لنكولن بولاية كنتوكى ١٨٠٩م ثم ارتحل الى أنديانا ثم الى الينوى، كان يعيش في كشك خشبى في السبر في أنديانا ، تعلم قليلا ولكنه أصبح فيما بعد قارئا واسع الاطلاع وكان شابا ضخم الجثة يحب المصارعة والعدو، عمل كاتبا بأحد المتاجر ثم صار صاحب متجر مع شريك له سكير عربيد. فوقع في ربكة ديون لم يتيسر له سدادها الا في مدى خمسة عشر عاما. انتخب عام ١٨٣٤م عضوا في مجلس النواب عن ولاية الينوى وهو في سن الخامسة والعشرين. وكانت مشكلة الرقيق على أوجها في الينوى. وفي حملة الرئاسة الانتخابية عام ١٨٦٠م، استطاع لنكولن أن يتفوق على خصمه دوجلاس وانتخب لنكولن رئيسا في ٤ مارس ١٨٦١م.

قامت الحرب بين الشمال والجنوب على أرض واسعة تمتد بين ولاية نيومكسيكو والمحيط الأطلنطى شرقا. وكانتت واشنطن ورتشموند هما الهدف الأكبر للطرفين المتحاربين. ودارت حروب طاحنة أزهقت فيها الأرواح وظلت الحرب سجالا، فمرة تكاد تسقط واشنطن بيد الجنوب، ومرة أخرى تكاد تكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى سريعة الى ريتشموند. وكان الجنوب يحارب تحت امرة قائد ملهم هو الجنرال لى. ولكن كان الشمال يفوقهم عددا وعدة وأموالا. وأخيرا انتصر الشمال بقيادة شيرمان وجرانت على جيوش الجنوب التي استنزفت مواردها. واستطاع الشمال عام١٨٦٤م اختراق ميسرة الجنوب وتقدم من تنسى الى الساحل مخترقا جورجيا ومارا عبر الجنوب، ثم انحرف نحو كارولينا الشمالية والجنوبية. وفي ميدان آخر كان جرانت قد شل حركة جيش الجنوب امام ريتشموند عام١٨٦٥م. واخيرا بعد شهر استسلم الجنوب كله وانتهت دولة الجنوب بعد أن دام القتال حوالى أربع سنوات.

كان لنكولن يؤمن بالاتحاد وكان عدوا للرق، وكان هدفه الأول ألا تتمزق وحدة الولايات الأمريكية الى شقين متباينين ومتناحرين. وقد اعترض منذ البداية أن يسير في خط المتحمسين في فك رقاب الرقيق بسرعة. انه كان يرى أن تحرير العبيد يجب أن يكون على مراحل مع دفع تعويض عنه. وأخيرا فان قرار الغاء الرق الى الأبد كانَ قد صدر مع قانون دستور التعويضات في يناير ١٨٦٥م. ولم تطبق الولايات الجنوبية هذا الا بعد مدة طويلة من انتهاء الحرب.

وقد أوجدت الحرب من الولايات الأمريكية ولايات متبرمة مشمئزة متشككة متعبة. لكن حدث أن أخذت فرنسا تعتدي على حرية الولايات الامريكية، وكذلك أخذت انجلترا تجدد التدخل في شئون هذه الولايات فما كان على لنكولن الا أن أمر الأمريكيين بإنهاء خلافاتهم والعمل على ردع الفرنسيين في المكسيك، وأن تصبح كلمة الاتحاد هي العليا. ولم ييأس لنكولن وكانت النتيجة أن ظفر بكل ما كان يريده ويصبوا اليه. واستطاع أن يدخل مدينة ريتشموند بعد أن سلمت بيوم واحد وبعدها عاد الى واشنطن وألقى خطابا عاما في ١١ أبريل قال فيه أن مذهبى هو الصلح واعادة تكوين الحكومات الموالية في الولايات المهزومة. وفي ١٤ أبريل ذهب الى مسرح فورد بواشنطن وبينما هو يشاهد المسرح أطلق عليه رصاص من مسدس على مؤخرة رأسه وكان من ممثل اسمه بوث، وجرح لنكولن جرحا قاتلا. حيث أن الممثل كان يحقد عليه لسبب ما، وهكذا مات لنكولن وقد أتم الاتحاد وانقذ الولايات المتحدة من التمزق.

القسم الثاني

الفصل الأول: الثورة الفرنسية
الفصل الثاني: فرنسا في أعقاب سقوط نابليون
الفصل الثالث: الوحدة الايطالية
الفصل الرابع: الاتحاد الألمانى
الفصل الخامس: تصاعد الأزمات الأوربية
الفصل السادس: الحرب العالمية الأولى
الفصل السابع: تطور أوربا بين الحربين العالميتين
الفصل الثامن: الحرب العالمية الثانية
قائمة المصادر والمراجع

الفصل الأول

الثورة الفرنسيـــة

أن ظروف وأسباب الثورة الفرنسية من الكثرة، والتعدد، والتعقد والتشابك مما يجعل عملية حصرها على أساس عوامل وأسباب خارجية، وأخرى داخلية، أو أسبـاب سياسية وأخـرى اجتماعية، وثالثة اقتصادية، ورابعة دولية وخامسة فكرية، ومع هذا عند محاولة كشف الظروف والاسباب التي أدت الى نشوب الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م بالذات نجد أمامنا مجموعة من العوامل الرئيسة يمكن أن تصنف في مجموعات وهي:

١ ـ طبيعة التطور الفكري لفرنسا خلال القرن الثامن عشر.

٢ ـ العلاقة بين مختلف الفئات الاجتماعية.

٣ ـ العلاقة بين الملكية والحكومة من جهة والشعب من جهة أخرى.

٤ ـ الظروف الاقتصادية على اعتبار أنها أبرز القوى المحركة للأزمات وان لم تكن أقواها.

٦ ـ التـوازن الـدولي، أي علاقـات فرنسـا بالـدول الكـبرى الأخرى ... وبالتكتلات الأوربية.

أسباب الثورة الفرنسية :

اسباب فكريـــــة :

الفكر التقدمى غالبا ما يكون سابقا على نشوب الحركات التقدمية نفسها. ولقد انطلق الفكر التقدمى في فرنسا قويا خلال القرن الثامن عشر لا في مجال

الاصلاح السياسي والاقتصادي، ورفع شأن الفرد، وانما كذلك من حيث دفع العالم الأوربى الى أفكار عالمية من أجل خير البشرية جمعاء.

واذا كانت أفكار وروائع مؤلفات فولتير، ومونتسيكو، وروسو، هيأت أذهان الفرنسيين لاعادة النظر في حياتهم العامة، وفي علاقة الفرد الفرنسي العادي بحكومته. وفي مكانة فرنسا الدولية، الا أن هذه المؤلفات الراقية الفكر العميقة التحليل لايدرك حقيقة قيمتها، الا فئات محدودة من المثقفين الفرنسيين، ولا يستطيع العامة المهضومو الحقوق أن يقدروا قيمة التحول من الحكم الأوتوقراطى الى الحكم البرلماني الا بمقياس اشباع حاجاتهم الاقتصادية، وآمالهم وتطلعاتهم الفرنسية.

فلقد كانت مؤلفات مونتسيكو، وانتقادات فولتير اللاذعة للملكية البوربون، سابقة على الثورة الفرنسية، ومع هذا لم تتحرك الأمور في اتجاه الثورة الا بعد أن احتدت الأزمة الاقتصادية. وهذه الأزمة الاقتصادية ليست فقط مرتبطة بخزينة الدولة، وانما كذلك بالأفراد. وان الطرفين (الدولة، والشعب) وصلا الى حافة الافلاس، أو تصوروا ذلك، حتى أصبحت أية أعباء جديدة مثيرة لأشد مشاعر القلق والمخاوف في النفوس، من أعلى المستويات في دوائر البلاط الفرنسي، الى الفرد العادي الفرنسي. ولا يعنى هذا أنه كان من الممكن تجاوز الأزمة الاقتصادية الناشبة في عام ١٧٨٩ بطريقة ما، كأن يسهم النبلاء في دفع ضريبة أعلى قليلا، أو أن تسهم الكنيسة بانقاذ خزينة الدولة، وكانت للكنيسة أموال وعقارات ضخمة معفية من الضرائب. ولكن المشكلة الاقتصادية ليست في حد ذاتها الدافع الذي أدى الى الثورة بقدر ما كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.

ان جوهر المشكلة هو أن الاتجاه العام الذي كان سائدا هو ضرورة اعادة النظر في أوضاع البلاد الداخلية بالذات، وأنها أوضاع لايمكن أن تليق بشعب فرنسا العظيم. وهذه الأوضاع كانت مهزوزة فعلا بشكل شديد، وان كانت ليست بمختلفة كثيرا عن أحوال بلاد القارة الأوربية ـ باستثناء انجلترا ـ ولكن الفكر التقدمي في فرنسا كان سباقا وقوى التأثير في شعب أصبح مقتنعا تماما باعادة النظر في أسلوب حياته، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقة الدولة بالحكومة. ومن ثم كانت النظم القائمة المهزوزة في طريقها الى الزوال بطريقة أو بأخرى على

يد شعب أصبح غير مؤمن بها ولا يرى فيها النموذج الذي يتطلع اليه كفرنسي.

كانت فرنسا تحتل المكانة الأولى في عالم التقدم الفكرى في اتجاه انساني واضح. وهذا الاتجاه الانساني سيكون له أثره الكبير في رفع مكانة الفرد الفرنسي كانسان، ورفع فرنسا الى تزعم حركة تحرير الفرد من مظاهر الطغيان التي كان يزخر بها العالم حينذاك. ومع أن المعانى التي وردت في شعر فولتير ليست بالجديدة ولكن خطورتها أنها كانت تخاطب عواطف الفرنسيين مباشرة في ثوب انساني راق، بل لقد كان فولتير لاجئا لدى فردريك الأكبر ملك بروسيا، وأحد أقطاب الملكية المستبدة المستنيرة، ومع هذا كان نقده لملكية البوربون في فرنسا يحث الفرنسيين على اعادة النظر في الأسلوب الذي يحكم به هؤلاء البوربون فرنسا منذ عدة قرون طويلة.

وهو في دفاعه عن حق الانسان في أن يعيش بسلام بعيدا عن يد البطش الكنسى المتعصب، أيا كان مذهب الفرد، مس وترا حساسا شديد الرنين قادرا على لفت الأنظار اليه، وأعنى به أن الشعب الفرنسي - في المدن بالذات - قد انتقل تماما من عصر التعصب المذهبى الديني الى عصر التحول نحو العلمانية. وبالذات كان النقد الموجه من جانب فولتير للكنيسة في فرنسا ولرجالها يثير القلق الكبير في نفوس أهل المدن. ويدفعهم الى تعميمات قاسية في حق الملكية والكنيسة، مع أن حقيقة الأمور ربما كان أقل مما تصوره المثقفون الفرنسيون ابان الثورة الفرنسية، ولكن الشيء الذي غرسته أشعار وكتابات فولتير وهو أنه على الشعب الفرنسي أن يعيد النظر في أوضاع تلك المؤسسات القائمة، السياسية والدينية، والاجتماعية من زاوية أخرى زاوية الفرد الفرنسي الانسان الذي يجب أن يحيا حياته الطبيعية دون تدخل تعصبي من جانب الكنيسة أو الحكومة. لقد كان فولتير يخاطب الشعب الفرنسي باسم الانسانية. وهي روح العصر حينذاك. وبالتالي كان لكل ما يقوله أثره الكبير في النفوس حتى ولو تغاضى عن بعض الأفكار السامية.

وبينما كانت أدوات فولتير في الدعوة الى احداث تغيير في أوضاع الشعب الفرنسي هي الشعر والنقد اللاذع، كانت الأداة التي استخدمها مونتسكيو صعبة الفهم على قدرات الشعب الفكرية، ولكن كتابة «روح القوانين» لقى ترحيبا كبيرة

ورائعا لدى الفئات المثقفة الفرنسية بالذات. «وروح القوانين» محاولة لوضع نظم الحكم اللائقة بالشعب في اطار واضح، وهو متأثر بالدستور الانجليزي، ولا يعطى نظام حكم جديد، وانما يركز على أساسين في العلاقة بين الشعب والحكومة:

١ ـ تقييد عمل الحكومة حتى لا تتصرف في أمور البلاد وكأنها مالك كبير للبلاد.

٢ ـ فصل السلطات: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وهذان الأساسان دعوة أخرى قوية خاصة للمثقفين بأن يعيدوا النظر في شكل الملكية البوربونية الحاكمة التي كانت تتصرف في أمور البلاد، وكأن الملكية البوربونية هي الدولة، أو كما قال لويس الرابع عشر «أنا الدولة والدولة أنا».

وكتاب «العقد الاجتماعي» لروسو، وغيره من مؤلفاته، كان دعوات صريحة بأن يعاد النظر في أوضاع البلاد، وأن تطلق حريات الفرد، على اعتبار انه انسان يمكن أن يدرك بالتجربة والخطأ والممارسة الفعلية الحرة. مايجب أن يقوم به وأن التحكم في الانسان هو من معوقات تطوره التقدمى. ومع هذا لم يعترض على ظهور دكتاتور لمواجهة أزمة معينة، ومع ذلك فالاتجاه الفردى الانسانى الديمقراطى واضح في كل كتاباته، وهو اتجاه يدفع بقوة الشعب نحو اعادة النظر في علاقته بالحكومة، وفي أسلوبه في الحياة.

٢ ـ *اسباب اقتصاديــــة*

وفي القرن الثامن عشر كانت هناك حركة هادئة، علمية، معقدة، لاتعنى كثيرا بالفكر الانساني، والتطلعات، العاطفية، وانما تضع في اعتبارها **المقومات الاقتصادية** على أساس أنها هي المصدر الحقيقي للقوة، وأن الاصلاح الاقتصادي المقترن باطلاق قدرات العامل هو الذي سيعيد للشعب الرخاء والرفاهية، على اعتبار أن العامل هو المنتج الحقيقي، وأن القيود المفروضة على نشاطه يعوق تقدمه وتقدم الانتاج على أن هناك مسئوليات حكومية كبرى في مجال التعليم والتجار والضرائب. فيجب أن يكون هناك تعليم عام، وضريبة أرض موحدة، وحرية تجارية.

ولكن هنا حقيقة هامة، وهي أن تنفيذ تلك الاتجاهات ماكان ليتم على يد حكومة فرنسا قبل الثورة لأنها اتجاهات ضد القوى الحاكمة، أو المرتبطة بالحكومة، وضد أوضاع المجتمع الفرنسي حينذاك من حيث انه مقسم الى طبقات متميزة من النبلاء ورجال الدين والعامة. ولايمكن أن يوافق النبلاء ورجال الدين على مساواتهم بالفرد العادى الفرنسي في الضرائب والمسئوليات العامة.

٣- *أسباب سياسية ونظرية الحق الإلهي*:

كانت فرنسا ملكية بربونية مطلقة، وهو نظام كان سائدا في الدول الأوربية، باستثناء انجلترا. ولكن هذه الملكية البربونية كانت تستند في احتكارها للحكم والملكية الوراثية على (**الحق الالهى**). وكأن هذا «الحق الالهى» أمر مفروغ منه لايمكن أن يناقش. وعلى الشعب أن يخضع لها على اعتبار أنها هي الأقدر على تفهم مصالحه والعمل من أجله ومن أجل فرنسا، وأنها هي التي جعلت لفرنسا مكانة سامية برغم تلك العثرات التي اعترضت طريقها. وكانت هذه الملكية مرتبطة برجال الدين وبطبقة النبلاء. فكان رجال الدين - برغم مفاسدهم - يشكلون قوة دعم كبيرة للملكية البورونية المطلقة، خاصة من الناحية الروحية. وكان النبلاء - برغم أنهم فقدوا قدراتهم العسكرية - مرتبطين بالملكية، لانها هي التي تفتح لهم مجالات النفوذ والمناصب، والقيادات العسكرية، ومظاهر الأبهة والعظمة، فضلا عن الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في ظل الملكية البربونية على حساب الشعب الفرنسي. وهذه الامتيازات ما كانت في نظرهم على حساب الشعب، وانما كانت واجبات مفروضة على الشعب نحو طبقة النبلاء. كذلك كان الحال بالنسبة لطبقة رجال الدين، وخاصة الكبار منهم.

ومعنى هذا أن الحق الالهى والاعتماد على الطبقة المميزة من النبلاء ورجال الدين كانا السند الذي تقوم عليه ملكية البربون. واذا اهتزت قيمة الحق الالهى، وفقدت الطبقة المميزة احترامها وامتيازاتها أصبح بناء ملكية البوربون أمرا مشكوكا فيه.

وحيث ان قوة هذه الطبقة المميزة كانت غير عسكرية، وانما مستمدة من مكانتها الاجتماعية، فلقد سبق لملكية البوربون أن قوضت قوة النبلاء العسكرية،

وجعلت من نفسها ومن الحكومة مصدر القوة الحقيقية فقط. ومن ثم كانت أية ضربية مباشرة ناجحة للقوة الغسكرية البوربونية تعنى أنها أصبحت مجردة من الدفاع عن نفسها.

وهذا يرجع في الواقع، الى أن البوربون لم يعنوا ـ بسبب مبدأ الحق الالهى ـ بأن يربطوا أفراد الشعب بالملكية بواسطة هيئات أو منظمات مؤمنة بالبوربون. وبالتالي كان الرباط الوحيد الذي يربط بين البوربون والشعب هو قيمة هذه الأسرة الحاكمة لفرنسا. وخلال العقود لأخيرة من القرن الثامن عشر بدا واضحا أن البوربون ـ في أيام لويس السادس عشر ـ فقدت الكثير من احترام المثقفين وأهل ا لمدن بوجه خاص. حيث تمسكت الملكية بتقاليد تمت للعصور الوسطى غير مبالية بأن العصر قد تغيرت كثيرا من مفاهيمه وآماله.

ومع أن فرنسا أحرزت انتصارا له قيمته التاريخية على انجلترا في حرب الاستقلال الأمريكية على عهد لويس السادس عشر (١٧٧٤ ـ ١٧٩١) وأنه هو نفسه كان دمث الخلق، هادىء الطبع الا أنها صفات غير ملائمة لعصره وظروف أيامه، لقد كان الوقت يتطلب رجلا قوى الشكيمة، صلب العود، سريع البديهة، قادرا على أن يلعب بكل القوى، على أن يحتفظ بكل القوى موالية للعرش خادمة له، على ذلك النمو الذي مهر فيه فردريك الأكبر ملك بروسيا.

لقد كان لويس السادس عشر ملكا طيبا، وكان من الضروري أن يلعب عدة أدوار ميكيافلية، سواء ازاء المشكلات الداخلية أو الخارجية، على ذلك النحو الذي كان يفعله أقرانه من الملوك في أوربا. كان صاحب عاطفة رقيقة فأسقط في يده عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام ثورة شعبية قادرة على أن تملأ أرض فرنسا بالدم. وعلى العكس كانت زوجته مارى أنطوانيت ـ ابنة ماريا تريزا امبراطورة النمسا ـ قوية الشخصية، قادرة على أن تواجه المؤامرة بمثلها، والتمرد بالعنف، والثورة بالحرب ولكنها لم تكن فرنسية، وانما كان نمساوية مكروهة ينظر اليها من هذه الزاوية حيث كانت النمسا العدو التقليدي لفرنسا ولمشروعات فرنسا الكبرى. وهذا هو السبب الحقيقي في شل قدرات مارى أنطوانيت عن اتخاذ اجراءات حاسمة في الوقت المناسب. حيث انها لم تنجح في أن تكون لنفسها قاعدة قوية تعتمد عليها وكانت الدعايات الموجهة ضدها ـ وأكثرها كان يعتمد

على وقائع حقيقية ـ تحول دون خلق جبهة تعتمد عليها في الداخل غير القوة المسلحة، والملكية الأوتوقراطية. الى جانب هذا وذاك لم يكن هناك شعور بالحاجة الى حماية الملكية الفرنسية من خطر ما، حيث ان كل تلك العوامل التي أدت الى الثورة الفرنسية كانت غير واضحة ولم تتجسم في خطر ماثل الا في عام ١٧٨٩.

٤ـ اسباب اجتماعية :

ومع أن النظم الاجتماعية في فرنسا كانت شبيهة بتلك التي كانت تسود في الدول الأوربية الأخرى وخاصة الأمبراطورية النمساوية، بروسيا، اسبانيا، البرتغال والدويلات الايطالية، روسيا، فان الفارق الهام هو أن الفرنسي كان أكثر شعورا بالغبن الواقع على الشعب على يد الملكية المطلقة وعلى يد الطبقة المميزة. وأدرك عن حق، أن بعض الأعباء الملقاة على الفلاح الفرنسي مستمدة من تراث العصور الوسطى عندما كان للنبيل فضل على الفلاح بدفاعه عنه وحمايته. أما في العقود الأخيرة فالنبلاء يتمسكون ببعض الضرائب يحصلونها من الفلاحين لا لشيء الا لأنها مقررة منذ القديم على الفلاح ليدفعها للنبيل، بل كان الفلاحون مرغمين على العمل في ضياع النبلاء.

وكان ما يزيد الهوة بين الفلاح والنبيل أن الأخير لم يظهر بمظهر العطف على الأخير. بل ما كان النبيل يعيش في ضيعته، وانما يهمه الحصول على أكبر مبلغ من ايجارات الأرض بغض النظر عن أي اعتبار. بعكس معظم النبلاء الانجليز الذين كانوا يعيشون في ضياعهم بين فلاحين يكسبون ولاءهم وان كانوا مثل النبلاء الفرنسيين يبتزون جهد الفلاح.

ثم هناك الامتيازات الضرائبية التي أعفى منها أكثر الطبقات اسرافا وعدم انتاج. أي النبلاء ورجال الدين، في حين ألقيت أعباء الضرائب على الفلاحين الى جانب ضرائب اقطاعية لاهدف من ورائها سوى اثراء النبلاء، وفرض السخرة على الفلاحين في ضياع النبلاء. انه لما يدفع النفس الى التمرد على الأوضاع القائمة، أن يجد الانسان صعوبة في الحصول على بعض الضروريات الملحة لا لشيء الا لأنها تجارة محتكرة، فتصبح أسعارها عالية للغاية، ولذلك لايستطيع الفرنسي أن يستغنى عنها أبدا ويوميا. فكان هذا يملأ النفس حقدا وتمردا على

الحكومة، ويجعل الأفراد مستعدين للمشاركة في عمل ما ضد هذه الحكومة خاصة اذا كانت هناك آمال واضحة في التخفيف من حدة تلك الضرائب والاحتكارات. وكان أهل المدن بصفة خاصة أكثر الناس ادراكا عن قرب للامتيازات الطبقية، والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تنزل على رؤوس الطبقة الثالثة (العامة) دون غيرها. كانت طبقة النبلاء ورجال الدين واضحة في اسرافها في المدينة والريف على حد سواء.

ولكن احترام النبلاء ورجال الدين كان قد قل كثيرا جدا في المدينة عنه في الريف بسبب العوامل العديدة التي حطت من قدر هذه الطبقة المميزة.

ومن ناحية أخرى. فإن نظام الطوائف الحرفية يحول دون إنطلاقة تجارية على ذلك الشكل الذي كانت تتمتع به الفئات التجارية الانجليزية، فكان جمود نظام الطوائف، وعدم القدرة على تعديله. مع الشعور بأن هناك من فئات الشعب الأخرى من يعيش في رفاهية على حساب الشعب الكادح، كل هذا كان يعد النفوس للتحرك لتغيير النظام الاجتماعي القائم. ثم أن فرنسا التي كان يحكمها لويس السادس عشر، كانت في حقيقة الأمر عبارة عن مقاطعات متعددة كل منها لها جماركها الخاصة بها، الأمر الذي جعل القدرات التجارية لدى الشعب الفرنسي مقيدة تقييدا شديدا، دون أن يجد التجار في الحكومة أداة لاعادة النظر في هذه القيود وازالتها. وكانت فرنسا قد استنفدت الكثير من طاقتها خلال حروب لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، دون أن تحرز غير المجد العسكرى في ساحات المعركة، والهزيمة في نهايات الحروب كما هو متمثل في معاهدة أو ترخت عام ١٧١٣، ومعاهدة باريس عام ١٧٦٣. في حين استطاعت بريطانيا أن تخرج من كل حرب وقد حصلت على مساحات واسعة من المستعمرات، على حساب فرنسا بصفة خاصة. حقيقة حاربت فرنسا ضد انجلترا جانبا كبيرا من مستعمراتها الأمريكية، وحرمان الأسطول البريطاني من أن يصبح هو المنفرد بالسيادة على المحيطات. ولكن ذلك لم يستمر الا لفترة قصيرة.

٥- أسباب دوليه وعسكريـة:

هناك مشكلات رئيسية بين فرنسا وبريطانيا وغيرها من دول أوربا:

١ ـ ان الدول الأوربية لم تعن بالافادة من الضربة البحرية التي وجهت لانجلترا

خلال حرب الاستقلال الأمريكية، أو بالأحرى لم تستطع الافادة من هذه الفرصة فكان ذلك فرصة ذهبية للانجليز. اذ أصبح أمامهم فسحة من الوقت لاعادة تنظيم سلاحهم البحرى دون ازعاج كبير من أعداء بريطانيا. ولم تشعر دول أوربا بالتغيير الذي حدث في البحرية البريطانية، لأنها لم تتأثر به مباشرة. ولكن فرنسا التي تأثرت تأثيرا مباشرا بنمو البحرية البريطانية وتفوقها، بل ان فرنسا جعلت الدول الأوربية الأخرى في حاجة الى هذا الأسطول البريطاني، وذلك عندما هددت الثورة الفرنسية ملكيات أوربا التي تحالفت مع انجلترا ضد فرنسا الثورة.

٢ ـ ان بريطانيا كانت في ثورة صناعية أو انقلاب صناعى: استوعب الكثير من قدراتها الانتاجية، ولكنها تمكنت من الافادة من مستعمراتها بأساليب أكثر قوة، فكان أن تدفقت الثروات على بريطانيا في نفس الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تحارب بقوة «فرنسا الثورة» ونابليون بعد ذلك. وهكذا بينما كانت بريطانيا تستمد قوتها الاقتصادية من مستعمراتها كانت فرنسا تستمد قوتها من ذاتها هي. وكان الأسطول البريطاني هو القوة الحقيقية التي حمت بريطانيا ومكنتها من ا لافادة من الانقلاب الصناعى ومن المستعمرات في آن واحد. ومن ثم كان الانقلاب الصناعى قوة للأسطول البريطاني، كما كان الأسطول البريطاني درع الانقلاب الصناعى والتجارة البريطانية خاصة مع المستعمرات. ولم تدرك الدول الكبرى الأخرى أن ميزان القوى فيما وراء البحار قد اختل بذلك اختلالا جوهريا. وان بريطانيا أصبحت هي المتفوقة في الطرق العالمية المؤدية الى أفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية. لم تدرك الدول الكبرى هذا، في حين أدركت بسرعة أن فرنسا القوية التي تسيطر على البلجيك ـ مثلا ـ هي السبب في الاخلال بالتوازن الدولى. الأمر الذي جعل فكرة الاختلال بالتوازن الدولى مقصورة على توازن القوى في داخل القارة الأوربية بغض النظر عما هو حادث في المستعمرات وفيما وراء البحار، بل في خلال حروب الثورة الفرنسية أصبحت هذه الأمبراطورية البريطانية الواسعة، وذلك الانقلاب الصناعى، في نظر الأوتوقراطيات الأوربية المحاربة للثورة، نعمة كبرى تتيح لهم فرصة القضاء على الثورة الفرنسية في عقر دارها.

٣ ـ لقد كانت الدول الكبرى الأوربية ـ سواء البحرية أو الداخلية ـ مشغولة بمشكلات أوربية عويصة للغاية. تجعل الحكم في أي صراع مقبل للجيش البرى لا للأسطول البحرى، ومن أهم تلك المشاكل التي شغلت أذهان كل من روسيا، وبروسيا، والامبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا) موضوع اقتسام بولندة والتوسع على حساب الدولة العثمانية.

فلقد استطاعت روسيا ـ منذ أيام بطرس الأول ـ أن ترتفع بسرعة الى مصاف الدول الكبرى، وأن تتوسع -بنجاح على حساب الدولة العثمانية وتبلور ذلك في معاهدة كوجك قينارجي عام ١٧٧٤، وأندفعت نحو التوسع على حساب بولندة التي كانت تسير نحو تدهور سريع في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية. فكان ذلك فرصة واسعة لكى تتطلع جاراتها الى التوسع على حسابها، ولم يكن الهدف من التوسع على حساب بولندة هو مجرد ضم أراض جديدة، وانما كان للمحافظة على التوازن الدولي. فلقد كانت كل من بروسيا والنمسا تخشيان كل الخشية أن تسيطر روسيا على بولندة[١]، اذ ستصبح روسيا بذلك قادرة على الوثوب على قلب الامبراطورية الرومانية المقدسة بسهولة، حقيقة كانت مستويات العسكرية الروسية أقل من مستويات العسكرية البروسية أو النمساوية. ولكن اتساع الخلفية البشرية والاقتصادية لروسيا تجعل روسيا مرهوبة الجانب. لقد بدت روسيا كعملاق قد فغرفاه في اتجاه أوربا. أما انجلترا فقد كات عملاقا أيضا ولكنه كان يغفر فاهه في اتجاه المستعمرات وما وراء البحار لا نحو أوربا. ولهذا سنجد أن مخاوف أوربا من نمو روسيا أو من نمو فرنسا أكثر من مخاوفها من نمو انجلترا. تلك هي الظروف العامة الأوربية التي سبقت نشوب الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩. وكما يبدو منها أنها ظروف تساعد على نشوب حركة اصلاحية، أو ثورة من تلك الثورات المطالبة بالاصلاح وتغيير نظام الحكم في دولة معينة دون أن تتحول ـ كما حدث للثورة الفرنسية ـ صوب العالمية. ولكن الحقيقة هي ان الثورة كان لابد من أن تقوم ان آجلا أو عاجلا، أي في الوقت الذي تتوافر فيه الظروف المهيئة لها. فقد كانت الثورة في الأذهان

(١) اتفقت الدول الثلاث فعلا على اقتسام بولندة لأول مرة في عام ١٧٧٢، ثم اتفقت على محو بولندة من الخريطة واقتسامها تماما فيما بينهم في الوقت الذي كانت فيه الثورة الفرنسية على أشدها.

تنتظر الحادثة التي تجعل كل العيون والأذهان تلتفت اليها وتتجمع فيها وتنطلق منها. ولكن لماذا وقعت الثورة في عام ١٧٨٩ بالذات.

٦ـ *الأزمة المالية (السبب المباشر)* :

ان عام ١٧٨٩ لايختلف كثيرا عن الأعوام السابقة له. فلم تحدث فيه أزمة اقتصادية جعلت الفلاح يموت جوعا، أو العمال يتساقطون هنا وهناك في مصانعهم حقيقة كانت مجاعات في القرى، قبل عام ١٧٨٩، وكان هناك فقر مدقع بين سكان المدن، وكان هناك مشكلة الطعام. ولكن كل هذا كان موجودا في عام ١٧٨٩ وقبل عام ١٧٨٩.

الواقع أن المجاعة لم تشتد، ولكنها وضعت الفقراء على حافة الانهيار، منهم من لا يستطيعون التنازل عن شيء أو حتى بقبول هذا الوضع الذي يمكن أن نعبر عنه بأنهم وصلوا الى الدرجة التي لايستطيعون معها أن يسيروا بظهورهم صوب الموت هلاكا وجوعا أو في حياة تعسة لاقيمة لها. وانما أصبح لدى هؤلاء الفقراء اتجاه عام هو: لماذا لايحاولون السير في الاتجاه الصحيح وهو ما قاومتة القوى المسئولة عن الفقر لعلها تستطيع أن تحصل منها على شيء يقيم أودها... وعندما اشتدت الأزمة الاقتصادية وأصبحت الخزينة خاوية في أعقاب حرب الاستقلال الأمريكية، كان من المتعذر جدا على الحكومة أن تفرض ضرائب جديدة، حيث أن جميع فئات الشعب كانت غير مستعدة لأن تدفع المزيد من الضرائب. ومع أن طبقة النبلاء ورجال الدين كان في امكانهم أن يسهموا في انقاذ الخزينة بتقديم المبالغ المطلوبة، ولكن النبلاء ورجال الدين كانوا قد عزموا أيضا على عدم المساهمة في خزينة الدولة على اعتبار أن دخلهم اصبح يمثل الحد الأدنى الذي لايمكن أن يقبلوه، واذا كانت الحكومة في حاجة الى أموال جديدة فعليها أن تفرض ضرائب جديدة على العامة... ولقد حاولت حكومة لويس السادس عشر حل مشكلة فقر الخزينة عن طريق عدد من كبار رجال الاقتصاد الفرنسيين وعلى رأسهم ترجو وكالون ونكر. وكل منهم كان مخلصا في محاولاته، بطريقته الخاصة، لانقاذ الخزينة.

كان ترجو Turgot يريد اصلاح الجهاز الادارى والمالي الحكومي. والحد من

سلطة الكنيسـة، وفـرض ضرائب عادلـة، واطلاق حرية التجارة داخل فرنسا وخارجها، والغاء طوائف الحرف العمالية. وهي اصلاحات كانت تهدف الى اعادة النظر في امتيازات الطبقة المميزة، ولم يستطع ترجو أن يقوم بخطوة تنفيذ ما، ولكنه كشف عن حقيقة هامة وهي أن انقاذ فرنسا من الافلاس واصلاح أمورها، انما يجب أن يتم بواسطة قوة أخرى غير الحكومة الفرنسية وغير الملكية البوربونية الضعيفـة التي يسيطر عليهـا كبـار النبـلاء ورجـال الدين. ولحرب الاستقلال الأمريكية نتائج على فرنسا سلبية وايجابية، فان فرنسا التي خرجت من حرب الاستقلال الأمريكية مرفوعة الرأس منتصرة على عدوتها اللدود بريطانيا. قد تأثرت ميزانيتها الى درجة كبيرة بسبب النفقات الباهظة التي تكبدتها فرنسا خلال تلك الحرب. ومع أن الاقتصادي الفرنسي الكبير نكر Necker استطاع أن يدبر الأموال اللازمة لتمويل حرب الاستقلال الأمريكية فان ذلك مجرد أساليب سطحية فقط لمواجهة أزمة معينة حتى اذا ما حاول «نكر» ادخال اصلاح اداري صدر قرار عزله في (عـام ١٧٨١). ولكنـه ترك وراءه بيانا كشف مدى التدهور الذي أصاب الخزينة الفرنسية. وكانت المحاولة الثالثة الجدية للتغلب على عجز الخزينة على يد كالون سببا في فتح مجالات جديدة لم تكن متوقعة، حيث أنه كشف جوانب أخرى من عوامل ضعف اقتصاديات فرنسا حين أكـد أن المشكلة تكمن في فرنسا مظهريا دولة واحدة بينما هي في الحقيقة عبارة عن «ولايات وأقطار منفصلة ذات ادارات مختلفة متنوعة. لاتعرف مقاطعاتها شيئا عن بعضها بعضا، وبين أن هناك منـاطق تتحمـل أعباء ضرائبية باهظة وأخرى تكاد تكون معفاة» وانتقد بشدة الامتيازات على اعتبار أنها العقبة المتبعة ضد أي توازن في توزيع الضرائب حيث ان الحـل الفردى لن يجدي إلا عن طريق هيئة عامة يكون لها القدرة على فرض ندائها لانقاذ البلاد من الافلاس على كل الأطراف حتى تلك المميزة... ولهذا دعا كالون (مجلس الأعيان) وهو أشبه مايكون بمجلس الدولة. وكان هذا المجلس مؤلفا من أعضاء من الطبقة المميزة. وكان كالون يعتقد أنه بجمع مثل هؤلاء الأعيان، واطلاعهم على حقيقة الموقف المالي المنهار للدولة سيؤدى الى أن يقترح هذا المجلس فرض ضرائب جديدة على طبقتهم المميزة القادرة على أن تسد عجز الدولة بانقاص دخلها بنسبة بسيطة للغاية. ولكن هذا المجلس فشل في معالجة القضية المالية وتخلص منها أن أشار الى عقد «مجلس طبقات الأمة» حيث انه هو

المسئول عن دراسة مثل هذه المشاكل المعقدة واقتراح الحلول اللازمة.

لقد كانت دعوة «مجلس الأعيان» احياء لتقليد قديم وتوقف العمل به، وما كان هذا الا لأن البحث عن انقاذ لميزانية الدولة أصبح يتطلب الالتجاء الى كافة الحلول والأساليب الممكنة، الحديثة منها والقديمة... ولم يثر عقد وحل «مجلس الأعيان» أية أزمة حادة، وأن أثار تساؤلات واستياء في دوائر المثقفين وكبار رجال الدولة. وحيث انه مؤلف من الطبقة المميزة، وانهم رفضوا المساهمة في انقاذ ميزانية الدولة، فقد تطلعت الأنظار الى مجلس أوسع نطاقا ويضم ممثلين عن كافة فئات الشعب حتى اذا ما انتهى الأمر بفرض ضريبة أو بايجاد حل مناسب للأزمة المالية فان الطبقة المميزة لم تكن وحدها هي الملتزمة بتنفيذ هذا الحل، وانما يكون معها ممثلو العامة الذين يمكن ـ من وجهة نظر الطبقة المميزة ـ أن يتحملوا العبء الأكبر من الضرائب الجديدة التي قد يقترحها مجلس طبقات الأمة. هذا من وجهة نظر طبقات الأمة. هذا من وجهة نظر الطبقة المميزة.

أما البرجوازية الفرنسية. المطالبة باصلاحات، جوهرية، وسكان المدن والفقراء فقد رأوا في دعوة مجلس طبقات الأمة. فرصة رائعة لأن يحمل أبناء الشعب بأنفسهم فكرة الاصلاح وينفذونها. وكانت النفوس مهيأة لمثل هذه الانطلاقة. ولكن مما لاشك فيه كانت الدعوة الى انتخاب «مجلس طبقات الأمة» في حد ذاتها كفيلة بأن تثير في الأذهان شتى الآمال: حكم الشعب لنفسه. الحكم النيابى البرلماني، الاصلاح عن طريق الشعب، المساواة في الأعباء... وحيث انه كان من المتبع أن ترفع كل دائرة عن طريق ممثلها الى الحكومة بيانا بالشكاوى والأماني والمقترحات. فقد ظهرت في الفترة التي سبقت عقد «مجلس طبقات الأمة» مجموعة ضخمة من هذه البيانات. المطالبة بالحكم الدستوى أو بالاصلاح الضرائبي على أساس التخفيف من أعباء الطبقة غير المميزة وخاصة الضريبة على العقارات Tith. وبأن يكون الرأي النهائي للشعب عند فرض ضريبة جديدة.

مراحل الثورة الفرنسيـــــــة :

١ـ *مجلس طبقات الأمـة ودعوتـه للانعقاد :*

لقد بدأ واضحا أن الفرنسيين يبحثون عن برنامج عمل متعدد الجوانب لاصلاح أحوال الأمة وليس لأنقاذ الخزينة فقط. ومن هنا كان من العسير جدا الدخول الى تسوية سريعة لمشكلة التصويت في مجلس طبقات الأمة. حيث كان من المفروض أن يجتمع طبقات الأمة كل طبقة في حجرتها فواحدة للنبلاء وأخرى لرجال الدين، وثالثة العامة. ولكن لم تضع الحكومة أي لائحة لنظام عمل المجلس فأصبح الأمر بين يدى المجلس وأصبح عليه أن يحدد الأسلوب الذي سيعمل به، فكان أن دب الخلاف بين رجال الدين والنبلاء من جهة والعامة من جهة أخرى حيث أن عدد الطبقة الأخيرة كان مساويا لعدد الطبقتين المميزتين.

ومعنى التصويت على أساس عدد الحجرات فان العامة لاشك سيخسرون نتائج التصويت باستمرار لأنهم سيصبحون بنسبة ١ : ٢ بعكس اذا أخذ التصويت على أساس أن المجلس كل متكامل، وأن يكون التصويت على حسب أغلبية الأعضاء ككل، أو بمعنى آخر هل تظل مقدرات فرنسا بيد الطبقة المميزة أو آن الأوان لأن يشترك مثلو العامة في الحكم.

وهل سيظل «مجلس طبقات الأمة» مجرد مجلس استشارى أو أنه قد آن الأوان ليتحول الى مجلس نيابى على مستوى العصر. أليس لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية مجلس نيابى، وهي جمهورية حديثة جدا. فلماذا لايكون لفرنسا مجلس نيابى . . .

ولهذا كان اصرار ممثلى العامة قويا وثابتا ضد محاولات تذويبهم في الطبقتين المميزتين (النبلاء ورجال الدين). وبقدر ما كان النبلاء ورجال الدين يخشون من تفوق العامة عليهم، كان ممثلو العامة متمسكين بأن يكون لهم الرأي فيما سيصدر من قرارات. كما كان رجال الدين والنبلاء يعتقدون ـ وكانوا على حق ـ أن من بين صفوفهم كثير منهم يعطفون على مطالب ممثلى العامة بينما العكس غير صحيح. بل لقد كانت أعداد ليست بالقليلة من ممثلى رجال الدين مستعدين للتعاون مع ممثلى العامة.

اتصفت المحاولات التي بذلت بعد ذلك بصفة جديدة غير تلك المشكلة الرئيسية التي عقد من أجلها «مجلس طبقات الأمة». لم تعد المشكلة المالية هي

محور الجدل، وانما أصبحت المسألة المطروحة هي: ألا يحق لممثلى العامة أن يعلنوا أنهم هم أصحاب الحق في التحدث باسم الأمة. وكان هذا مخيفا للملكية، وللنبلاء.

٢ـ *مرحلة تشكيل الجمعية الوطنية:*

وحاول لويس السادس عشر أن يفرض مشيئته على المجلس. ولكن الأزمات سبقت اجراءاته. فقد أعلن ممثلو العامة أنهم سيستمرون في عملهم من أجل وضع دستور للبلاد. واجتمعوا في ملعب التنس عندما وجدوا غرفهم في «مجلس طبقات الأمة» غير مهيأة لعقد اجتماعاتهم. وتحدوا التهديد الملكى باستخدام القوة. وأصبحت (الجمعية الوطنية) ـ وهو الاسم الذي أطلقه على أنفسهم ممثلو العامة ـ قوة لها أثرها في توجيه الأمور في وجه الملكية وأعوانها من النبلاء وكبار رجال الدين.

ولكن الجمعية الوطنية انحدرت بسرعة لتصبح أداة بيد قوتين احداهما على جانب كبير من الذكاء واتساع الأفق، وهي الطبقة الوسطى في داخل الجمعية الوطنية وخارجها والثانية شعب باريس الذي ألهبت حواسة تلك الأحداث والبطولات التي قيلت عن تحدى ممثلى العامة للملكية والحكومة. وأصبحت باريس ومن ورائها فرنسا تسير في تيارات متعددة:

(ا) الجمعية الوطنية تدرس وضع دستور يرتقى بفرنسا الى أعلى مستويات الفكر العالمي والدفاع عن الانسانية.

(ب) الشعب الباريسي وقد سلح نفسه وجعل من نفسه درعا لممثلى العامة ووقع تحت تأثير عقليات شديدة السخط دموية عنيفة.

(جـ) الملك وبلاطه كان عنيفا في معارضته لممثلى العامة، وهدد باستخدام القـوة فأصبح بذلك هدفا للجمعية الوطنية وللشعب وأصبح البلاط ورجال الدين الكبار والنبلاء قوى معادية صريحة للجمعية الوطنية وللشعب.

وأصبح الموقف لايحتمل هذا التطور. فالشعب والجمعية الوطينة أصبحا في جانب والملكية والنبـلاء في جانب آخر. والأسلوب الوحيد المتبقى للملكية هو

استخدام الجيش. وفعلا بدأت الاستعدادات العسكرية من كل من الجانبين. وسرعان ما تحولت الأمور لصالح الشعب. اذ انضمت قوات من الجيش الفرنسي الى «الحرس الوطنى» الذي تكون حديثا للدفاع عن حقوق الشعب. ووجهت البرجوازية الذكية جموع الشعب في ١٤ يوليو الى الباستيل رمز العبودية واللاانسانية فاستولت عليه.

فكان أول عمل عسكري تقوم به جموع الشعب ضد رمز الاستبداد الملكي، وأثبت الشعب قدرته عمليا في ثوب انساني أنه هو الجدير بأن يصرف الأمور بنفسه وبواسطة ممثليه. وأدرك الملك لويس السادس عشر أن الخطر يكمن في استمرار الصدام بينه وبين الشعب فلجأ الى استرضائه عن طريق اعادة نكر الى الوزارة، واعترف بقيمة سقوط الباستيل، وبشارة الثورة المثلثة الألوان. ولكن كل هذا لم يعدل من وجهة نظر شعب باريس في الملك حيث ظل في نظره مجرد ملك ارتاع من قوة الشعب فخضع وانحنى للعاصفة.

ومضت الجمعية الوطنية في طريقها نحو وضع الدستور. وحتى يصدر هذا الدستور وقعت أحداث جسام قضت على لويس السادس وعلى ملكية البوربون بعد سنوات قليلة من الثورة الفرنسية. فبعد سقوط الباستيل فقدت الملكية نهائيا احترامها. واضطر الشعب الى أن يفرض رقابة صارمة عليه حتى أصبح شبه معتقل في قصره، وبدأ الشعب يهاجم النبلاء في ضياعهم وقصورهم، وبالتالي بدأ سيل المهاجرين الى خارج فرنسا ليصبحوا بعد ذلك خطرا عسكريا يهدد فرنسا بحرب أهلية فضلا عن تحريضهم لملوك أوربا لشن حرب ضد الثورة الفرنسية.

بهذه التطوارت يكون النظام القديم قد انهار، الملك معتقل، والدستور يعد والضرائب لاتدفع، الطبقات المميزة تفر أمام الشعب، والحرس الوطني يدافع عن الثورة، أما الجيش الملكى فقد انفرط عقده، وفي هذه اللحظات كان المواطن الفرنسي يكتشف نفسه، متآخيا مع أخيه في الوطن متساويا معه في الحقوق، وشعر بفرديته وانسانيته. وبمسئوليته ازاء مواطنيه ووطنه وازاء العالم حيث ارتفع صوت الثورة الفرنسية لا في فرنسا فقط وانما في كل أرجاء أوربا في أعقاب صدور «اعلان حقوق الانسان».

ان فرنسا التي كانت تعاني من هذه التطورات السريعة، وهذه الانتقالات

الجذرية من عهد الى عهد، أصبحت في أمس الحاجة الى حكومة قوية تسيطر على زمام الأمور. ولكن التطورات السريعة لم تعط الفرصة مبكرا لظهور شخصية حاكمة قوية يرضى عنها كل الأطراف المتصارعة. فكان طبيعيا أن تتصاعد حدة التشريعات الثورية، وتتصاعد معها حدة الرجعية المعارضة. وتبلور هذا في أزمة بين الحركة العلمانية، التي كانت تسيطر على اتجاهات الثورة، ورجال الدين الذين كانوا يتعاطفون جزئيا مع الثورة، ولكنهم صدموا مؤخرا بأن الثورة تكاد لاتقيم وزنا عندما صادروا أملاك الكنيسة وأصدروا تشريع الانتخاب العلماني للقسس، والقضاء على النفوذ البابوى في الكنيسة الفرنسية.

كما تبلورت هذه الأزمة في محاولة الملك الفرار من معتقله ولسوء حظه فانه قبض عليه قبل مغادرته البلاد، وعثر على وثيقة تركها خلفه يؤكد بطلان ما سبق أن صدق عليه من تشريعات، فثبتت خيانته للثورة وهي خيانة لا تغتفر في ظروف تتصاعد فيها الأزمات.

٣- *الجمعية التشريعية* :

وبعد تلك الحادثة بقليل أتمت الجمعية التأسيسية وضع الدستور في ١٤ سبتمبر عام ١٧٩١، **وحلت الجمعية نفسها وأوصت بتكوين جمعية تشريعية**. وعندما **تألفت هذه الجمعية التشريعية تزعمها الجيروند البراجوازيون أعداء الملكية دعاة الجمهورية**. وكان على الجيروند أن يدافعوا عن مكاسب الثورة بحلاوة اللسان التي اتصفوا بها. ولكن الأساليب الأخرى كانت تعوزهم. وكان العبء عليهم كبيرا حيث الأحوال غاية في الاضطراب، والمهاجرون، وملوك أوربا يرعدون الثورة الفرنسية بشن حرب لتخليص البلاد منها. وهنا بدأت المؤثرات الخارجية تصبح أكثر فعالية في توجيه التطورات في داخل فرنسا، كما تعرضت داخلية البلاد بسبب المخاطر الخارجية وتعدد القوى المناهضة للبلاد. المذابح دموية أشهرها مذابح سبتمبر عام ١٧٩٢.

فلكى يكسر الجيروند شوكة فرانسيس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، حرضوا البلجيك على الثورة عليه باسم حق تقرير المصير، ولكسر دعايات البابوية الواسعة النطاق ضد الثورة انتزعوا منه افينيون، وعندما هاجم الجيش البروسى

الأراضي الفرنسية رفعوا من معنويات الثوريين الفرنسيين وعمقوا فيهم روح القومية الفرنسية وسمو الرسالة التي يحملها الفرنسي المعالم المتمدين. ومع هذا انتصر الجيش البروسى انتصارا محدودا ولكنه مزعج لثورة لاتزال في المهد وتعاني من قوى عديدة معادية لها سواء في الداخل أو في الخارج. ولكن سرعان ما استطاع الجيش الفرنسي أن ينتصر في فالمى.

فلقد دفعت فرنسا بكل حماس جيشا، وان كان فجا قليل الخبرة، الى قتال الجيش البروسي الذي أصابه الوهن وفقد ميزاته الأولى أيام فردريك الأكبر - في موقعة فالمى (١٧٩٢/٩/٢٠) ففيه انتصر جيش الثورة الفرنسية، وانتشى الثوار بخمرة النصر. لقد ضخم الفرنسيون من قيمة هذا النصر، ووصفوه بكل معانى البطولة والاقدام. حقيقة كان النصر حليف الجيش المؤمن بالفكرة التي تحارب من أجلها. فكانت الأفكار والمبادىء التي لدى الجندى الفرنسي تجعله مؤمنا بالنصر وبالموت من أجل النصر، من أجل فرنسا، الثورة، وانقاذ الانسانية مما هي فيه من ظلمات الجهالة والرجعية.

٤- *اعلان الجمهورية الفرنسيـــــة* :

وبالتدخل العسكري البروسي قضى على الملكية في فرنسا حيث أعلن سقوطها في ١٧٩٢/٩/٢١ وقيام الجمهورية ليعدم الملك في ١٧٩٣/١/٢١. وسارت فرنسا من تطرف لآخر، حتى وقعت تحت توجيه أمثال دانتون وروبسبير وبرغم ما أوتى به دانتون من بعد نظر حين أكد على وحدة البلاد والدفاع عن الجمهورية على اعتبار أنها منار الانسانية الجديد، فانه كان دمويا عنيفا في سبيل تحقيق أهدافه. وكان تأليف **لجنة الأمن العام وتزعمه لهذه اللجنة اليعقوبية عاملا حاسما في سقوط الجيروند، وفي ضعف (المؤتمر الوطنى) الذي انتخب منذ وقت وجيز.** ولم يلبث أن خرج دانتون من لجنة الأمن العام ليحل في زعامة الثورة والأرهاب الخطيب المفوه روبسبير. ولم يضع حداً لهذا العهد الأرهابى الا بعد أن اطمأنت فرنسا على زوال الخطر الخارجي عليها، الأمر الذي ساعد على ظهور **حكومة الادارة**. ولكن عهد دانتون وروبسبير شهد السيطرة الفرنسية على بلجيكا وعلى نهر الشلدت، وكانت بريطانيا تراقب تطورات الأحداث في داخل فرنسا. وكل ما يعنيها هو ألا تمس تلك التطورات مصالحها أو مكانتها . ولكنها

بصفة عامة كانت تنظر بعين القلق الى نمو الثورة وتفوقها، لأن انتصار الثورة يعني أن فرنسا مقبلة على عهد قوة ونشاط جديد يهدد التفوق البريطاني فيما وراء البحار، ذلك التفوق الذي كان يقوم على أساس تحديد امكانيات فرنسا الهجومية والاقتصادية. ويحاول بعض المؤرخين أن يضفوا على انجلترا نوعا من الفكر الانساني عندما أعلنت الحرب على فرنسا الثورة بقولهم ان الشعب الانجليزي تأثر وحنق بسبب اعدام لويس السادس عشر. والواقع أن هناك ملوكا عديدين سيسقطون دون أن يحنق الشعب البريطاني طالما كان ذلك لايعنيهم. أما الحقيقة التي جعلت بريطانيا تعلن الحرب على فرنسا فهي فتح نهر الشلدت للتجارة، الأمر الذي يقضى على كثير من نشاط ميناء لندن المواجه له. في الوقت الذي أصبحت فيه فرنسا الثورة في حرب ضد انجلترا والنمسا وبروسيا، وشعرت فرنسا بالضغوط الخارجية الشديدة حتى انسحبت من بلجيكا، وبسبب الضغط العسكرى البحرى البريطاني على ميناء طولون الحربى. وبالضغوط الداخلية بسبب ثورة اقليمي ليون وفاندى وبسبب تفشى عدم الثقة في الداخل، في هذا الوقت اضطر رجال الثورة وعلى رأسهم اليعاقبة بزعامة روبسبير ـ الى اتخاذ اجراءات حازمة لمواجهة هذه الأخطار. ومن هذه الاجراءات انشاء « **لجنة الأمن العام** » . . . "Committee of Public Safety" «**ولجنة الضمان العام**» "Committee of Public Security" ومحكمة ثورية. وتنادى اليعاقبة مع العامة على تحمل المسئولية وبذل جهود أعظم من أجل الثورة ومبادئها، فطبق التجنيد الاجبارى، وقضى على تمردات الأقاليم الفرنسية، وفتحت كل من بلجيكا وهولندة. حقيقة تمت معظم هذه الانجازات في الوقت الذي كان فيه روبسبير ـ الزعيم اليعقوبى المفوه ـ يوجه الأمور بصرامة وقسوة دموية في وجه أي شخص أو هيئة يشك في خيانتها أو حتى معارضتها له. وبتحقيق فتح البلجيك، والقضاء على التمردات الاقليمية لم تعد هناك حاجة الى قسوة روبسبير الدموية. ومن ناحية أخرى كانت قسوته تلك سببا في أن يرهبه الصديق قبل العدو. ومن ثم كان الاتجاه قويا نحو تخليص فرنسا منه. وما كان هذا ليتم الا بانقلاب. وقد نظم «بارا» انقلابا ناجحا عرف باسم «انقلاب ترميدور» في ٢٨ تموز عام ١٧٩٤ قضى على روبسبير وأدى الى تشكيل «**حكومة الادارة**» التي اتبعت سياسة معتدلة دون أن تهاون الرجعية وكان الناس يشعرون أنهم في حاجة الى هذه الحكومة المركزية القوية غير الدموية،

وفي أيام هذه الحكومة ظهرت شخصية نابليون بونابرت لأنه ـ كضابط في الجيش ـ دافع عن وجود حكومة الادارة، وقاد جيوش فرنسا في حرب مدمية في ايطاليا ومصر. وكانت «حكومة الادارة» تواجه موقفا عدائيا شديد الصلابة من جانب النمسا وانجلترا أما بروسيا فعقدت صلحا مع فرنسا في عام ١٧٩٥، وهولندة تحالفت مع فرنسا (١٧٩٥)، وأسبانيا انسحبت من الحرب متنازلة عن جزيرة سان دومنجو لفرنسا. ومن ثم كان على بريطانيا والنمسا أن تفرضا صلحا على فرنسا أو أن تفرض عليها فرنسا صلحا.

٥ ـ نابليـون بونابـرت

وكانت الظروف كلها تحث على البحث عن قائد فرنسي ماهر يستطيع أن ينفذ ***أهداف حكومة الادارة العسكرية وكان نابليون بونابرت أمامها*** *لينفذ خطة من اثنتين: أن يهاجم النمسا أو يهاجم بريطانيا. ولكن ثبت أن بحر المانش بما فيه من أسطول بريطاني كبير يجعل غزو بريطانيا في عقر دارها مجازفة كبرى في الوقت الذي تطل فيه الامبراطورية الرومانية المقدسة شوكة خطيرة في ظهر فرنسا. ولهذا فضلت حكومة الادارة أن تبدأ بضرب النمسا لأنها أقرب الى فرنسا، ولأن توجيه حملة فرنسية الى ايطاليا ـ التي يسيطر عليها النمساويون ـ سيعطى لفرنسا مكاسب واضحة تجارية وأرضية، خاصة وأن الايطاليين كانوا مستعدين للترحيب بالجيش الفرنسي لكراهيتهم الشديدة لحكامهم النمساويين، وبتوجيه ضربة ناجحة الى الوجود النمساوى في ايطاليا، يكـون الفرنسيون قد هزموا خصمهم العنيد (الامبراطورية الرومانية المقدسة)، ويكون بابا روما قد أصبح في متناول أيديهم. فقد* ***عانت فرنسا الثورة*** *كثيرا من تحريضات البابوية لرجال الدين الفرنسيين ضد الثورة، وأيدت المهاجرين، وحرضت الأقاليم على التمرد ضد الحكومة ولقد كان للبـابوية ـ من وجهة نظرها ـ عذرا في ذلك خاصة عندما ظهر لها أن الثورة الفرنسية متطرفة في علمانيتها، حتى لقد ظهرت عبادة «الكائن الاعظم» في بعض الأوقات. وعلى أي حال* ***استندت قيادة الحملة الفرنسية الى نابليون بونابرت.*** *وكـان رجـال جيشـه مطيعين لقائدهم الذكى، متحمسين لانقاذ الشعوب من ملوكهم وحكامهم المستبدين. فخاضوا سلسلة من المعارك الناجحة فانتصروا على مملكة سردينيا وفرضوا عليها هدنة شيراسكو Cherasco ، وهزموا جيش البابوية*

في «انكونا» و كسروا النمساويين وأرغموهم على عقد صلح ليوبن Leoben في ١٧٩٧/٤/١٨ ثم على عقد معاهدة كمبو ـ فورميو (أكتوبر عام ١٧٩٧). وفيها أصبحت فرنسا سيدة ايطاليا، بينما أرضى نابليون بونابرت كبرياء الامبراطورية الرومانية المقدسة بأن منحها جمهورية البندقية المهيضة الجناح. وبقيت بريطانيا في الميدان وحدها. وأعدت فرنسا جيشا لغزوها في عقر دارها. ولكن ثبت أنه حتى في الوقت الذي أصبحت فيه بريطانيا وحدها في الحرب، لا تستطيع فرنسا غزوها بسبب الأسطول البريطاني في المانش. ولذلك أخذت الأنظار تتحول الى تقليم أظافر بريطانيا من المستعمرات. وكانت فكرة تكوين مستعمرة فرنسية في مصر والسيطرة على البحر الأحمر والاتصال بالقوى المناهضة للاستعمار البريطاني في الهند مسيطرة على أذهان وزير خارجية فرنسا حينذاك (تاليران) وعلى نابليون بونابرت الذي أصبح مسموع الكلمة في مخططات فرنسا العسكرية منذ انتصاراته المدوية في ايطاليا. وفعلا قاد نابليون بونابرت حملته المشهورة الى مصر، الا أن أحلامه فيها تحطمت للأسباب الرئيسية التالية:

١ ـ كانت حملته في نظر المصريين، وكل المشرق الاسلامي، حملة صليبية. ومن ثم أصبحت الحملة تعيش على أرض معادية كثيرة الثورات ضد الجند الفرنسيين.

٢ ـ ان السلطات العثمانية لم تصدق تبريرات حكومة الادارة بشأن ارسال قوات الى مصر لمجرد ضرب المماليك الذين ظلموا التجار الفرنسيين، ولذلك ما ان انتصر نلسن ـ قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط على أسطول الحملة في موقعة أبى قير البحرية ـ حتى أعلن السلطان الحرب على فرنسا متحالفا مع كل من انجلترا وروسيا، ثم دخلت النمسا الحرب فتكون التحالف الدولى العثماني ضد فرنسا.

٣ ـ حاول بونابرت التوغل الى ماوراء فلسطين ففشل أمام أسوار عكا وأصبحت الحملة الفرنسية محاصرة[1]. هذه النتيجة السلبية، وانتصارات دول التحالف الدولي من فرنسا حث نابليون بونابرت على العودة الى فرنسا لعله يستطيع انقاذ فرنسا مرة أخرى من أعدائها، ومع أنه عاد الى فرنسا بعد

(١) ظلت الحملة في مصر حتى استسلمت للعثمانيين والانجليز في عام ١٨٠١.

هزيمتين كبيرتين (موقعة أبى قير البحرية وأمام أسوار عكا) فان مجرد الحديث عن نابليون بونابرت قاهر النمسا في ايطاليا، وفاتح مصر، وقد بلغ فلسطين ومهد المسيح كان كفيلا بأن يطغى على حقيقة الفشل الذي منيت به الحملة الفرنسية على مصر منذ أيامها الأولى.

هذه الشعبية هي التي مهدت له الوصول الى الحكم على أنقاض حكومة الادارة التي اثبتت أنها عاجزة حتى عن المحافظة على فتوحات نابليون بونابرت في أثناء غيابه في مصر وبانقلاب عسكري بسيط (**انقلاب بروميير**) أسقط حكومة الادارة وظهرت القنصلية. وكانت مؤلفة من ثلاث كان أقواهم بونابرت فلم تلبث أن أصبحت قنصلية مدى الحياة[1].

ويمتاز **عهد القنصلية ١٧٩٩ - ١٨٠٣** بأنه عهد انجازات داخلية وخارجية كبيرة الأثر في تاريخ فرنسا. **ففي الداخل بلغ نابليون بونابرت ذروة العبقرية التشريعية والتنظيمية**، ولكن كانت سياسته ازاء الحرية الفكرية والنيابية في داخل فرنسا غير موفقه الى حد كبير. فقد وضع نفسه فوق جميع الأحزاب. وجعل من نفسه المسئول عن انقاذ الأمة من فوضى الصراعات الداخلي عن طريق توهين النشاط الحزبى والبرلمان. واذا كان توهين النشاط الحزبى مستساغا لمواجهة أخطار خارجية كبيرة فأنه انشأ نظاما نيابيا هزيلا ممثلا في مجلس التريبون Tribu nate [2]

أما في سياسته **الضرائبية فكان عادلا ومشرعا فذا**، وأسس بنك فرنسا في عام ١٨٠٠. وحيث أنه كان يعتقد أن الدين يلعب دوره الكبير في تماسك الأمة حينذاك، عمل ونجح في التوصل الى اتفاق مع البابوية كسبها الى جانبة دون أن يعطيها نفوذا ما في البلاد. أما في موقفه من أعداء فرنسا في الخارج (بريطانيا والنمسا وروسيا) بوجه خاص، فقد قرر أن يضربهم بسيفة ومرة أخرى انقض على النمسا فهزمها في مارنجو (١٨٠٠) وهولندة وأرغمها على عقد صلح لونيفيل Luneville في ٩ شباط عام ١٨٠٠. وأعاد بذلك سيطرته على ايطاليا لتظهر فيهامرة أخرى جمهوريات صغيرة ايطالية تابعة لفرنسا هي: جمهوريات ليجوريا وسيزا،

(١) اعلن نابليون نفسه امبراطورا في عام ١٨٠٣.
(٢) ألغاه نابليون في عام ١٨٠٧.

باين Liguria Cisa; pine كما أنشأ جمهورية «باتافيا» في هولندة و «هلفانيا» في سويسرا. ومرة أخرى وقفت بريطانيا وحدها في وجه فرنسا. وفي هذه المرة لم تفقد حلفاءها فقط بسبب انتصارات نابليون. بل ظهرت **عصبة الحياد المسلح** League of Armed Neutrality بزعامة كل من روسيا والدنمرك والسويد. وكان هدف هذه العصبة هو تطبيق مبدأ حرية البحار ولو بالقوة المسلحة، حيث ان بريطانيا كانت تصر على أن يقوم أسطولها - في أوقات الحرب - بتفتيش سفن الدول المحايدة دون وجه حق.

ولكن بريطانيا دائما تضع مصالحها في المقدمة حتى لو تعارضت مع القانون الدولي، أو بمعنى آخر ان القانون الدولي هو الذي يخدم المصالح البريطانية. ولهذا عزمت الحكومة البريطانية على منع دول الحياد المسلح من التمتع بمبدأ (حرية البحار) وبدون اعلان حرب أو سابق انذار - اقتحم الأسطول البريطاني ميناء كوبنهاجن ودمر الأسطول الدنمركي (١٨٠٢/٤/٢). وكان ذلك ضربة قاضية لعصبة الحياد المسلح الدنمركى كان أكثر أساطيل دول العصبة فاعلية. كان تحطيم الأسطول الدنمركي وانفراط عقد عصبة الحياد المسلح بوفاة بول قيصر روسيا المعجب بنابليون، وارغام الحملة الفرنسية على الجلاء عن البلاد المصرية، واستقالة بت Pitt - رئيس الوزارة البريطاني وأعنف عدو لنابليون - وشعور انجلترا بأن استمرار الحرب لن يسمح لها بأن تكسب شيئا جديدا، وشعور نابليون بأن الوصول الى تفاهم مع بريطانيا يعينه على توطيد تفوقه في أوربا. . كل هذا جعل الاتجاهات في باريس ولندن تتجه نحو عقد صلح بين الطرفين بعد حرب دامت منذ عام ١٧٩٣ ولم تهدأ الا بعقد صلح اميان في عام ١٨٠٢. . وقد حفظ هذا الصلح لبريطانيا تفوقها البحرى فضلا عن سيطرتها على سيلان وترانيداد ومالطة. في حين بقيت لفرنسا كل مكاسبها. أو بمعنى آخر كان صلحا يعترف بالوضع القائم لدى كل من الطرفين باستثناء تعديلات بسيطة، وأصبحت امبراطورية نابليون السرية (غير المعلنة) في مواجهة الامبراطورية البريطانية البحرية. ان وجود مثل هاتين الامبراطوريتين الكبيرتين وجها لوجه لايمنع من اشتراكهم سوى صلح لايقر الا بالأمر الواقع ليؤدى طبيعيا الى صدام عاجل خاصة اذا لم تقم بين الطرفين ثقة متبادلة، ولم تكن هناك من مظاهر التعاون السلمى الا القليل. فحتى التجارة الطبيعية بين البلدين كانت شبه متوقعة. وكان

الانجليز تواقين الى اعادة فتح باب هذه التجارة لما تدره عليهم من مكاسب كبيرة كدولة يقوم جزء من اقتصادها على النقل من المستعمرات الى أوربا، وعلى نقل منتجاتها هي الى أوربا وفرنسا. وكان اعتقاد كل طرف أن صلح اميان ماهو الا هدنة مسلحة لن تلبث أن تنهار سببا في أن يقوم كل من الطرفين على أعمال تثير الطرف الآخر. فقد أبت بريطانيا اخلاء مالطة. وكان نابليون يرى أن بريطانيا تريد الاحتفاظ بها حتى تستمر هي صاحبة اليد العليا في البحر المتوسط. وهذا صحيح الى حد بعيد جدا. وكانت بريطانيا ترى في استمرار سيطرة نابليون على بلجيكا وامتناعه عقد معاهدة تجارية يمهد لتدمير اقتصاديات بريطانيا في أوربا، خاصة وأن نابليون كان يزداد قوة شيئا فشيئا لافي داخل فرنسا فقط بل خارجها كذلك. وتطورت الأمور بسرعة ووقعت الحرب بين الطرفين، وبدأ نابليون - وقد أعلن نفسه امبراطورا في عام ١٨٠٣ - باجتياح نابلي وهانوفر (البريطانية). وحرض اسبانيا على مهاجمة البرتغال الحليفة التقليدية لبريطانية، وكان بت - وقد عاد الى الحكم في بريطانيا - يدرك أن هزيمة نابليون تتطلب تأليب الدول الأوربية عليه حيث لا قدرة لجيش بريطاني على ذلك. أو بمعنى آخر كان عليه أن يفيد من كراهية الدول الأوربية بسبب ما فقدته. وكانت النمسا في الحقيقة تبحث عن وسيلة تسترد بها كرامتها وما فقدته من نفوذ كبير في ايطاليا وبالتالي كانت أكثر الدول الكبرى تحمسا لامتشاق الحسام ضد نابليون. لقد كانت النمسا - وغيرها من الدول الأوربية الكبرى - ترى أن نابليون قد أخل بالتوازن الدولى بسبب اتساع نطاق البلاد التي يسيطر عليها (هولندة - بلجيكا - ايطاليا - هانوفر). وأنه يجب أن يعاد التوازن الدولي بهزيمته واعادة فرنسا الى ما كانت عليه أيام لويس السادس عشر. ومعنى هذا أن الدول الكبرى الأوربية كانت ترى في اتساع فرنسا في أوربا اخلالا بالتوازن الدولى، في حين لاترى في اتساع بريطانيا فيما وراء البحار في المستعمرات اخلالا بهذا التوازن الدولى. وهو في الواقع تفسير لمفهوم التوازن الدولي لصالح بريطانيا. وكان هذا التفسير مقبولا لدى الدول الكبرى، لأن الخطر البريطاني غير واضح في حين أن الخطر الفرنسي ماثل أمام الأعين.

نجح بت Pitt في تكوين تحالف دولى جديد انضمت اليه الامبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا) وروسيا. ولكن استطاع نابليون أن يحرز انتصارات

عسكرية كبرى رفعته الى ذروة العبقرية العسكرية حينذاك. ففي أولم ثم أوسترلتز وفريدلاند شتت بضربات فذة جيوش النمسا وروسيا (١٨٠٥). وطغت هذه الانتصارات الكبرى على أنباء هزيمة لاتقل أهمية عن تلك المعارك، ونعنى بذلك انتصار نلسن مرة ثانية انتصارا حاسما على الأسطول الفرنسي في موقعة الطرف الأغر. فتلك المعارك البرية، ومن بعدها موقعة يينا (١٨٠٦) التي أذل فيها نابليون ـ وقد دخل برلين نفسها ـ بروسيا اذلالا ساحقا، وتلك المعركة البحرية (الطرف الأغر) وضعت مرة أخرى الامبراطورية البرية الفرنسية في وجه الامبراطورية البحرية البريطانية. . فلقد قضى نابليون بانتصاراته تلك على الامبراطورية الرومانية المقدسة التي أصبحت منذ عام ١٨٠٦ تعرف بالامبراطورية النمساوية. وأصبحت كلمة نابليون هي العليا في ألمانيا المفككة الى دويلات بدلا من النمسا وبروسيا اللتين احتفظتا ببعض النفوذ على أجزاء من ألمانيا. ثم دخل في مفاوضات مع قيصر روسيا (اسكندر) وتمت فيها عرف باسم اتفاقية تلست Tilsit السرية (١٨٠٧) التي تمثل ذروة قوة نابليون بونابرت. أما وقد أصبح نابليون ـ بعد اتفاقه مع قيصر روسيا، وكسر شوكة كل من النمسا وبروسيا ـ صاحب الكلمة العليا فلم لا يغلق كل أوربا في وجه انجلترا ليدمر تجارتها، ومن هنا خرجت فلسفة (الحصار القارى) التي أعلنها نابليون غداة دخولة برلين بعد موقعة يينا Jena ، والتي وافق قيصر روسيا على تطبيقها في اتفاقية تلست Tilsit. ولكنها كانت سياسته تقوم على افتراضات خاطئة. فالموانى ليست هي الطريق الوحيد لدخول التجارة البريطانية الى داخل أوربا. ثم أن أوربا نفسها كانت في حاجة الى انجلترا، وكانت مستعدة لقبول التجارة البريطانية المهربة في وقت شعرت فيه أوربا بأنها تحت أقدام مارد جبار مهيمن عليها بحد السيف، ولا شك أن أوربا عانت كثيرا من هذا الحصار القارى. وأصبحت تتطلع الى اليوم الذي تتخلص فيه من قيوده. ومع أن بريطانيا أصيبت بأضرار جسيمة من جراء تعطيل تجارتها مع القارة الأوربية فانها استطاعت أن تعوض كثيرا من خسائرها بتوسيع تجارتها مع الأسواق الأمريكية والشرقية فضلا عن أن مستعمراتها أمدتها في هذه الظروف الحرجة بمقومات المقاومة الاقتصادية في وجه نابليون وحصاره القارى.

وأغلب الظن أن الأضرار التي حاقت بالبلاد الأوربية كانت أكثر من تلك التي حاقت ببريطانيا من جراء تنفيذ الحصار القارى. فلقد تدهورت اقتصاديات

هولندة تدهورا شديدا. وكان على عرشها حينذاك لويس ـ شقيق نابليون ـ وحاول لويس أن يقنع نابليون باستثناء هولندة من قوانين الحصار القارى دون جدوى حتى لقد فضل لويس أن يترك العرش لأخيه. فما كان من نابليون الا أن ضم هولندة الى فرنسا.

لقد كانت انتصارات نابليون المذلة لدول أوربا، والحصار القارى المجحف باقتصادها وتوزيعه تيجان أوربا على اخوته وأصهاره سببا في أن تعمل هذه الدول على التخلص من قبضة نابليون الحديدية. وكانت الأساليب التي اتبعتها الدول الأوربية في هذا الشأن تتركز فيما يلي:

١ ــ فتح البلاد أمام البضاعة الانجليزية، دون الاعلان عن ذلك، مثلما فعل الاسكندر قيصر روسيا.

٢ ــ محاولة رفع أحد مارشالات نابليون الى منصب الملكية مثلما فعلت السويد عندما أعلنت برنادوت ملكا عليها.

٣ ــ اعادة بناء نظامها العسكري والادارى لتكون مستعدة لخوض المعركة المقبلة ضد نابليون مثلما فعلت بروسيا بوجه خاص، والنمسا الى حد ما. ولقد تفوقت بروسيا في هذا المجال حيث ان اذلالها على يد نابليون أيقظ فيها وعيا قوميا عميقا دفع الشعب الى العمل وخلق زعامات متنورة بعيدة النظر من أمثال شارنهورست الذي خلق جيشا بروسيا كان مدرسة للقومية والأخلاق، كما أن الحكومة البروسية التحمت مع الشعب في حركة كبرى فقضت على الحواجز الجمركية ونشطت التعليم العام والعالي، وألغت الرق. ولقد كانت هذه التحولات تجرى في دقة وهدوء لم يستطع نابليون أن يدرك كنهها أو حقيقة أهدافها. ربما بسبب شعوره بأن أوربا فقدت قدرتها على الصمود أمام عبقريته وأمام الجندى الفرنسي.

وبعد عام ١٨٠٧ كثرت أخطاء نابليون، أو على الأقل كثرت تقديراته الخاطئة لعواقب الأمور فهو حين وزع التيجان على اخوته[١] لم يتورع عن ارغام الأسرة الحاكمة في اسبانيا عن التنازل عن العرش لأخيه جوزيف. ولقد كانت الأسرة

(١) مملكة وستفاليا كان عليها جيروم، مملكة هولندة للويس، مملكة نابلى لصهره مورا، مملكة اسبانيا لجوزيف.

الحاكمة الاسبانية فاسدة بلا جدال. ولكن يبدو أن نابليون حكم على الشعب الاسباني من خلال حكمه على الأسرة الحاكمة الاسبانية فأخطأ خطأ فاحشا. لأن الشعب الاسباني من الشعوب الجبلية العنيدة التي تكره الخضوع لأجنبي خاصة وأن لديه مقومات الكفاح والحرب مستندا الى وعورة الهضبة الأيبيرية، وتحالف الانجليز معه تحالفا يجعل وصول امدادات السلاح متواصلا بلا انقطاع، فضلا عن المساعدات العسكرية الانجليزية، وفعلا ثار الشعب، واستيقظ المجلس البرلماني الاسباني (الكورتيز) وظهرت حركة اصلاحية وطنية نظمت جيشا كبيراً خاض في يوليو عام ١٨٠٨ معركة دموية في «بايلين» انتهت بانتصار اسباني ضخم واستسلام القوات الفرنسية. وتناقلت أنباء الهزيمة أسماع أوربا كلها. وقيمة هذه المعركة هي أنها أزاحت أسطورة الجيش الفرنسي الذي لايهزم، وأصبح مجرد جيش وينتصر ولكن يمكن أيضا أن ينهزم. ومن ناحية أخرى أصبحت أوربا تنظر الى الاسبان على اعتبار أنهم شعب يسعى الى تخليص نفسه من طاغية.

ولقد وضعت هذه الحرب الاسبانية فرنسا في موضع حرج حيث أصبحت مضطرة الى ارسال قواتها وأموالها الى هناك باستمرار اذ لم تهدأ الحرب الاسبانية الا بسقوط نابليون نفسه، ثم ان الحرب الاسبانية فتحت جبهة قتال في جنوب فرنسا في الوقت الذي كانت فيه دول ـ مثل النمسا ـ مستعدة لخوض الحرب ضد فرنسا فتصبح الأخيرة مضطرة للقتال في جبهتين عريضتين في جبهتين مختلفتين. وهذا ما حدث فعلا. حيث ان النمسا كانت ـ كما هي العادة ـ أسرع قوى الدول الأوربية الى امتشاق الحسام ضد نابليون لعلها تنتصر وتستردما فقدته من كرامة وأرض. وفعلا خاضت النمسا هذه المرة الحرب بصلابة أشد حتى ان نابليون لم يستطع الحصول على الانتصار في معركة «واجرام» Wagram عام ١٨٠٩ الا بصعوبة كبيرة. . حقيقة كسب نابليون الحرب ضد النمسا. ولكن ظلت هناك حقيقة قائمة وهي أن الحرب الاسبانية لاتزال مستمرة، وأنه يمكن أن تتكرر مثل هذه المقاومة الاسبانية في أرض أوربية أخرى. وجاءت هذه المقاومة من دولة مستقلة وليس من بلاد تحت السيطرة النابليونية. فقد سئم القيصر اسكندر الحصار القارى وما يعود على بلاده من خسارة فترك البضائع الانجليزية تتدفق الى بلاده. كما أن القيصر سئم مداورات نابليون بشأن مستقبل القسطنطينية

(الآستانة) حيث كان القيصر ينوى أن يضع يده عليها بموافقة نابليون، ولكن الأخير ماطله لأنه يدرك القيمة الكبرى للقسطنطينية كحاجز في وجه الانطلاق الروسى في البحر المتوسط، وكعامل جوهرى في استمرار بقاء الدولة العثمانية في وجه التوسع الروسى.

كذلك كره الاسكندر زواج نابليون من أميرة نمساوية على اعتبار أن هذا الزواج ليس سوى زواج سياسي من وجهة نظر الاسكندر، ويقصد به توحيد سياسة النمسا وفرنسا ضد روسيا. ولقد كان القيصر اسكندر ونابليون لايثق الواحد منهما في الآخر، وكان نابليون في الحقيقة يعتقد أن القيصر لو خرج عن نصوص اتفاقية تلست فانه لن يتورع عن توجيه ضربة جديدة اليه كتلك الضربة التي وجهها للجيش الروسى في موقعة فريدلاند سنة ١٨٠٦. وكان هذا خطأ كبيرا في تقديرات نابليون. ففي أيام فريدلاند كان الروس هم الذين زحفوا الى قلب أوربا، ولكن في عام ١٨١٢ كان نابليون هو الزاحف الى قلب روسيا. كما أن الموقف يختلف. كان نابليون يعتمد على جيش فرنسي قومى في عام ١٨٠٦ في حين هو في عام ١٨١٢ يزحف بجيش مختلط من فرنسيين وايطاليين وألمان... الخ من جند الامبراطورية، وبهذا الجيش الكبير زحف نابليون الى داخل روسيا. ولم يصطدم الروس بالجيش الفرنسي الا في مواقع غير حاسمة، اذ ظل الروس يتراجعون امامه دون أن يسمحوا له بخوض معركة حاسمة كان يعدلها كل امكانياته. ودخل موسكو ولكنها لم تلبث أن أخذت النيران في احراقها. واضطر الى العودة، وأخطا خطأ كبيرا حين عاد من نفس الطريق الذي جاء منه، حيث أنه أصبح طريقا عاجزا عن تموين جيشه فضلا عن هجمات الفرق الروسية التي لم تنقطع فخسر من جيشه جزءا كبيرا. وهكذا هزم نابليون هذه المرة ليس على يد جيش وانما على يد شعب أصر على مكافحة الغازي بشتى الوسائل وعندما وصل جيش نابليون الى قلب أوربا عائدا من روسيا كان جيش القيصر في أثره. ورددت أوربا هذا النصر، وانطلقت الدعوات في أوربا لكى تهب الجيوش والشعوب ضد الطاغية. فتحولت أوربا الى أرض معادية، اذ كان حماس الشعوب أقوى من حماس الملوك. وكان الشعب الروسي أكثرها شوقا لخوض المعركة ضد نابليون. ولذلك أرغم ملكه على اعلان الحرب ضده.

حقيقة كانت طاقات بروسيا الحماسية ضخمة، وكان الشعب والجيش البروسي مستعدا لأن يبذل كل امكانياته لقتال نابليون، ولكن كان ما تحت يد نابليون من جيش لايزال كبيراً يمكنه من هزيمة البروسيين، ومن ثم كان دخول النمسا الحرب في الوقت الذي تفوق فيه نابليون على بروسيا في موقعتى لوتزن وبوتزن Lutzen and Butzan عاملا حاسما في انقلاب الموازين وترجيح كفة الحلفاء (روسيا/بروسيا/ النمسا) فضلا عن استمرار تقدم القوات الاسبانية - البريطانية صوب البرانس. ولقد كان نابليون يعتقد أنه لو كسب معركة حاسمة فسيكون قادرا على اعادة الهيمنة على أوربا كما فعل من قبل بعد استرلتز. ولكن لم يكن هناك مجال لاسترلتز أخرى. فالهزيمة التي يستطيع أن ينزلها نابليون بأعدائه هزيمة مؤقتة، لاتلبث الشعوب أن ترسل الى ميدان ا لحرب بجيوش جديدة. ان نابليون أصبح يحارب شعوبا أوربية وليس حكومات كما كا الحال من قبل. . . لقد كان اعتقاد نابليون في الحصول على نصر حاسم في موقعة ما، وكان اعتقاد الحلفاء أن نابليون فقد مقومات النصر سببا في استمرار الحرب، وفشل محاولات الوصول الى حل سلمى. وفي ليبزج أو معركة الشعوب (١٦/١٠/١٨١٢) كانت هزيمة نابليون الكبرى. اذ بدأت بعدها جيوش الحلفاء زحفها الى داخل فرنسا من الشمال في حين كانت الجيوش الاسبانية - البريطانية تغزو فرنسا من الجنوب. ولقد قاوم الشعب الفرنسي بقوة عن أرضه، ولكن الحلفاء كانوا متفوقين، وقبل نابليون نصيحة مارشالاته وتنازل عن العرش لابنه ملك روما. وغادر فرنسا الى جزيرة «البا» الايطالية محتفظا فيها بلقب الامبراطور (١٨١٤). ولكن لم يطل به المقام حتى يعود مرة أخرى الى فرنسا لينقذها - كما كان يعتقد - من لويس الثامن عشر البوربوني الذي عاد الى العرش تحت أسنة رماح الانجليز والبروسيين والنمساويين، ولانقاد فرنسا من شهر الهزيمة.

ولقد أعطاه الشعب الفرنسي الفرصة مرة أخرى. ولكن الموضوع لم يكن موضع عبقريات في ميدان الحرب، وانما كان هناك تفوق حاسم لدى الحلفاء. فلقد انتصر نابليون أول الأمر على بلوخر البروسي. ولكن لم يلبث أن جمع جنده وعاد ليخوض المعركة وأقبلت القوات الانجليزية بقيادة ولنجتون. لقد كان لابد من أن ينهزم نابليون. **وكانت هزيمته النهائية في واترلو عام ١٨١٥**. لينفي بعدها

الى سنت هيلانة ويموت هناك عام **١٨٢٢** ويعود جثمانه في عهد لويس فيليب الى الانفـاليد، وليصبح علماً على مجد فرنسا أكثر منه علماً على حروب دموية أرهقت فرنسا وأرهقت أوربا ولكنها ظروف العصر ضد فرنسا ونابليون.

الفصل الثاني
فرنسا في أعقاب سقوط نابليون

ماذا تكون عليه أوربا بعد هزيمة نابليون، وعودة لويس الثامن عشر البوربوني الى عرش فرنسا. . لقد كان على المجتمعين في مؤتمر فيينا (١٨١٥ م) أن يضعوا خريطة لأوربا جديدة، حيث ان التغيرات الجوهرية التي تعرضت لها أوربا خلال سنوات الثورة الفرنسية والحروب النابليونية كلها غيرت كثيرا من معالم أوربا قبل الثورة.

فبالنسبة لفرنسا كان المجتمعون المنتصرون قد قرروا أن يفرضوا عليها شروطا أقسى من تلك الشروط التي كان قد وافقوا عليها في معاهدة باريس عام ١٨١٤ التي عقدت في أعقاب تنازل الامبراطور نابليون وذهابه الى البا. ولذلك كانت معاهدة باريس الثانية أشد قسوة من الأولى. فقد تنازلت فرنسا في هذه المعاهدة عن دوقية بويون Bouillon وعن جزء من الأردن للأراضي المنخفضة. وعادت حدودها الى ماكانت عليه في عام ١٧٩٠ أي أقل من تلك التي حصلت عليها في معاهدة عام ١٨١٤. وفرضت عليها غرامة حربية كبيرة، واحتلال جزء من أراضيها. وقد واجهت فرنسا الهزيمة بشجاعة. وسيثبت الشعب الفرنسي أنه قادر باستمرار على أن يسترد قواه بعد هزيمته بسرعة غير متوقعة في أعقاب سقوط نابليون، وفي أعقاب هزيمته في حرب عام ١٨٧٠ أمام ألمانيا. استطاعت فرنسا - تحت حكم لويس الثامن عشر - برغم الضائقة المالية القاسية التي كانت تعاني منها - استطاعت أن تدفع الغرامة الحربية. واستطاعت أن تقنع الحلفاء بعد ثلاث سنوات فقط من واترلو أن يسحب جيش الاحتلال من فرنسا (١٨١٨).

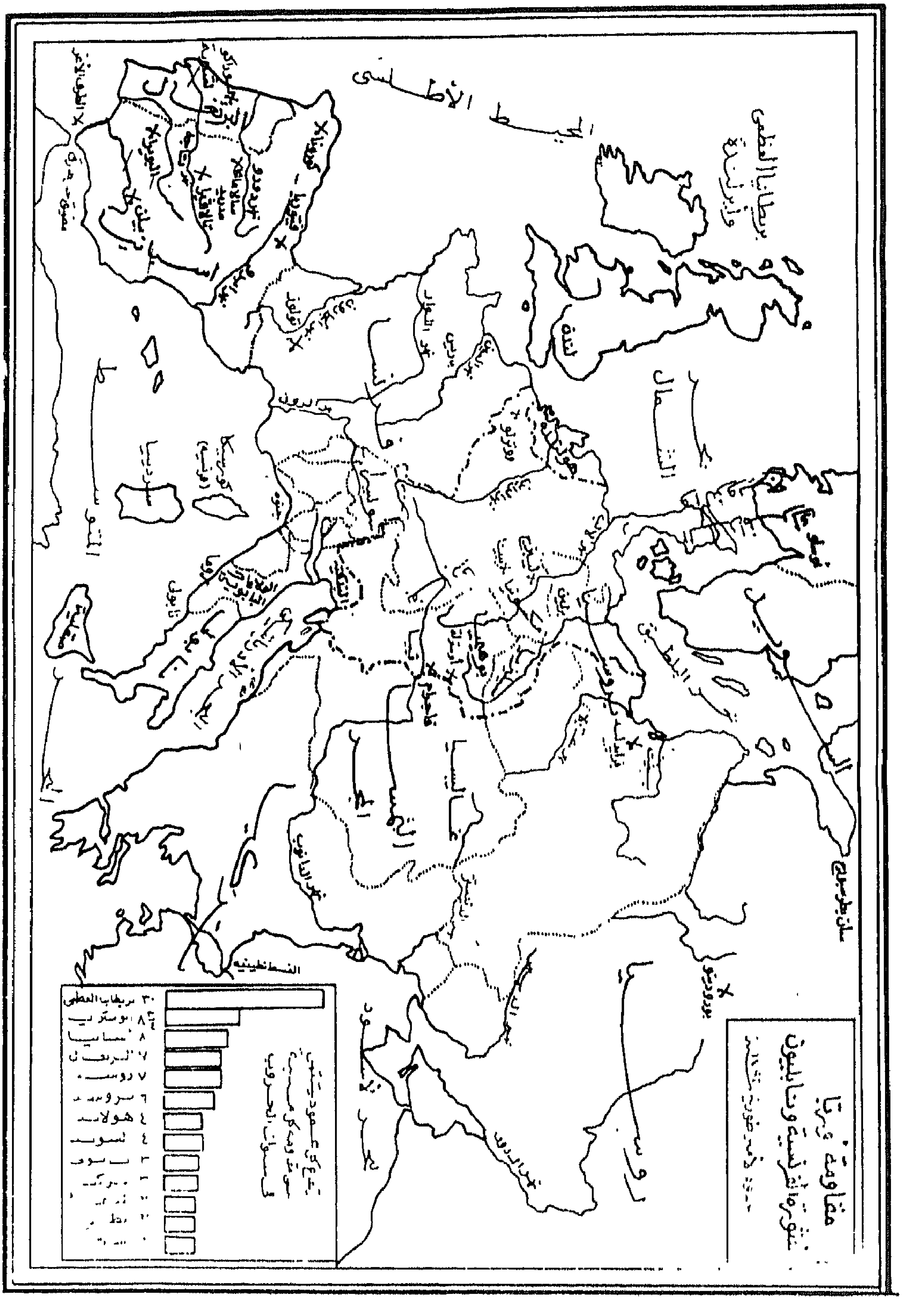
مقاومة أوربا لفتوحات نابليون
المحيط الأطلسي
بريطانيا العظمى
القسطنطينية

ولا شك أن الموقف الدولي أعان فرنسا على أن تستعيد كيانها بسرعة، بل أن تستعيد مكانتها الدولية بسرعة أيضا. فلم يكن من المستطاع أن تبقى فرنسا تحت احتلال أوربى كامل وباستمرار وذلك لأن التوازن الدولي كان يتطلب ـ من وجهة النظر النمساوية والانجليزية ـ اعادة فرنسا الى مكانتها كقوة أوربية كبيرة.

ففي أعقاب سقوط نابليون برزت روسيا كقوة كبيرة قادرة على تهديد قلب أوربا وخاصة اذا استطاعت التحالف مع دولة أوربية أخرى مثل بروسيا. ومن هنا كانت فرنسا مهمة جدا لكل من النمسا وانجلترا. وقد برزت هذه الحاجة الماسة الى توازن دولى خلال مؤتمر فينا وخلال عمليات توزيع المكاسب. وكانت روسيا تتطلع الى مكاسب كبيرة على اعتبار أنها هي التي دحرت الجيوش النابليونية وبذلت في سبيل ذلك جهدا كبيرا للغاية. وفعلا حصلت روسيا على وارسو. وكان ذلك في نظر الدول الأوربية خطرا يهدد باختلال التوازن الدولي. أما النمسا فقد حصلت على الساحل الدلماسي الى جانب استعادتها ميلانو والتفوق التقليدي النمساوي على دويلات ايطاليا. وضمت بلجيكا الى هولندة لتصبح دولة كبيرة يقدر لها في المستقبل أن تقف في وجه أية محاولات فرنسية أخرى للتوسع. وحصلت بروسيا على أرض ألمانية أكثر،الأمر الذي مهد لها لدور الزعامة الألمانية بعد ذلك، أما بريطانيا فقد خرجت بمكاسب كبيرة للغاية، ولكن فيما وراء البحار حيث حصلت على: الكاب، مالطة، سيلان، موريشوس، وضمت بيدمونت ميناء جنوة الهام. كما أن السويد حصلت على النرويج برغم أن الأخيرة رفضت أن تضع نفسها تحت حكم السويد فان اسكندر قيصر روسيا تمسك بوعده بأن تستولى السويد على النرويج، كما أن كاسلريه رئيس الوزارة البريطانية هدد النرويج باستخدام القوة ان لم تضع نفسها تحت حكم السويد.

ولنا بعض الملاحظات على هذه التسويات.

١ ـ أكدت هذه التسويات مبدأ «الحقوق الشرعية» الذي أعاد ملوك وأمراء ما قبل الثورة ونابليون الى عروشهم التي أبعدوا عنها. وبالتالي لم توضع الاعتبارات القومية كأساس. وبالتالي كانت الحكومات الملكية التي قامت بعد نابليون في أوربا تعنى بتوطيد مركزها ضد الحركات التقدمية والقومية حينذاك. على اعتبار أن الاصلاحات التقدمية لابد أن تكون دستورية،

أوروبا (عام ١٨١٠)
المحيط الأطلسي
البرتغال
إنجلترا
أيرلندا
الإمبراطورية الفرنسية
الاتحاد الرايني
السويد

وبالتالي تسلب الملك كثيرا من سلطاته، وأن الأهداف القومية اذ أريد تحقيقها فلابد من أن يتخلى بعض الملوك عن عروشهم. لقد كان كفاح شعب ألمانيا ضد نابليون وكفاح شعب اسبانيا ضده، وشعور الايطاليين والبلجيكيين بالغبن الذي وقع عليهم بوضعهم تحت حكم حكومات أجنبية كل هذا أعد الشعوب لحركات قومية قوية فيما بعد.

لقد كانت هذه التسويات ضد الروح القومية لبعض الشعوب، وضد رغبتها على الاطلاق، وأوضح مثال على ذلك الموقف المتعنت من جانب انجلترا من شعب النرويج الذي رفض أن يضع نفسه تحت حكم السويد ومثال آخر هو وضع بلجيكا تحت حكم هولندة ولن يتخلص البلجيكيون من الحكم الهولندى الا بثورة دامية. والمثال الثالث هو وضع شمال ايطاليا الغنى تحت السيطرة المباشرة النمساوية وكان الشعب بكره هذا الحكم الأجنبي المسبد، خاصة بعد أن تعشق الحرية التي نادت بها الثورة الفرنسية.

٢ - ان الدول الكبرى (روسيا - انجلترا - النمسا - بروسيا) حين فرضت هذه التسويات كانت قد جعلت من نفسها وصية على أمن أوربا وسلامتها من حرب جديدة على الطراز النابليوني. ولكنها لم تحاول أن تكتشف أن التوازن الدولي الذي حرصت عليه الدول الكبرى بعد سقوط نابليون كان يعنى استبعاد التوسع البريطاني الكبير فيما وراء البحار من مقاييس هذا التوازن الدولى. ومن ثم كان التوازن الدولى في صالح انجلترا باستمرار ومن يحاول أن يشارك انجلترا في مكاسبها من المستعمرات يتهم بأنه يخل بالتوازن الدولي، كذلك بالنسبة للدولة التي تنمو في أوربا خارج حدوده.

تلك كانت التسويات، وأوجه النقد الموجهة اليها، والتي ستكون من أهم الأمور التي شغلت أوربا بعد ذلك. ونعنى بهذا.

محاولة فرنسا باستمرار الصعود الى ماكانت عليه كدولة كبرى لها ثقلها في التوازن الدولي، وفي توجيه أمورها.

٣ - نشوب ثورات قومية عنيفة لتصحيح الأوضاع الخاطئة التي أقرتها الدول الكبرى في عامي ١٨١٤-١٨١٥. ولنحدد الآن القوي السياسية

والاقتصادية والاجتماعية التي أصبحت تسيطر على أوربا وتوجه أمورها وتعزز نشاطها في تلك المجالات او توهن هذا النشاط في مجال دون آخر. فبرغم تلك التسويات السياسية كانت هناك أوضاع جديدة قد توطدت، وأصبح من المتعذر على رجال السياسة في الدول الكبرى التخلص منها ـ فاذا كان مبدأ (الحقوق الشرعية) قد أعاد الملكيات الى ماكانت عليه قبل الثورة ـ ولو ظاهريا ـ فقد حصل الفلاح الأوربى ـ وخاصة في فرنسا ـ على مكاسب مادية غيرت من مستواه الاقتصادي والاجتماعي. فاستبقى هؤلاء ماكان تحت أيديهم من أراض، ولا تعود اليهم تلك الضرائب القديمة، ولا النظم التعسفية في فرضها أو جمعها أوتعددها. ولم تتعرض نظم مابعد نابليون لمكاسب الفلاح حتى لاتثير أزمات كبرى داخلية، حقيقة كانت هناك اتجاهات رجعية متطرفة في فرنسا أيام شارل العاشر (١٨٣٠-١٨٣٣) ـ ملك فرنسا ـ الا أنه لم يستطع أن يمس كسب الفلاح. وليس معنى هذا أن امور الفلاح استقرت فهو في الواقع اطمأن الى جانب محدد فقط وهو مدى تدخل الحكومة أو غير الحكومة في رزقه وانتاجه. ولكن كان هناك عامل جديد أصبح يهدد الفلاح من وقت لآخر وهو الأزمات الاقتصادية. فلقد ظلت أساليب الانتاج الزراعى غير متطورة، وفي نفس الوقت كانت الاقتصاديات الزراعية لاتزال هي المسيطرة على غيرها من الاقتصاديات الصناعية. ومن ثم كانت الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها أوربا كانت تبدأ من الازمة الزراعية.

كذلك كان التجار وأصحاب الحرف قد أصابوا فوائد هامة من وراء تدهور نفوذ كبار الملاك. وكانت عودة الملكيات لاتستطيع أن تتعرض لنشاط هذه الجماعات المتزايد، خاصة وأن الاتجاه العام الاقتصادي كان نحو التصنيع والصناعة. وكانت بريطانيا هي المتفوقة في استخدام الآلات في الانتاج وفي وسائل النقل البحرى (البواخر) والبرى (القطارات). وترتب على هذا التفوق في الانتاج والنقل نمو في رءوس الأموال اتجه أصحابها الى استثمارها في خارج بريطانيا، ومن بين هذه المجالات تسليف الدول الأوربية وبصفة خاصة فرنسا وروسيا والدول الألمانية. ونها التحول من الصناعة اليدوية الى الصناعة الآلية في أوربا. وقدمت

بريطانيا خبرات كثيرة في هذا المجال من حيث تصدير الآلة والخبرة. فكان أن نمت بلجيكا صناعيا بشكل واضح. بل كان نموها أكثر سرعة من نمو فرنسا الصناعى. فلم تتطور الصناعة الآلية في فرنسا الا بعد ثورة عام ١٨٣٠ تقريبا.

كذلك كان التطور الصناعى بطيئا في كل من ألمانيا وايطاليا والنمسا في حين ظلت روسيا بعيدة عن مفهوم التطور الصناعى لفترة أطول.

واذا كانت الملكيات العائدة، والتطورات الاقتصادية ستؤثر في توجيه سياسة أوربا خلال القرن التاسع عشر فلا شك أن القوى الناقمة على وصاية الدول الكبرى، والقوى التي أضيرت بهزيمة نابليون سيكون لها دورها في توجيه أمور البلاد. وعلى رأس هذه القوى:

١ ـ ضباط الجيش النابليوني الكبير والموظفون الذين عملوا في ادارة الامبراطورية الفرنسية.

٢ ـ المثقفون الذين كرهوا مساعى رجال الدين للعودة الى السلطة والنفوذ ومساعى الملوك للاحتفاظ بالسلطات المطلقة أو بالهيمنة على الدساتير. فقاومت الجامعات الاستبداد الملكي. وكان يساندها في ذلك البرجوازية التي كا نت تخشى ـ بعد سقوط نابليون ـ من عودة النبلاء والنظم الاقطاعية. كذلك طالب المثقفون باحترام الحرية الفردية وحرية الصحافة وحق الحصول على دستور للشعب. وأصبح المثقفون يعتبرون أنفسهم حماة الحرية الفردية، حتى أصبحت الحرية ـ لدى المثقفين ـ هي الشرط الأساسي لتقدم البشرية. وهؤلاء المثقفون كانوا أكثر القوى تعلقا بالمبادىء التي أطلقتها الثورة الفرنسية وهؤلاء المثقفون كانوا منتشرين في أوربا وخاصة في مدنها الكبيرة. حقيقة لم تكن هناك اتصالات توحد بين قوى المثقفين في المدن الأوربية المختلفة، ولكن أصبح انتصار حركة تحريرية في احدى الدول الأوربية يؤدى الى انتقال الحركة الى المراكز الأخرى، والى ظهور حركات متقاربة أو متعاقبة في مختلف أجزاء أوربا ولكن دون أن يكون هناك تنسيق بين هذه الثورات. ومن هؤلاء المثقفين ظهر فلاسفة كبار أرادوا أن يضعوا لأوربا قواعد تسير على أساسها العلاقات الأوربية الجديدة. من أمثال كارل كراوس K Krouse وهنري سان سيمون M. de Saint-Simon

وقد دعا الى تضامن أوربى أو ما يشبه الاتحاد الفيدرالي بين الدول الأوربية، وكان سان سيمون يدعو الى أن تعمل مثل هذه المنظمة الأوربية على ضمان السلام وحل المشكلات بين الدول وكذلك ستعمل على تنمية الاستعمار الأوربى. وساعدت المآسى التي صاحبت الحروب النابليونية وتلك الأفكار الفلسفية على ظهور عهد المؤتمرات الأوربية التي هدفت الى حل المشكلات الأوربية على مائدة ممثلى الدول الكبرى.

وكان أول هذه الاجتماعات الدورية بشأن فرنسا، وعقد المؤتمر في اكس لاشابيل في عام ١٨١٨. وكان قد مضى على تولية لويس الثامن عشر الحكم ثلاث سنوات استطاعت فرنسا أن تقف على قدمها خلالها. وأن تدفع الغرامة الحربية، وأن تطالب بسحب جيوش الحلفاء منها، وأصبحت فرنسا بذلك مرة أخرى دولة كبرى لها مقعدها في المؤتمرات. أما مؤتمر تروباو عام ١٨٢٠ فكان الاسكندر - قيصر روسيا - يؤكد فيه أن من حق الحلف المقدس(١) والحلف الرباعى، أن يقضيا على الثورات الشعبية الموجهة ضد الملوك والمطالبة بالدستور. وكان المؤتمر نفسه قد دعى للنظر في موقف هذه الدول الأوربية الكبرى من الثورات الشعبية التحريرية في، اسبانيا ثم في غيرها من البلاد الثائرة مثل نابلي والبرتغال وبيدمنت. وكان الاسكندر يصر على تدخل جماعى ضد الثورات الشعبية ومؤازرة الملكيات. ورأت انجلترا أن من مصلحتها أن تقف في صف الشعوب وباللسان والصحافة فقط، في حين تدخلت النمسا بجيوشها ضد الشعوب فكان أن قضت على التمرد في نابلى وبيدمنت. ويعتبر عهد المؤتمرات النتيجة الطبيعية لهزيمة نابليون. حيث لم تكن هناك دولة واحدة قوية قادرة على أن توجه أمور أوربا. فضلا عن أن أوربا كرهت فكرة تسلط دولة واحدة عليها، وخاصة اذا كانت هذه الدولة فرنسا، واذا كان الرجل نابليون نفسه أو من سلالته. ومن هنا خرج الحلف الرباعى الى الوجود (روسيا، النمسا، بروسيا، انجلترا) وخرجت فكرة عقد اجتماعات من وقت لآخر لمواجهة المشكلات الأوربية، وايجاد حل دولى لها. كذلك عقد (الحلف المقدس) الذي دعا اليه قيصر روسيا اسكندر وأخذ كل من القيصر الروسي، وكاسلريه وكاننج كل منهم

(١) دعا اليه اسكندر قيصر روسيا ووقعته النمسا وبروسيا وعارضته انجلترا بشدة.

يريد أن يوجه أوربا ـ على أساس من هذا الحلف المقدس (بالنسبة لروسيا) أو على أساس التحالف الرباعى (بالنسبة لانجلترا)، فاصطدم الطرفان ولكنه ليس صدام مبادىء كما يصوره المؤرخون الانجليز. وعندما تأزمت أوضاع الملوك بسبب ثورات نابلي، وبيدمنت واسبانيا عقدت الدول الكبرى الخمس مؤتمر تروباو عام ١٨٢٠ وفيه حاول اسكندر أن يفرض على الدول الكبرى أن تقوم بعمل عسكرى موحد ضد الشعوب الثائرة على ملوكها فاعترضت بريطانيا على ذلك أشد الاعتراض في مذكرة سياسية مطولة أيد فيها الثورات الداخلية على اساس أنها هي التي تؤدى الى تغيير نظام الدولة الاستبدادى الى نظام ديمقراطى يرى المؤرخون الانجليز أن بريطانيا كان لها الحق كل الحق في أن تسخر من ذلك «الحلف المقدس» المسيحى الذي وضع لخدمة الملكيات المستبدة وللقضاء على الحركات التحررية لدى شعوب أوربا. ويرون أن انجلترا أصرت على أن تحفظ السلام عن طريق (الحلف الرباعى). والواقع أن انجلترا كانت تقف الى جانب الفكر الصليبي اذا وجدت أنه يخدمها ومن ذلك أنها فرضت على النرويج بالقوة أن تضع نفسها تحت السويد، وبعد قليل أيدت الثورة اليونانية (١٨٢١) التي كانت قد أخذت شكلا دينيا في أوربا الى جانب الشكل القومى. كما أن بريطانيا أيدت حركات التحرر في أمريكا اللاتينية، لاحبا في حرية هذه المستعمرات وانما لأن تحريرها من السيطرة الأسبانية سيجعل لبريطانيا اليد العليا ـ ولو اقتصاديا على الأقل ـ في هذه المستعمرات بعد استقلالها. ولهذا أيدت ثورة اليونان واستقلال بيرو والبرازيل وكولومبيا، وأيدت كذلك استقلال البلجيك لأن كل هذه الحركات كانت تعطى لبريطانيا تفوقا على الدول الأخرى فيها. بينما ضربت بريطانيا في عام ١٨٤٠ بقوة الصين لمجرد أنها أرادت منع دخول الأفيون (البريطاني) اليها، كما قضت بقسوة بالغة على الثورة الهندية (١٨٥٧) المطالبة بخروج الاستعمار الانجليزي من البلاد.

وأدت الثورة القومية الدينية اليونانية ضد الدولة العثمانية الى دعوة الدول الكبرى لوضع سياسة موحدة ازاءها (١٨٢١) (مؤتمر فيرونا). والملاحظ ان الدول الأوربية اتخذت من هذه الثورة اليونانية ومن حركة التحرر في أمريكا اللاتينية مواقف مختلفة.

١ ـ فبريطانيا التي أسهمت في تحرير بيرو والبرازيل كانت تؤيد الثورة اليونانية لأن ذلك يوهن من قوة الدولة العثمانية وأسبانيا، ويجعل مكانة انجلترا في الحوض الشرقى للبحر المتوسط أكبر عن ذي قبل.

٢ ـ أما مترنيخ ـ الوزير النمساوى ـ فكان يرى أن ثورة اليونانيين ماهي الا تمرد شعب على مليكه الشرعى، ومن ثم يجب ألا تتدخل الدول الكبرى الى جانب هذه الثورة، ولهذا كرهت الدول الأوتوقراطيّة الثلاث (الحلف المقدس) تدخل انجلترا لمساندة الثورات التحررية في أمريكا اللاتينية.

ووقفت بريطانيا موقفا حازما شديدا ضد محاولات السلطان العثماني اعادة السيطرة على الثورة اليونانية وبعثت بأسطولها الى اليونان ودمرت الأسطول المصري والعثماني والجزائري في موقعه نوارين (نفارين) (١٨٢٧) ولكنها لم تتخذ الا موقف الحماس الخطابى بالنسبة لأحداث مشابهة، عندما قضت الجيوش النمساوية على ثورة بيدمنت ونابلي، وقضت جيوش فرنسا على ثورة شعب اسبانيا المطالب بالدستور. . وكانت هذه التطورات سببا في أن يجعل الانجليز بالقضاء على عهد المؤتمرات وسياسة عقد الاجتماعات الدولية عندما أعلن الوزير البريطاني جورج كانتج G. Canning انه على كل دولة أن تراعي مصلحتها. وأسباب هدم بريطانيا لسياسة المؤتمرات الدولية هي:

١ ـ أن الدول الكبرى الأربعة في القارة الأوربية كانت متعادلة، لاتستطيع واحدة أن تفرض رأيها أو يمكن أن يظهر تحالف قوى فيما بينها بدون بريطانيا، ولهذا كان من مصلحة بريطانيا أن يبقى الأمر على هذا الوضع حتى لا تتغير موازين القوى في أوربا، في الوقت الذي تظل بريطانيا متفوقة في المستعمرات.

٢ ـ ان لبريطانيا في أي اجتماع من تلك المؤتمرات مجرد صوت واحد في مواجهة أربعة أصوات. فهي لا تزيد عن كونها عضوا له صوت واحد عند اصدار قرار من القرارات، وبذلك تفقد انجلترا مكانتها كقوة قادرة على توجيه أمور أوربة.

٣ ـ ان الاجتماعات يمكن أن تتحول الى محاكمة لأعمال الدول. وبريطانيا كانت في غير حاجة لمثل هذه الأمور التي قد تتطور ضد مصالح بريطانيا

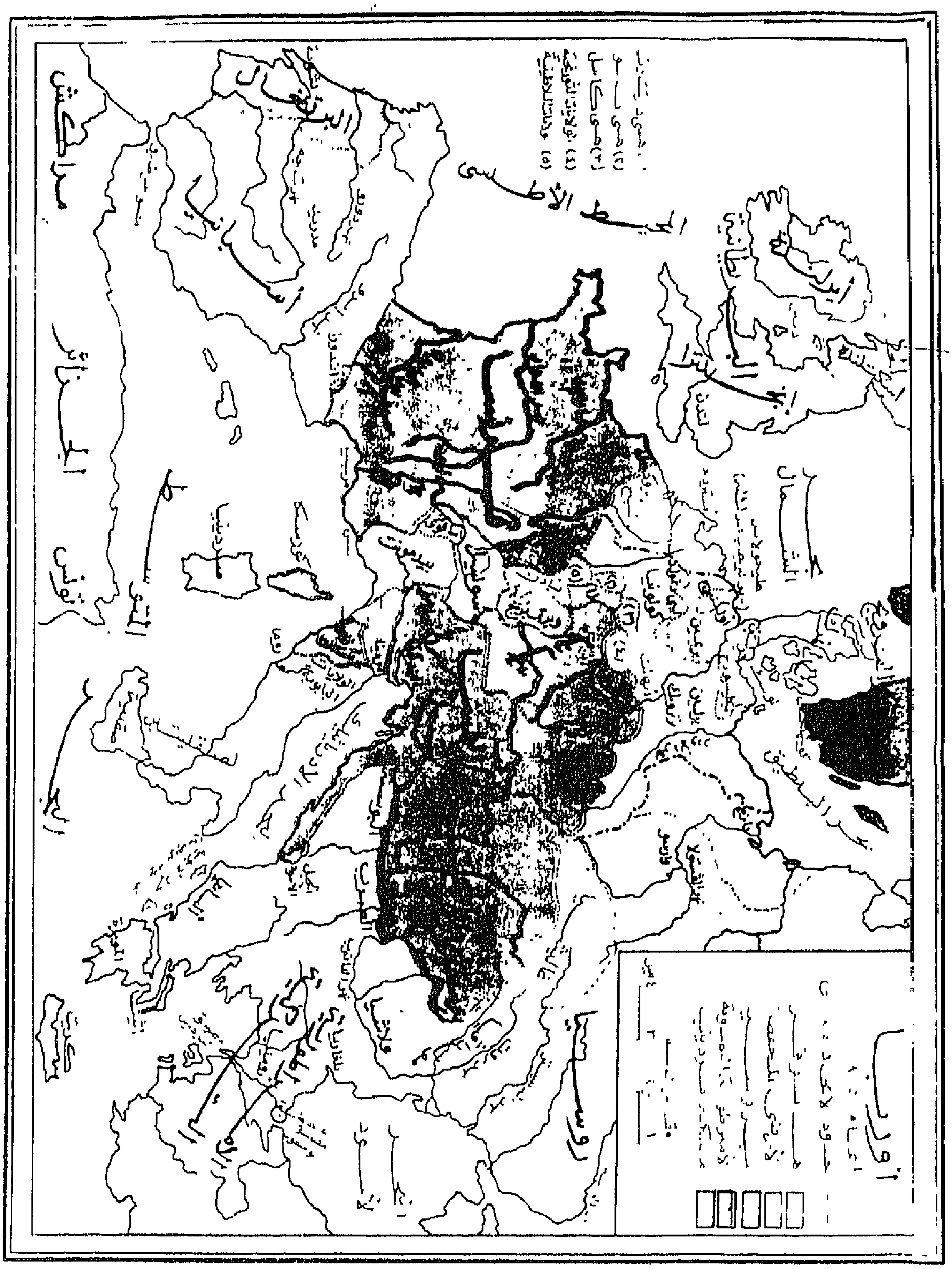

في القارة والمستعمرات.

وبانتهاء عهد المؤشرات عادت الدول الكبرى فعلا تدبر أمورها بطريقتها التقليدية التي كا نت تتبعها قبل عهد الثورة ونابليون. والشعوب نفسها أصرت على أن تعاود الكرة بالثورة والتنظيم من أجل الحصول على استقلالها القومى، أو على حكم دستورى شعبي. ومن ثم أصبح الحكم الفردى وجها لوجه أمام مطالب الشعب في الحكم الدستورى وستكون الفترة الواقعة بين عام ١٨١٥ حتى عام ١٨٤٨ فترة مليئة بالمحاولات الثورية الدموية من أجل القومية والحرية في مواجهة النمسا بالذات، وفي مواجهة البوربون في فرنسا فاذا كان لويس الثامن عشر قد استطاع أن يمسك العصا من الوسط فان شارل العاشر كان مستبداً في حقوق الملكية فكان أن وقعت ثورة عام ١٨٣٠ الكبيرة.

عودة الملكية إلى فرنسا :

كان لويس الثامن عشر قد عاد في ركاب الحلفاء ليحكم فرنسا بعد نكبتها وكان عليه أن يتحمل نظرة الاحتقار من شعب ثار على البوربون وطردهم، ليعود ملكهم الجديد في ركاب الغزاة. فلقد كانت عظمة نابليون المهزوم تتفوق على عظمة الملوك والقياصرة المنتصرين. لقد أصبحت فرنسا تعيش في دوامة مروعة. هي صاحبة المبادىء السامية، فأصبحت هي الواقعة تحت نير الاحتلال.

كانت هي المطالبة بالدستور، فاذا بها تحت ملكية بوربونية بغيضة ودستور على النظام الانجليزي وصحافة مكممة الأفواه وان كان ذلك بقدر محدود، وكنيسته تريد أن تستعيد سلطاتها وأملاكها في مواجهة اتجاهات علمانية قوية متفوقة. . ازاء هذه الأوضاع اتبع لويس الثامن عشر سياسة يمكن أن توصف بها «انه امسك العصا من الوسط» فلم يندفع في حقوق الملكية الالهية وانما أراد أن يحكم كملك دستورى. وأبقى على قوانين نابليون لأنها في الحقيقة كانت أحسن ما يمكن أن يدير أمور الدولة بطريقة منتظمة. وأرضى المهاجرين دون أن يسحب ما بيد الفلاحين من أرض أو حقوق اكتسبوها خلال عهد الثورة ونابليون، وعمل على تحرير البلاد من الاحتلال، ورفع الغرامة المفروضة على فرنسا ولقد ساعده في أن ينفذ هذه السياسة المعتدلة أنه اعتمد

على عدد من الوزراء المخلصين، وكان نجاحه في السياسة عاملا هاما في رفع فرنسا من مستوى الدولة المهزومة الى مستوى الدولة التي لها دور في توجيه السياسة الدولية. بل استخدمت جيشها في اسبانيا ضد الثورة الشعبية المطالبة بالدستور (١٨٢٣). ولاشك أنها منجزات كبيرة في وقت قصير فكيف استطاعت فرنسا المهزومة أن ترتفع بسرعة الى هذه المستويات.

لقد كان ذلك يرجع الى ان بريطانيا كانت في حاجة الى فرنسا كقوة مناهضة للتفوق النمساوى الروسى في أمور القارة وبالتالي كان من مصلحة انجلترا أن تتحلص فرنسا من أزمتها بسرعة لتلعب دورها في السياسة الدولية بما يتمشى مع الأهداف البريطانية العامة. كذلك كانت الاتجاهات في فرنسا تسير نحو سياسة الوفاق والتفاهم مع بريطانيا وبالتالي سيبدأ عهد جديد من العلاقات الفرنسية ـ الانجليزية المتعاونة في مجالات السياسة الدولية، على ألا يمنع من ذلك تنافسهما في كثير من النواحى الأخرى. مثل الاستعمار ولقد أدى هذا التعاون الفرنسي الانجليزي الى عدم نشـوب حرب بينهما منذ ١٨١٥ حتى الآن. وارتفع هذا التعاون في بعض الأحيان الى أعلى المستويات خلال حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) وقبيل وخلال الحرب العالمية الأولى. لقد كان التفاهم الانجليزي الفرنسي الذي بدأ منذ أيام لويس الثامن عشر بداية لهذه الفترة الطويلة من العلاقات السلمية بين فرنسا وانجلترا.

هذه السياسة المعتدلة التي سار عليها لويس الثامن عشر أعقبتها سياسة متطرفة على يد خليفته شارل العاشر الذي كان يعرف فيما سبق باسم كونت وارتوا أشد الملكيين ضد الثورة الفرنسية ونابليون وضد الحكم الدستورى.

وكان عليه ألا يظهر هذه الميول العدائية ضد الحكم الدستورى في أول الأمر حتى يستطيع أن يثبت نفسه في الحكم. ومن هنا أعطى الفرصة لكى يعمل على اعادة الملكية البوربونية المطلقة الى ماكانت عليه قبل ثورة عام ١٨٧٩. كان شارل العاشر شديد التأييد للكنيسة الكاثوليكية.. ويرى أنها القوة التي يجب أن تستند اليها الملكية البوربونية العائدة الى جانب قوة النبلاء اذا أرادت الملكية البوربونية أن تستعيد سابق سلطاتها في الحكم والادارة. وأقدم شارل العاشر على القيام بمجموعة من المظاهر تدل:

أولا: على شدة التعصب للأفكار والأوضاع التي كانت قبل الثورة الفرنسية. بل كان بعض تلك الأفكار يرجع الى العصور الوسطى.

ثانيا: على أنه كان يعتقد أن قدرات الشعب الفرنسي قد قضى عليها وأن تعاونه مع رجال الدين كفيل بأن يمكنه من فرض سلطاته، وأن وضع قيادات مخلصة له على رأس الجيش كفيل بأن يقهر أية ثورة ضده. ولكن شارل العاشر لم يفطن الى أن المجتمع في أيامه كان قد تغير تغيرا عن مجتمع ما قبل الثورة الفرنسية، وأن تلك الأساليب التي كان بواسطتها يمكن السيطرة على فرنسا قبل عام ١٧٨٩ أصبحت أعجز من أن تحمى نفسها.

فقد كان المجتمع في باريس علمانيا ينظر بعين الحذر الى استعادة الكنيسة لبعض نواحى النشاط القديم التي كانت تمارسها. وكان المجتمع الباريسى يرى أن هذا التحالف الجديد بين الملكية المستبدة ورجال الدين سيعيد فرنسا الى ماكانت عليه قبل عام ١٧٨٩. ومما زاد من بلبلة الأفكار أن شارل العاشر. بتوجيه من الكنيسة، وجه حملات قوية ضد ماكان يسميه الألحاد والملحدين. وكان المجتمع العلماني. في نظر شارل العاشر ورجال الكنيسة المتعاونين معه، على هذا الأساس، ملحدا. ومن هنا جاء الصدام بين الملكية البوربونية والكنيسة من جهة والمجتمع الباريسى والمثقفين من جهة أخرى، خاصة عندما أصبحت فكرة الالحاد تستخدم للنيل من دعاة الفكر الشعبى والحكم الشعبى الديمقراطى وعندما لقى شارل العاشر بعض النجاح في مسيرته نحو الحكم الملكى المستبد المعتمد على الكنيسة تابع خطواته. وكان لابد له ليحقق أهدافه أن يكمم الصحافة وأن يوقف البرلمان عن العمل. وكان يعتقد أن الظروف قد أصبحت مواتية عندما نشط شارل العاشر من سياسة فرنسا الخارجية. وجعل لها مكانة أقوى في نظر الدول، بأن نافس الانجليز في مشكلة استقلال بلجيكا[1]، وارساله الجيوش لغزو الجزائر. لقد كان شارل العاشر يعتقد أنه باتباعه سياسة خارجية نشطة، يستطيع أن يبعد أنظار سعبه عن حقوقه الدستورية، وعن حقوق الصحافة التي وضع عليها القيود

(١) حاول شارل العاشر أن يستخدم القوة بارسال جيوشه إلى بلجيكا ولكنه خشي من التدخل الانجليزي العنيف ضد هذا الاجراء، ونجح البلجيكيون في الحصول على استقلالهم في عام ١٨٣٠.

الصارمة. ولكن شارل العاشر باصدار مراسيم ضد الصحافة والبرلمان جعل الشعب الفرنسي مرة أخرى في مواجهة التاج البوربوني فكان أن وقعت ثورة عام ١٨٣٠.. لقد كانت القوى المعارضة لشارل العاشر قادرة على التحويل وقادرة على أن تحرز نصرا في معركة مكشوفة، ضد جيش منظم، ولكنها أصبحت تواجه قوة ثورية تحصنت وراء المتاريس. وأصبحت كل معركة صغيرة أو كبيرة تنتشر بين الناس وكأنها مثال رائع من البطولة وكان من المتعذر تماما على شارل العاشر وقواته أن يفرضوا الاستسلام على الثوار، وكانوا من المثقفين يسندهم شعب باريس. ولهذا لم يجد الملك بدا من أن يفر من باريس خاصة بعد أن تيقن أن القوة الشعبية قد اكتسبت ثقة بنفسها لايمكن أن يقضى عليها بالحديد والنار. ويرجع نمو الحماس الكبير الى أن زعماء الثورة كانوا يضمون عناصر جمهورية وكذلك عناصر بونابرتية. وكل من الفكرة الجمهورية، والمجد النابليوني كفيل بأن يلهب الحماس الفرنسي خاصة اذا كان الهدف الذي يسعون اليه مبدأ ساميا من مبادىء الثورة الفرنسية. ومما ساعد الثورة على النجاح أنها لقيت تشجيعا من كبار رجالات الدولة من أمثال تاليران ولاقاييت وكافينياك.

وفي اعتقادنا أن الفرنسين كانوا مستعدين للمشاورة في ثورة كبيرة ضد حكومة البوربون لأن هذه الحكومة لم تستطع أن تتجاوب مع النمو الفكري السريع في البلاد. وهو نمو كان يخل بالتوازن في داخل الأمة بين آملها وامكانياتها. كان المجتمع الفرنسي يريد تغييرا.

وكان ذلك الاختلال في التوازن بين التفوق الفكري والفلسفي والأدبي، وحقيقة تدنى نظم الحكم البوربونية في الداخل، وكون فرنسا مجرد دولة من أوربا في مستوى أقل من بريطانيا، كان كل هذا يجعل الفكر الفرنسي في دوامة داخلية تستهلك كثيرا من طاقات فرنسا دون أن تعطى فرنسا استقرارا دائما، كذلك الاستقرار الذي كانت تتمتع به بريطانيا. وأيا كان الأمر فقد تضافرت كل القوى على القضاء على ملكية شارل العاشر وتم للثوار ما أرادوا عندما فر الملك في يوليو عام ١٨٣٠.

ملكيــة لويس فيليب ١٨٣٠ - ١٨٤٨

كانت ثورة يوليو عام ١٨٣٠ ناجحة من حيث انها أدت الى فرار شارل العاشر

من فرنســا. ولكن هل كان من الممكن أن يحقق الجمهـوريون والنـابليونيون أهدافهم. وهل كان من الممكن تحقيق أهداف المثقفين بعد أن حققوا نصرهم الأول باسقاط ملكية شارل العاشر.

لقد كانت كل القوى فعلا ضد شارل العاشر. ولم تكن بعد هذه القوى متفقة على نوع الحكومة التي يجب أن تأتى بعده. ومن ناحية اخرى كان الموقف الدولى له أثره الكبير في تحديد نوع الحكومة التالية وكان لابد من الوصول الى حكومة يمكن أن ترضى آمال الثوار، ولا تثير غضب الدول الكبرى. فقد كانت الدول الأوتوقراطية الثلاث الكبرى تخشى أن تتكرر الثورة الفرنسية لسنة ١٧٨٩ وتتعرض أوربا لتطورات دموية على ذلك النحو الذي ترتب عن ثورة فرنسا الكبرى. ومن ناحية أخرى كانت أوضاع أوربا في عام ١٨٣٠ غير تلك في عام ١٧٨٩ فقد كانت قوى الثـورة بين شعـوب أوربـا تنتـظر عامـلا مشجعا لتهب ضد دول الحكومات المستبدة ومن أجل حياة قومية مستقلة.. ولقد كانت قوى الثورة في الداخل على جانب من الحكمة، كذلك كانت القوى الدولية الأوتوقراطية على جانب من الحكمة. فكان أن أعطيت الفرصة للوصول الى حكومة معتدلة ترضى مختلف الأطراف الى حد ما وان كان الى حين.

لقد كان **اعلان الجمهورية بمعنى عودة التحالف الأوربى الأوتوقراطى ضد فرنسا**. وكان عقلاء القوم يرون أن لا حاجة لفرنسا بتجربة أخرى قاسية كتلك التي أعقبت **اعلان الجمهورية الأولى. وكانت لذلك الملكية الدستورية هي هدف عقلاء القوم**. وفي نفس الوقت كانت ملكية بوربونية خاصة كفيلة بأن تثير أشد مشاعر العداء من جانب القوى الجمهورية والنابليونية، وخاصة وأن أنصار عودة بيت نابليون كانوا قد أصبحوا قوة لها وزنها. الا أن الموقف الدولى الذي كان يحول دون اعلان الجمهورية هو نفسه الذي كان يحول دون ارتقاء أحد أفراد أسرة نابليون العرش. وتوصل عقلاء القوم الى حل وسط:

١ ــ ملكية دستورية.

٢ ــ ملكها معادى للبوربونية المستبدة.

٣ ــ مؤيدا للثورة الفرنسية وله تاريخ ثورى.

٤ ــ محبـوب من جماهـير الشعب، وخاصة شعب باريس الذي تحمل عبء

الثورة الأخيرة.

٥ ـ ترضى عنه الدول الكبرى الأوربية ولا تناصبه العداء.

وكانت هذه الصفات تتوفر الى حد كبير في لويس فيليب. فأبوه كان نبيلا ومن سلالـة أورليان المنافسة لسلالة البوربون على عرش فرنسا. ووقف أبوه فيليب (مساواة) الى جانب الثورة الفرنسية، وكذلك ابنه لويس فيليب. وكان لويس فيليب ميالا الى العلمانية والتواضع عليه سيماء البرجوازية الديمقراطية. وله الكثير من الأنصار في صفوف الشعب. وأقدر على كسب الدول الكبرى من غيره.

ولقـد أهلته كل تلك الصفات لارتقاء عرش فرنسا في عام ١٨٣٠. وكان طبيعيا أن يسير في سياسته الداخلية والخارجية على تلك الأسس المعتدلة جدا. فبالنسبة للسياسة الخارجية كان موقفه هو عدم التورط في مشكلة خارجية قد تجر على فرنسا حربا جديدة، وكان يتجنب بصفة خاصة الصدام مع بريطانيا على اعتبار أن الصدام معها هو أكبر الأخطار التي تهدد سلامة فرنسا.

فـبالنسبـة **لشـورة بلجيكا**(١)، أمكن التوصل الى وضع حد لها بالمفاوضات والـدبلوماسية بين حكومتى فرنسا وبريطانيا على أساس **استقلال بلجيكا عن هولندة وحياد بلجيكا بضمان الدول الكبرى**. كذلك أبى لويس فيليب أن يورط نفسه في الثورات التي اندلعت في ايطاليا ضد الحكم الرجعى، كما نفض يده فجأة من تأييد محمد على ضد التدخل الأوربى وانضم الى بقية الدول الكبرى لفرض تسوية ١٨٤٠/١٨٤١ عليه.. بتلك السياسات الخارجية أرضى لويس فيليب الدول الكبرى، ولكنه بدا أمام الشعب الفرنسي كملك غير جدير بتوجيه

(١) لم يحتمل اهل بلجيكا استنكار الهولنديين المسيطرين عليهم بثرواتهم وبالوظائف. فضلا عن الخلافات الدينية المذهبية بين هولندة وبلجيكا. فلما وصلت انباء ثورة باريس عام ١٨٣٠ اندلعت ثورة البلجيك مطالبة بالانفصال عن هولندة ـ وخلال الثورة عرض الثوار على أحد أبناء لويس فيليب تاج بلجيكا ولكنه رفضه حيث أن ذلك يعنى حربا بين فرنسا وبريطانيا. وكان اسناد العرش الى ليوبولد الأول (أمير ساكس كوبرج = وخال الملكية فبكتوريا، يتمشى مع سياسة التفوق البريطاني في المنطقة حيث ان وجود هذا الملك على عرش بلجيكا، ضمان. حيث أن البلجيك كان يجعل من هذه الدولة الجديدة الناشئة قوة جديرة بأن تحد من نشاط فرنسا في اتجاه الشمال.

السياسة الأوربية بها يتلاءم ومكانة فرنسا المجيدة. فمع أنه أعطى فرنسا فترة طويلة من السلم (١٨٣٠ـ١٨٤٨) فان تقدير قيمة السلم في عصر يمجد البطولة لأمر متعذر خاصة اذا كانت بريطانيا تقوم بعمليات توسعية وحروب استعمارية ناجحة في آسيا من وقت لآخر. . حقيقة استمرت عمليات الجيش الفرنسي في الجزائر، واستطاع الجيش الفرنسي في عهد لويس فيليب أن يصفى الثورة البطولية بقيادة عبدالقادر الجزائرى (١٨٤٧) ولكن ذلك لم يحل دون اتهام ملكية لويس فيليب بأنها كانت محدودة في آفاقها الخارجية.

وفي المجالات الداخلية، عنيت ملكية لويس فيليب باشباع رغبات المثقفين في اطلاق حناجرهم بالخطب الرنانة في البرلمان دون أن تتحول هذه الخطب البرلمانية الى أحداث ثورية. أما في المجالات الاقتصادية فقد ساعد عهد لويس فيليب على تطوير أساليب الانتاج والنقل وعلى تنمية اقتصاديات البلاد الصناعية. . ومن أجل خدمات عهد ملكية لويس فيليب تنفيذه للتعليم العام في كل أنحاء فرنسا الأمر الذي يعتبر خطوة هامة تأخر تنفيذها بسبب الأزمات العديدة التي تعرضت لها فرنسا خلال عهد الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وفترة محاولات النهوض أيام لويس الثامن عشر وشارل العاشر. ومع ما قدمته ملكية يوليو من خدمات الا أنها لم تشكل صورة قوية لفرنسا في الداخل ولا في الخارج. فلقد وصفها أحد المؤرخين بقوله انها ملكية كاملة، ولا ديموقراطية كاملة، ولا امبراطورية. كانت مزيجا غير واضح يرهق الفرنسي في تحديد معالمه. وبالتالي كانت ردود فعل من الكراهية والاحتكار تتزايد بسرعة في أواخر أيامها حتى تبلورت عناصر النقمة في قوى واضحة في عام ١٨٤٨ قادرة على التحرك في ثورة كبيرة ضد لويس فيليب.

ماهي الظروف والأسباب التي أدت الى تجميع القوى المعارضة ضد لويس فيليب في عام ١٨٤٨م.

لقد سبقت الاشارة الى أن فترة السلام الطويلة (١٨٣٠ـ١٨٤٨) قد أصابت الشعب بنوع من الملل لا لأنه شعب يحب التهور في المغامرات الخارجية ـ كما يقول المؤرخون الانجليز ـ وانما لأن الفرنسيين كانوا يرون الشعب الانجليزي وهو يقوم بفتوحات كبيرة في آسيا بينما فرنسا محرومة من مثل هذا النشاط باستثناء

النشاط لفرنسى في الجزائر. . وبينما كان لويس فيليب يرى في السلم والهدوء ضمانا للاستقرار ولبقائه في الحكم كانت تطلعات الشعب وآفاقه واسعة للغاية وتجلى ذلك الاحتفالات الرائعة التي صحبت نقل جثمان نابليون الأول من سنت هيلانة الى مقره في الأنفاليد.

ففقد بدا واضحا كم كان الشعب يتطلع الى بطل كنابليون يعيد لفرنسا مكانتها. وضاعت قيمه السلم الطويل الذي حققه لويس فيليب أمام شخصية البطل القومى المسجى أمام الجماهير.

ولاشك أن الجيل الجديد في فرنسا، جيل لويس فيليب. كان عندما يقرأ تاريخ بلاده وعظمة نابليون، وقدراته الفذة في ميادين التشريع والتعليم والحرب، كان ينسى المآسى المروعة التي عانتها أوربا وفرنسا خلال سنوات الثورة ونابليون. فتطلع - ذلك الجيل - الى امبراطورية فرنسية جديد. وان قصيدة شعرية من نظام أعظم شعراء فرنسا (فيكتور هوجو V. Hogo) في مجد فرنسا على يد نابليون كفيلة بأن تطلق آمال الفرنسيين الى آفاق جد بعيدة، حتى اذا ما نظروا وجدوا ملكا هادئا مستكينا جعل مجرد المحافظة على عرشه أمله الأول.

وليس معنى أن الفرنسيين الذين تطلعوا بشوق الى عودة الامبراطورية كانوا دعاة حرب وغزوات ولكنهم كانوا يرون في الامبراطورية مظهرا من مظاهر عصر الديمقراطية والامبراطورية.

وترجع قوة المثقفين الى أن باريس أصبحت هي المركز الأقوى لتوجيه سياسة فرنسا. وفي باريس كان تتركز قوي المثقفين والصحافة. وهي قوى ناشئة شديدة الغيرة على ماتتمتع به من قدرات وما تحمله من آمال لفرنسا. وأصبحت كلها تتطلع الى باريس. ومن هنا كانت القوى التي تستطيع أن تثبت أقدامها فيها هي التي تستطيع أن تتحكم في فرنسا.

ولقد حدث هذا في عام ١٨٣٠ ومثله حدث كذلك في عام ١٨٤٨. وقوة الصحافة كانت هائلة فاقبال الناس عليها كان عظيما. . وقدرتها في الاثارة كانت أعظم، ومتاعب ملكية لويس فيليب كانت متعددة، وأقلام الصحفيين متوثبة للنيل منها، خاصة في قضية عادلة هي قضية توسيع نطاق حق الانتخاب. وجاء

هذا في وقت كانت فيه الاتجاهات الاشتراكية قوية ومتصاعدة. وكانت جماهير الشعب العازفة عن لويس فيليب والباحثة عن زعامة تحقق الشخصية الفرنسية تتنازعها عدة قوى يمكن أن نسميها قوى اليمين وقوى اليسار الى حدما. ولكن برغم هذا التنازع بين اليمين واليسار فقد كان لويس فيليب أعجز من أن يكسب جانبا من هذه الجوانب. لقد كانت الكنيسة، من أقوى العناصر المؤيدة للملكية ولكنها كرهت في لويس فيليب ميله لليسار، وللعلمانية، خاصة عندما جعل التعليم عاما ورفع يد الكنيسة عنه. كما كرهته الكنيسة، لأنه كان يتقرب من المثقفين بدرجة كبيرة بدت في نظر رجال الكنيسة وكأنها على حسابهم. ولم يستطع لويس فيليب أن يكسب الى جانبه هؤلاء المثقفين الذين كانوا أبعد منالا من يده، وكانوا أكثر قوة ملكية حتى لقد أصبح الشاعر والأديب الفرنسي لامارتين نبيا للجمهورية وداعيا مفوها لها يستطيع أن يكسب الى جانب الثورة ضد لويس فيليب هؤلاء المثقفين بسهولة في الوقت الذي كان فيه لويس فيليب لايستطيع أن يفعل شيئا.

لقد كان دعاة الجمهورية من القوة والكثرة لدرجة أنهم أصبحوا قادرين وحدهم على التحرك ضد لويس فيليب. وكان في استطاعتهم أن يجدوا قوة كبيرة من جماهير الشعب تشد أزرهم ضد الملك حيث اتهم الملك بأنه وضع مقدرات البلاد في يد البرجوازية دون أن يلقى بالا بحالة الفقر الشديدة التي يعاني منها الشعب في بعض بقاع فرنسا. . ومع أن الفقر هنا نسبى فان الشعور بالفقر كان قويا بسبب تيار الأفكار الاشتراكية الذي كان منتشرا في فرنسا حينذاك. **كان السان سيمونيون يدعون الى اعادة توزيع الثروات بالتساوى.** وكان لويس بلان «يدعو الى انشاء المصانع القومية». وفي نفس الوقت ردد برودون Provdhon ان الثورة تعنى السرقة - كما **دعا كارل ماركس بصراع الطبقات كحل ضروري لانقاذ البروليتاريا التي استبدت بها البرجوازية.**

أما **الفكر الاشتراكى فقد ذاع على يد عدد من الفلاسفة نتيجة لما ترتب** عن الانقلاب والنمو الصناعى من تدهور في أحوال العمال وفي أحوال الشعوب الكادحة بالتأخر وبظهور طبقات في المجتمع مميزة تعيش على حساب الطبقات الفقيرة.

ولا شك أن التطور الصناعى خلال السنوات التي حكمها لويس فيليب كانت كفيلة بأن تبرز بعضا من المشاكل الاجتماعية الناتجة عن التصنيع. فقد أصبح الحرفيون يعانون من أزمة بطالة وتدهور في الدخل بسبب استخدام الآلات. كما أن تزايد أعداد العمال والهجرة للعمل في المدن وازدحام بعض أجزاء المدن بالسكان بشكل يقضى على القيم الانسانية للفرد، وانحطاط الأجور الأمر الذي أدى الى تفاوت كبير بين طبقات ثرية وأخرى فقيرة.. كل هذا أدى الى شحذ أذهان الفلاسفة لايجاد حل لهذه المشكلات الاجتماعية. من الذي ينقذ العمال من هذا التدهور. لقد كان أصحاب الأعمال متمسكين بأنهم يبذلون من قدراتهم الفكرية ورءوس اموالهم ما يجعلهم أحق بكل قرش يمكن أن يحصلوا عليه سواء من طريق التجارة أو بتخفيض أجر العامل نفسه. وعلى العامل أن يجد بنفسه أعمالا ترفع من مستواه. وكانت الأسئلة على بساطتها خطيرة عند البحث عن الحل:

١ ــ هل نصلح المجتمع اصلاحا تدريجيا.
٢ ــ هل يعاد بناء المجتمع كله من جديد.
٣ ــ هل يفرض التغيير نفسه بالثورة.
٤ ــ هل يجب أن تقوم الحكومة بالتغيير والاصلاح.
٥ ــ وماهو شكل هذه الحكومة التي ستقوم بالتغيير والاصلاح أو أعادة البناء.

ويجب أن نضع في الاعتبار أن كل هذا يدور في وقت كانت فيه كل العوامل الموجهة للبلاد على شيء من التوازن وليس لواحد منها القدرة على السيطرة والتفوق.

ولقد لعبت الاتجاهات الاشتراكية دورا في تطور فرنسا والعالم، ان كان هذا في بداية فلابد من أن نلقى عليه بعض الضوء لأنه سيضع أمامنا الكثير من النظريات الاشتراكية المتعددة في خضم ثورة كبيرة آمالها أوسع من امكانياتها.

فالسان سيمونيون يعتقدون ـ تبعا لنظرية سان سيمون (١٨٢٥) أن

الحياة ليست سوى فترات متعاقبة من البناء والهدم. وكانت الثورة الفرنسية فترة هدم للنظام القديم. وانه قد آن الأوان لفرنسا أن تبدأ عهد البناء. وأن على فرنسا اذا أردت تحقيق هذا الهدف هو بناء اقتصاد صناعى متقدم تهيىء لفرنسا نشر رسالتها فيما وراء البحار عن طريق مد خطوط المواصلات بين أوربا (فرنسا) والشرق الأقصى عبر الشرق الأدنى. . وكان اتباع سان سيمون يؤكدون في نفس الوقت على ضرورة التأكيد على الايمان بالله يجعل حياة الفرد مستقرة وهادفة، فالايمان بالله ورفع مستوى العامل هما صلب التطور التقدمى الأوربى. فلقد كان هدف سان سيمون الأسمى هو تنظيم المجتمع الأوربى على أساس من المبادىء المسيحية والقواعد الأخلاقية.

وكان من رأيه أن الارتفاع بالانتاج وبمستوى العمال يعتمد أيضا على تركيز رءوس الأموال والسلطة الادارية في أيدى الفئة القادرة على الاستغلال أي رجال الأعمال وحتى لا يسىء هؤلاء استخدام رءوس الأموال هذه فلابد من وضعهم تحت رقابة دقيقة من جانب البرلمان. وأما المكسب فيجب أن يوزع - في رأى سان سيمون - على الجميع كل حسب مايستحقه - وأن تكون وسائل الانتاج ليست لشركة وانما للدولة حتى لاتستأثر طائفة معينة بملكية وسائل الانتاج أو المكاسب المادية.

وهناك من ينتقد سان سيمون بشدة من حيث ان آراءه لم توضع لها الخطوات اللازمة لتنفيذها. وان مبادئة السامية كانت تفهم وتدرك دون أن يتمكن المفكرون من ايجاد الوسيلة العملية لتطبيقها. وقد نشر سان سيمون (١٧٦٠-١٨٣٥) آراءه في مجموعة من المؤلفات أهمها:

١ ــ اعادة تنظيم المجتمع الأوربى في عام ١٨١٤.
Reorganisation de la Societe Europeenne

٢ ــ الصناعة L'industrie

٣ ــ النظم L'organisateur

٤ ــ النظام الصناعى Du Systeme industriel

٥ ــ المسيحية الجديدة Nouveau christianisme

أما شارل فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧) فكان مؤمنا بالانسان الذي يتعاون مع

أخيه في العمل والانتاج في جماعة محددة (Phalanges) المعالم يختار كل فرد فيها عمله ودوره الانتـاجى في عملية انتـاجية صناعية (Phalanstere) ليوزع عليهم فائض الارباح بنسب حددها هو للعمال ولأصحاب رءوس الأموال والمنظمين. ولقد كانت آراء فوربيه Fourier أكثر واقعية من آراء سان سيمون ولكنها لاترتفع الى المستوى الذي تصبح فلسفة عامة انتاجية اصلاحية يمكن أن تشمل كل أجزاء الدولة ونشر فوربية Fourier آراءه في مؤلفات عدة ولكن يعتبر مؤلفة الموسوم باسم (عالم صناعى جديد Nouveau monde industriel من أهم مؤلفاته قاطبة (١٨٢٩).

وأمـا لويس بلان (١٨١١-١٨٨٦)، فقـد كان أشهر من شارك في ثورة ١٨٤٨ وكانت دعوته أن تقوم الحكومة الفرنسية بانشاء مصانع تعاونية Ateliers Sociaux عاملا من عوامل شهرته، وعلما بارزا من أعلام ثورة عام ١٨٤٨.

من أهم المبادىء التي نادى بها لويس بلان Louis Plane «حق العمل (Le droit au travail) فحق العمل عنده حق من حقوق الانسان بل هو أقوى الحقوق. وكان يهدف الى تغيير نظم المجتمع الفرنسي بالتدريج بطريقة تؤدى الى الغاء المنافسة على اعتبار أن المنافسة هي أحد الأسباب الرئيسية فيما أصاب العمال من بؤس وفقر. والحال الذي وضعه هو (المصانع التعاونية) تتساوى فيها أجور العـمال. وتـوزع الأربـاح على العـمال، وعلى الخدمات الاجتماعية والتوسع في مشروعـات المصانع التعاونية.. ويرجع السبب لانتشار أفكار لويس بلان أنها وضعت برنامجا واضحا لعلاج مشكلة البطالة والقفر. وتطلع اليها آلاف العمال والفقراء على اعتبار أنها هي المنقذ لهم من التدهور الاجتماعي.

وقد بدأ لويس بلان في نشر أفكاره هذه في مجموعة من المحلات العملية منها:

1 – La Revue dennocratique

2 – La ravue du progres cosial.

3 – La nouvelle Minerue.

4 – Les bon sens

ونشر كتابه (تنظيم العمل - في عام ١٨٤١ - L'organisation du Travail حقيقة

كانت تلك الاتجاهات تهدف الى رفع مستوى العامل والدولة. ولكنها كانت في نفس الوقت تثير في العامل والمثقف روحا ثورية شديدة لحكومة لويس فيليب التي وقفت حاجزة ببرجوازيتها ازاء هذه التطورات الكبيرة.

ولكن كانت كل القوى الثائرة بصفة لا تستطيع أن ترتقى الى مستوى القوة القادرة على استقطاب كل الطوائف والفئات والاتجاهات تحت لواء واحد.

فالملكيون لهم أنصارهم، وقادرون على وضع العقبات في وجه الجمهوريين واذا كان صوتهم غير واضح فانهم كانوا موجودين ويمثلون قوة ضعيفة ولكن قادرة على اثبات المتاعب للغير.

والجمهوريون قوة واضحة ولكن لم يكن من المستطاع تحديد حقيقة القوى الجذرية التي يعتمدون عليها. وهم برجوازية في غالبهم تخشى هدم البناء وتدعو الى الاصلاح التدريجي. وكانت برامجها الاصلاحية جذابة ولكن ماهو الذي يمكن أن يذهبوا اليه في عملية الاصلاح. والاشتراكيون مزهوون بأنه مارتفعوا فوق المصلحة الشخصية، وأن كل ما عداهم لايضع نفسه في خدمة الانسانية المعذبة وعودتهم أخاذة ولكن ما هو نصيب هذه الدعاوى عند التنفيذ من العمق والأصالة، والى أي مدى تتطابق الفكرة الفلسفية مع واقع المجتمع وامكانيات البلاد الاقتصادية وطبيعة العصر الامبريالي.

ومع هذه التضاربات العديدة، كان هناك هدف واحد واضح لاخلاف عليه بين فئة وأخرى. وهو مبدأ الانتخاب العام. وهو مطلب وهدف للجميع. وكان من أشد أخطاء ملكية لويس فيليب أنها وقفت ضد هذا المبدأ. فتضافرت قوى متناقضة مع بعضها ضد لويس فيليب الجمهوريون، رجال الكنيسة، النابليونيون، الاشتراكيون، المثقفون حتى اضطر الملك الى مغادرة فرنسا (١٨٤٨).

كان نجاح الثورة الفرنسية في عام ١٨٤٨ سببا في اندلاع ثورات عديدة في مختلف أرجاء أوربا أدت الى تغيير وجه أوربا قليلا ولكنه تغيير سيكون له آثاره القوية فيما بعد: في ايطاليا وفي ألمانيا وفي النمسا. ولمترنخ ـ السياسي النمساوي الكبير الرجعى كلمات خالدة في هذا الصدد.

«انتهى كل شيء.. لقد عادت أوربا الى ١٧٩١ - ١٧٩٢ فهل سنفلت من سنة ١٧٨٣... ان الدار قديمة، وليست من القوة بدرجة تسمح بفتح أبواب ونوافذ في الحوائط. ومن اللازم ان تبنى دار أخرى ولهذا، فليست الأفكار هي التي تعوزنى ولكنها الوقة والوقت هي التي تعوزنى».

لقد كان انهيار نظام لويس فيليب في فرنسا، ومترنخ في فينيا فاتحة عهد جديد ولكنه ليس هدما للقديم كلية واقامة بناء جديد للمجتمع.. وانما محاولة اعادة النظر فيها يجب أن يكون عليه المجتمع.

الفصل الثالث
الوحـــدة الايطاليـــة

مقدمات الوحدة الايطاليـة :

نشوء حركة البعـــث :

ان ايطاليا المفككـة منذ العصور الوسطى، ظلت كذلك حتى ظهرت فيها **حركـة البعث** وتمت وحدتها في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت ايطاليا في أواخـر القرن الثامن عشر موزعة الى أراض **واقعة تحت السيطرة المباشرة للامبراطورية الرومانية المقدسة** (مثل دوقية ميلان الغنية)، **والى دويلات صغيرة عديدة** كان لها مجد كبير ثم فقدته مثل **جمهورية البندقية**، **وجمهورية جنوة**، **ودوقيات بارما ومودينا وتسكانا المرتبطة بالنمسا سياسيا أو أسريا**، **وفي الجنوب مملكة نابلي** التي كان يحكمها فرع من فروع البوربون. **ومملكـة اخـرى صغيرة في الشمال هي مملكة سردينيا**. وعندما غزا نابليون بونابرت ايطاليا في عام ١٧٩٦ استطاع أن يسيطر عليا بعد أن ضرب أكبر قوة عسكرية فيها، النمساويون. فأنشأ جمهوريات تدور في فلك فرنسا وسلم البندقية للامـبراطـورية الرومانية المقدسة (النمسا)، وترك الولايات البابوية تحت حكم البابا. وكانت النتيجة الواضحة التي تمخضت عنها **حملة بونابرت على ايطاليا هي تقليل الوحدات السياسية الايطالية** وان ظلت النمسا مسيطرة على أجزاء هامة منها. . وخلال وجود نابليون بونابرت في ايطاليا، كان يحيى ا لتراث الضخم لايطاليا في نفس الوقت الذي كانت فيه مبادىء الحرية والمساواة والاخاء التي نشر بها الفرنسيون تحث مفكرى الدويلات الايطالية على اعادة النظر في مجتمعهم.

ولم يكن هؤلاء يشعرون بالفكرة الايطالية وانما كان كل همهم يشعر بالولاء الشديد للدويلة التي ينتمى اليها. وبالتالي اهتزت القيم لديهم وبدأت لديهم تطلعات جديدة. . ولكن عودة الامبراطورية الرومانية المقدسة الى امتشاق الحسام (بعد موقعة أبى قير البحرية) واستعادتها الكثير من مكانتها في ايطاليا، أدى الى ان **يشن القنصل نابليون بونابرت حملة جديدة عليها وأرغمها على عقد صلح لونيفيل عام ١٨٠٢** الذي أعاد تقريبا الأمور الى ماكانت عليه نحو صلح كمبوفورميو، وأصبحت ايطاليا تحت رحمة فرنسا، **ووطد نابليون مكانته في ايطاليا عندما عقد الاتفاقيات مع البابوية عام ١٨٠٢، واستولى على نابلى عام ١٨٠٣ وأعلنت ايطاليا ملكية. فكان هذا العمل عاملا هاما من عوامل تحريك فكرة الوحدة الايطالية**. فلأول مرة أصبحت ايطاليا كلها تحت حكم واحد. وما كان أمرا غير مفهوم لدى الدويلات الايطالية، أصبح أمرا واقعا أمام أعين الايطالين. ولكنه كان أمرا واقعا بفعل السيطرة الخارجية وليس ناتجا عن حركة نابعة من داخل البلاد. ولهذا لم يكن من المستطاع أن تبقى ايطاليا موحدة بعد هزيمة نابليون ١٨١٤/١٨١٥. فعادت **النمسا** اليها وعادت مملكة نابلى **البوربونية** المستبدة الى الظهور وعادت الدويلات الاخرى، وكذلك ملكية بيدمنت التي ضمت اليها جنوة. وكلها أضعف من أن تقف أمام الامبراطورية النمساوية التي هزمت نابليون. واستعاد البابا حكم ولاياته ولكن كذلك تحت سيطرة النمسا. . ولكن هل كان الايطاليون يرضون عن **عودة ايطاليا الى ما كانت عليه من انقسام إلى ولايات وممالك متعددة**، وسيطرة نمساوية مباشرة على لمبارديا.

لقد كانت هناك عدة عوامل جعلت من المستحيل الابقاء على النظم القديمة ولا بد من أن يبحث سكان ايطاليا عن مثل جديدة. وكانت تجارب الماضى تعطى الايطاليين الكثير من المثل:

١ ــ فعندما هاجم بونابرت نابلي لأول مرة قاومه أهل نابلي مقاومة شديدة الأمر الذي أثار فيهم روحا وطنية جديدة.

٢ ــ عندما حكم مورا نابلي وحاول في فترة احتضار امبراطورية نابليون الأول (١٨١٤/١٨١٥) أن يقيم ايطاليا الموحدة أثار المشاعر الايطالية نحو هذا

الهدف برغم أنه اعدم.

٣ ـ عندما انسحب الفرنسيون من ايطاليا بعد هزيمة نابليون شعروا بقيمة مبادىء الثورة الفرنسية من حرية ومساواة واخاء خاصة بعد أن عادت الحكومة البابوية الى ولايتها بنفس الأساليب العنيفة التي أصبحت لاتتلاءم مع الفكر التقدمى حينذاك.. لقد زادت الاتجاهات نحو الوحدة عندما انقضت النمسا على بيدمنت وعلى نابلي لتقضى على ثورتين فيها كانتا تهدفان الى تطوير نظم الحكم فيهما نحو الحياة الدستورية. وحيث ان الأفكار العليا السياسية لاتتحول الى أهداف جماهيرية الا اذا وضعت موضع التجربة على يد فئة مومنة مستعدة للموت من أجلها، فقد كان اضطهاد النمساويين وفرديناند الثاني ملك نابلى للثوار لدعاة الوحدة الايطالية عاملا جوهريا لأن تصبح الدعوة للوحدة الايطالية قادرة على أن تصبح هدفا ساميا قادرا على جذب أنصار من مختلف الطبقات والهيئات. فلا غرو أن ظهرت جميعات سرية عديدة تدعو الشعب الى العمل من أجل وحدة بلادهم. وفي داخل هذه الجميعات السرية كانت تذوب الفوارق بين السكان، والميلانى، والبندقى، ويشعر كل واحد بايطاليته ويموت من أجلها. وبنمو هذا العمل السرى، وبتعدد مصارع الأبطال من دعاة الوحدة اهتزت الأرض التي كان يقف عليها الاستبداد والاحتلال الأجنبي النمساوى.. لقد أصبح الزعيم الذي ينبذ تقاليد الماضي الرجعية واقليميته، ويعلن احترامه للحكم الدستوري وفكرة الوحدة الايطالية هو الذي يكسب قلوب الجماهير وبدأت الحركة التي وصفت بها «حركة البعث» التي لعبت فيها «الحركة الثقافية» دورا يوازى ان لم يزد على قيمة الدور الاقتصادى والعسكري في التمهيد للوحدة الايطالية. كانت الحركة الثقافية على يد مجموعة من رجالات الفكر في مختلف الفنون تعيد الأذهان الى ماضى ايطاليا المتحد. فقصائد نوسكان جوزيف جوستى النقدية التهكمية، ومسرحيات نيكولى الغنائية لآمال الاستقلال والوحدة، وبذل المؤرخون الايطاليون جهودا كبيرة لتفسير أسباب تفكك ايطاليا الى وحدات سياسية متنافرة، مؤكدين على قيمة ايطاليا المتحدة في الدور الحضارى الكبير في التاريخ الحديث. ومن هؤلاء سيزار كانتو ولويجي فاريني

وكارلوتروجا، واذا كان أولئك المثقفون الايطاليون يبحثون في أسباب التفكك ووسائل التحول الى الوحدة كان هناك مهاجرون ايطاليون في فرنسا على اتصال مباشر بالحركة الفرنسية الثقافية المتحررة المؤمنة بالانسان المواطن والقومية، وبغيرها من الحركات التحررية الأوربية.

فلاسفة ومفكرو الوحدة الايطالية:

كان **ماتزينى** من أولئك الوطنيين المنفيين في مرسيليا من عام ١٨٣١. كان وطنيا ايطاليا، وفيلسوفا انسانيا مؤمنا. (بوحدة الجنس البشرى) وقيمة **التعاون بين الأفراد، وبين الشعوب. وعلى كل شعب أن يحصل على حريته وسيادته في اطار ديموقراطى قومي.**

ودور الايطالي في هذا هو توجيه ضربة قاضية الى عنصرى الرجعية حينذاك - من وجهة نظر ماتزينى - وهما:

١ ـ الحكم البابوى الذي كان سيئا في ولاياته. وكان نموذجا للعصور الوسطى.

٢ ـ الامبراطورية النمساوية القوة العنيفة أمام تحقيق مبدأ القوميات.

وكانت زعامة ماتزينى لمنظمته الشهيرة «ايطاليا الفتاة»، إذ كان في استطاعته أن يستقطب المثقفين في المدن، وأن يكسب عاطفة المواطن العادى.

وأثمرت هذه الحركة الوطنية، وجذبت اليها عددا من المفكرين، وبدأ بعض المفكرين - ممن تربوا في أحضان حركة ماتزينى - يدعون اليها أو يعدلون عنها.. فهناك من سعى الى التوفيق بين البابوية والقومية، مثل نيقولوتوماسيو Nicolo Tom-masco في مؤلفه بعنوان «أمل ايطاليا الجديد» ومثل جيوبوتى.. فقد دعا رجل الدين، وأحد الوطنيين الذين عملوا مع ماتزينى، جيوبرتى Geoberti البيدمنتى، الى القومية الايطالية ليس عن طريق الثورة التي قد تشعل الثورات وتعلن الجمهورية بة دون الوصول الى النتائج، وانما عن طريق رفع مستوى الشعب الى أخلاقيات قومية مسيحية، وعن طريق منح الفرصة لبيدمنت. فجيش بيدمنت هو القادر على حماية الاتحاد (المقبل)، والبابوية هي حامية الأخلاقيات لايطاليا الموحدة. وكان جيوبرتى لايدعو الى توحيد كامل شامل لايطاليا، وانما يدعو الى

أن يكون الايطاليون تحت سلطة واحدة، وتبقى الدويلات الايطالية على ماهي عليه وانها سترتبط باتحاد على رأسه البابا يعاونه (مجلس دولة).

وقد أبرز جيوبرتي فلسفته هذه في صحيفة أصدرها في بروكسل بعنوان «مرشد ايطاليا. . Prinato d'Italia.. أما دعاة وضع ملك بيدمنت على رأس الحركة القومية، فكانوا كذلك نشطون وعلى مقدرة عالية في شرح وجهات نظرهم ومنهم: ماميانى Mamiani وكذلك سيزاربالبو C Balbo وماسيميودا زيجيلو Massimo d'Azeglio البيدمنتيان وركز «بالبو» على ضرورة تحرير ميلانو والبندقية من السيطرة النمساوية اذا أريد تحقيق الوحدة القومية لايطاليا، وذلك في كتابه الذي شرح فيه نظريته في مستقبل الوحدة الايطالية بعنوان «أمل ايطاليا Speranze d'Italia» . أما دازيجيلو منذ شن حملة شعواء على البابوية، متهما اياها بأنها عقبة شديدة أمام الوحدة لأنها لا تستند الا الى جيش نمساوى في فرارا وحرس سويسري في روما ونظامها في الحكم أبعد مايكون عن تعاليم المسيحية. وطالب دازيجيلو بأن تعمل الدويلات الايطالية على توحيد نظم العمل في جيوشها واداراتها وجماركها حتى تفرض هذه الوحدة نفسها بقوة وبدون هزات عنيفة. . . ان هذه النظريات والفلسفات الوحيدة كانت تسرى بين مختلف الطبقات المثقفة في ايطاليا، **وكانت المنشورات والكتيبات تنتقل من مدينة لأخرى برغم المقاومة البوليسية القاسية** التي تبديها حكومات الدويلات الايطالية مثل توسكانا التي حرمت نشر آراء ماتزينى، ناهيك عن القسوة العنيفة من جانب الادارة النمساوية في لمبارديا والبندقية في منع انتشار تلك المبادىء الوحيدة. لقد أوجدت تلك الدعوات والفلسفات اتجاهات قوية لدى الشعب الى الوحدة. ولكن الوحدة لايمكن أن تتم استنادا الى الفكر فقط وانما استنادا الى الواقع الاقتصادي أيضا الذي أعان على انتشار الفكر الوحدوى. لقد كانت الفترة التي أعقبت الحروب النابليونية فترة تحول نحو الصناعة ونحو طبقة العمال وأصحاب الأعمال الصناعية والتجارية. أو بمعنى آخر بدأ البنيان الاجتماعى يتحول أو يتعدل، وتظهر فيه قوة عملية ذات تطلعات في حياة أفضل وأصحاب أعمال يتطلعون الى توسيع نطاق أعمالهم دون مزاحمة خارجية أو أمريكية.

حقيقة كانت نسبة عدد العمال الى عدد الفلاحين أو الشعب كله قليلة ولكن

الفارق هو أن العمال هم القوة القادرة على التحرك في عمل عام واحد مؤثر، وهم القادرون على تزويد الحركات الوطنية. خاصة في المدن ـ بقوة مقاتلة شديدة البأس. ومن هنا كانت أهمية هذه الطبقة العمالية الناشئة وتزداد قدرتها على التحول والعمل عندما تكون أهداف البرجوازية وأصحاب الأعمال متمشية مع أهداف العمال.. لقد كان أصحاب البرجوازية كذلك يقدرون قيمة ايطاليا المتحدة فأعمالهم في ظل الدويلات العديدة محدودة، والقوانين المطبقة في احدى هذه الولايات غير تلك المطبقة في الأخرى، فمن هنا خرجت الدعوة القومية نحو «الحرية الاقتصادية». والى توحيد العملة والموازين والمقاييس في مختلف ولايات ودول ايطاليا. لم يكن أصحاب الأعمال راضين اذن عن أوضاع هذه الولايات والدويلات الايطالية، التي تحافظ كل واحدة منها على جماركها من أن الانتاج الصناعى كان ينمو ويتكاثر ويحتاج الى استخدام الأساليب الحديثة الاقتصادية، سواء في مجالات النقل أو المعاملات التجارية والمصرفية. فكانت الدعوة الى انشاء خطوط للسكك الحديدية تمتد من شمال ايطالية الى جنوبها. فليس في وسع أية دويلة من الدويلات الايطالية أن تتولى أمر مثل هذا المشروع، كما أنه لن تستطيع الحكومات العديدة أن تتفق بسهولة حول مشروع ضخم كهذا... ومثل هذا المشروع الكبير هو في الحقيقة نتيجة لضغط اقتصادى كان يدفع رجال الأعمال الى أن تكون أسواق ايطاليا كلها مفتوحة دون أية عقبة أو عرقلة ادارية أو جمركية تحول دون تحقيق الوحدة التجارية.

هذا الضغط الاقتصادى الجديد هو الذي أدى الى ظهور سلسلة من المؤتمرات ذات الصبغة الايطالية فكان أهمها:

مؤتمر العلوم التطبيقية: كان يجتمع سنويا منذ أواخر الثلاثين من القرن التاسع عشر، وكان يضم عددا من رجالات الاقتصاد والصناعة والتجارة من مختلف الدويلات الايطالية. وفي أحد اجتماعات هذ المؤتمر طالب المجتمعون بأن توحد العملة والمقاييس والموازين، وتكوين رابطة ايطالية للمزارعين وتنظيم معرض ايطالي للمنتجات الصناعية والغاء الحواجز الجمركية بين مختلف الولايات والامارات الايطالية.

وكان النمو الاقتصادي في مملكة سردينيا (بيدمنت) أسرع منه في أية بقعة في

ايطاليا، باستثناء ميلانو. وكانت بيدمنت تختلف من ميلانو من حيث انها (أي بيدمنت) كانت ملكية بعيدة عن متناول التدخل النمساوى المباشر بعكس ميلانو الواقعة تحت السيطرة المباشرة النمساوية.

ولهذا أصبحت بيدمنت متحمسة تماما لفكرة الوحدة الاقتصادية.

أما الأجزاء الجنوبية من ايطاليا، فكانت متأخرة لا في مجال التطور الصناعى فقط، بل في مختلف النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهذا يفسر لنا قوة الاتجاهات الوحدوية في شمال ووسط ايطاليا عنها في جنوبها (مملكة الصقلبيين). وهذا يقودنا الى رأى هام، وهو أن العامل الاقتصادي كدافع من دوافع الوحدة السياسية كان ينصب على الشمال أكثر منه عامل يضم كل ايطاليا من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها. . وكان من الواضح أن الحملات التي وجهت الى موقف حكـومات الدويلات الايطاليه على يد الصحف، والجمعيات السرية الوطنية، والعلماء، والمفكرين، كانت هذه الحملات تركز على أن الوجود النمساوى في شمال ايطاليا، والتدخل النمساوى في بقية الولايات والدويلات الايطالية، من أشد العقبات التي تحول دون تحقيق الوحدة الاقتصادية. وقد أفصحت مؤتمرات العلوم التـطبيقية عن هذه الحقيقـة بوضـوح مؤكدة أن المصالح والأطماع الاقتصادية، للامبراطورية النمساوية في شمال ايطاليا، بل في ايطاليا كلها تتعارض تعارضا مباشرا مع مستقبل ايطاليا الاقتصادى.

وكانت هذه المجالات مادة قوية في يد المثقفين والصحف لاستخدامها في توجيه نقمة الايطاليين ضد النمسا ونحو الوحدة. وكان هؤلاء المثقفون يشعرون بأنهم أصحاب رسالة كبرى يجب أن يقوموا بها لاحياء ايطاليا. وكانت المدن الايطالية كفيلة بأن تمنحهم الفـرص الـواسعة لممارسة نشاطهم العلنى والسرى. وكانت الفوراق بين المدينة والقرية تعطى هؤلاء المثقفين ثقة أكثر بقيمة دورهم في انقاذ ايطاليا عن طريق ثورة المدن على الاستبداد والسيطرة الأجنبية والتأخر والتفكك.

وليس معنى هذا أن المدن هبت لتضع نفسها تحت لواء الحركة الوحدوية. وانـما كانت هذه المـدن لاتزال بتراثها وكياناتها الانفصالية. وكان لابد من أن تتحطم هذه الاتجاهات الانفصالية لدى بعض المدن الايطالية ذات التراث العريق في حكم المدينة لنفسها بنجاح محليا وعالميا. ولكن هذه الاتجاهات الانفصالية تنهار

أمام التطورات الاقتصادية الاخيرة وأمام تحطم الفكر الانفصالي أيام حكم نابليون الأول.

ومع أن هذه الوحدة الاقتصادية كانت مطلبا عاما فان الحكومات الايطالية عارضت هذا الاتجاه لأنها وضعت مصالحها السياسية قبل مصالح ايطاليا العامة على النحو التالي:

١ ـ كانت حكومة البابوية تخشى من أن تؤدى الوحدة الاقتصادية الى وحدة سياسية. وكانت هذه الحكومة تدرك تماما أن وحدة على أساس اقتصادى ستسلب منها ومن البابا الكثير من سلطاته ان لم تهدد وجود حكومته من أساسها.

٢ ـ كانت حكومة النمسا ـ وعلى رأسها مترنخ ـ ترى تماما أن أية وحدة اقتصادية بين دويلات وامارات ايطالية لن تؤثر على الوجود النمساوى في لمبارديا وانما تتطلب اخراجه منها. ان ادراك حقيقة هذه العقبات التي تحول دون تحقيق الوحدة الايطالية، وهي عقبات سياسية واقتصادية أعلى من مستوى ادراك الفلاحين، أغلبية ايطاليا، ان هذا الادراك هو الذي جعل زعامة هذه الحركة وقدرتها على الانتصار متركزة في يد المثقفين والسياسيين ورجال الأعمال في الوقت الذي كان فيه دور جماهير الشعب، وفلاحية دورا غير حاسم. ومع هذا كان من المتعذر على قوى الرجعية حينذاك أن تتغلب على المثقفين ورجال الأعمال والسياسيين من أجل الوحدة الايطالية لعدة أسباب:

١ ـ ان الصحافة كانت قد قفزت الى مصاف القوى المسيرة للأمور وكانت في يد المثقفين والسياسيين.

٢ ـ ان تطلعات الحكومات الى تحسين أحوالها كان يضع أمامها باستمرار مشكلة الوحدة الاقتصادية.

٣ ـ ان الحركات التحررية لم تكن مقصورة على ايطاليا وانما كانت طابع العصر وروحه.

٤ ـ ان وجود دولة واحدة ـ مثل بيدمنت ـ كفيل بأنه يشكل ملجأ لكل سياسي مضطهد في الدويلات الأخرى ليعمل من هناك ضد معوقات

الوحدة هذا فضلا عن عطف أوربا على فكرة ايطاليا المتحدة.

لقد كانت المتناقضات في الزعامة تملأ ايطاليا في عام ١٨٤٧ :

١ ـ فماتزينى جمهورى وحدوى سياسى ثورى يؤمن بالله والشعب والدستور. وأن الجمهورية الديموقراطية هي التي ستحقق لايطاليا وحدتها.

٢ ـ **غاريبالدى جندى صلب العود يود لايطاليا التحرر والوحدة، ومستعد لأن يضع سيفه في خدمة من يدعوه لتحقيق تلك الأهداف دون** أن يتطلع الى أية أهداف شخصية على الاطلاق.

٣ ـ وفي بيدمنت ملك دستورى، آماله واسعة محب للفروسية الايطالية والوحدة الايطالية.

هكذا كان شارل ألبرت، ولكنه كان يريدها وحدة ايطالية تحت تاجه.

٤ ـ وفي روما بيوس التاسع الذي كسب شعبية كبيرة لأنه أصدر تشريعات اصلاحية جعلته في أعين الوطنيين الباحثين عن زعامة تقودهم الى الوحدة الايطالية، وكان ظهور هذه الزعامة في شخص بابا روما سببا في اتساع شهرته حيث ان الشعب الايطالي العادى كان يتوق منذ أمد بعيد الى اصلاح ديني والى من ينقذ ايطاليا من العصور الوسطى. فكان اعتقاد الناس أن بيوس التاسع سيلعب هذا الدور كفيلا بأن يجمع الشعب حوله من مختلف طبقاته. فعامة الشعب أسرع الى الالتفاف حول بابا مصلح من الثقافة حول داعية سياسي عظيم.. ولكن كانت هناك عوامل عديدة خطيرة تجعل من هذه الزعامات الوحدوية عاجزة من تنفيذ مثلها التى أعلنتها وجذبت بواسطتها الشعب حولها.

أولا : كانت هذه الزعامات ـ باستثناء بيدمنت ـ لا تستطيع أن تستند الى جيش قوى يحمى تلك الأهداف من تعديات الامبراطورية النمساوية المستعدة لسحق الحركات التحررية في ايطاليا بنفس القسوة التي سحقت بها الحركة التحررية في المجر. فكما استعانت النمسا بروسيا في القضاء على الثورة المجرية في ايطاليا قوى مستعدة للتعاون معها ضد الحركة التحررية النمساوية.

ثانيا : كان الحماس الوحدوى خلابا استطاع أن يدفع بزعماء البلاد الوحدويين الى مغامرات سياسية ودستورية وعسكرية من العسير تطبيقها أو حتى قبولها لدى

بعض هذه الزعامات.

ومن ذلك أن بيوس التاسع (لا جدال) كان مؤمنا بالوحدة الايطالية، ولكنه لم يتصور أنها لاتتأتى الا بحروب ضد النمسا التي هي سند الكاثوليكية، ولا تتم الا اذا تنازل البابا نفسه عن سلطاته الزمنية وهو أمر لم يكن يقبله أبدا.

ثالثـــا : ان الملوك والأمـراء كانـوا مستعدين لاعلان الدستور كلما شعروا أن الثورة أقوى من أن يحطموها وهي في بدايتها. فلقد أصدر فرديناند الثاني ـ ملك نابلي ـ دستورا، وكذلك دوق تسكانا، وكذلك البابا بيوس التاسع نفسه. ولكن هذه الدساتير كانت صادرة عن الخوف أو الحماس أكثر من كونها هدفا جماهيريا يؤدي الى وحدة ايطالية.

فاذا ماشعر أمثال هؤلاء الحكام أن الفرصة مواتية للقضاء على الدساتير وعلى الثوار سرعان ما يقيلون ظهر المجن ويسحبون الدستور وينقضون على الثوار.

لقد واجهت كل الزعامات الايطالية تجربة هامة في عام ١٨٤٨ جعلت العمل الوحدوى يواجه معظم العقبات التي تحول دون بلوغه هدفه الأكبر، فلقد **انتشرت الثـورات التحـررية القومية في مختلف أجزاء ايطاليا المختلفة والمتقدمة، الشـمالية والجنوبية**. ثار أهل نابلى حتى حصلوا على دستور فرديناند الثاني، وأصدر دوق تسكانيا دستورا على نسق نابلى، وأصدر شارل ألبرت ـ ملك بيدمنت ـ دستورا لبلاده، ومع أنه كان غير مؤمن بنظم الحكم الدستورية فانه كان أكثر الحكام تقبلا للنظام الدستورى ورغبة في تحرير ايطاليا من النمساويين وتحقيق وحدة ايطالية شاملة تحت تاجه ـ ولهذا بعد أن سقط البابا من أعين الشعب ـ بسبب فراره من روما وتمسكه بأهدافه الشخصية وبالسلطة الزمنية ـ ارتفعت مكانة شارل ألبرت الى الذروة عندما أعلن أنه زاحف بجيشه لتحرير ميلانو الثائرة من الطغيان النمساوى ومن جيوش الأجنبى النمساوى.

ولقد كانت هذه الخطوة وهذه التضحية الكبيرة من جانب شارل ألبرت وشعبه سببا في أن تجد الامارات الصغيرة الايطالية مجـدها في أن تتفوق على المشاعر الاقليمية وأن ترتفـع الى مستـوى العمل الوحدوى. وفعلا أعلنت بعض هذه الدويلات اندماجها في بيدمنت: مثل بارما مدينا والبندقية فضلا عن ميلان.

لقد كان **شارل ألبرت فعلا صادقا في أن يحارب من أجل ايطاليا**. وخاصة معركة عام ١٨٤٨ كستوزا Custozza التي خسرها أمام الجيش النمساوي المدرب الكبير. ومع هذا، وتحت ضغط من البرلمان عاد شارل ألبرت لخوض معركة جديدة من أجل ايطاليا في نوفارا Novara (١٨٤٩) فخسرها هي الأخرى وضاعت معها آماله، بل فقد عرشه الذي تركه لابنه عمانويل الذي ستحقق الوحدة الايطالية في عهده. . لقد كان انتصار النمسا يعنى انتصار الرجعية في ايطاليا، فتنكر فرديناند للدستور الذي أصدره ووجه الضربات للثوار، واستعد للزحف شمالا للتعاون مع الجيش النمساوى للقضاء على الجمهورية التي أعلنها ماتزينى في روما - في غياب الباب. والتي تولى الدفاع عنها عسكريا غاريبالدى. ومن سوء حظ هذه الجمهورية أنه أصبح عليها ألا تقاتل فقط النمساويين وانما كذلك الجيش الفرنسي الذي بعث به لويس نابليون - رئيس الجمهورية الفرنسية - الى روما ابتغاء رضاء الاكليروس الكاثوليكي الفرنسي عنه، وابعادا للنمساويين عن روما نفسها. فسقطت روما في يد الفرنسيين بعد كفاح مجيد من جانب الايطاليين.

لقد اكتشف الايطاليون خلال ثورات عام ١٨٤٨، وفشلها في عام ١٨٤٩، **والأسباب التي منعتهم من تحقيق أهدافهم وعلى رأسها:**

١ - أنه لاتوجد في داخل ايطاليا قوة عسكرية قادرة على التغلب على الجيوش النمساوية. وأن الحماس مفيد في أثارة الشعب ضد الامبراطورية النمساوية، ولكن ليس قادرا على طردهم من ايطاليا حتى تتم الوحدة.

٢ - ان تعدد المذاهب والمخططات مسئول عن عدم وحدة النضال الوطنى من أجل الوحدة. ومن ثم فلابد من أن تكون هناك زعامات واضحة محددة يعمل تحت لوائها الوطنيون سياسيا وعسكريا.

٣ - ان الحرية السياسيا للشعب هي خير ضمان لتكاتفه ككل ضد العدوان الخارجي وضد تلاعب الأمراء والملوك بمقدراته. لقد كانت عودة النمسا قوية في شمال ايطاليا، وهزيمة القوى الوطنية أمامها عاملا جوهريا في أن يعيد زعماء ايطاليا - الداعين الى الوحدة - تقييم الموقف على تلك الأسس التي سبق الاشارة اليها.

وكانت سردينيا (بيدمنت) - وقد تولى عرشها فيكتور عمانويل - أكثر الدول

الايطالية استجابة لاعادة تقييم الوسائل المؤدية للوحدة. ويتركز ذلك في سياسة الملك فيكتور عمانويل، ورئيس وزرائه كافور. وقد **وضعا في اعتبارهما وتخطيطهما للوحدة الايطالية:**

١ ــ قدرات سردينيا العسكرية والسياسية.

٢ ــ قدرات القوى المؤيدة للوحدة أو الاتحاد حتى ولو لم تكن ملكية وحتى لو كانت جمهورية.

٣ ــ الموقف الدولي، وامكانيات الافادة منه.

٤ ــ الدول الأوربية الكبرى، وخاصة فرنسا وانجلترا، وامكان الافادة منهما.

فمن حيث امكانيات سردينيا العسكرية والثقافية، تمسك فيكتور عمانويل بالدستور برغم الضغوط الكبيرة التي تعرض لها من جانب الامبراطورية النمساوية حتى لقد هدد برفع العلم المثلث الألوان (الثورة) ان لم توقف ضغوطها عليه. فأضاف بذلك قيمة أخرى لبيدمنت الى جانب تلك التي حصلت عليها خلال حربها الخاسرة ضد النمسا في عام ١٨٤٨. أنها أصبحت الدولة الايطالية الديمقراطية المكافحة من أجل وحدة ايطاليا.. ولكن هل كانت بيدمنت (سردينيا) دولة قادرة على أن تقدم لفيكتور عمانويل القوة العسكرية والسياسية الكفيلة. بتحقيق أهدافه الكبار. الواقع ان تكوين سردنيا على هذا النحو هو من عمل كافور الى حد كبير.

كانت سردنييا مؤلفة من أربعة أجزاء غير مندمجة اندماجا كليا:

١ ــ سافوى، على الجانب الفرنسي من جبال الألب، ومن ثم فهي مقاطعة فرنسية أكثر منها مقاطعة (ايطالية). ومع هذا كانت هي مسقط رأس الأسرة الحاكمة (أسرة سافوى).

٢ ــ بيدمنت: على سفوح جبال الألب، فقيرة من مختلف النواحى الاقتصادية والثقافية.

٣ ــ سردينيا: جزيرة بعيدة عن بيدمنت متأخرة نسبيا.

٤ ــ جنوة: حصلت عليها سردينيا في أعقاب الحروب النابليونية. وكانت تمتاز بتاريخها البحرى العريق وتشعر بأنها ظلمت بأن ضمت لبيدمنت.

ومع مايوحى هذا من أن بيدمنت لا تمتلك مقومات الدولة القادرة على تحمل

عبء ضخم مثل عبء الوحدة الايطالية، فقد كانت سردينيا تحتفظ بمقومات رئيسية مكنتها من القيام بهذا العبء على يد كافور. كان ملكها دستوريا متمسكا بالدستور تمسكه بعرشه، شديد الرغبة في أن يرى ايطاليا المتحدة. وكان جيشها قد خبر الحرب وجربها وذاق الهزيمة، وتمرن على النزال وينتظر يوما يستعيد فيه كرامة ايطاليا. وعنى كافور بالجيش كل العناية ليجعله قادرا يوما على منازلة النمساويين لطردهم من ايطاليا.

أما في المجالات الاقتصاديات فقد عمل على ادخال **الأساليب الحديثة في النقل، من سكك حديدية وأساليب عصرية في الزراعة والصناعة مما جعل سردينيا أكثر الدول الايطالية تقدما بلا جدال في الناحية الاقتصادية.**

وفي مجال الادارة والاصلاحات الداخلية، اجتث جذور الادارة العتيقة التي كانت تقوم على مفاهيم اكليريكية غير مجدية. فنفذ سلسلة من القوانين التي رفعت من القضاء الايطالي إلى المستوى العصري متخلصا من تدخل أو امتيازات الاكليروس وحل الكثير من الأديرة وأصبحت سردينيا بذلك دولة عصرية الى حد ما في سنوات قليلة.

ولكن مهما بذلت بيدمنت من اصلاحات، فهي بلا شك مجرد دولة صغيرة (قزم) بجوار العمالقة (فرنسا، انجلترا، النمسا، بروسيا، روسيا)، وكان هذا أمر يشغل بال كافور جدا. اذ كان يعتقد ـ عن حق ـ أن المسألة الايطالية دولية كما هي قومية. وتحتاج الى علاج على أعلى المستويات العالمية. ومن ثم يجب أن ترتفع بيدمنت الى المستوى العالمي لتسمع الناس صوتها من أعلى الأبراج، ليحسب السياسيون لها حسابا في مخططاتهم الدولية. وكانت حرب القرم فرصة كبيرة أمام كافور لكى يحقق هذا الهدف وقد صور أحد المؤرخين موقف كافور وسياسته تصويرا جيدا حين قال:

«لقد استطاع هذا السياسي الكبير البعيد النظر، بعد خوضه معركة من أعنف المعارك البرلمانية، قامر فيها بكل ما يملك ـ كما فعل في الغالب أقطاب السياسة لكى يفوزوا بأكثر الأرباح ـ استطاع هذ السياسي أن يحمل برلمان بلاده في يناير عام ١٨٥٥ على الموافقة انفاذ فرقة سردينية الى القرم. والتوفيق يلازم الجسور عادة. وهذا ما تم لكافور بدفعه ثمنا تافها، هو خسارة ثمانية وعشرين قتيلا.

فقدتهم كتيبة بلاده في معركة نشرنايا واصابة عدة الآف من رجالها. بالكوليرا فانه كسب الحق في أن يرفع ظلامات ايطاليا أمام ممثلي ممالك أوربا على مائدة الصلح عندما وضعت الحرب أوزارها».

ان اشتراك بيدمنت على هذا النحو في حرب كبرى لهو عمل فذ خاصة وأنه كان من العسير جدا على غير النابهين من رجالات بيدمنت أن يدركوا حقيقة الأهداف البعيدة. وليس معنى هذا ان كافورا كان مجازفا أو كان خياليا، بل انه كان أبعد ما يكون عن روح المجازفة والخيال كان واقعيا يحدد الهدف بدقة ويسعى اليه بكافة الوسائل. وهنا تكمن عبقرية كافور[١] ومع أن كافور شارك في حرب القرم لتحقيق أهدافه البعيدة في وحدة ايطاليا، فانه لم يكن قد حدد بدقة الوسائل التي سيتبعها ولا شك في تلك الوحدة عندما تتم.

دور كافور في الوحدة الايطالية:

ففي عام ١٨٥٦ **كان كافور متجها لسياسة تعمل على ضم بعض دول الامارات الايطالية الى بيدمنت تمهيدا للوحدة الكبرى.** وكان يريد أن يبدأ بضم نابلي الى بيدمنت عن طريق اثارة ثورة داخلية فيها. كذلك كان يفكر في ضم (بارما)، ولكنه استبعد الفكرتين على اعتبار انهما غير معقولتين، بل كان يرى في ذلك الوقت أن وحدة ايطاليا الشاملة من الأمور الخيالية لأن أهلها لم ينضجوا بعد. وتأسس - بتوجيه من كافور - الجمعية القومية Societe Nationale في أغسطس عام ١٨٥٧، التي كانت تعمل على تحقيق شعارها (ايطاليا وفكتور عمانويل) ومع هذا كان من بين أعضائها من يؤمن بالجمهورية من أمثال مانين Manin وغاريبالدى. ولكن الشيء المحدد الذي كان مؤمنا به، ويختلف فيه اختلافا أساسيا مع ماتزينى، هو أن الوحدة الايطالية لايمكن أن تتم بدون مساعدة عسكرية كبيرة من دولة كبيرة أوربية لطرد النمسا من ايطاليا أولا وقبل كل شيء. كانت الاستعانة بدولة أجنبية من أجل وحدة ايطالية في نظر ماتزينى

(١) كان ماضيه قبل تولى المناصب الوزارية لايشير الى عبقرية فذة. بل كان مقامرا لايتورع عن خسارة كل قرش في جيبه. ولكنه كان قد عمل صرافا ولعله بذلك قد اكتسب مهارات حسابية دقيقة اعانته على تخطيط سياسته.

«استبدالا للمادية بالمثالية والدين وللخيانة بالديمقراطية». ولكن الفارق بين كافور ومازيني هو أن الأول كان في منصب يمكنه من أن ينفذ خططه اذا ما حانت الفرصة، بل أن يستخدم في تنفيذ مخططاته السيوف الجمهورية نفسها، ولكن من هي الدولة الكبرى التي ستقدم جيوشها من أجل قضية ايطالية. الواقع لم يكن أمامه سوى انجلترا وفرنسا. وكانت لدى كل من الدولتين بعض الدوافع للمشاركة - بنسب متفاوته - في اعادة توحيد ايطاليا.

ولكن شتان بين تلك الجهود والامكانيات التي كانت فرنسا في عهد نابليون الثالث مستعدة لتقديمها وتلك التي كانت انجلترا مستعدة لتقديمها بل سيتبين لنا أن انجلترا كانت متحفظة ازاء ظهور ايطالية المتحدة.

فما هي الاسباب التي جعلت نابليون الثالث يقدم على التحالف مع سردينيا وأن يضع في يد كافور القوة الكبرى التي كان في حاجة اليها من أجل تحقيق أهدافه في ايطاليا المتحدة. ولماذا كان كافور منذ البداية يرى في فرنسا - لافي انجلترا - الدولة التي ستعين سردينيا على طرد النمساويين من ايطاليا. . كان كافور في البداية يفضل ان تكون بريطانيا هي الدولة التي تمد يد العون العسكري ضد النمسا. . ولكن كانت هناك عوامل عسكرية ومعنوية جعلت كافورا يستبعد هذه الفكرة. . فمن الناحية العسكرية، كان على انجلترا أن ترسل جيوشا كبيرة للغاية الى داخل شبه الجزيرة الايطالية، وأن تمول هذه الجيوش في حرب لا يعرف مداها. في الوقت الذي كانت فيه الجيوش البريطانية قد خرجت منذ وقت وجيز من حرب القرم لتواجه ثورة هندية كبرى في عام ١٨٥٧ وحرب فارسية. والمعروف أن قدرات انجلترا البرية محدودة بكعس قدراتها البحرية، بينما الحرب ضد النمسا حرب برية لابحرية ومن ثم فان امكانيات النصر الواضح غير متوافرة لو اتجه كافور الى اتخاذ انجلترا كحليف له ضد النمسا.

ومن ناحية أخرى كانت السياسة البريطانية غير ميالة الى ظهور ايطاليا المتحدة. ووقفت بريطانيا وراء مبدأ «عدم التدخل» في أمور الدول، وكذلك مبدأ عدم احداث تغييرات جوهرية على خريطة أوربا حتى لاتتغير موازين القوى في البحر المتوسط مما يعقد الأمور أمام التفوق البريطاني. ولهذا كله كانت فرنسا هي أمل كافور الوحيد. وألقى بثقله وكل امكانياته من أجل كسبها الى

جانب القضيـة الايطالية ونجح كافور لا لأنه بذل جهودا ضخمة وقدم تضحيات كبيرة فقط، وانما لأن ظروف فرنسا والظروف الدولية أيضا لعبت دورها الكبير في التمهيد لهذا التحالف الذي تم في المقابلة الشهيرة بلومبيير Plombiere (يونيو ١٨٥٨) ولنحدد الأسباب والظروف الرئيسية التي أدت الى ذلك:

١ ــ الظروف الشخصية، والفكرة القومية عند نابليون الثالث.

٢ ــ المصالح الفرنسية.

٣ ــ الظروف الدولية.

أولا ـ الظروف الشخصيـــة :

وهي مرتبطة بشخصية نابليون الثالث، وتجاربه في القضية الايطالية نفسها. فقد كان وهو في سن الشباب من العاطفين على حق ايطاليا في الحرية. وشارك في الثورة ضد البابوية في عامى ١٨٣١/١٨٣٢ وكان على اتصال بالمهاجرين الايطاليين في لندن، بل كان يقول في أحاديثه الخاصة ان ايطاليا وطنه الثاني.. ولقد أدرك كافور حقيقة هذه المشاعر الكامنة في صدر نابليون الثالث فاستغلها من أجل حثه على التحالف مع بيدمنت التي أصبحت في نظر نابليون الثالث الحليف الطبيعى لفرنسا.

ثم هنـاك موضـوع محاولة الشاب الايطالي أورسيني Orsini لاغتيال نابليون الثالث بدعوى أنه لم يقدم لايطاليا المساعدة اللازمة لانقاذها ولتحقيق وحدتها، وهي حادثة جعلت نابليون الثالث أكثر الحاحا على المشاركة في انقاذ ايطاليا. ولا شك أن نابليون الثالث كان مدافعا عن مبدأ القوميات. ولهذا كان له يد طولى في توحيد الأفلاق والبغدان (الولايتين الرومانيتين) تمهيداً لاستقلال رومانيا وفي نفس الوقت توهينا لقوة الامبراطورية النمساوية.

ثانيـــا ـ المصالح الفرنسيـــة :

ان فرنسا هي جارة بيدمنت. وأي تغيير جوهرى يطرأ على هذه الدولة. أو على ايطاليا فيجب أن يتم بموافقة فرنسا. خاصة وأن فرنسا أصبحت مرة أخرى امبراطورية ويجب ألا يكون لامبراطورية غيرها مكانة أعلى من مكانتها. أو على

الأقل فلتكن ايطاليا خالصة من أية سيطرة أجنبية. ومن ثم كان الوجود النمساوى في لمبارديا قذى في عين الأمبراطور الفرنسي، خاصة وأنه توطد في أعقاب سقوط الامبراطور نابليون الأول وفي أعقاب ثورات ايطاليا في عام ١٨٤٨ وهي ثورات كانت قد نشبت في أعقاب الثورة الفرنسية في عام ١٨٤٨ التي مهدت لوصول لويس نابليون الى الحكم ثم الامبراطورية. ولهذا كان طرد النمسا من ايطاليا هدفا[١] هو اضعاف النمسا واضعاف النمسا واخراجها من ايطاليا يخدم هدفا فرنسيا آخر هو: تحطيم التسوية التي فرضت على فرنسا في عام ١٨١٥. لقد شارك نابليون الثالث في حرب القرم وهذا الهدف نصب عينيه. وشارك في حرب الوحدة الايطالية وهذا الهدف من أهم أهدافه أيضا.

كان يعتقد انه لو انتصر في ايطاليا يستطيع أن يعيد رسم خريطة أوربا بما يفيد فرنسا عن طريق تحالف بلجيكا والدول الألمانية معه هذا فضلا عن تعويض أرضي يحصل عليه من بيدمنت، وتحول ايطاليا، بسبب معوتته، دولة تابعة له، لقد كان نابليون الثالث يسعى الى تحقيق هدف كبير (البحر المتوسط بحيرة فرنسية) وهذا مجال من أهم المجالات التي نشطت فيها فرنسا منذ حملة فرنسا على الجزائر.

ثالثا - الظروف الدولية :

كانت الامبراطورية النمساوية قد وقفت على الحياد خلال حرب القرم. الأمر الذي أفقدها صداقة روسيا. كما أن الامبراطورية النمساوية كانت منذ وقت قصير قد وجهت اهانة شديدة «اذلال المتز» الى روسيا عندما حاولت الأخيرة - انتهاز متاعب النمسا - تزعم حركة وحدة ألمانيا (١٨٥٠)[٢]. ومن ثم كانت فرنسا لاتخشى كثيرا قيام تحالف دولى ضدها ان هي تحالفت مع بيدمنت ضد النمسا.

وكانت هذه فرصة لنابليون الثالث ليغرى روسيا بالتحالف معه ومع بيدمنت ضد النمسا ملوحا لروسيا بامكان تعديل معاهدة باريس عام ١٨٥٦ بما يفيد

(١) كانت الحروب الايطالية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر متعددة بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة.
(٢) سندرس هذا الموضوع عند تعرضنا للوحدة الألمانية.

روسيا. ولكن القيصر رفض التحالف واكتفى بوعد الامبراطور نابليون بالوقوف على حياد يميل الى الود ازاء الحليفين: بيدمنت وفرنسا أما انجلترا فكانت ـ كما سبق الاشارة ـ متورطة في الثورة الهندية (١٨٥٧)، وكانت مشغولة الى حد ما ـ بحرب أخرى في اقليم عربستان (خوزستان) ضد فارس. وليس معنى هذا أن انجلترا تركت الأمور في ايطاليا تسير على هوى نابليون الثالث، فقد كانت ضد نشوب الحرب، إذ كانت تعتقد أن روسيا تستعد للانتقام من هزيمتها في حرب القرم. وحيث ان فرنسا قد لاتصبح حليف بريطانيا في المستقبل في حرب جديدة ضد روسيا فقد رأت حكومة المحافظين الانجليزية أن النمسا هي الحليف المنتظر لانجلترا لكسر شوكة روسيا في المستقبل (فبراير عام ١٨٥٨). كما أعلنت حكومة المحافظين هذه أنها ضد التغييرات الأقليمية، أو بمعنى آخر ضد حصول فرنسا على مكاسب أرضية وضد توجيه ضرب النمسا في ايطاليا ابقاء على الأوضاع التي تقررت منذ عام ١٨١٥. ولكن هذه المواقف الانجليزية لم تكن تعنى أنها مستعدة لأن تمتشق الحسام ضد الحلف الفرنسي ـ البيدمنتى حفاظا على تلك المبادىء، وانما كان هذا يتوقف على تطور المسائل حيث انها (أي بريطانيا) كانت تؤيد فكرة الوحدة الايطالية من الناحية العاطفية وليس من الناحية السياسية ولا الاقتصادية.

كانت هذه هي تلك الدوافع التي أدت الى التحالف الفرنسي ـ السرديني في عام ١٨٥٨. كمقدمة اقحام حرب على الامبراطورية النمساوية واتخذ نابليون الثالث سياسة ازعاج للنمسا منذ انتهاء حرب القرم. فقد تبنى فكرة اتحاد الولايتين الرومانيتين (الأفلاق والبغدان). وفكر في أن يجلس على عرش رومانيا اميربارما. . الامارة الايطالية الصغيرة المجاورة لبيدمنت ـ في نفس الوقت الذي تضم فيه بيدمنت اليها امارة بارما الأمر الذي يعطى لبيدمنت امتدادا كبيرا على طول الممتلكات النمساوية في لمبارديا، ويجعل قوة بيدمنت في التصدى للنمسا كما يقوى تطلعات الايطاليين نحو بيدمنت بالذات كزعيمة للوحدة الايطالية. وهذا يدل فعلا عن أن نابليون الثالث كان معنيا منذ حرب القرم بالدخول في شكل عملى موضوع الوحدة الايطالية حتى اتخذ قراره النهائي في مقابلة مع كافور في بلومبيير Plombiere في ٢٢/٢١ يوليو عام ١٨٥٨ ومنها اتفقا على التحالف ضد النمسا على أن تبدو هذه الأخيرة بصورة الدولة المعتدية.

لم تكن الصورة هي ايطاليا المتحدة اتحادا شاملا، وانما كان الاتفاق يرمى الى انشاء مملكة ايطالية في الشمال على عرشها فيكتور عمانويل. ثم ترتبط البلاد الايطالية كلها برباط اتحاد كونفدرالي Confédération d'Etats يرأسه البابا. وفي مقابل الجهود الفرنسية في مجالات الحرب والسياسة والدبلوماسية تحصل فرنسا على سافوى ونيس. وبذلك يكون نابليون قد استبعد اثارة مشكلة مصير سلطات البابا الزمنية. فقد كان نابليون الثالث يعتمد على الكتلة الكاثوليكية في توطيد مركزه في داخل فرنسا. واذا ماوهن من سلطات البابا الزمنية لمصلحة ملك ايطالي فان نابليون الثالث يفقد عطف وصداقة الكتلة الكاثوليكية الفرنسية وهو أمر جوهرى بالنسبة له في وقت اشتدت فيه قوى المعارضة الفرنسية ضد نظام حكمه.. ويمكن أن نوجز سياسة نابليون الثالث ازاء المشكلة الايطالية في عبارة بسيطة وهي أنه يريد الاستقلال «لدويلات ايطالية» وليس «الوحدة الايطالية».

أما تطورات الحرب فمعروفة، ومع هذا فلها أهمية كبيرة في تحديد النتائج التي ترتبت عنها وعن الموقف الدولى في أثناء القتال. وكانت المحالفة بين فرنسا وبيدمنت تحتاج إلى سبب يبرر لها اقحام حرب على النمسا بشكل يجعل الأخيرة تبدو أمام العالم «كدولة معتدية» ومع أن نابليون الثالث كان يتحرش بالنمسا، وكذلك بيدمنت كانت الأمور لا توحى بأن حربا ستقع، بل لقد عرضت روسيا وانجلترا ـ ووافقها نابليون الثالث ـ تسوية المشكلة الايطالية على طاولة يجتمع حولها الملوك والرؤساء الأوربيون في «مؤتمر أوربى» وكاد يسقط في يد كافور الذي كان يتحرق شوقا لوقوع الحرب لو لا أن **قدمت النمسا اليه بنفسها فرصة العمر التي كان ينتظرها بفارغ الصبر**. ففجأة طلبت النمسا من بيدمنت نزع سلاحها في مدة أقصاها ثلاثة أيام وأشفعت ذلك بزحف جيوشها الى بيدمنت ١٩ أبريل عام ١٨٥٩). ولا يزال تفسير هذه الحادثة من الأمور العسيرة أمام المؤرخين. فيرى البعض أن النمسا قد سئمت المساومات في الوقت الذي كانت فيه النمسا قد حصلت على تأييد بعض الدويلات الايطالية ضد بيدمنت. فاعتقدت أن الظروف القائمة الى جانبها وليس بجانب فرنسا ـ بيدمنت. ومما لاشك فيه أن الامبراطورية النمساوية كانت قد أدركت ان الحرب واقعة لامحالة وأرادت أن تتخذ المبادرة حتى تهز التحالف الفرنسي ـ البيدمنتى وتشحذ القوى المؤيدة للنمسا في ايطاليا. ولكن التوقعات النمساوية لم تكن صحيحة فقد جهلت

عاملا جوهريا هو أن الشعب الايطالي كان يشعر بذاتيته في حالة وقوع حرب ضد النمسا. وأن وعود الملوك لامبراطور النمسا تختلف عن مشاعر الأهالي الايطاليين، وأن غطرسة القواد النمساويين كانت لاتقوم على أساس من القوة العسكرية النمساوية بقدر ما كانت نتيجة للمرارة التي كان يكنها قواد النمسا لبيدمنت وفرنسا. وتدل الاجراءات العسكرية الخاصة التي اتبعها النمساويون عن تخلف شديد في المجالات الملائمة بين التقدم العلمي والمواصلات الحديدية وتحركات الجيوش. وكان أشد الثغرات في الجيش النمساوى هو أنه كان نمساويا بالاسم وهو في الحقيقة كان مؤلفا من العديد من القوميات التي تتألف منها الامبراطورية النمساوية. ومن ثم لن تكن القضية التي يساق للدفاع عنها واضحة أمام رجالة المقاتلين، بعكس الحال بالنسبة للجيش البيدمنتى والجيش الفرنسي الذي كان مؤمنا بأنه يحارب من أجل قضية عادلة وضد النمسا أكبر دولة رجعية حينذاك.

ألتقت الجيوش المتحاربة في معركتين كبيرتين هما ماجنتا وسلفرينو في يونيو عام ١٨٥٩ Magenta و Solfirono ، والملاحظ أن نابليون الثالث أسرع الىء عقد الصلح مع النمسا. وكانت **هناك عدة عدة عوامل ساعدت على توجيه نابليون الثالث الى عقد الصلح.**

أولا - العامل العسكـــــــري :

كان للهزيمة التي أصيبت بها الجيوش النمساوية واضحة، ولكنها لم تكن حاسمة. بل كانت أمامها فرص أخرى لخوض معارك جديدة في مواقع حصينة. فمن ثم كان على الجيوش الفرنسية البيدمنتية أن تبذل مجهودات أكبر كيما تحقق نصرا حاسما يؤدى الى الطرد النهائي للنمساويين من لمبارديا. وقد تكبد جميع الأطراف المنهزمة والمنتصرة خسائر في الأرواح فادحة حتى انها توصف بمجزرة سولفرينو، تلك المجزرة التي أثرت في نفسية نابليون الثالث وجعلته يعمل على عقد الصلح.

ثانيـــا - العامل السياســـي :

كانت توقعات نابليون الثالث لايطاليا بعد الحرب قد خابت بسرعة. فقد

نشبت سلسلة من الثورات الوحدوية) في ولايات بارما ومودينا ورومانا وتوسكانا لضم هذه الولايات من وسط ايطاليا وشمالها من بيدمنت على غير خطط وهوى نابليون الثالث. وكانت تلك الثورات تتم في الغالب بقوة الشعب وبتوجيه من كافور نفسه.

ويبدو أن كافورا أراد أن يلعب بكل ورقة تحت يده. فهو لم يقتصر على ذلك فقط بل أراد أن يوجه ضربة ثانية للنمسا من جهة بعيدة عن طريق اثارة شعب المجر للثورة ضد النمسا. فكانت الأمور هناك مهيأة لثورة عارمة وكان نابليون الثالث يخشى من مثل هذه الدبلوماسية الثورة لانها ستخلق له تعقيدات ازاء المشكلة البابوية. ومن ناحية المجر ستكون ثورة المجر تهديدا لروسيا كذلك الأمر الذي قد يدفعها الى عمل عسكرى ضد فرنسا.

ثالثاً - العامل الدولي :

كانت بروسيا ترضى عن اخراج النمسا من ايطاليا تمهيدا لاخراجها من ألمانيا ولكنها لم تكن لتصبر على رؤية هذه الدولة الألمانية الشكل وقد أذلت في ساحة الحرب بواسطة السيوف الفرنسية. وتساءل ساسة بروسيا: هاهي ذي فرنسا وقد انتصرت على النمسا، لماذا لا تجرب نفس الأسلوب ضد بروسيا للحصول على مكاسب أرضية ويقضى على تسوية عام ١٨١٥ لصالح فرنسا ولقد كان هناك خطر تحالف نمساوى. روسى الا أن ظروف العلاقات النمساوية - البروسية كانت تحول دون تحقيقه. ومع هذا كان هناك تهديد بروسى واضح بأنه لم تتخذ فرنسا سياسة معتدلة ازاء النمسا فان الجيوش البروسية ستدخل المعركة. وفي هذه الحالة يكون قلب فرنسا مهددا بغزو بروسى في الوقت الذي توجد فيه الجيوش الفرنسية في ايطاليا بعيدا عن الراين.. دارات مفاوضات الصلح واتجهت الى أبقاء نفوذ للنمسا في ايطاليا الأمر الذي اعتبر ضربة قاسية للآمال الايطالية، (صلح فيلافرانكا). ففي ذلك الصلح تقرر أن تتنازل النمسا عن لمبارديا لفرنسا التي سلمتها بدورها لبيدمنت وتأييد كل من النمسا وفرنسا لقيام اتحاد ايطالي برئاسة البابا الاسمية، وأن تظل البندقية تابعة للنمسا مع اشتراكها في الاتحاد الايطالي. وعودة حكام مودينا وبارما وتوسكانا الى مناصبهم.

ولكن هذا الصلح الذي وقع بعيدا عن سردينيا ما كان مقدرا له أن يعيش

طويلا اذ ان تطورات الحركة الوطنية في ايطاليا هي التي فرضت نفسها على الملوك. ومع أن هذه التطورات والثورات كانت توجه بواسطة كافور فقد كان للشعور العام الايطالي بأن وقت الوحدة قد أزف كان أثره الكبير في نجاح سياسات كافور. ونجحت جهود الوطنيين في أن تعلن توسكانا بعد استفتاء عام الاتحاد مع سردينيا في «مملكة ايطاليا» ولكن بقيت روما والبندقية. وذلك بفضل مجهودات غاريبالدى.

فقد تغاضى كافور عن حملة (الألف) التي غادرت جنوة بقيادة غاريبالدى في ٦ مايو عام ١٨٦٠ الى صقلية بقيادة غاريبالدى، واستطاع غاريبالدى أن يسيطر على الجزيرة بسهولة. وعبر مضيق مسينا وسارهو ورجاله من جنوب ايطاليا صوب نابلي ونجح في السيطرة على هذه المملكة المنهارة. فماذا سيكون عليه مصيرها. لم يترك كافور الأمور تجرى على هذا النحو حيث خشى من أن تصبح نابلى مقرا لجمهورية يسيطر عليها ماتزينى وغاريبالدى. وكان كافور يرى أن غاريبالدى رجل سيف وليس رجل سياسة وأنه آن الأوان لتسليم الأمر للملك لتكوين ايطاليا الكبرى. ونجح في اقناع غاريبالدى بذلك. ولما كانت الولايات البابوية تحول دون بيدمنت ونابلى، فقد وجه كافور ضربة سريعة الى القوات البابوية في كاسليفداردوا Castlefidarto وسيطر عليها - فيما عدا روما - وتقدم الجيش الى نابلى وتسلمها من غاريبالدى. . أما البندقية فستحصل عليها ايطاليا بعد قليل في مقابل حيدتها من الحرب النمساوية البروسية، كما حصلت على روما خلال الحرب البروسية الفرنسية لتتم الوحدة الايطالية ولا يبقى غير التيرول.

الفصل الرابع
الاتحاد الألماني

إرهاصات ومقدمات الوحدة الألمانيـــة :

١ ـ *ألمانيا من عام ١٨١٥ ـ ١٨٣٤ :*

خرجت ألمانيا من حرب التحرير الكبرى ضد نابليون أقل تفككا عن ذي قبـل، ولكنهـا ظلت مجرد دول صغـرى تسيطر عليها دولتان كبيرتان: **النمسا وبروسيا**. وكان الاتحاد الألماني الذي ظهر في عام ١٨١٥ غير قادر على أن يقف على قدميه بجوار العملاقين: النمسا وبروسيا. ولكن قوة النمسا وبروسيا. ولكن قوة النمسا(١)كانت أعظم وأقدر على يد شيخ السياسة الرجعية مترنخ، الذي وجه الدول الألمانية الى اجتماع في كرلسباد (١٨١٩) وحصل على موافقتها على قرارات رجعية ضد الصحافة والجامعات ومبادىء الحرية. وكانت شكيمته قوية ضد أية نداءات تطالب بالـدستور. فلا غرو أن ظلت ألمانيا خلال عام الثورات عام ١٨٣٠ على نوع من الهدو. حقيقة كانت هناك حركات تحررية في «ساكس» و «برنزويك» و «هس» وفي بعض أقاليم بروسيا على الرين، وفي هانوفر. ولكن

---

(١) ليس معنى قوة النمسا أنها كانت قد تطورت الى مستوى الدول الغربية . . والحقيقه أنها كانت لاتزال دولة متمسكة الى حد كبير بتقاليد الماضى . كان النبلاء النمساويون والمجريون مازالوا متشبثين بامتيازاتهم في الوقت الذي ظل فيه الفلاح في النمسا يعانى من حياة العصور الوسطى . وكان مترنخ يحكم الامبراطورية حكما عسكريا . وكانت تمزقها من الداخل العداءات العنصرية ، حتى اندلعت ـ على يد كوسوت Louis Kossuth ثورة تطالب باستقلال هنغاريا (مايو عام ١٨٤٨) وقامت ثورة ديموقراطية في فيينا أدت الى الاطاحة بنظام مترنخ ، وبالغاء الفوارق الطبقية .

كل هذه الحركات كانت متفرقة وغير عميقة الجذور، وغير متناسقة. . على أن أهم مافي الثلاثينات من القرن التاسع عشر هو **نمو الدعوة الى ألمانيا المتحدة** في مقالات رانك Rankhe منذ عام **١٨٣٢**، وفي هياج «هباخ» في تلك السنة عندما سعى المتظاهرون الى تنظيم **(وفاق وطنى) أو بمعنى آخر حكومة ألمانية مؤقته**، وفي حركة الراديكاليين والطلاب والصحفيين ضد الدايت في عام **١٨٣٢** مطالبين (بتخليص ألمانيا). لقد قدر مترنخ **خطورة هذه الارصاهات الوحدوية المبكرة**، كما خشيها فردريك وليم الثالث (ملك بروسيا) كان لأسباب خاصة به. كان مترنخ على وجه العموم **ضد الفكرة الوحدوية الألمانية حفاظ على مصالح النمسا في ألمانيا، وكان ضد الحكم الدستورى بصفة عامة**. وكان ملك بروسيا يخشى من أن تنال الحركة التحررية ـ وكان لابد أن تنال ـ من سلطاته كملك يحكم بمقتضى الحق الالهى، ومن ثم كانت الفرصة واسعة أمام مترنخ ليحصل من الدايت على موافقته على مراسيم جديدة تحد من النشاط التحررى، بل أدى ذلك الى تعطيل الجميعات التشريعية في الدول الألمانية **(١٨٣٣)** وكان هذا توطيدا لقرارات كارلسباد. **لقد سيطر مترنخ بقوة على ألمانيا وكبت فيها حركات التقدم والتحرر. وأصبح مكروها فيها وأصبح الدايت الألماني في قبضة فيينا.**

ويبدو أن بريطانيا وفرنسا قد أزعجها هذا التفوق الرجعى النمساوى. خاصة عندما اتجهت الأوتوقراطيات الثلاث، روسيا/النمسا/بروسيا/ الى **احياء التحالف المقدس بتكوين جبهة ثلاثية ضد الحركات التحررية في ألمانيا (١٨٣٣)**. فقد تقارب بوضوح بريطانيا وفرنسا في هذه الظروف. وكانتا تكونان جبهة تحررية في مواجهة الأوتوقراطيات الثلاث.

ولم يكن الصراع ـ كما يبدو ـ أيدلوجيا. وانما كانت المصالح الاقتصادية والسياسية هي المسيطرة عليه. فلقد كانت فرنسا تكره أن ترى النمسا مسيطرة على شبه الجزيرة الايطالية، كما كانت انجلترا الايطالية، كما كانت انجلترا ترى في التحرر السياسي الألماني فرصة لتوسيع نطاق التجارة البريطانية في ألمانية إذ كان بلمرستون يرى أن تشجيع انجلترا للحركات التحررية، في بعض البلاد، يمكن أن يخدم بريطانيا اقتصاديا. اذ أنها ستزيد من تصدير منتجاتها الى تلك الدول

المتحررة. ومن ناحية أخرى كان بلمرستون يرى أن النظم الدستورية كفيلة بأن تكبح جماح المخططات الثورية. وكانت حكومة بريطانية تواجه صعوبات كثيرة من جراء ظهور حكومات ثورية يسيرها عدد قليل من الوطنيين الذين لايتوانون عن الاضرار بتجارة بريطانيا لأول شعور بأنها تحصل على مكاسب كبيرة من الشعب. أما في ظل الحكومات البرلمانية والسياسية فالتجارة أكثر استقرارا، حث ان الحكم البرلماني يضع الأمر في يد البرجوازية. والحكم البرجوازى يتيح فرصا أوسع للحرية التجارية التي تكرس بريطانيا جهودها لجعلها القاعدة المطبقة في كل أرجاء العالم.

ولكن الأمور سارت في ألمانية ـ الى حد كبير ـ في غير الاتجاهات التي أرادتها كل من الامبراطورية النمساوية أو بريطانية. والسبب في هذا يرجع الى نجاح بروسيا في تأسيس الزولفرين في وقت كانت فيه صورة مترنخ بشعة في الولايات الألمانية، وكان تأسيس الزولفرين يهدف الى توحيد الولايات الألمانية جمركيا وتصعيد الأرباح التجارية على حساب النشاط التجاري الأجنبي.

الزولفـــــرين :

يعتبر انشاء الزولفرين (**الاتحاد الجمركي**) نقطة تحول خطيرة في تاريخ الوحدة الألمانية. حقيقة نشأ واضحا في عام ١٨٣٤، ولكن **بروسيا كانت قد شرعت منذ عام ١٨١٨ في تكوينه بادئة بنفسها أولا**. ويرجع الفضل في **تأسيس الزولفرين** الى ماش وزير مالية بروسيا حينذاك Massen .. **فقد كانت بروسيا نفسها مقسمة الى عدة مناطق جمركية. وكل منطقة جمركية لها ضرائبها الخاصة بها**. وفي عام ١٨١٨ أصدر فون بولو Von Bulow وزير التجارة البروسي قانونا بالغاء الحواجز الجمركية الداخلية. **وبذلك تم توحيد بروسيا داخليا بعد أن** كانت مقسمة الى ٦٠ منطقة جمركية. وأدرك المسئولون في بروسيا أن الوحدة الاقتصادية هي الأساس المتين الذي يجب أن تقوم عليه الوحدة السياسية. ولذلك **سعوا الى ادخال الولايات الألمانية الأخرى في هذا الاتحاد الجمركي**.
ونجحت مساعي بروسيا لدى الولايات الصغرى ولكنها وجدت تحديا من جانب الولايات الكبيرة التي وجدت أن من مصلحتها هي الاخرى أن تكون اتحادات جمركية مستقلة لمواجهة الاتحاد الجمركي البروسي.

وبسبب تلك التحديات الاقليمية ظهرت في الولايات الألمانية ثلاثة اتحادات

جمركية :

١ ــ الزولفرين تحت رعاية بروسيا منذ عام ١٨١٨ .

٢ ــ اتحاد تكون تحت زعامة بافاريا منذ عام ١٨٢٠ .

٣ ــ اتحاد تكون تحت زعامة سكسونيا عام ١٨٢٨ .

وأدرك ساسة بروسيا أن ظهور انقسامات وعدم قدرة الزولفرين على استيعاب الولايات الألمانية يرجع الى رغبة بروسيا في أن تكون لها اليد العليا على الزولفرين. ولذلك غيرت بروسيا من سياستها أملا في أنضمام كل الولايات في الزولفرين فقد عدلت من شروط الانضمام الى الزولفرين بحيث أصبح الاشراف على الاتحاد موكولا لمجلس مكون من مندوبين عن الولايات وأصبحت الواردات توزع على الولايات بنسبة عدد السكان . أدت هذه التعديلات إلى إتساع نطاق الزولفرين بانضمام بافاريا وسكسونيا الى الاتحاد في عام ١٨٣٤، وسرعان ما ظهرت نتائج ايجابية لنموه. فقد راجت التجارة ونمت الزراعة والصناعة. واتبع الزولفرين سياسة الحماية الجمركية التي دعا اليها الفيلسوف الاقتصادى الألماني فردريك ليست Friedrich List في كتابه النظام القومى للاقتصاد السياسي. الذي صدر في عام ١٨٤١، واستمرت هذه السياسة معمولا بها حتى حوالى عام ١٨٥٠ . ان قيمة نمو هذا الاتحاد الجمركي هو أنه كان ألمانيا، ولم تكن للنمسا ضلع فيه أو قوة قادرة على السيطرة عليه، ولقدر أدرك مترنخ خطورة هذا التطور ولكن بعد فوات الأوان. ففي عام ١٨٣٣ كتب الى الامبراطور النمساوى يقول ان الدول الألمانية ستكون بعد ذلك (جسما متماسكا تحت ادارة بروسيا) أما النمسا فستعتبر (جسما غريبا) خاصة وأن ألمانيا كلها في عام ١٨٤٢ أصبحت ضمن هذا الاتحاد الجمركي.

ان هذه التطورات الاقتصادية حملت معاني أخرى بعيدة على رأسها أن مصالح بروسيا متركزة في ألمانيا، وفي وحدتها الاقتصادية وعلى أمل وحدة سياسية في حين كانت النمسا تولى وجهها باستمرار صوب الشعوب التي تحكمها في أوربا الشرقية (المجر/ التشيك) وتتبع سياسة عنيفة في بوليسيتها، واطلاق يد الكنيسة في الحياة المدنية. في حين نهجت بروسيا نهجا اقتصاديا علميا جعلها تكبر في عين المثقفين، وأصبحت فعلا الامبراطورية النمساوية ـ التي

تضم جزءا من الشعب الألماني وتسيطر على الدايت الألماني وعلى كثير من الامارات الألمانية وهي التي تخشى من تفوق بروسيا عليها. هذا الاتجاه البروسي صوب ألمانيا وشعورها المتصاعد بدورها ازاء الوحدة الألمانية صاحبته فلسفة عمقت من مفاهيمه وأعطت لبروسيا الأساس الذي هيأها لتزعم الوحدة. كانت فلسفة هجل تقول بأن الدولة (اله يمشى على الأرض)، والفرد يجب أن يضحى بكل ما يملك من أجل عظمتها، ونمو قوتها. فالدول في نظره ـ قامت على القوة، والحق يجب أن تدعمه القوة. وبالتالي فقد أصبحت الدولة القوية النامية هي الدولة الحقة. وبالتالي يكون هجل قد وضع في يد البروسيين الفلسفة التي تبرر لهم الدور القيادى العسكرى لبروسيا بعيدا عن مضايقات المناقشات البرلمانية.

ولكن هل كانت بروسيا في نهاية الأربعينات قد أصبحت قادرة على ابعاد النمسا عن ألمانيا حتى يمكن أن تتم الوحدة السياسة. هذا هو السؤال الذي حاولت بروسيا الاجابة عنه خلال حوادث عام ١٨٤٨/ ١٨٥٠ ولكن تجدر الاشارة هنا أن تزعم بروسيا لحركة الوحدة الألمانية كان يستند الى أسس ثابتة وان لم تكن قد تفاعلت وتكاملت بعد. فقد كات هناك ثغرات شديدة لاتزال موجودة في طريق الوحدة وهي:

١ ـ كان ملك بروسيا لايزال معاديا للفكر التحرري الدستورى. كان فردريك وليم الثالث رجلا ضعيفا، وكان خليفته فردريك وليم الرابع (٤٠-١٨٦١) خياليا أوتوقراطيا ولكنه يمتلك جيشا مواليا له. وكان يأمل في تكوين جبهة كاثوليكية ـ بروتستنتينية محافظة.

٢ ـ كانت البيروقراطية البروسية مؤيدة لنظام الحكم الملكى المطلق المستنير، والاعتماد على الخبراء لتوجيه أمور الدولة. فلا حاجة اذن في هذه الأحوال الى نظام الحكم النيابى.

ثورة عام ١٨٤٨ ونكسة أولمتز عام ١٨٥٠ :

كانت **ثورة باريس عام ١٨٤٨** حركة قوية التأثير في مختلف بلدان أوربا المتطلعة الى الحرية والديموقراطية والقومية في ألمانيا، وايطاليا، والنمسا، والمجر، وفي بلاد التشيك. وأصبح مترنخ عاجزا عن ممارسة أسلوبه في كبت الحريات فقد

أصبحت «الدار» ـ على حد تعبيره قديمة وليست من القوة بدرجة تسمح بفتح أبواب ونوافذ في الحوائط ـ ومن اللازم بناء دار أخرى. وهذا هو أدق وصف لمتطلبات العصر حينذاك. فقد كان النظام القديم متداعيا للغاية، امبراطور شبه معتوه، ومترنخ أصبح عجوزا وفقد قدارته، ورجال حكومته مجموعة من خائرى العزيمة، وانضمت بعض الفرق المسلحة الى مظاهرات الطلاب في فيينا، وفر مترنخ، ووعد الامبراطور بحياة دستورية وبرلمان وصحافة وحرس وطنى وكانت الثورات في فيينا وفي ايطاليا حافزا لثورات في ألمانيا لالمجرد التقليد، وانما لأن عوامل التمرد على القديم قد أصبحت عميقة حتى لقد تكونت جماعات قوية من المثقفين المؤمنين بالوحدة الألمانية عن طريق برلمان ينظم الأمة الألمانية كلها. ومن ثم كانت الثورة في الولايات الألمانية وفي بروسيا وفي النمسا تسير في اتجاه الحرية والنظم البرلمانية وان اختلفت في الأهـداف النهائية. والولايات الألمانية وبروسيا في اتجاه نحو الوحدة الديموقراطية، والنمسا نحو الاصلاح ولكن دون أن تفقد النمسا مكانتها الكبرى كامبراطورية. فكانت لدى الحكومة النمساوية جيش يستطيع أن يضرب الثورة في المجر وفي فيينا خاصة وقد تولى هذه الأمور رجل صلب هو شفارتزنبرج رئيس الوزراء النمساوى خلال أزمات ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠.

كذلك أصدر فردريك وليم الرابع مراسيم اصلاحية دستورية، وأخذ جانب الحركة التحررية (مظهريا)، وأخطر من هذا وذاك أنه **أعلن في ٢١/٣/١٨٤٨ اندماج بروسيا في ألمانيا**.

ونشطت **الخطوات التنفيذية لوحدة ألمانيا** التي بدت وكأنها قريبة الوقوع. وفعلا انعقد برلمان تمهيدى في باريس عام **١٨٤٨** Vor Parlament على أمل أن يحل محل الدايت الألماني القديم الذي كانت تسيطر عليه النمسا. واجتمع في فرانكفـورت ليشكـل حكـومـة ألمانية مؤقتة ولاصدار جمعية وطنية بالانتخاب[١] ووضعت دستور لألمانيا المتحدة يقوم على الأسس القانونية والحماية لحرية الفرد. وقد طلب من برلمان فرانكفورت أن يجيب عن الأسئلة التالية حتى يمكن تحديد

(١) ينتقد المؤرخ الانجليزي ـ عن حق ـ أن هذه الجمعية كانت مؤلفة من شخصيات المعية بارزة متحمسة لمصلحة المانيا المتحدة ولكنها تجاهلت تمثيل جماعات وهيئات كانت ضرورية لانجاح مهمتها مثل النبلاء وأصحاب الأعمال والعمال.

مستقبل ألمانيا:

١ ــ هل يجب أن تشمل الدولة الألمانية المنتظر اعلانها النمسا كلها.

٢ ــ هل تقتصر هذه الدولة الألمانية على ضم الجزء الألماني من الامبراطورية النمساوية.

٣ ــ هل يترك هذ الجزء الألماني في قبضة النمسا وتتشكل الدولة الألمانية المتحدة من دونه.

لقد كان من العسير جدا أن توافق النمسا، أو ترغم، على أن تدخل في دولة ألمانية ترى فيها حكومة النمسا تابعا أكثر منها ندا لها. وبالتالي فان ضم الجزء الألماني من النمسا يعنى حربا كبرى ضد الامبراطورية النمساوية لاقصائها عن ألمانيا. ولكن كانت هناك في داخل ألمانيا نفسها قوى ضد اقصاء النمسا عن ألمانيا. وهي:

(أ) القوى الكاثوليكية الذين كانوا يرون في ارتباطهم بالامبراطورية النمساوية تقوية لمكانتهم.

(ب) الولايات الألمانية الصغيرة التي كانت تخشى من طغيان بروسيا عليها وترى في النمسا القوة القادرة على وقف بروسيا عند حدها.

وأخيرا **وافق برلمان فرانكفورت على اقصاء النمسا من الاتحاد الألماني المقبل**، وأقدم على خطوة كبيرة هي **عرض تاج هذا الاتحاد الألمانى على فردريك وليم الرابع ملك بروسيا تأكيدا للوحدة الألمانية وكسبا لبروسيا** كقوة قادرة على الدفاع عن الاتحاد الألماني. وجاء هذا العرض في وقت كانت فيه الرجعية في النمسا قد استردت قوتها وقضت على الثورة في فيينا، فكان حافزا لفردريك وليم الرابع على الغاء كل الاصلاحات التقدمية التي سبق له أن أصدرها ورفض العرش الذي عرضه عليه برلمان فرانكفورت. فلمــــاذا.

١ ــ كان الملك في قراره نفسه مؤمنا بالحق الالهى، ويرى أن التاج قدم اليه بواسطة رجال انتخبوا بواسطة الشعب وليس بواسطة أمراء لهم الحق في ذلك.

٢ ــ ان قبوله هذا التاج يعنى أنه قد يدخل حربا ضد النمسا. بل وربما ضد روسيا كذلك، وكانت بروسيا فعلا مستعدة لشد أزر النمسا في مثل هذه

الأحوال.

وتعاونت كل من النمسا وبروسيا على **تحطيم برلمان فرانكفورت** والدستور الذي أصدره ولكنه اتفاق الخصمين وليس الحليفين. فقد كانت **تطلعات** بروسيا الى ألمانيا تزداد أيضا. ومن ثم كان لابد من أن يقع الصدام خاصة وأن النمسا - على يد شفارتيز نيرج - قررت أن تنفرد باليد العليا في الاتحاد الألماني القديم، وأن بروسيا ثابرت على مساعيها نحو التضامن الألماني. كان السياسي الكبير الروسي رادوتيز Radoutz يحث فردريك وليم الرابع على ضرورة متابعة سياسة تهدف الى نمو بروسيا في داخل ألمانيا عن طريق انشاء دولة فيدرالية تحت ادارة بروسيا، ولكن النمسا (شفارتيزنيرج) أصرت على مشروع آخر يؤدى الى ادخال الأجزاء الألمانية من الامبراطورية النمساوية في حكومة ادارة تتكون من ممثلين عن كل من النمسا وبروسيا والدول الألمانية الكبيرة الأخرى.

وانتهزت بروسيا فرصة الأزمة العنيفة التي واجهتها النمسا في المجر، بسبب ثورة الأخيرة ومطالبتها بالاستقلال، لكى تزيد من مكانتها في ألمانيا. فاقترحت بروسيا في يونيو عام ١٨٤٩ قيام مؤتمر من الأمراء يتولى **وضع دستور للامبراطورية الألمانية** وكان المشروع يلقى موافقة كبيرة من جانب الامارات الألمانية. ولكن ما ان انتهت النمسا من المشكلة المجرية، باخضاع الثوار بمعاونة من روسيا، حتى التفتت النمسا بقوة صوب ألمانيا، الأمر الذي شجع الامارات المناوئة لسياسة بروسيا على اعلان معارضتها للمشروع سالف الذكر. وأصيب المشروع بالتجميد. ومع هذا استمر فردريك وليام الرابع في سياسته يشد أزره رادوتيز. فوضعا مشروعا آخر، يجعل الاتحاد الألماني أضيق نطاقا من ذلك المشروع الذي سبق أن تبنوه.

ففي يناير عام ١٨٥٠ أعدا اجتماعٌ لمجلس دستورى[1] فردشفارتيزنيرج بأن اتخذ خطوات عاجلة لتنفيذ مشروعة وعقد مؤتمرا في فرانكفورت لممثلى الدول الألمانية التي انضمت اليه في الوقت الذي كان فيه «المجلس الدستورى» مجتمعا في أرفورت. **وأصبحت ألمانيا منقسمة الى قسمين كبيرين**. وارتفعت الأزمة

(١) كان على هيئة برلمان اتحادى.

بسرعة الى درجات عالية عندما وقعت اضطرابات في هس ـ Hess-Cassel فقد كان شفارتيزنبرج يدرك أن مخططات بروسيا هي لطرد النمسا من ألمانيا. وبالتالي فيجب أن يفرض النمسا بالقوة على بروسيا والخطوة الأولى في ذلك هي منع بروسيا من الحصول على المزيد من المكانة في ألمانيا. وقفت بروسيا ـ خلال اضطرابات هس ـ كاسل ـ بجانب رعايا هذه الامارة، في حين **وقفت النمسا الى جانب الأمير المستبد.** وأصبحت الأمور لاتبنىء الا بامتشاق الحسام. ولقد كان شفارتيزنبرج يعتقد تماما في **قدرته عسكريا على كسر شوكة بروسيا.** بعكس فردريك وليم الرابع الذي كان يشك في مقدرة جيشه. وقبل الشروط التي قدمها شفارتيزنبرج فكانت اذلالا عرف باسم **اذلال المتز في نوفمبر عام ١٨٥٠**، وكانت المطالب الرئيسية لشفارتيزنبرج هي:

١ ــ عودة الدايت الألماني القديم تحت زعامة النمسا.

٢ ــ تخلي بروسيا عن العصبة التي كونتها من الأمراء الألمان تحت ادارتها.

٣ ــ قبلت بروسيا عقد اجتماع للدول الأعضاء في الاتحاد الألماني الذي سيعهد اليه.

لقد فرض اذلال المتز على بروسيا، لتسير بعد ذلك في تيار رجعى شديد، مثلها في ذلك مثل النمسا. ولكن وقعت بعض التطورات الهامة التي جعلت مكانة بروسيا ترتفع الى حد ما في الوقت الذي استمرت فيه مكانة النمسا في التدهور. فقد خاضت النمسا حربا خاسرة في ايطاليا (١٨٥٨-١٨٥٩). فاهتزت مكانة الحكومة النمساوية. واتجهت الى ارضاء الحركات التحررية الدستورية بل الى ارضاء الحركات القومية كالحركة القومية المجرية مثلا. وأفسحت مجالا للحرية الصحيفة وأصدرت دستورا فتشكل بناء عليه:

١ ــ مجلس امبراطورى (رايخسرات).

٢ ــ لاندتاج برلمانات الأقاليم.

ولقد كانت هذه الاصلاحات هادفة فعلا، ولكن جاءت متأخرة، وبدأت الحكومة النمساوية في تطبيقها في الوقت الذي أصبح عليها أن تواجه غريمتها بروسيا التي تغيرت عن ذي قبل تغييرا جوهريا على يد بسمارك. حقيقة بدأت بروسيا في أعقاب المتز أشد رجعية وكأنها قد أصبحت دولة تتألف من البيروقراطية

والعسكرية، وكاد الزولفرين أن ينحدر للهاوية عندما اتجهت بعض الولايات الجنوبية الألمانية الى الاتحاد مع النمسا.

ولولا صلابة القاعدة الألمانية التي كان يرتكز عليها الزولفرين، ولولا تشبث بروسيا وبقية الولايات الألمانية به لربما كان قد انهار. وكان مصير الأسطول الروسي في ذلك الوقت مخزيا لدولة كانت تنادى بزعامتها للحركة الألمانية. فقد أهمل ثم بيع في المزاد.

ولكن: هذا المظهر المنهار لايعطى صورة حقيقية عن الأسس القوية الكامنة في بروسيا، وفي القومية الألمانية. وهي أسس بدأت تظهر بوضوح في أعقاب ذلك الاذلال الكبير في ألمتز، وذلك التدهور الكبير في مكانة بروسيا. فقد أخذت بروسيا تفيق بالتدريج بعد لطمة ألمتز. وعاد نشاط الوطنيين يردد المشروعات القومية التي سبق أن تداولتها ألسنة الألمان. وأنشأ المتطلعون الى قيادة بروسيا للوحدة الألمانية الاتحاد القومي. وهو اتحاد تسيطر عليها البرجوازية البروتستنتية.

بسمارك يتولى الحكم:

هناك اجماع على أن بسمارك كان شخصية صلبة قوية، اذا ماوضع هدفا لا يتراجع عن المضى في تحقيقه، وانه كان صلفا لايأبه بالمبادىء في سبيل الوصول الى هدفه.

والواقع أنها صفات يشترك فيها الكثير من الزعماء من بناة الدول. من أمثال نابليون الأول، كرمويل اليزابيث، وجلال الدين أكبر (في الهند)، ومحمد على في مصر وبطرس الأكبر في روسيا.

أما من حيث التمسك بالمبادىء الأخلاقية والانسانية فهو أمر تخلت عنه الزعامات الأوربية في كل دول أوربا عندما تجد نفسها مضطرة الى ذلك انقاذا للبلاد من محنة. ليست هذه دعوة الى الأخلاقيات السياسية، وانما هي وصف لماكان عليه دبلوماسيو القرن التاسع عشر ولا زالوا.

ومن حيث اتهامه بأنه كان بروسى الأهداف وظل بروسيا حتى بعد وحدة ألمانيا، ان هذا صحيح الى حد ما. ولكن ليس هو الوحيد في هذا الصدد. فان ارتفاع مكانة (انجلترا) على مكانة (اسكتلندة) و (أيرلندة) في المملكة المتحدة،

نوع من هذا القبيل، أن هذه الفترات من عدم التوازن بين أقاليم الدولة الواحدة التي حصلت على اتحادها منذ وقت قصير هو أمر طبيعي ويجب توقعه، وليس من العسير اذابة الأقليم الذي حقق الوحدة في بقية الأقاليم في فترة قصيرة. قد يتم هذا في مخيلة المتحمسين للفكر الوحدوى. ولكنه عند التنفيذ يصطدم بواقع يفرض نفسه على الحكم والناس والمفكرين أنفسهم. ومن ثم كانت بروسية بسمارك ضرورة تطلبتها فترته، خاصة وأنه كان في حاجة ماسة الى جيش بروسى متماسك قوى ضد قوى امبراطورية كبرى نمساوية وفرنسية.

هل كان من اليسير على بسمارك أن يقبل ذوبان الفكر البروسي والجيش البروسى بسرعة في بقية الجيوش الألمانية تنفيذا للفكر الوحدوى الخيالى ليواجه من بعد ذلك جيشا قوميا فرنسيا متماسكا.. مثلا.

ان قيمة بسمارك الحقيقية تكمن في أنه حدد الدور الذي يجب أن يقوم به والقدرات التي يجب أن يعتمد عليها. وحيث أن هدفه كان ساميا (بلا جدال)، فيجب ألا تعرقله بعض الأمور، وانما يجب تخطى العقبات. وهو حين استهان بالحركة الدستورية في بروسيا فانما لانه وجد أن الأمور كلها تلح عليه في هذا الاتجاه.

خطوات بسمارك في توحيد ألمانيا:

١ ــ كان في استطاعة برلمان كثير الجدل مثالى الأهداف شكل من مثقفين على جانب راق من الأخلاقيات الدستورية أن يقف في وجه أوتوقراطية ملتوية نمساوية وامبراطورية نابليونية في باريس. بل هل يستطيع أن يقف على قدم المساواة مع برلمان انجليزي عريق في تقاليده قادر على أن يسمح للوزارة البريطانية أن تقدم على خطوات جريئة في السياسة الخارجية والحرب ثم تعرضها على البرلمان لتحصل أولا على الثقة دون هزات كبرى داخلية.

٢ ــ اذا كانت الأهداف الدستورية ملحة فالأهداف القومية اكثر الحاحا وبالتالي فيجب أن توضع هذه جانبا حتى يمكن تحقيق الأهداف الكبرى.

وتجدر الاشارة هنا أن بسمارك لم يفرض نفسه على الحكومة. وانما الحكومة البروسية، وخاصة فون رون «وزير الحربية» هو الذي دبر استدعاءه من سفارة

باريس الى برلين ليتولى زمام الأمور في وجه المعارضة البرلمانية ضد خطوات فون رون العسكرية لتقوية الجيش البروسى لاعداده للمهمة الكبرى في توحيد ألمانيا . . لقد تعرضت الحكومة البروسية لمعارضة قوية من جانب البرلمان لمشروع يهدف الى مد الخدمة العسكرية، ووجد فون رون أن المعارضة توشك أن تشل يد الحكومة عن تحقيق سياستها الخارجية القومية، حتى لقد فكر فون رون في القيام بانقلاب يقضى به على أصوات المعارضة بضربة واحدة. ولكنه آثر ان يضع رجلا قويا على الحكومة كفيل بان يسير في طريق تقوية الجيش متخطيا المعارضة الدستورية. فكان أن أسندفون رون الحكم الى بسمارك في عام ١٨٦٢ . . وكان بسمارك سريعا وحاسما أمام المعارضة الدستورية، فقد **ترك للبرلمان كافة الأمور يعالجها بطريقتة الخاصة فيما عدا ثلاثة أمور:**

١ ـ الجيش

٢ ـ السياسة الخارجية

٣ ـ تشكيل واقالة الوزارات.

على أن مثل هذا الأسلوب في الحكم شبه الاستبدادى لايمكن له أن يعيش طويلا الا اذا أثبت جدارته في مواجهة المشكلات والأزمات التي تواجهه. وهذا ماكان يدركه بسمارك. بل كان يدرك أنه لايسير في هذا الطريق الا لتحقيق انتصارات لبروسيا في مختلف المجالات التي يجب أن تنتصر فيها وخاصة الوحدة. وفي أول أزمة خارجية أبدى بسمارك صلابة ومهارة أعطته الفرصة للاستمرار في الحكم في وجه مقاومة عنيفة من المثقفين الألمان. . وكانت تلك الأزمة متعلقة بمكانة بروسيا في الاتحاد الألماني. فقد حاولت النمسا الاستمرار في ادعاء التفوق في توجيه أمور الاتحاد الألماني حتى بعد هزيمتها في ايطاليا. ووجهت دعوة الى الأمراء الالمان لعقد مجلس منهم في فرانكفورت لتشكيل اتحاد فيدرالي تتولى تسيير أموره (حكومة ادارة) على أسس دستور وضعتـه النمسا.

كان بسمارك يدرك أن الهدف الحقيقي للنمسا من وراء هذه المناورة الدبلوماسية هو أثبات أن يدها هي العليا في أمور ألمانيا. ومن ناحية أخرى **قال بسمارك ان ذلك الدستور الذي تحتال به النمسا هو أسوأ دستور صدر في العالم حتى ذلك الوقت.**

ومن ثم كانت معارضته حاسمة، وكانت ضربته قوية حين رفض الاشتراك في مؤتمر فرانكفورت الا على أساس اعطاء بروسيا حقوقا تضعها على قدم المساواة تماما مع النمسا فيها يتعلق بالتصديق على اعلان الاتحاد الألماني للحرب، وبرئاسة هذا الاتحاد. ولقد كانت هناك موجات استياء من جانب بعض الأمراء الألمان الخائفين من تفوق بروسيا فضلا عن انزعاج النمسا من هذا الملك المتغطرس.

ولكن هذا الملك كانت له نتائجه الايجابية الكبرى بالنسبة لبروسيا. . .

١ ــ فقدت النمسا عمليا قدرتها على التحكم وحدها في الاتحاد الألماني وبالتالي أزالت بروسيا الآثار السيئة المترتبة عن اذلال ألمتز بعد ثلاث عشرة سنة.

٢ ــ بدا واضحا أن بروسيا هي القوة الألمانية الايجابية نحو الوحدة وأن النمسا تعمل على المحافظة على مكانتها وتفوقها في ألمانيا. وأصبحت الوحدة الألمانية ـ في نظر الكثيرين ـ متوقفة على مصير هذا التنافس وعلى نتيجة الصدام المسلح بين النمسا وبروسيا الذي أصبح من الأمور.

٣ ــ لقد كان التاريخ الألماني، وخاصة تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة، عاملا وحافزا على نمو فكرة الوحدة الألمانية. فكما كان الايطاليون يستعيدون أيام الامبراطورية الرومانية، أصبح الألمان يستعيدون ذكريات وتاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة، وخطط بسمارك لمواجهة هذا الصدام المرتقب على أساس الانفراد بالنمسا دون معاضدة دولة أخرى لها في المعركة المقبلة. وكانت القوة الكبرى المستعدة لتأييد النمسا ضد بروسيا هي روسيا فعمل على كسبها الى جانبه. ولاحت هذه الفرصة عندما وقعت المشكلة البولندية في (١٨٦٣) فقد ظلت الحركة الوطنية القومية مستقرة في بولندة برغم قضاء روسيا عليها بعنف في عام ١٨٣٠ ثم في عام ١٨٤٨. وكان جميع أحرار العالم يقفون وراء الانتقاضة البولندية في عام ١٨٦٣ ضد الاستبداد الروسي. ولكن موقف الحكومات الانجليزية والبروسية على السواء وبوجه خاص، كان على عكس موقف المتحررين الأخلاقيين في الشعب الانجليزي والشعب البروسي (ألماني).

المشكلة البولندية وموقف بسمارك منا :

كان الأحرار البولنديون يتطلعون الى ضغط أوربى عام ضد روسيا، وكانت

تطلعاتهم قوية للغاية صوب انجلترا وفرنسا. واعتقد الامبراطور نابليون الثالث أنـه قد يستطيع الاعتماد على بريطانيا لتأييد الحركة التحررية البولندية. ولكن موقف الحكومة الانجليزية كان يختلف أساسا عن توقعات وآمال نابليون الثالث.

وكانت الحكوة البريطانية تخشى من اعادة ظهور بولندة. وهي دولة ستكون بلاشك كاثوليكية، وبالتالي ستصبح ـ من وجهة نظر الحكومة البريطانية ـ قوة متحالفة طبيعيا مع فرنسا. وعندما فشلت مجهودات نابليون الثالث مع بريطانيا اتجه صوب النمسا يغريها بالتحالف معه على أساس اعادة بناء بولندة، بل اعادة تخطيط خريطة أوربا وتعديلها تعديلا جوهريا، وقدم مشروعا معقدا كل التعقيد الى الحكومة النمساوية وهو مشروع كفيل باثارة العديد من المشكلات أكثر منه قدرة على حل المشكلة البولندية(١).

لقد كان نابليون يهدف الى حل المشكلة القومية البولندية في نفس الوقت الذي كان يسعى فيه لتخليص فرنسا من معاهدات عام ١٨١٥ ومن هنا جاء التعقيد.

وبالتالي كانت روسيا تخشى من تلك الجهود الكبيرة الفرنسية لاحياء الدولة البولندية. وانتابت حكومة القيصر مرارة عميقة من فرنسا وفي هذه الظروف التي

(١) عرضت أوجيني ـ امبراطورية فرنسا ـ على ريتشارد دى مترنخ سفير النمسا في باريس مشروعا من هذا القبيل ملخصة: تشكيل مملكة بولندية على عرشها ملك ساكسى أو أرشيدوق نمساوى، وفي مقابل تنازل بروسيا عن بوستانيا وسيليزيا ستحصل على ساكس وهانوفر أما النمسا فتحصل على سيليزيا والدول الألمانية الجنوبية في مقابل تنازلها عن غاليسيا وعن البندقية وهذه الأخيرة ستعطى لايطاليا. وروسيا تحصل على مكاسب أرضية في الأمبراطورية العثمانية، على ألا يكون ضمن مكاسبها القسطنطينية التي تعطى لليونان. وتحصل فرنسا على الضفة اليسرى للرين ويمكن تقسيم البلجيك مع انجلترا. ومع أن ريتشارد دى مترنخ كان يعتقد أن هذا المشروع ليس سوى «أحلام سياسية» فقد كان نفس الوقت يعتقد أن = لهذا المشروع أساسا ما من الصحة، وانه على الأقل يكشف اتجاها من اتجاهات الامبراطور نابليون. ولقد كان هناك فعلا مشروع حكومى حاولت الحكـومة الفرنسية أن تجس نبض الحكومة النمساوية بشأنه ويتلخص في اعادة تكوين الدولة البولندية ويكون على رأسها ارشيدوق نمساوى في مقابل تنازل النمسا عن البندقية، وتحصل النمسا أيضا على ولايتى الدانوب (الافلاق والبغدان) وتحصل بروسيا على هانوفر، وتقتسم فرنسا مع الاراضى المنخفضة بلجيكا، وتنشأ دولة حاجزة بين فرنسا وبروسيا على الضفة اليسرى للرين. ولكن الحكومة النمساوية رفضت الموافقة على هذا المشروع أيضا.

ساهم فيها الشعب الفرنسي وامبراطورة، والشعب الانجليزي، دون حكومته في الدفاع عن حقوق البولنديين مد بسمارك يد بروسيا لروسيا وكان مفتاح الموقف كله فعلا في يد بروسيا المتاخمة لروسيا ولبولندة. رفض بسمارك التعاون مع فرنسا والنمسا ضد روسيا من أجل المسألة البولندية. بل وقع مع روسيا اتفاقية التنسلبين في ٢٢ يناير عام ١٨٦٣ عسكرية محدودة المفعول ولكن عمقية في تأثيرها النفسي على حكومة القيصر وشعبه في هذه الأزمة. فقد قامت صداقة بروسية - روسية، تقوم على أساس المصالح المشتركة. ومن هنا أصبح بسمارك مطمئنا الى الجبهة الروسية عندما يجد الوقت قد أزف لخوض حرب ضد النمسا.

وقبل أن يقع هذا الصدام المباشر البروسي النمساوي نشبت أزمة الدوقيتين الألمانيتين في الدنمرك، شلزويج وهولشتين.

الحرب الدنمركية :

هذه الأزمة وقعت بسبب الاختلاف حول مصير دوقيتين احداهما ألمانية تماما وهي هولشتين والثانية جزء منها ألماني والآخر دنمركي وهي شلزويج. وهذه الحرب وقعت بين دولتين عسكريتين كبيرتين متحالفتين ضد دولة أخرى صغيرة. فقد تحالفت الامبراطورية النمساوية مع بريطانيا ضد الدنمرك. وكانت أطماع هاتين الدولتين، وما بينهما من تنافس من الأسباب الجوهرية التي أدت الى المحاولات العديدة التي بذلت لمنع وقوع حرب كان من المؤكد فيها انتصار هذين الحليفين الكبيرين على الدنمرك. . كان أطراف النزاع هم أكبر دولتين متنافستين على زعامة الديت الألماني (النمسا وبروسيا)، وكانت الدنمرك دولة أوربية لها مكانتها، خاصة البحرية، ولكن كانت غير قادرة على أن تتصدى لواحدة من هاتين الدولتين الكبيرتين، خاصة في ظروف الانقسام الداخلي الذي كات تعانية في مطلع الستينات من القرن التاسع عشر. فقبل أن يتوفى فردريك السابع ملك الدنمرك في ١٥ نوفمبر عام ١٨٦٣ دار جدل شديد حول مستقبل العرش الدنمركي، وما هي الممتلكات التي ستظل تحت حكم الملك الجديد خاصة فيما يتعلق بدوقيتي شلزويج وهولشتين(١). فقد أثيرت هذه التساؤلات بعد أن تطور الموقف بسرعة

(١) نصت معاهدة فيينا على أن هولشتين عضو في الاتحاد الالماني. ومع أن هولشتين كانت =

الى أن:

١ ـ أعلن الملك فردريك السابع رغبته في اصدار دستور لبلاده يجعلها كلها ـ بما فيها الدوقيتين شلزويج وهولشتين. تحت هذا الدستور[1]، ولكنه توفى بعد ذلك بوقت قصير ولكن بعد أن أعلن ضم الدوقيتين لمملكته وهو الأمر الذي أكده خليفته من بعده كريستيان السابع. أعلن فردريك أو جستنبورج مطالبته بعرش الدنمرك وأيده «دايت» فرانكفورت وفي نفس الوقت ظهرت اتجاهات نحو فصل هاتين الدوقيتين عن الدنمرك ووضعهما تحت حكم فردريك أوجستنبورج. وقد انحاز بسمارك الى فصل الدوقيتين.

٢ ـ كانت النمسا تصر على منع بروسيا (بسمارك) من أن يحل بمفرده هذه المشكلة.. ومن هنا بدأ تفاهم بروسى نمساوى على حل هذه المشكلة وفق أهدافهما. في نفس الوقت الذي كان يضمر فيه كل منهما للآخر شيئا آخر.

فقد تحالفت بروسيا وروسيا (على يد بسمارك) على منع ملك الدنمرك الجديد من ادماج الدوقيتين في دولته، وأعلنتا أنهما تعملان بإسم «الدايت الألماني في فرانكفورت» وكان هذا من الأسباب الجوهرية التي جعلت الغالبية العظمى من الدول الأوربية تقف مكتوفة اليدين أمام انقضاض العملاقين على الدنمرك.

وفيما يلي نظرة سريعة على موقف الدول الأوربية من هذه الحرب:

انجلترا: أعلن بالمرستون غضبة كلامية على تعدى النمسا وبروسيا على

= منفصلة عن شلزويج فانه كانت لهما وزارة واحدة وبسبب ارتفاع حرارة الالماني القومية الالمانية تطلع الالمان الى دمج هاتين الدوقيتين في الاتحاد الألماني والدولة الألمانية المنتظر ظهورها. وقامت محاولة لذلك خلال التمردات القومية في عام ١٨٤٨ ولكنها فشلت بالقوة وحتى لا تتكرر أزمات بسبب هاتين الدوقيتين عقدت مفاوضات دولية أدت الى عقد معاهدة لندن عام ١٨٥٢ نصت على أنه بعد وفاة فردريك السابع يتولى العرش زوج ابنة شقيقة كريستيان أمير كلوجسبورج. على أن تظل هولشتين ضمن الدايت الالماني ـ ومع أن انجلترا وفرنسا وروسيا بجانب بروسيا والنمسا قد وقعت هذه المعاهدة فان الدايت الالماني في فرانكفورت رفض اقرار تلك المعاهدة.

(١) صدر فعلا الدستور في ٣٠ مارس ١٨٦٣ وبمقتضى هذا الدستور ادمجت شلزويج في مملكه. في حين أعطى لهولشتين نوع من الاستقلال الداخلي. ثم أعلن فرديك الرابع ضم الدوقيتين في دستور آخر في ١٣/١١/١٨٦٣.

الدنمرك.

فرنسا: كان نابليون الثالث مؤيدا لمبدأ القوميات، فعلية أن يطبق المبدأ في ألمانيا كما سبق له أن طبقة في ايطاليا. هذا فضلا عن أنه كان يواجه مأساة حملته الفاشلة على المكسيك.

روسيا: كانت لاتزال شاكرة لبسمارك موقفه من المشكلة البولندية.

وانتصرت الدولتان الكبيرتان، وأصبح عليهما أن يحققا أطماعهما أكثر من أن يحققا أية اهداف أخرى. كان بسمارك يسعى الى أن يوقع فردريك دي اجستنبورج من بروسيا على معاهدة عسكرية يوافق فيها على انشاء قاعدة بحرية لبروسيا في كييل. ومعنى هذا أن الدوقيتين تصبحان تحت السيطرة البروسية، الأمر الذي عارضته بشدة الامبراطورية النمساوية حتى لاتترك لبروسيا اليد العليا في تسوية المشكلة أو في توجيه الدايت الألماني.

وتوصلت الدولتان الى تسوية عرفت باسم اتفاقية جاشتين (أغسطس ١٨٥٦) وتقضى بـ:

١ ــ وضع شلزويج وميناء كييل تحت الادارة البروسية.
٢ ــ هولشتين تحت ادارة النمسا.

ماذا كان يريده بسمارك من كييل بالذات. لقد كانت كييل في نظر بسمارك القاعدة التي تجعل من بروسيا دولة قوية، ان لم تكن متحكمة في بحر البلطيق. ولقد حقق بسمارك جزءا من هدفه في هذه الحرب الدنمركية. ولكن النزاع بين النمسا وبروسيا على مستقبل هاتين الدوقيتين (شلزويج وهولشتين) كان يمثل مظهراً من مظاهر الصراع بين النمسا وبروسيا، ذلك الصراع الذي سينفجر بعد سنوات قليلة في حرب كبرى بينهما عام ١٨٦٦.

الحـــرب البروسية النمساويـــــة:

كانت كل من بروسيا والنمسا في الواقع تدرك أن الأمور لايمكن أن تسير على هذا النحو من التسويات المؤقته. وكانت بروسيا أكثر ادراكا بأن حربا وشيكة الوقوع مع النمسا سيكون فيها خلاص الألمان من العقبة النمساوية التي تحول دون وحدة ألمانية حقيقية. خاصة اذا أصبح على هذه الوحدة أن تتم على يد

بروسيا بالذات. وكان نمو مكانة بروسيا السياسية والاقتصادية باضطراد في الاتحاد الألماني تثير قلقا متزايدا لدى السلطات النمساوية. فمن الناحية الاقتصادية، كان الزولفرين قد تم تكوينه في عام ١٨٢٥ عندما انضمت اليه الدويلات الألمانية المطلة على بحر الشمال. وبالتالي أصبحت ألمانيا (اقتصاديا) موجودة فعلا، وان لم تكن لها حدود سياسية. كذلك كانت خطوط المواصلات الحديدية قد ربطت بين أجزاء (ألمانيا) ربطا اقتصاديا قويا: بين ميونيخ - ليبزج - برلين، وغيرها. وأهم من ذلك أن مد خطوط السكك الحديدية بعد عام ١٨٥٢ جعل وجه الدول الألمانية نحو بروسيا وفرنسا والغرب أكثر منه نحو النمسا. ومن ذلك خطوط حديدية مع فرنسا، وسويسرا في نفس الوقت الذي كانت فيه خطوط المواصلات الأخرى عاملة ونشطة مع النمسا وروسيا. الا أن النقل أصبح أكثر سرعة من ميونخ الى همبرج عنه من ميونخ الى فيينا. وولت بافاريا وورتنبورج وجهها الاقتصادى صوب بحر الشمال على حساب نشاطها صوب الشرق النمساوى. .

وفي مجال الصناعة، تزايدت كميات الفحم المستخرجة من الراين وستفاليا ومن الساروساكس وسيليزيا العليا. ونمت صناعة الأصواف والقطن والسكر، وأصبحت مكانة الصناعة والعمال في ألمانية قوية، وبات من المستحيل على بافاريا وهانوفر وساكسونيا أن تتمسك بالنمسا حتى تحتفظ كل من هذه الدويلات الألمانية بمكاسبها الاقتصادية (الألمانية) بل لقد كان هذا النمو الصناعي والتجاري (الألماني) علي حساب آمال الاقتصاديين النمساويين فضلا عن النمسا كانت أجزاء من منافسة الصناعة الألمانية الناشئة ولكن النشطة. حاولت النمسا أن تخرج من هذا المأزق الاقتصادى عن طريق انشاء اتحاد جمركي بين الامبراطورية النمساوية والزولفرين. ولكن أسرعت بروسيا الى افساد هذه الخطة بأن عقدت مع فرنسا معاهدة تجارية (٢٩ مارس ١٨٦٢) نصت على التخفيض المتبادل في الرسوم الجمركية. الأمر الذي جعل الفارق بين التعرفة الجمركية النمساوية والتعرفة الجمركية لدى الزولفرين كبيرة بحيث لا تسمح بلقاء اقتصادي بين الامبراطورية النمساوية والزولفرين. واذا ماحاولت النمسا أن تقحم نفسها في الزولفرين في هذه الظروف، فلن تحصل الا على شلل اقتصادى مروع. ولهذا تخلت النمسا عن سياستها الاقتصادية تلك وعمدت إلى سياسة جديدة تقوم على أساس منع بروسيا من تنفيذ معاهدتها مع فرنسا عن طريق اقناع كل من بافاريا ودتنبرج

وهنوفر بالتخلي عن الاتحاد الجمركي البروسي. ولكنها فشلت في هذه الجهود كذلك، بسبب متانة التضامن الاقتصادي في داخل (ألمانيا)، وعلى العكس مما كانت تتوقعه النمسا، فقد أصبح التمسك بالزولفرين، وبتقويته سياسة ثابتة لدى الدويلات الألمانية. وقد تجلى ذلك خلال انتخابات الجمعية التشريعية، بافاريا، وأعلنت بعض الولايات الألمانية أن المحافظة على الزولفرين أصبح مسألة حياة أو موت، وفعلا انضمت الولايات الألمانية والدويلات الألمانية الى المعاهدة البروسية ـ الفرنسية فكان ذلك نصرا كبيرا لبروسيا (ديسيمبر ١٨٦٣). وهكذا بدا واضحا أن ميزان القوى الاقتصادية الألمانية أصبح مائلا بكل وضوح نحو بروسيا مبتعدا جدا عن الامبراطورية النمساوية، الأمر الذي سيكون له أبعد الآثار في تحديد نتيجة الصدام المتوقع بين الدولتين الكبيرتين: النمسا وبروسيا. ولكن ليس معنى هذا أن التضامن الاقتصادي (الألماني) كان حاسما في تحدي النمسا. والواقع كان هذا العامل معطلا للتفوق النمساوى في داخل ألمانيا ولم يمنع بعض الدويلات الألمانية من استمرار روابطها السياسية مع النمسا. ولكن لم يعط للنمسا فرصة أخرى للتفوق على بروسيا في (ألمانيا). أما من الناحية السياسية والقومية فقد كانت الموازين تتجه بثقلها نحو بروسيا على حساب النمسا باطراد مستمر منذ اذلال ألمتز (١٨٥٠) فقد قويت جدا الدعوات القومية الاتحادية الألمانية في أعقاب انتصار الايطاليين (بمساعدة فرنسا) على الامبراطورية النمساوية (١٨٥٩). **وظهرت عدة مشروعات لما ستكون عليه ألمانيا المتحدة في المستقبل :**

١ ـ هناك من مطالب (بألمانية الكبرى) التي كانت تضم النمسا وألمانيا ومعهما وسط أوربا.

٢ ـ وهناك من نادى (بألمانيا الصغرى).

ولكن نمو بروسيا جعلها محط آمال القوميين الألمان. فأنشأوا الاتحاد القومى. في سبتمبر عام ١٨٥٩. وكانت فيه تيارات وحدوية مختلفة، بعضها اتحادى، وبعضها وحدوى يطالب بألمانيا الدولة التي تنصهر فيها كل الدويلات الألمانية. هذه هي الظروف الاقتصادية والسياسية التي كانت عليها (ألمانيا) عندما احتدم الصراع بين النمسا وبروسيا. وهي كلها تبدو مؤيدة لبروسيا على النمسا بصفة عامة، واتضح هذا خلال الأزمة التي اشتدت حول الدوقيتين شلزويج وهو لشتين

عندما وافق «الاتحاد القومي» على ضم هاتين الدوقيتين الى بروسيا (خريف عام ١٨٦٤). لقد صدر هذا القرار على هذا النحو بتوجيه وبضغط متصاعد من جانب بسمارك، حيث كان (الاتحاد القومي) يريد ادخالها في نطاق الاتحاد الألماني. الا أن بسمارك كان يرى أن الوقت قد أزف لأن تأخذ بروسيا زمام الوحدة الألمانية بيدها هي بغض النظر عن المثاليات التحررية لدى المفكرين الألمان. ونظرية سريعة على الاستعدادات الدبلوماسية والعسكرية التي كانت تشغل بال بسمارك تؤكد لأول وهلة أن بروسية قد وطنت نفسها على استخدام الأسلوب الهجومى.

وهذا أمر طبيعى لدولة تريد تعديل الأمور لصالحها حتى لو كرهت الدول الأخرى. ولكنه ليس انطلاقا عسكريا لارجعة فيه، والحقيقة هي أن العسكرية البروسية كانت تجد مقاومة عنيفة للحروب، ولكن روعة الأحداث التي كانت تسعى اليها العسكرية البروسية وايمانها بالنصر كان يتغلب على معارضى الحروب.. فلقد كان بسمارك يريد حربا سريعة يفرضها فرضا على النمسا قبل توقيع معاهدة جشتين. ففي مايو عام ١٨٦٥ أعلن بسمارك عزمه على ضم الدوقيتين، واخراج النمسا من هولشتين، بدون أي تعويض لها، حتى لو أدى ذلك التصرف الى حرب ضد النمسا، كان هو في الحقيقة يسعى اليها.. ولكن مر الصيف دون أن **يحقق هدفه للأسباب التالية:**

١ ـ كان الملك غليوم مترددا في فرض حرب على النمسا خشية أن تفقد بروسيا نهائيا الدوقتين وصداقة والتحام الدول الألمانية.

٢ ـ كان بسمارك يرى أن حربا ناجحة ضد النمسا تتطلب ارغام النمسا على القتال في جبهتين، فاتصل بسمارك بالحكومة الايطالية ملوحا لها بالحصول على البندقية من النمسا اذا ما تحالفت ايطاليا مع بروسيا ضدها. وكانت ايطاليا راغبة كل الرغبة في استكمال وحدتها بضم البندقية اليها، ولكن مثل هذه الرغبة لايمكن تحقيقها على هذه الصورة البسيطة التي رآها بسمارك. فان ابقاء البندقية في يد النمسا كان بمقتضى معاهدة من وضع وتدبير نابليون الثالث، وفعلا أشارت الحكومة الايطالية على بسمارك أن هذه المسألة تحتاج الى موافقة مسبقة من جانب فرنسا.. ولكن فرنسا كانت حتى هذا الوقت لا تحبذ حربا بين بروسيا والنمسا لاتكون فيها فرنسا طرفا رابحا

ولذلك عدما طلب بسمارك من حكومة فرنسا الوقوف على الحياد من الحرب النمساوية البروسية المقبلة أبت عليه ذلك.. كل هذا هو الذي دفع بسمارك الى توقيع معاهدة جاشتين (١٤ أغسطس عام ١٨٦٥) لأن الموقف الدولى ليس في صفه ولأن الثمرة لم تكن قد أينعت بعد. ولكنه سعى الى تغيير هذه الأوضاع. وكانت مقابلته مع نابليون الثالث في بيارتيز نقطة تحول خطيرة في هذه المشكلة المعقدة أمام بسمارك كانت ظروف فرنسا، وظروف نابليون الثالث مشجعة لبسمارك لكى يغير من موقف الامبراطور الفرنسي. فلقد ثبت فشل الحملة الفرنسية إلى المكسيك، فكانت سببا من الأسباب التي هوت بمكانة نابليون الثالث، وكان نابليون الثالث يبحث عن تعويض لهذا الفشل الكبير، خاصة وأنه كان دائما يعمل على تحرير فرنسا من قيود معاهدة ١٨١٥ عن طريق تنمية قوة ومكانة فرنسا. وكانت فرنسا قد عقدت منذ وقت قصيرمع ايطاليا معاهدة في سبتمبر عام ١٨٦٤ وعدت فيها ايطاليا بالامتناع عن مهاجمة روما وفي مقابل ذلك سحبت فرنسا حاميتها من روما في الوقت الذي ظلت فيه ايطاليا تتخذ عاصمة لها غير روما (فلوز). ولكن فرنسا نابليون الثالث كانت تؤيد مبدأ الوجدة القومية. ومن ثم كان يمكن أن يتخذ بسمارك من هذا المبدأ وسيلة لكسب نابليون الثالث الى جانبه عن طريق الحصول منه على الموافقة على عقد حلف ايطالي ـ بروسى يعطى ايطاليا البندقية. وقد تم ذلك في المقابلة التي تمت بين بسمارك ونابليون الثالث في بيارتز (اكتوبر عام ١٨٦٥)[١] ونجحت سياسة بسمارك مع ايطاليا فعقد معها معاهدة تحالف في ٨ أبريل عام ١٨٦٦ تحصل بمقتضاها على البندقية بعد هزيمة النمسا. وبالتالي أصبحت الحرب بين النمسا وبروسيا وشيكة الوقوع[٢].

---

(١) يلاحظ أن بسمارك وعد نابليون الثالث بأنه سيحصل من وراء ذلك على مكاسب دون أن يحدد بسمارك له نوع هذه المكاسب، وذلك لأنه كان يضمر لفرنسا سياسة لاتقل عن سياسته ازاء النمسا ـ ان لم تزد ـ خطورة.

(٢) وكانت مساعى الايطاليين للحصول على وحدة كاملة لايطاليا بما فيها البندقية وروما والترينتينو الجنوبي لا تهدأ. ويبدو أن الحكومة الايطالية فضلت سياسة التدرج للوصول الى الوحدة النهائية، نظرا لتحكم الدول الكبرى الاوربية في العلاقات الدولية وفي توجيه =

وهناك من يرى أن الدافع الى تفاهم بين نابليون الثالث وبسمارك على منح ايطاليا البندقية هو مبدأ القوميات الذي كان قد تزعمه نابليون الثالث. والسبب في هذا أن مبدأ القوميات هذا يفترض على المتمسك به أن يطبقه دائما وليس جزئيا. ومن ثم كان على نابليون أن يضمن لايطاليا، لا البندقية فقط، وانما كذلك الترينتو الجنوبي (الايطالي السكان) والواقع أن ذلك الاتجاه العام نحو تطبيق المبدأ القومى بحذافيره كفيل بأن يثير الكثير من مشاكل الحدود المعقدة ويكفى أن تحل المشاكل الكبرى الظاهرة مثل البندقية. أما الترينتينو ـ برغم أنه جزء من ايطاليا فانه لم يكن يشكل جرحا قاسيا في جسد القومية الايطالية حينذاك.

ومن ناحية أخرى، كان نابليون يرى في مساعية نحو ضم البندقية الى ايطاليا **محو لآثار فيلافرانكا** التي تألم منها الايطاليون، وكان يعتقد أنه باعادة البندقية الى ايطاليا سيكسب ايطاليا الى جانبه فضلا عن أن الايطاليين سيحفظون له هذا الجميل فلا يثيرون مشكلة ضم روما الى ايطاليا هذا الضم الذي لابد أن يثير كاثوليك فرنسا الذين يعتمد عليهم نابليون الثالث في توطيد سيطرته الداخلية. ماذا كان عليه موقف النمسا لمواجهة هذه الأخطار المحدقة بها، وبممتلكاتها، وبمكانتها في الدايت الألماني، وبمركزها كدولة كبرى أوربية.

حقيقة كانت حكومة النمسا تدرك أن استعدادات بروسيا العسكرية كانت كبيرة ولكنها لم تكن تقدر أنها بلغت هذه الدرجة من الدقة والسرعة والضخامة والتقدم في استخدام أحدث الأساليب والامكانيات وأسرعها في التعبئة والحشد. فقد كان بسمارك قد قسم القوات العسكرية البروسية الى عدة جيوش، كل منها قد تحدد له مكان معين ليحتشد فيه مستقلا عن غيره من الجيوش الأخرى. وكان كل جيش منها يعبأ تعبئة كاملة من جميع الجوانب والعتاد والتشكيلات من مدفعية، ومشاة، وامدادات ومهندسين. ومن هنا ضاعت على النمسا فرصة السبق في التعبئة، خاصة وأن الحكومة البروسية كانت قد أتمت مدخطوط سكك حديدية أعطت بسمارك وقادة الجيش امكانيات ضخمة حينذاك لسرعة تعبئة

= السياسة الأوروبية الامر الذي كان يجعل ايطاليا مغلولة في تحقيق الوحدة الايطالية كلها دفعة واحدة.

الجيوش وتحركها.

فما هو موقف الدول الكبرى من هذا الصدام العسكرى النمساوى البروسى.

ان مواقف الدول الكبرى، البعيد عن المشاركة في الحرب، هو سبب رئيسي في انتصار بروسيا ذلك الانتصار السريع الكبير. فلماذا وقفت كلها هذا الموقف. وكمبدأ عام فان الدول لاتشترك في حرب الا اذا كانت حسابات المكاسب تغطى وتزيد على حسابات الخسارة، وكل دولة من الدول الكبرى الأوربية كانت تحسب أرباحها وخسارتها من وراء المشاركة أو عدم المشاركة في هذه الحرب. وكانت النتجية ضد التدخل العسكري المباشر ضد أي من الدولتين المتحاربتين أو ضدهما معا.

الحرب البروسية الفرنسية:

تحدث شاروندون Rondon - وزير الحربية الفرنسي - عن معركة سادوا بقوله: «ان فرنسا هي التي هزمت في سادوا»، ووصف السياسي الفرنسي الكبير تير Thiere تلك المعركة بقوله: «ان ما حدث لهو أعظم كارثة لفرنسة نكبت بها خلال أربعمائة عام» والواقع أنها كانت كذلك. فقد ظهر عملاق فجأة بجانب فرنسا. وكانت امكانيات التفاهم مع بروسيا بعيدة المنال بالنسبة للامبراطور نابليون الثالث. بل لقد اضطر نابليون في علاقاته مع بروسيا بعد سادوا على عقد مفاوضات أساءت اليه وأفقدته احترام الدول الكبرى، بل الشعوب الأوربية اذ حاول أن يحصل على أرض ألمانية، وقدم بيانا بالمطالب الى بسمارك. وكانت هذه المطالب تمس بافاريا زعيمة الألمان الجنوبيين الذين كان نابليون الثالث يقول عنهم انهم القوة القادرة على ردع بروسيا. فما كان من بسمارك الا أن منح للصحافة الفرنسية فرصة نشر المطالب الفرنسية وتمسك بروسيا بعدم تلبية أي منها فبدت بروسيا حامية للألمان، وبدت فرنسا بالنسبة لبافاريا - صديقة فرنسا - ولغيرها من الدويلات الألمانية الجنوبية بدت لهم فرنسا كدولة خائنة لا يعتمد عليها، وحيث ان نابليون الثالث كان قد أدرك أن حصوله على مكاسب ما في الدويلات الألمانية الجنوبية، فقد تطلع الى بلجيكا. وفي سبيل الحصول عليها عرض نابليون الثالث على بسمارك عن تحالف فرنسي بروسي يستطيع أن يتحكم في أمور أوربا، ولكن

رفض بسمارك مثل هذه العروض، بل كان معرضا عن فرنسا، موقنا أن **حربا لابد من وقوعها بين فرنسا وبروسيا** اذا أريد لألمانيا المتحدة الكبرى أن تظهر الى الوجود. ولذلك **وضع بسمارك سياسته على الأسس الرئيسية التالية:**

١ ـ **ضمان حياد روسيا**، أو تدخلها الى جانب بروسيا اذا تحركت النمسا الى جانب فرنسا. مع العمل على كسب هدوء بريطانيا.

٢ ـ **تطويق فرنسا ان أمكن مثلما فعل مع النمسا قبل حرب عام ١٨٦٦.**

٣ ـ **انتظار أزمة دولية كبرى**، أو أزمة داخلية في فرنسا تمكنه من اعلان قيام الوحدة الألمانية.

لعل تلك الظروف هي التي أدت الى أن يقف بسمارك منذ عام ١٨٦٧ حتى عام ١٨٧٠ موقف المترقب فقط دون أن يقحم حربا على فرنسا وجاءت فرصته الكبرى بعد أن فقد نابليون الثالث نفسه كثيرا من الأصدقاء في الداخل وفي خارج فرنسا. . لقد كان نابليون الثالث. زعيم الحركة القومية في أوربا ـ في قرارة نفسه مناهضا للوحدة الألمانية لما سيترتب عن ذلك من ضعف في مكانته الدولية ومن تحديد مباشر لفرنسا على يد ألمانيا الكبرى بجوارها. ولكن بعض كبار رجال السياسة الفرنسية من أمثال اميل أوليفيه كان يرى أن بقاء بروسيا ونموها على ذلك النحو أصبح مفروغا منه حتى لو ضمت بروسيا الدويلات الألمانية اليها برضاء الأهالي ولكن اذا ما لجأ بسمارك الى ضم هذه الدويلات الى مملكة بروسيا بالقوة فليس على فرنسا الا أن تشن الحرب ضد بروسيا المعتدية على الحريات. وحتى فكرة الحرب هذه كانت مهزوزة لدى أوليفيه. ولكن نابليون الثالث نفسه كان لايريد في هذه المرة أن يجازف بحرب كبيرة ضد بروسيا[1]. دون أن يجعل قوى المعارضة والقوى المطالبة بالدستور الحر المطلق في فرنسا مشتركة فعليا معه في توصية هذه الحرب أن وقعت، أو في وضع قواعد السلم والتفاهم مع بروسيا ان تم الوصول الى حل ما بين الطرفين. وفعلا قام نابليون الثالث بتعديلات دستورية الا أنها جاءت بحكومة اميل أوليفيه Emil Olivier وزير خارجيتها الدوق دي جرامون Gramont وكان معروفا بميوله نحو النمسا، ولابد أن يكون بسمارك

(١) لقد كان نابليون الثالث وحكومته يسعون الى الوصول الى نزع السلاح في أوربا. ولكن توقفت المساعي في هذا الصدد بسبب أزمة خلو العرش الاسباني ثم الحرب السبعينية.

قد قدر خطورة هذا الاتجاه الفرنسي نحو النمسا. وجاء هذا في وقت كانت فيه اسبانيا تبحث عن ملك يتولى عرشها بعد نجاح ثورة قام بها الجيش والأسطول الاسباني ضد ملكته ازابيلا الغبية الماجنة المتعصبة لكاثوليكيتها (٣ سبتمبر عام ١٨٦٨).

واتجهت أنظار الاسبان الى الأمير ليوبولد هوهنزلرن سيجمار نجن وأيد بسمارك هذا الترشيح، وكان هذا الأمر يمت بصلة القرابة الى غليوم ملك بروسيا، وكان شقيقة قد تولى منذ وقت قريب عرش رومانيا، وبالتالي ستحصل بروسيا على مكاسب سياسية وتجارية كبيرة لو تولى ليوبولد العرش الأسباني. كان بسمارك يرى أن وجود ملك ألماني على عرش اسبانيا يجعل فرنسا بين شقى الرحى (بروسيا واسبانيا) وستضطر فرنسا، عن رغبة أو عن كراهية لأن تحتفظ بقوات كبيرة على الحدود الفرنسية - الاسبانية - أو بمعنى آخر ستواجه فرنسا - مرة أخرى الخطر الداهم الذي سبق أن واجهته في مطلع القرن السادس عشر خلال الحروب بين فرنسوا الأول - ملك فرنسا - وشارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة والذي - كان يتولى عرش اسبانيا كان في حد ذاته تهديدا لنابليون الثالث ولفرنسا، ورفعا للعصا في وجهها، وبالتالي كان على نابليون الثالث أن يتخذ اجراء ضد بروسيا ويصبح أمام أمرين.

١ ـ الحرب وفيها تستطيع بروسيا أن تحقق أهدافها في الوحدة الايطالية.

٢ ـ التقاعس وتقبل هذه الهزيمة السياسية وهذا يعني أن أيام الامبراطور نابليون الثالث في الحكم أصبحت محدودة. وكان بسمارك يرى أن الفوضى التي ستقع فيها فرنسا خلال عمليات اسقاط نابليون الثالث وخلق نظام حكم جديد هي الفرصة التي يجب أن تنتهزها بروسيا لتحقيق وحدة ألمانيا.. ونشط بسمارك في تحريك موضوع العرش الاسباني الخالي متفاوضا مع الحكومة الاسبانية المؤقتة ليمهد الطريق أمام الأمير ليوبولد ليتولى عرش اسبانيا. أما نابليون الثالث وحكومتة قد قرروا منع اعتلاء ليوبولد العرش (٦ يوليو عام ١٨٧٠) مهددين بالحرب.

وبدا في أعقاب ذلك أن فرنسا حصلت على كسب سياسي كبير عندما أعلن في ألمانيا عن سحب ترشيح الأمير ليوبولد للعرش. وتم ذلك بمعارضة بسمارك

ولكن باتفاق من جانب ملك بروسيا والأمير ليوبولد. ولكن نابليون الثالث أراد أن يجعل من نصره السياسي نصرا مدويا يستطيع أن يظهر بروسيا على أنها ليست ندا لفرنسا على الاطلاق. . ولذلك أصر الامبراطور نابليون الثالث على أن تقدم الحكومة البروسية بنفسها على سحب هذا الترشيح، بل أن يعلن غليوم بنفسه ذلك. وبأنه لن يؤيد ترشيح الأمير ليوبولد لعرش اسبانيا اذا ما أثير هذا الموضوع بعد ذلك. واذا كان غليوم لينفى هذه المسألة فان بسمارك ا عتبرها هزيمة كبيرة لبروسيا اذا تراجعت أمام هذا التحدى. وأنها قد تفقد بروسيا مكاسب كبرى كانت بيدها وهيأها بنفسه بسمارك، ومن ناحية أخرى كان بسمارك ينتظر الفرصة التي توقع.نابليون الثالث في هوة الحمق السياسي. وحيث ان بسمارك كان يسعى الى اقحام الحرب على فرنسا فلاشك أن هذه الظروف هي المناسبة خاصة وأن فرنسا مدت بصرها بقوة نحو اذلال بروسيا ونحو الدويلات الألمانية الجنوبية. وهنا دبر بسمارك ورطة سياسية لنابليون الثالث، **اشتهر باسم برقية (أمز) لتدفع بفرنسا الى حرب تبدو فيها أمام العالم على أنها حرب عدوانية ضد بروسيا.**

وقد بدأت ملابسات هذه البرقية عندما التقى ملك بروسيا غليوم بسفير فرنسا في شوارع أمز في ٣١ يوليو عام ١٨٧٠، وحاول السفير بندنى الحصول من الملك البروسي على موافقةمنه على مطالب تقدم بها بشأن تصريح منه بعدم ترشيح الامير ليوبولد لعرش اسبانيا في ذلك الوقت أو بعد ذلك. فرفض الملك كذلك أن يحدد موعدا آخر ليلتقى بالسفير. بهذه المعانى بعث الملك غليوم برقية الى بسمارك مصرحا له بأن يخطر الصحافة بهذه البرقية. ولما وقعت البرقية في يد بسمارك أدخل عليها تحريفا يجعل الملك غليوم وكأنه قد أهين من قبل السفير، فما كان من الملك الا أن رد الاهانة بأشد منها. وظهرت البرقية في الصحف على هذا الشكل الذي وصفه ملتكه ـ القائد الألماني الشهير ـ بقولة انه تحد: وهذا ماكان يريده بسمارك، وما كان لايريده الى حد كبير اميل أوليفيه، ولكن التيار في فرنسا كان عنيفا في اتجاه الحرب ضد بروسيا سواء في الدوائر البرلمانية أو الشعبية، فقد كان الشعب ينادى بالحرب والزحف على برلين، وأصدر مجلس الوزراء اعلان الحرب في ١٤ يوليو عام ١٨٧٠. **وعندما وقعت الحرب ظلت محصورة بين فرنسا وبروسيا.**

فلماذا. كانت «النمسا والمجر» مشغولتين بتوطيد أمورهما الجديدة ومقيدتان بتطورات الموقف في البلقان أكثر من التفاتهما الى الحرب الفرنسية ـ البروسية ولقد

حاولت فرنسا أن تحث النمسا على التحالف معها حتى لقد أغرت النمسا بالتوسع في البلقان في مقابل شن حرب انتقامية ضد بروسيا. ولكن التوسع النمساوى في البلقان كان يعنى حرب نمساوية ـ روسية.. وكان بسمارك يدرك أن لدى نابليون الثالث فرصة لعقد تحالف مع النمسا، ولذلك كان قد تحاشى ذلك بأن رفض سياسة اذلال النمسا بعد سادوا واتخذ حذره في نفس الوقت بأن عقد معاهدة مع روسيا تنص على أن تحشد روسيا جيوشها على الحدود النمساوية اذا ما تحركت الاخيرة لجانب فرنسا (٢٧ مارس عام ١٨٦٨). ولقد كانت النمسا تقيم وزنا كبيرا لروسيا. وهي في نفس الوقت تريد انتهاز فرصة ما تستطيع بها أن تستعيد بها ما فقدته في سادوا على أن يكون ذلك مؤكداً وليس مجرد حرب خاسرة أخرى تخوضها النمسا، وكان الأمل الوحيد الذي يجعل النمسا أكثر تفاؤلا في حرب انتقامية هو ضمان ايطاليا الى الحلف النمساوى ـ الفرنسي المقترح، ولكن محاولاته باءت بالفشل.

والواقع أن الجندى البروسي يمتاز بالطاعة فعلا شأنه شأن أي جندي ممتاز من جنود الدول الأوربية. وانه لا يزيد عن غيره من جنود الدول الأوربية اصرارا على المعارك وتنفيذ الأوامر وانما تضخمت هذه الصورة لأن الجندى الألماني والضابط الألماني كان يشعر بأنه مكلف بأعباء عسكرية باهظة أكثر من غيره، فعلية أن يبذل أكبر الجهد في سبيل تحقيق الأهداف التي وضعت لأمته. الا أن هذه المغالاة في قوة الجندى البروسي ومهارته ومهارة قيادته هي التي أدت الى نكبات كبرى حلت بأوربا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية.. أضف الى هذا أن الجهاز المدنى الذي كان يخدم جبهة القتال البروسية كان مكونا من موظفين متحمسين كل التحمس لمعركة كبرى، وكانت الجبهة الداخلية صلبة قد وضعت أمة بروسية أمام تحديات فرنسة مقيتة الى نفوس الشعب بكافة مستوياته وكان الحرب واجبا فرض عليهم ولذلك كانت التضحيات المقدمة هي في الواقع عن نفوس راضية تفهم معنى الهدف من وراء الموت في حرب مصيرية.

دارت المعارك، وكانت على أرض فرنسا، وكانت نكبات عسكرية متلاحقة بالجيوش الفرنسية فقد هزموا بقسوة جيش مكماهون في فرت Worth وهزموا فروسارد Frossard في استبشرن Spichern (٦ أغسطس عام ١٨٧٠) وكان نابليون

الثالث في القيادة العليا فتركها وأسندها الى بازين Bazaine وأبعد أوليفيه Olivier المعتدل عن الحكم وأسنده الى الكهل العجوز دى ليكو De Lalikao ولكن الضغط الهجومي البروسي هناك كان شديدا حتى استسلم في ٢٧ أكتوبر عام ١٨٧٠. وكان استسلامه قاضيا على جزء كبير من الجيش الفرنسي المقاتل، ومطلقا لمائتى ألف جندى ألمانى ليتقدم في قلب فرنسا. . في الوقت الذي كان فيه جيش كبير بقيادة مكماهون يسعى الى فك حصار جيش بازين أو الالتقاء به اذا كان قد فك بازين الحصار بنفسه على ما كانت تردده الروايات الطائشة، ولكن مولتكه استطاع أن يطوق جيش مكماهون وأن يحصره في سيدان في ٢ سبتمبر عام ١٨٧٠ وأن يرميه بمدفعيته حتى استحال الأمر بالنسبة للفرنسيين الى مجرد مجزرة من جانب واحد. فاضطر مكماهون ـ وكان معه نابليون الثالث الى الاستسلام الى الألمان. وسقطت الامبراطورية الثانية لتقوم في باريس الجمهورية الثالثة ولتبدأ بعد ذلك حرب الشعب الفرنسي ضد الغزاة الألمان. لقد انقلبت الموازين الآن فأصبحت فرنسا هي التي تدافع عن نفسها وأصبحت الروح القومية الفرنسية هي القوة الحقيقية المقاتلة وتبدلت النفوس وان كان أساس التبدل فكريا أكثر منه عمليا وافعيا. وظهرت هنا قيمة الفرنسي كمقاتل ومواطن وسياسى برغم أنه لم يحصل على نصر عسكرى مؤزر أو على عدل سياسي من جانب الدول الأخرى. . لقد بدأ الفلاح الفرنسي يستخدم آلاته البسيطة في قطع خطوط مواصلات الجيش البروسي وشرع غمبتا في تنظيم الدفاع عن باريس وقاتل الفرنسيون أحسن ما قاتلوا حول عاصمتهم حتى سقطوا واستسلمت ولكن فر منها غمبتا فرار الأبطال الذين أبوا أن يتركوا الهزيمة فقتل روح الشعب، في بالون من باريس الى روان ليحشد جيشا جديداً، ولكنه متحمس مستعد للموت دفاعا عن فرنسا. ولأول مرة في هذه الحرب التي كانت طوال الفترة السابقة على حصار باريس من طرف واحد تقريبا، لأول مرة منى الجيش الفرنسي في معركة كولمبيه (١٩ نوفمبر عام ١٨٧٠ م) بهزيمة ساحقة. فعقدت الهدنة في (٢٨ يناير ١٨٧١م)، وأعلن بسمارك قيام الامبراطورية الألمانية.

تأسيس الامبراطورية الألمانيـة :

يعتبر تأسيس الامبراطوية الألمانية في ١٨٧١/١/١٨ حدثا خطيرا في التاريخ

الأوربى الحديث، وبداية عهد جديد، حتى ان هناك اتجاها لدى بعض المؤرخين الى اعتبار عامي ١٨٧٠/١٨٧١ نهاية لعصر، وبداية لعصر جديد، فحتى عام ١٨٧٠ هو تاريخ أوربا الحديث، وما بعده تاريخ أوربا المعاصر. لقد أصبحت الوحدة الألمانية أمرا واقعيا وقوة زائدة. وأدت تلك الانتصارات المتتالية بين عامي ١٨٦٣ ـ ١٨٧١ الى انـطلاق الـروح القومية نحو تحقيق الوحدة فلقد شاركت الدويلات الألمانية الى جانب بروسيا في الحرب ضد فرنسا وفي كسب المعارك. وبذل الألمان الجنوبيون دماءهم في المعارك جنبا الى جنب مع الألمان الشماليين. وقويت الدعوات الى الوحدة. ولكن كان لبسمارك وجهة نظر أخرى. لقد كان بسمارك يعمل على تشكيل دولة ألمانية كبيرة تكون تحت توجيه بروسيا. ولم تكن الوحدة القومية هي هدفه المثالى والنهائي على اعتبار أن تفوق بروسيا في هذه الدولة يحقق الهدف القومي من الوحدة، وتفوق بروسيا السياسي والتوجيهي يعطى لها الحق في استمرار تحمل مسئولية الحفاظ على هذه الوحدة التي بنتها هي بالحديد والنار. لقد أقام بسمارك الامبراطورية الألمانية على هذا الأساس من زعامة بروسيا للدويلات الألمانية تحت امبراطور ألماني.

كان الامـبراطـور الألـماني رئيسـا ووراثيا للاتحاد الألماني الجديد ويستمد هذا الامبراطور قوته في الحقيقة لامن كونه امبراطور ألمانيا وانما لأنه ملك على بروسيا وأوسع دول الامبراطورية. وبرغم ما لهذا اللقب الامبراطوري من جاذبية، فقد كان غليوم ـ ملك بروسيا ـ مترددافي قبوله ولقد سبق له أن رفضه في عام ١٨٤٩ عندما قدم اليه من أيدي التقدميين الالمان الداعين الى الحكم الدستوري، وكان معرضا عنه في عام ١٨٧٠ أيضا. ولم يقبله الا من يد ملك بافاريا نفسه. ومع هذا كان غير راض حتى لقد فكر في هذا الوقت بالذات في التنازل عن العرش لابنه ولى العهد. ولقد كان تحديد اللقب على ذلك النحو «الامبراطور الألماني» مقصودا بدقة بالغة تفاديا للحساسيات التي كانت لدى الدويلات الألمانية التي دخلت في اطـار هذه الامبراطورية الجديدة. فعبارة «امبراطور ألمانيا» تعنى أن صاحبة العرش أصبح له مطلق الحرية في التحكم في الدويلات الألمانية، أما «الامـبراطور الألماني» فيبدوا، لحكام هذه الدويلات نوعا من السيادة والكيان في اطار هذه الامبراطورية. وكان طبيعيا أن يكون الدستور الجديد متمشيا مع تلك الفكرة

التي تبقى تلك الكيانات الاقليمية وخاصة في جنوب ألمانيا. . نص الدستور على تكوين مجلسين الأول هو البندسرات Bundesrat (أي المجلس الأعلى) والثاني الريخستاج. . Teichstag كان البندسرات تتركز فيه السلطة التشريعية وكان مؤلفا من ٥٨ عضوا موزعين على الدول، فكان لبروسيا سبعة عشر صوتا ثم أصبح لها عشرون صوتا. ومع أنه يبدو من هذا أن بروسيا لم تكن تتمتع بأغلبية في هذا المجلس الا أن حقيقة الأمور **كانت تعطى لبروسيا اليد العليا في هذا المجلس للاعتبارات التالية:**

١ ــ كان عدد من الدويلات الصغرى مرتبطا تماما بروسيا ولا يصوت على موضوع الا تبعا لرغبات بروسيا.

٢ ــ لايمكن أن تمر أية مسألة في المجلس اذا اعترض عليها أربعة عشر عضوا. وحيث انه كان لدى بروسيا أكثر من عشرين عضوا باستمرار فقد كان من المستحيل أن يمر مشروع ما الا بموافقة بروسيا واذا اعترضت عليه في الحال.

٣ ــ كانت مكانة بروسيا القيادة واضحة لما قدمته من انتصارات كبرى للقضية الألمانية. أما الريخستاج فكان بمثابة المجلس الشعبى، وكان مؤلفا من ٣٩٧ عضوا ينتخبون بالاقتراع العام السرى. ولكنه ليس برلمانا شعبيا على نحو ما كان في انجلترا، أو ما سيكون في فرنسا خلال الجمهورية الثالثة. فقد كانت سلطات الريخستاج مشلولة تماما. فليس له الحق في عزل الوزارة وكانت سلطاته ازاء السياسة الخارجية واهنة. خاصة وأن الدستور سلبه حق مناقشة كثير من الأمور التي تتعلق بمساهمة الدول الألمانية في الامبراطورية عسكريا أو ماليا لأن هذه الأمور كان يحكمها معاهدات أدمجت في الدستور نفسه. ولم يكن في استطاعة الريجستاج تعديل شيء من هذه الالتزامات الا بتعديل الدستور نفسه وهو أمر فوق سلطاته المخولة له.

لقد كان الريخستاج مجلسا شعبيا بالاسم فقط. بينما ظلت الحكومة وعلى رأسها بسمارك مستشار الريخ ـ بعيدا عن متناول أي من المجلسين. خاصة وأن الأعضاء كانوا منقسمين الى أحزاب عديدة عاجزة عن تكوين جبهة متحدة. كان المستشار صاحب سلطات واسعة وغير مسئول أمام الريجستاج وخاصة خلال السنوات التي

كان فيها بسمارك مستشارا. خاصة وأن بسمارك كان قد ركز جهوده في استكمال البلاد وحدتها عن طريق دمج الأقليات غير الألمانية (الدانمركية والبولندية)، واضعاف الاقلية في جنوب ألمانيا، والحد من نشاط الكاثوليك المتطلعين الى قوى خارج ألمانيا واحد من نشاط الاشتراكيين أيضا لأنهم كانوا يتطلعون الى تقويض الأسس التي وضعها بسمارك لألمانيا من أساسها. لقد كان بسمارك بروسيا محافظا شديد الولاء للألمان. وأصبحت تحت يده ألمانيا الكبيرة التي أصبحت في عام ١٨٧١ تبلغ ٤١ ميلونا ارتفعوا الى ٤٩ ميلونا في عام ١٨٩٠. وأصبحت ألمانيا أكبر منتج في أوربا ونشطت أعمال التعدين فنمت الصناعة الألمانية بسرعة كبيرة حتى تفوقت الصناعة في الصادرات على المنتجات الزراعية. وكان لها جيش وان كان أسطولها لايزال في المهد.

الفصل الخامس

تصاعد الأزمات الأوربيـة (١٨٧٠ - ١٩١٤)

التحالفات والوفاقات المؤدية الى الحرب العالمية الأولى

العلاقات الألمانيـة الفرنسية (١٨٧١ - ١٨٨٧) :

لقد كان لتكوين الوحدة الألمانية على أساس تلك الانتصارات العظمى التي بدت أقرب الى المعجزات أثره الكبير في أن يصاب المكرون والشعب الألماني بمركب من مركبات التصاعد الذاتي العنصري، حتى لقد قيل لهم ان الله قد أعد الألمان ليحملوا رسالة الحضارة والتقدم الى مختلف أرجاء العالم، وأن يحطموا قيود الماضي الى مستقبل للعالم رائع ترسمه وتخطط له الأيدى الألمانية والعبقريات الألمـانية. وأنـه اذ آذن للامـبراطـوية الانجليزية أن تغيب عن قرب - حسب اعتقـادهم - فقـد آن للألمـان أن يرثوها كما ورثت روما قرطاجنة. ومن منابر الجامعات، وخاصة على يد هنريخ فون تراشكه Heinrich von Traitschke ترددت مثل هذه الدعوات، أليس تلك الدعوات مثيرة لمخاوف الدول القريبة من ألمانية والبعيدة عنها. ودارت التساؤلات بعد صلح فرانكفورت: أي سلام ذلك الذي فرضه السيف الألماني المنتصر. أي سلام هذا الذي اقتطع من فرنسا جزرا من أرضها. لقد كانت هذه التساؤلات أقوى ما تكون في بريطانيا وايطاليا. لقد رأت الدول أن ألمانيا حققت وحدتها، وهذا حقها، ولكن ألمانيا وضعت مبدأ آخر هو أن القوة التي استخدمت قد تغاضت وهزئت من مبدأ حق تقرير المصير لدى أي شعب فالقوى الذي يستطيع أن يحقق وحدته القومية، والضعيف هو الذي بفقد وحدته القومية. ان هناك حملة كبرى على بسمارك لأنه اقتطع اللورين من فرنسا وأنه داس بقدمية مبدأ حق تقرير المصير. وأصبح هذا العمل في نظر الانجليز

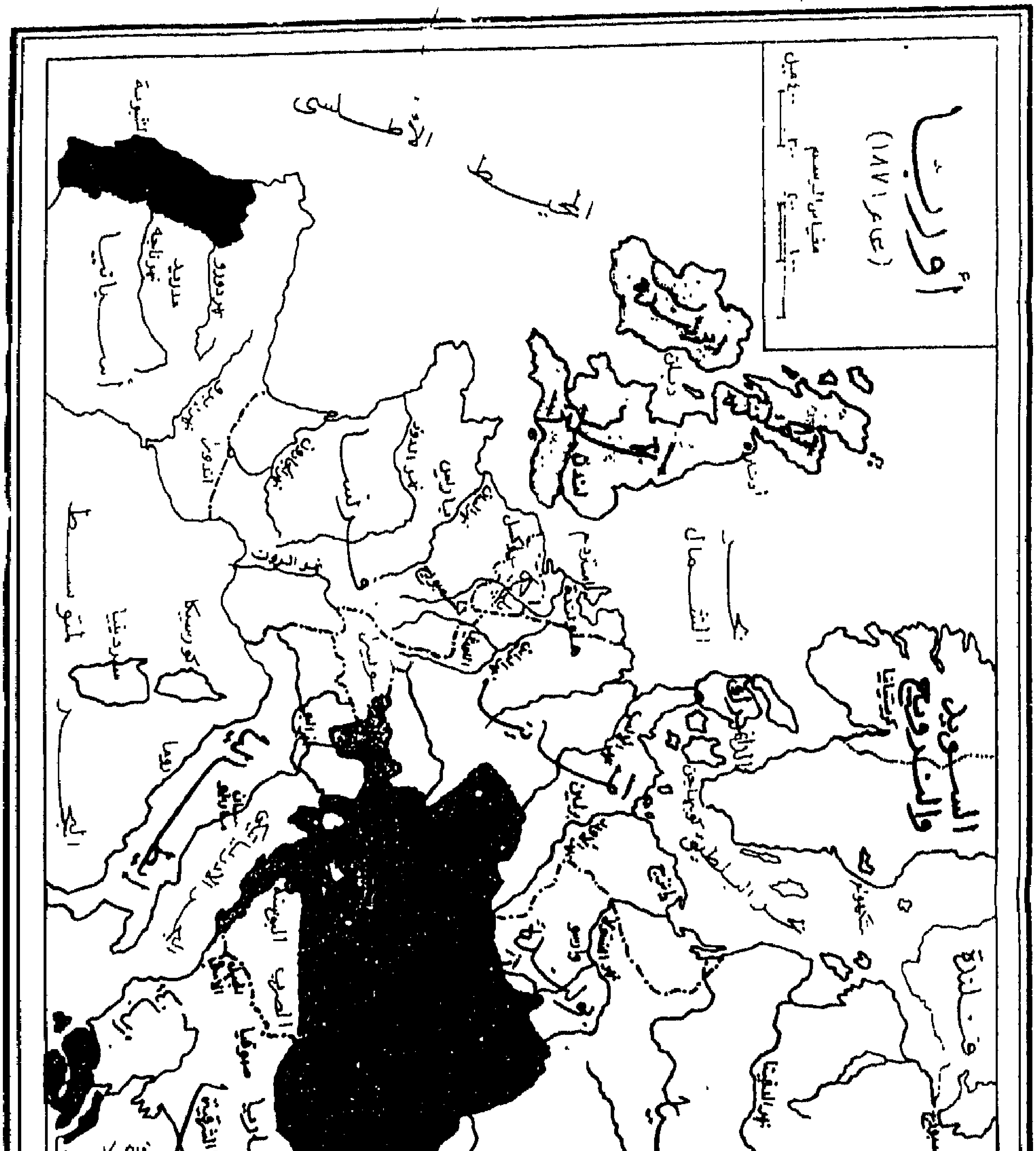

والفرنسيين نكبة كبرى وقعت على أوربا. **ولا شك أن بسمارك ـ وكان قويا وقادرا على أن يتحكم في تطور الأمور بقدر تحكمه فيها في أعقاب سادوا سنة ١٨٦٦ ـ مسئول عن هذا التهور ولكنه ليس وحده هو المسئول عن ذلك** حيث ان تغاضى الدول عن حق تقرير المصير كان أمرا شائعا جدا في أوربا (فالمجر يتحكمون في التشيك والصربيين. الخ) والنمسا تتحكم في التيرول الجنوبي الايطالي وبريطانيا وفرنسا في أفريقية والوطن العربي لن تتورعا عن استعمار شعوب بقوة السلاح دون ما اشارة الى حق تقرير المصير. فلماذا هذه الضجة بالذات حول بسمارك واللورين.

ان الأسباب الرئيسية لهذا التصعيد لمشكلة اللورين هي :

ـ فلقد خرجت المانيا من وراء تلك العملية عملاقا جبارا قلب موازين القوى في أوربا وباتت الحكومات تخشى أن تمتد قبضة بسمارك الحديدية الى الأقاليم الألمانية الأخرى، بل غير الألمانية، في النمسا في سويسرا.

ـ ان اقتطاع اللورين لدي الفكر الأوربى كان عميق التأثير فيه لأنه أذل دولة أوربية كبرى كانت أوربا تكرهها لتفوقها، ولكنها ندمت على تركها هكذا تهان تحت أقدام قومية أخرى لن تتوانى عن الاقدام على أعمال أخرى أشد قسوة لمن يتصدى.

ـ ولقد كان الألمان يدركون ذلك. ولذلك كانوا يخشون كل الخشية ظهور تكتل أوربى ضدهم. ولكن دون أن يفكروا في اعادة اللورين أو وفق سباق التسلح أو التطلع الى أهداف سامية كان يروج لها بعض الفلاسفة وبعيدى النظر لتلك الدماء الغزيرة الأوربية التي أريقت في ساحات أوسترلتز، وبنيا وأبى قير البحرية والطرف الأغروراجرام وليبزج رجواسيا ستيول وفي ماجنتا وسلفرينو، وفي سادوا وفي باريس خلال المعارك الدموية في الأقاليم الفرنسية ضد الغزاة البروسيين والدماء التي ستسال في صراعات مقبلة، فتطلعوا الى سلم أوربى تتحكم في مبادئ انسانية والقانون الدولى، ويخفف من حدة التوتر العام الناشيء عن المؤمرات السياسية والمناورات الدبلوماسية حتى لقد بدا زعماء وملوك أوربا بعد الحرب السبعينية وكانهم مجموعة من رجال العصابات كل منهم يريد أن ينهب أكبر قسط من الغنيمة عن طريق قتل زميله قبل أن يقتله.. ونتيجة لتلك الاتجاهات ظهرت

الدعوة لنزع السلاح، والى التحكيم بين الدول الأوربية المتنازعة قبل امتشاق الحسام، وبذل أستاذ القانون الدولى المشهور جيمس لاتيمه James Latimer جهدا واضحا لوضع الأساس القانوني لفكرة الاتحاد الأوربى. وأشرف فيكتور هوجو V. Hugo (قمة الفكر الأدبى) وغاريبا لدى (قمة السمو القومى والقتال) على اصدار مجلة الولايات المتحدة الأوربية Etatis-Unis d'Europe منذ عام ١٨٦٧، ولكنها لم تعمر طويلا، فالعصر لم يكن عصر هذه النظريات السامية. ولقد عبر بسمارك بنفسه عن ذلك بقوله في عام ١٨٧٦: «مخطىء من يتحدث عن أوربا أنها مجرد تعبير جغرافي»[1]. اذا أصبحت قوة الأمة وقدراتها العسكرية هي الحكم في أوربا وفي خارج أوربا ولكن بصورة تثير الهلع في القلوب عما كانت عليه الحروب من قبل. ونظرا لقوة بسمارك ودولته الفتية أصبحت معظم التسويات الدولية لا تتم الا بعد أخذ رأى المانيا. وهي حقيقة كانت تفرض نفسها على أوربا بطبيعة نتائج الحروب السابقة، ولكنها حقيقة كان بغيضة الى قلوب الكثيرين، وكانت بريطانيا أكبر القوى الأوربية والتي عاشت بعيدا عن تلك الصراعات ولم تتورط فيها طالما أن أحدا لا يعترض على استعبادها شعوب آسيا أو على أن تطأ بأقدام جنودها ان امبراطوريا حضارية كبرى في الهند والصين، أو على توسيع نطاق سيطرتها السياسية والتجارية والعسكرية في تلك الجهات غير الأوربية بغض النظر عن مصالح الأهالى الوطنيين. ولا شك أن ألمانيا وقد أصبحت أكبر القوى أصبحت محط الاحترام البغيض في الدوائر السياسية البريطانية. وسعت هذه الدوائر السياسية الى أن تحسن علاقتها مع هذه القوة الجديدة المكروهة، فذهبت الحكومة البريطانية في ذلك الصدد الى درجة استشارة بروسيا فيما يجب أن تتخذ من اجراءات ازاء تنصل روسيا من مواد معاهدة باريس عام ١٨٥٦. مع أن بروسيا لم تكن دولة موقعة على تلك المعاهدة. ان هذا نمط من السياسية البريطانية التي تحاول دائما أن تكسب الصداقات عن طريق البدء بالتقرب وفتح مجالات التعاون تغطية لسياسات أخرى شرسة لاتقل شراسة عن سياسات ألمانيا أو روسيا حينذاك.

---

(١) قارن ماسبق أن وصف به مترنخ ايطاليامن أنها كانت مجرد تعبير جغرافي ولكنها اتحدت في الفصل السادس كذلك أورباتسير بسرعة نحو الوحدة في النصف الثاني من القرن العشرين.

بسمارك وعزل فرنسا :

وكان بسمارك يقدر قيمة هذا التقارب الانجليزي الألماني منذ البداية، فقد كان موقناتماما أن فرنسا تستعد لخوض حرب انتقامية مجددة ان آجلا أو عاجلا، ولكنه كان يردد أنه لن يترك الفرصة لفرنسا وانما أكد ذلك بقوله: «لن أنتظر أن تصبح فرنسا مستعدة لكى أحاربها». وكان يدرك كذلك أن فرنسا لا تستطيع أن تشن حرب تحرير ضد بروسيا الا اذا كان لها حلفاء أقويا يضعون الامبراطورية الألمانية بين المطرقة والسندان. ومن ثم كان كل من الطرفين في حاجة الى حلفاء يطوقون الطرف الآخر. فبالنسبة لبسمارك اتبع سياسة (عزل) فرنسا، وفرنسا اتبعت سياسة البحث عن حلفاء. ورأى بسمارك أن الحل المناسب هو عقد تحالف مع القوى التي يمكن أن تتحالف معها فرنسا الى الامبراطورية النمساوية وروسيا. وكان بسمارك يرى أنه بذلك يضع هاتين الدولتين الكبرين «تحت مظلة واحدة» فلا تقوم أي منهما بعمل يضر بالسياسة الألمانية فضلا عن أنهما تصبحان تحت الرقابة الألمانية الدائمة. ولكن طالما كانت فرنسا تسير في سياسة سلم فلا داعى لعقد محالفات مع روسيا والنمسا. لقد كان بسمارك يؤكد باستمرار أنه لا يريد من فرنسا الا أن تتركه في سلام، وأنه يعطى الفرصة للتنمية الاقتصادية (الصناعية) لألمانيا. والحقيقة هي أن مفهوم السلام لدى ألمانيا كان مختلفا عما كان عليه لدى فرنسا. فقد كان على بسمارك أن يقوم بعمليات عميقة لصبغ الألزاس واللورين بالصبغة الألمانيـة وكان الفرنسيون ينظرون الى هذه الاجراءات والى مقاومة أهل الألزاس واللورين بعطف شديد عليهم وكراهية تزداد عمقا لبسمارك والألمان.

كان الفرنسيون يشعرون بأنهم ان آجلا أو عاجلا لابد وأن يخوضوا حربا ضد ألمانيا وكان الصيحات المطالبة بالانتقام تثير في الفرنسي نوعا من الارتياح والتيقظ وبذل الجهد. ولكن هل كانت الحكومة الفرنسية تحتفظ بنفس هذه العواطف. لقد كان من حسن حظ فرنسا فعلا أن تولى تيير Thiers رئاسة السلطة التنفيذية، واستمر فيها خلال أحرج سنوات فرنسا(١٨٧١ - ١٨٧٣). كان مؤمنا تماما بأن الحرب الانتقامية لن تجر على بلاده الا هزيمة أخرى ونكبات جديدة تعطى ألمانيا قوة على قوة. ولهذا كان معتقدا أن فرنسا في حاجة الى سنوات من الرخاء والهدوء والتقدم الصناعى والعسكرى حتى تقف قوية على قدميها على مستوى العصر

وبأساليبه المتجددة المتطورة: لقد شخص سياسته بقوله:

«تفكير بالاعتدال وحذر برغم كل شيء... اذ أننا لم نصل بعد الى مرحلة المبادأة».

ويعد خطر تيير هذا هو الذي جعله يكسب غمبتا الى صف سياسة الاعتدال برغم ما عرف عن هذا المحامى والسياسي النشط المتوقد ذكاء ووطنية ورغبة في متابعة القتال. لقد كان غمبتا يناصر «السلم البناء» ويناشد «العدالة الدائمة» باعادة الألزاس واللورين. ولكن ما كان بسمارك ليتنازل عنهما ولذلك كان غمبتا يرى أن الظروف الراهنة في السبعينات تؤيد «السلم البناء» وأن المسقبل يعد فرنسا لحرب مريرة أخرى ضد ألمانيا. وكان جول فرى مقتنعا بأن المستقبل البعيد يحمل بين طياته حربا كبرى ولكن لايعني هذا في نظره - أن تظل فرنسا هكذا على أهبة الاستعداد العدائي ضد ألمانيا، وانما يجدر بفرنسا أن تقيم جسرا مؤقتا مع ألمانيا دون التراخى في المطالبة بالألزاس واللورين، وفي نفس الوقت تنشط فرنسا فيما وراء سواحلها في حوض البحر المتوسط وفيما وراء البحر دون أن يؤدى ذلك الى صدام مع الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط أو الامبراطورية البريطانية.

ولكن الموقف الدولي كان قد تبدل، ولم تعد الدول الكبرى، حتى المتحالفة مع ألمانيا، تقبل توسعا آخر لألمانيا، أو سحقا جديدا لفرنسا على يد العسكرية الألمانية، ولهذا نصحت الحكومة الانجليزية بسمارك بأن يعمل على تهيئة أوربا لا على اثارة القلاقل فيها، كما أن روسيا - وهي عضو في **حلف الأباطرة (النمسا - روسيا - ألمانيا)** - أبدت استعدادا كبيرا للتفاهم مع ألمانيا على أساس عدم شن هذه الحرب الوقائية. ويبدو أن بسمارك قد وجد أن التيار عنيف ضده، فقد قرر أن يتخذ بنفسه طريقا للتراجع لايبدو فيه منهزما فأكد لقيصر روسيا أن الموضوع اتخذ شكلا أضخم من حقيقة **وأن ألمانيا لاتدبر حربا وقائية ضد فرنسا**. حقيقة كان بسمارك لايرغب في شن حرب جديدة على فرنسا وانما **كان أيضا يريد منع فرنسا من اعادة بناء قواتها المسلحة**، ولقد فشل بسمارك في منع فرنسا من ذلك. بل ظهرت بوادر خطيرة في تصدع مكانة ألمانية الدولية.

١ - ففرنسا المستقلة أصبحت قادرة فعلا على اعادة قواتها المسلحة تحت سمع

وبصر بسمارك دون أن يكون حرا طليقا في منعها من ذلك أو في ارهابها.

٢ ــ ان حليفته روسيا اظهرت ميلا واضحا نحو فرنسا، وكذلك فعلت بريطانيا، لقد كان بسمارك يضع آمالا كبيرة على تحالفه مع روسيا فهاهي ذي تضعه في موقف حرج ازاء مشكلة حيوية ـ من وجهة نظره ـ بالنسبة لألمانيا وسيكون هذا بداية لضعف اتجاهات بسمارك نحو روسيا. وستزداد العلاقات الروسية الألمانية تباعدا خلال السبعينات في أعقاب الحرب البلقانية ومؤتمر برلين للمسألة الشرقية (١٨٧٨). فقد حدث أن قامت ثورات دينية وقومية عنيفة ضد الأتراك العثمانيين في البلقان وكادت الجيوش العثمانية أن تقضى على الثورة فأسرعت الجيوش الروسية الى هزيمة العثمانيين وفرضوا عليهم معاهدة سان ستيفانو عام ١٨٧٧، ووصلت الجيوش الروسية الى أبواب الأستانة. فانزعجت بريطانيا من ذلك وهددت بدخول الحرب ضد روسيا ان لم تعلن روسيا نصوص معاهدة سان ستيفانو على الدول العظمى وتعدل وفق مشيئة هذه الدول. وأنقذ بسمارك أوربا من حرب كبرى. بعقدة مؤتمر برلين الذي فقدت فيه الدولة العثمانية معظم ممتلكاتها البلقانية، وسلبت من روسيا معظم مكاسبها ومهدت للنمسا أمر السيطرة على البوسنة والهرسك. حتى لقد وصف قيصر روسيا مؤتمر برلين بقوله:

«انه تحالف أوربى تحت زعامة الأمير بسمارك ضد روسيا». وبالتالي أصبح على بسمارك أن يوقف التطور المعادى لألمانيا في داخل فرنسا نفسها عن طريق المساهمة في اسقاط القوى الكاثوليكية والملكية ومساعدة القوى الجمهورية في الوصول الى الحكم فقد كان نجاح مكماهون يعنى أن هذا الزعيم يصبح قادرا على اقامة دكتاتورية ملكية كاثوليكية متعصبة ضد الامبراطورية الألمانية. أما نجاح الجمهوريين فيعنى وصول هؤلاء للحكم، وهم مكروهون من الحكومات الملكية الأخرى (الروسية ـ الانجليزية ـ النمساوية) ولقد تولى الجمهوريون الحكم. ولكن هذا لايكفى من وجهة نظر بسمارك وانما لابد من حليف قوى يقف الى جانب ألمانيا. وحيث انه اتجه نحو استبعاد روسيا، فليس أمامه سوى النمسا، حيث كان من المتعذر تماما أن يبقى صديقا لطرفين متنافسين ـ في مجالات متقاربة (البلقان) في آن واحد الا لفترات قصيرة. ولكن يجب أن نؤكد حقيقة ستكون واضحة خلال السياسات البسمركية التحالفية. وهي أن بسمارك كان في الوقت

الذي اتجه فيه الى عقد تحالف ثنائي مع النمسا من وراء ظهر روسيا وضد الأخيرة كان لابفتأ يبحث عن وسيلة يكسب فيها تحالف روسيا معه.

التحالـف الثنـائي النمسـاوي الألمـاني:

لقد كانت المعضلة التي أرهقت وأربكت بسمارك وجعلته أقرب الى لاعب سرك الدبلوماسية هي كيف يوفق بين أهداف متناقضة:

١ ــ الأطماع البلقانية تجعل روسيا عدوة للنمسا.

٢ ــ نمو القوة الفرنسية يجعل بسمارك يستنزف قوى ألمانيا. وكانت عصبة الأباطرة مظهرا من مظاهر التحالف أكثر منها تحالفا حقيقيا من الأباطرة الثلاثة.

وكانت هناك بعض العوامل التي تشد بسمارك صوب النمسا أكثر منها صوب روسيا، برغم أن الامبراطور ولهلم نفسه كان يميل الى تحالف مع روسيا. **كانت رابطة الدم تربط بقوة بين الامبراطورية النمساوية والامبراطورية الألمانية** ومن ناحية اخرى أن **الشعور الألماني نحو تحالف مع النمسا سيكون طيبا بعكس التحالف مع روسيا.** هذا فضلا عن أن النمسا كانت لها مطالب تاريخية في الأراضي التي ضمت الى روسيا في أعقاب سادوا، فاذا ماتحالفت مع ألمانيا، ابتعد شبح هذه المطالبات النمساوية. ثم هناك الشعور المتصاعد بأن روسيا ـ قد فشلت في الحصول على أطماعها في مؤتمر برلين وفي وجود عصبة الأباطرة ـ لاشك ستتقارب مع فرنسا. وكان هذا دافعا له قيمته في قيام تحالف ثنائي نمساوي ـ ألماني مضاد. ولكن الوصول الى اتفاق نهائي بين النمسا وألمانيا لم يكن سهلا أو مفروشا بالورود. ولم يكن في وسع بسمارك أن يكون صاحب اليد العليا. كما يبدو مظهريا ـ في عقد هذا التحالف. فالحقيقة أن أندراسي Andrasy وزير الخارجية النمساوى كان يطلب ثمنا باهظا لعقد التحالف. ورفض كل الشروط التي تقدم بها مستشار الرايخ الألماني، حتى اضطر بسمارك الى أن يقبل شروط أندراسي حتى يخرج التحالف الى حيز التنفيذ. **نصت المعاهدة بين الامبراطورية النمساوية والامبراطورية الألمانية الموقعة في ٧ أكتوبر ١٨٧٩ على الشروط الرئيسية التالية:**

١ ــ في حالة هجوم روسي على أي من الطرفين المتعاقدين يقدم الطرف الآخر

مساعدته لحليفة.

٢ ــ اذا قام أحد الطرفين المتعاقدين بالهجوم على طرف ثالث (فرنسا) فيقف الحليف على (الحياد الودى).

٣ ــ في حالة تعاون ايجابي أو عسكري من جانب روسيا وفرنسا تعمل الدولتان المتعاقدتان معا لمواجهة الدولتين سالفتى الذكر.

لقد دار جدل طويل حول النتائج التي أدت اليها تلك المعاهدة. ويرى كثير من المؤرخين أنها تمثل «حجز الزاوية لقيام الحرب العالمية الأولى» ويرى آخرون أنه أسلوب «أخر السلام بين الشعوب» لفترة طويلة ولكنه كان - بسبب طبيعته وأهدافه - مؤديا بلاشك الى حرب عالمية كبرى. فما من تكتل ثنائي يظهر حتى تقوم الأطراف الأخرى بعقد تكتل مضاد وهكذا... الخ. واذا صح ذلك، فلا يجب أن تتناسي أن تعقيدات العلاقات الدولية ونمو قوى التسلح والتقدم الاقتصادي والتوسع الاستعمارى، كلها عوامل بدأت قبل وقوع الحرب السبعينية، ونمت بعدها، وكانت تدفع بالقوى الأوربية الى حافة الحرب مع وجود التحالف الثنائي أو عدم وجوده. ولكن قيام هذا التحالف الثنائي جعل شبح التكتل المؤدي الى الحرب ماثلا أمام الأعين باستمرار وهذا هو الجانب الخطر في ذلك التحالف الثنائي الذي أصبح منذ عام ١٨٨٢ تحالفاً ثلاثيا بانضمام ايطاليا اليه بسبب فشلها في الحصول على تونس التي استولت عليها فرنسا في عام ١٨٨١ وفي أعقاب ذلك استولت بريطانيا على مصر في عام ١٨٨٢، فكادت ايطاليا تعتقد أن فرنسا لن تسمح لايطاليا بموضع قدم استعمارى وأنها لن تحصل على مكاسب الا بالتحالف مع القوى المعادية لفرنسا. بعد أن اطمأن بسمارك الى التحالف الثنائي عام ١٨٧٩ آثر ألا يعلنه بل حاول أن يكسب روسيا الى صفة عن طريق احياء عصبة الأباطرة. ولقد نجح فعلا في الوصول الى عقد تحالف القياصرة الثلاثة في يونيو عام ١٨٨١. ولكنه اتفاق لايمكن ان يكتب له البقاء بعكس التحالف الثنائي النمساوى الألماني.

وقد اختبر التحالف الثنائي وتحالف الأباطرة الثلاثة خلال الأزمة البلقانية (١٨٨٥). فقد حدث أن أعلنت ولاية الروملى الشرقية انضمامها الى بلغاريا في ١٨٨٥ الأمر الذي جعل الصرب تخشى على نفسها من نمو بلغاريا جارتها

الكارهة لها. وانتصرت بلغاريا على الصرب في موقعة سلتفتزنا (Slivitzne)، وسرعان ما أصبحت الأمور معقدة حيث كان المعروف أن روسيا وراء بلغاريا، وأن النمسا وراء صربيا. ولو وقعت الحرب فان التحالف الثنائي يعني دخول ألمانيا الى جانب النمسا ضد روسيا. خاصة وأنه خلال هذه الأزمة كانت الصحافة الروسية تطالب بعقد تحالف روسي - فرنسي ضد النمسا - ألمانيا ولكن جاءت فرصة جديدة لبسمارك ليعيد الكرة مرة أخرى ليحي عصبة الأباطرة الثلاثة التي كانت مدتها قد انقضت في عام ١٨٨٧. فعرض على روسيا معاهدة اعادة التأمين. Re-insurance Treaty التي وقعت في يونيو عام ١٨٨٧. وهي معاهدة تكاد أن تطعن النمسا من وراء ستار حيث نصت على وقوف أي من الطرفين المتعاقدين على الحياد في حالة اشتباك الطرف الآخر في حرب، أو بمعنى آخر لو اشتبكت النمسا في حرب ضد روسيا فانه على ألمانيا في هذه الحالة أن تقف على الحياد على عكس ماتقول به المعاهدة الألمانية - النمساوية - المعقودة في عام ١٨٧٩. ومرة أخرى يتجاهل بسمارك حليفه، عندما وقع اتفاقية بشأن البحر المتوسط في ديسمبر عام ١٨٨٧. فقد تضمنت وقوعها تحت توجيه دولة معينة، وخاصة فيما يتعلق ببلغاريا. ومن ثم كان موقف بسمارك هذا معارضا لنمو بلغاريا تماما - أما في اتفاقية اعادة التأمين Re-insurance Treaty فقد كان بسمارك موافقا فيها على تفوق النفوذ الروسي في بلغاريا وعدم عودة الأمير اسكندر - المطرود من عرش بلغاريا (١٨٨٦) والكاره لروسيا - الى بلغاريا ملكا. أو معنى محدد لقد أيد بسمارك روسيا في بلغاريا في اتفاقية اعادة التأمين، ثم عاد فكف يده عن ذلك في اتفاقية البحر المتوسط المعقودة مع انجلترا وايطاليا والنمسا والمجر. وأخيرا حسم بسمارك الموقف والمتذبذب الى حد كبير عندما أصرت روسيا على تقوية نفوذها في بلغاريا في وجه معارضة قوية انجليزية ايطالية ونمساوية. وتصاعدت الأزمة بين روسيا والنمسا الى الدرجة التي جعلت بسمرك يرى أن الوقت حان لاعلان معاهدة التحالف الثنائي رسميا كتهديد في وجه روسيا وتم ذلك في عام ١٨٨٨. وبينما كانت سياسة بسمارك قد أدت الى هذا النمو من تدهور العلاقات بين روسيا وألمانيا، فقد كانت كذلك تسير في نفس الوقت نحو تقارب بين روسيا وفرنسا. وكانت العلاقات الألمانية الفرنسية تمهد لهذه النتيجة.

التحالف الفرنسي - الروسي :

وان كان بسمارك تابع سياسته نحو تخفيف حدة التوتر بين فرنسا وألمانيا بتكتيكات سياسية عميقة الأثر في مظهرها. فانه شجع فرنسا على النشاط الاستعماري وشجعها على التشدد في السياسة البريطانية المتفوقة في المسألة المصرية (١٨٨١ - ١٨٨٢) وفي الحصول على تونس (١٨٨١) وفي مؤتمر برلين لدراسة مشكلة الكونغو (١٨٨٤-١٨٨٥). كل هذا من أجل صرف أنظار فرنسا عن الرين وتتركز في المستعمرات فيما وراء البحار تاركة أوربا للتفوق الألماني. بل لقد ذهب بسمارك - ظاهريا - الى أبعد من هذا عندما لوح لفرنسا بتحالف مع ألمانيا لكسر التفوق البحرى البريطاني. ولكن الفرنسيين - برغم شعورهم بأن الانجليز أفادوا دائما في المستعمرات من وراء نكسات فرنسا العسكرية - كانوا قد حددوا أهدافهم بدقة. ان مشاكل المستعمرات لا يمكن أن تلهيهم عن الألزاس واللورين. ولذلك كان الشعب الفرنسي ضد أي تقارب مع ألمانيا المارد البغيض الذي يجب أن تقوم فرنسا بانفاذ أوربا من قسوته وجبروته ولذلك فشلت هذه المناورة البارعة البسماركية. . وهناك خلاف حول حقيقة الأهداف وراء محاولات بسمارك لعقد تحالف مع فرنسا. فهناك من يرى أن تلك المحاولات كانت مجرد مناورات بسماركية قصد بها اثارة مخاوف بريطانيا من قيام حلف فرنسي ألماني حتى تسعى بريطانيا بسرعة الى كسر هذا الحلف المزعوم عن طريق تقارب بريطاني - ألماني. وهذا هو الراجح[1].

ولكن السياسة البسماركية نحو الهاء فرنسا فيما وراء البحار ونحو جذب بريطانيا الى تحالف مع ألمانيا لم تؤد الى نتائج ايجابية بالنسبة لألمانيا، حيث ظلت الألزاس واللورين أمل الفرنسيين ونمو فكرة حرب التحرير ضد ألمانيا خاصة بعد أعقاب سقوط حكومة جول فري عام ١٨٨٥ واسناد وزارة الحربية الفرنسية الى الجنرال بولانجيه Boulangger الذي كان يعكس هذا الاتجاه الانتقامي من ألمانيا. ومع أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت لا تتفق مع بولانجيه في هذه الاتجاهات.

(١) كان بسمارك في قرارة نفسه - يعلم أن حلفا مع بريطانيا لن يكون ضد فرنسا. ولذلك استبعد التحالف معها منذ البداية.

وطمأنت بسمارك بأن الجنرال بولانجيه وجه نظر الحكومة الفرنسية (١٨٨٦). ولكن الحقيقة التي لامراء فيها والتي كان يدركها الألمان في أن بولانجيه يمثل وجهة نظر قطاع كبير جدا من الشعب الفرنسي. فماذا يكون عليه الموقف لو استطاع بولانجيه ـ بشعبيته القائمة على أساس الانتقام من ألمانيا ـ الوصول الى منصب رئيس الوزراء أو منصب رئيس الجمهورية ؟

وكانت سوء النيات في الجانبين قوية. وكان كل من الطرفين قد فقد الثقة تماما في الوصول الى تسوية معقولة. وكانت أية تحركات أو مناورات دبلوماسية أو غير دبلوماسية كفيلة بأن تتصاعد بسرعة الى أعلى المستويات الحساسة، وقد تبين ذلك من خلال حادثة القاء القبض على جاسوس فرنسي في داخل الأراضي الفرنسية نفسها. اذ لما عرضت المسألة على هذا النحو تذكر الفرنسيون السلسلة الطويلة من المؤتمرات والألاعيب الدبلوماسية البسماركية التي تهدف الى توريط الخصم في مأزق لضربه ضربة قاضية.

ولكن تجدر الاشارة هنا الى أن بسمارك، وقد شعر أن موقف فرنسا على الصعيدين الرسمي وغير الرسمى يرهق ألمانيا كل الارهاق ويجعلها على أهبة الاستعداد باستمرار وتضاعف الشعور بالاستنزاف والقلق والتوتر المتواصل كلما أبدت روسيا كراهية متزايدة لألمانية وبالتالي احتمال تعاون فرنسي ـ روسي ضد التحالف الثنائي الألماني النمساوي. حتى لقد حاول بسمارك أن يصل الى تفاهم مع فرنسا، وأخطرها بأنه لن يشن عليها حربا وقائية، وحثها على تدارك الأمر قبل فوات الفرصة في حين أن الأساليب العسكرية التي استخدمت في معارك عام ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ أصبحت قليلة الفاعلية بالنسبة للمخترعات الحديثة الحربية التي تنشر الخراب وترفع من نسب الضحايا في الحروب، مؤكدا لفرنسا أن استمرار موقف ألمانيا على أهبة الاستعداد يجعلها فرصة لاستنزاف متطاول لاتجد مفرا من التخلص منه ان آجلا أو عاجلا بحرب مروعة يستنزف فيه الألمان ما استنزفه الفرنسيون من الألمان قبل الحرب المتوقعة. ولكن فرنسا ظلت صامدة للتهديد ومستمرة في عمليات بناء جيشها ومستعمراتها فيما وراء البحار وفي الافادة من كل خطأ تقع فيه الدبلوماسية الألمانية في وقت كان قد تخلى فيه بسمارك عن أسلوب «الحرب الوقائية» بسبب التبدل الذي طرأ على الموقف الدولى منذ عام ١٨٣٧.

وهذا يدفع بفرنسا الى حافة الحرب الانتقامية ضد ألمانيا. ومن ناحية أخرى كانت الحكومة الفرنسية بعيدة النظر حين تمكنت من منع رجالها بعدم الاندفاع وراء صحارى جوفاء ومظاهر كاذبة قومية، وذلك عندما ابعدت عن حكومتها بولانجيه وزير الحربية. وفي نفس الوقت الذي أخذت تفيد من الأزمات الألمانية - الروسية.

فقد كان التقارب الروسي من فرنسا واضحا جدا منذ عام ١٨٨٦ ولكن بشكل أوضح في عام ١٨٨٨ عندما عقدت اتفاقيات مع فرنسا لتزويدها بالسلاح، وتعينها على مد خطوط السكك الحديدية بها. ثم نجحت الدبلوماسية الفرنسية بعد سقوط بسمارك في عام ١٨٩٠ - من توقيع معاهدة مع روسيا في عام ١٨٩١ نصت على الخطوط الرئيسية التالية:

١ - عقد وفاق ودى بين الطرفين.
٢ - أن يتبادل الطرفان الرأي ازاء المشكلات المهددة للسلام.
٣ - في حالة تعرض أحد الطرفين لخطر الحرب يتشاور الطرفان لتنسيق العمل بينهما وألحق بالاتفاقية ميثاق عسكري (١٨٩٤) ينص على أن تقوم روسيا بمساعدة فرنسا اذا ماهاجمتها ألمانيا أو ايطاليا بمساعدة ألمانيا، كما وافقت فرنسا في هذه الاتفاقية العسكرية على أن تمد فرنسا يد المساعدة لروسيا اذا هاجمتها ألمانيا. أو النمسا والمجر بمساعدة ألمانيا وتحدد في هذه الاتفاقية عدد القوات التي ستسهم كل من الدولتين المتعاقدتين بها في ذلك مساعدة الطرف الثاني.

ولم يكشف عن هذا التحالف الا في عام ١٨٩٥ وأصبح الموقف في أوربا يتلخص في أن كتلتين كبيرتين أصبحتا وجها لوجه. **ولكن عند التقييم نلاحظ :**

١ - أن الكتلة الروسية - الفرنسية أضعف من الكتلة النمساوية - الألمانية.
٢ - ان سهولة التعاون واضحة بين النمسا وألمانيا بعكسها بين روسيا البعيدة جدا عن فرنسا.
٣ - ان ايطاليا تشكل نقطة ضعف في التحالف الثلاثي.

لقد كان التحالف الروسي - الفرنسي في الواقع نتيجة طبيعية لسياسة بسمارك ولم يعط الفرصة لمواجهة هذا التحالف الثنائي بنفسه حيث أدت التطورات الداخلية الى عزلة على يد الامبراطور الجديد وليم الثاني. فلقد استطاعت ألمانيا أن تتقدم بوضوح علميا في ظرف سنوات قليلة وظهرت المدن الألمانية المنسقة والشركات الرأسمالية الكبرى. ولكن كل هذا كان مغلفا بسحابة قاتمة من الخوف من الحرب التي يتوقعها الألمان من وقت لآخر. وبعد وفاة الامبراطور اعتلى وليم الثاني العرش وكان شابا طموحا ينظر الى خريطة العالم قبل أن ينظر الى خريطة ألمانيا في قلب أوربا أي كان على العكس من بسمارك الى حد كبير. وكان الامبراطور الشاب حازما في تحديد أهدافه ومسئولياته وبالتالي كان من المتعذر أن يرضخ مثل سلفه بسمارك وانتهى الأمر بعزل المستشار وسيطرة الامبراطور على مقدرات الامبراطورية. وهكذا في مواجهة التحالفات المتعادلة ظهر امبراطور عنيف حماسي فكان أن زاد الوقود اشتعالا. ولكن كانت عوامل ترغم الطرفين على رفع البنادق وتصويبها دون اطلاقها. **وهذه العوامل هي :**

١ ــ لقد كان كل من الطرفين غير واثق من نصر حاسم اذا وقعت الحرب. ثم انها حرب ستطول جدا وفي ميادين متباعدة، ولا بد أن يكون للدول خارج حلبة الصراع دور في الحرب ايجابي أو سلبي، ولكنه دور لاشك لن يسمح للمنصر بالكسب الكثير ولا للمنهزم بأن يخر على قدميه أمام خصمه. فلقد كانت هناك دول قادرة على اعادة التوازن الدولي بسرعه اذا اختل وهي انجلترا في أوربا واليابان الناهضة الفتية في الشرق.

٢ ــ وقفت انجلترا بين الكتلتين مدة طويلة. وكان انحيازها الى أي من الكتلتين يعنى أن الحرب أصبحت وشيكة.

الامبراطور وليم الثاني :

كان وليم الثاني شديد الاعجاب بانجلترا والانجليز، وعلى علاقات طيبة مع الملكة فيكتوريا جدته، ومع زوجها الألماني. ونمت العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا وانجلترا جنبا الى جنب مع العلاقات الاجتماعية والثقافية، حتى لقد رأي وزير المستعمرات البريطاني أن التحالف مع ألمانية هو طبيعي وليس مفتعلا. ولكن حيث ان انجلترا كانت عدوة أية قوة صاعدة في أوربا، وحيث ان تاريخ بريطانيا

ازاء ألمانيا كان لايحمل الا معاني الخديعة والتجاهل فان العلاقات سالفة الذكر كانت تطفو على خلافات عميقة... كان الألمان يدركون أن الانجليز لم يقفوا الى جانب كفاحهم من أجل الوحدة وانما عندما فرضت الوحدة الألمانية نفسها سعى اليها الانجليز متوددين محاولين احتواءها. فماذا فعل الانجليز للوحدة الألمانية. لاشيء ايجابي بل هناك سلبيات كثيرة في مواقف بريطانيا ازاء ألمانيا. سلبيات كان يراها رجال السياسة الألمانية تآمرا قاتلا لألمانيا وهي لاتزال في المهد. وعندما تطلع الامبراطور الشاب وليم الثاني الى أماني كبرى لألمانيا وجد انجلترا كتلة صلبة تسد عليه الطريق،

(أ) في سياسته نحو الشرق Drang Nacht Asten وتبلور في مشروع خط حديد برلين - بغداد.

(ب) في الحصول على مستعمرات جديدة وخاصة في أفريقية، وعلى الأخص في أفريقية الشرقية.

(ج) في القوة البحرية الحديثة. وكانت بريطانيا شديدة الحساسية لهذه المسألة بالذات.

لقد كانت حرب البوير الفرصة التي أدت الى انكشاف المشاعر الحقيقية بين الشعبين الألماني والانجليزي. فقد كان الألمان - مثلهم في ذلك مثل بقية الدول والشعوب الأوربية - يعطفون عطفا ايجابيا على كفاح البوير ضد العدوان الانجليزي على جمهوريتى أورانج والترنسفال. وأدركت ألمانيا أن العاهل الرئيسي الذي جعل قوى العالم تقف عاجزة عن ردع بريطانيا هو ذلك التفوق البحرى الذى كانت تتمتع به بريطانيا، وأدرك الامبراطور وليم أنه اذا أراد أن يبنى امبراطورية ألمانية فيما وراء البحار فلن يكون ذلك الا بواسطة أسطول قوى. فقدم مشروعات كبرى لانشاء بحرية ألمانية مرهوبة، الأمر الذي اعتبرته بريطانيا اخلالا بالتوازن الدولى. وأدى هذا الى وفاق ودى انجليزي ياباني (١٩٠٢) وآخر انجليزي - فرنسي (١٩٠٤) وثالث انجليزي - روسي (١٩٠٧) ووضعت انجلترا نفسها في مواجهة ألمانيا بوضوح وبقوة وصلف.

الوفاق الودى البريطاني - الياباني ١٩٠٢ :

يعتبر هذا الوفاق الودى الياباني - البريطاني نقطة تحول جوهرية في تاريخ

العلاقات الدولية وحجر الزاوية في طريق أوربا نحو الحرب العالمية الأولى. وكانت اليابان متأخرة منعزلة حتى أرغمتها حملة عسكرية بحرية أمريكية على فتح موانيها للتجارة. وفي أعقاب ذلك أدرك اليابانيون أنهم لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم في وجه العدوان الأمريكي أو الأوربى الا اذا استخدموا أساليب العصر. وخلال أقل من نصف قرن انتقلت اليابان من صف الدول المتخلفة الى مصاف الدول الكبرى من كافة النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية. بل أنها أخذت عن الغرب الأوربى فكرة التوسع الاستعمارى كوسيلة لاثبات القوة والمكانة والدولية، فشهرت السلاح (١٨٩٥) على بنى عمومتها في الصين التي كانت تترنح تحت ضربات الدول الأوربية الكبرى وبخاصة انجلترا وفرنسا وألمانيا. وشنت اليابان حربا على الصين ـ المهيضة الجناح وأرغمتها على اعلان استقلال كوريا، واستولت منها على فورموزا وشبه جزيرة لياوتونج وميناء بورت أرثر. ولكن أزعج هذا التوسع الدول الأوربية فأرسلت روسيا وألمانيا وفرنسا انذارا الى اليابان أدى الى تخليها عن لياوتونج وعن بورت أرثر، ولكن اليابان كانت قد تراجعت مؤقتا وعزمت على أن توجه ضربتها المقبلة ضد روسيا بالذات. التي استولت على ميناء بورث أرثر فردت انجلترا على ذلك بالاستيلاء على ميناء «واى هاواى ـ Oei-Hai-Oei)) واستولت فرنسا على كوانغ نشوان Kuangtehouan وكان ألمانيا قد استولت هي الأخرى على كياونشاو وحاولت ألمانيا استغلال الاضطرابات في الصين في أثناء ثورة البوكسرز Boxers ولكن بريطانيا عملت على الحد من مطالبها، وفي نفس الوقت حاولت الحكومة البريطانية التفاهم مع الحكومة الألمانية على ابقاء الوضع الراهن في الصين كما هو عليه وعلى سياسة الباب المفتوح أمام كل الأطراف. ولكن انجلترا وجدت أن ألمانيا لا تفيدها في شيء في الشرق الأقصى.

وهكذا كان الشرق الأقصى ميدانا للتنافس الشديد بين الدول الكبرى، ويضع ألمانيا في عداء مع انجلترا واليابان وروسيا في آن واحد. وفي الشرق الأوسط تبنى الامبراطور وليم الثاني سياسة التوسع والزحف صوب الشرق، معتمدا في ذلك على صداقته مع السلطان عبد الحميد الثاني، وعلى مشروع خط حديد برلين ـ بغداد الذي كان يعتبره الانجليز انقلابا خطيرا في موازين القوى في الشرق

الأوسط لصالح ألمانيا. وصاحب ذلك موقف الامبراطور والشعب الألماني المعادى لانجلترا خلال حرب البوير. فأدى كل هذا الى عقد التحالف البريطاني - الياباني في ٣ يناير عام ١٩٠٢.

نص التحالف الياباني - الانجليزي على :

١ ــ الاعتراف من جانب الطرفين بالأمر الواقع في شرق آسيا، وبوجه خاص في الصين وكوريا.

٢ ــ اذا وقعت حرب بين اليابان وروسيا تقف بريطانيا على الحياد.

٣ ــ اذا تدخلت دولة أخرى في تلك الحرب تدخل انجلترا الحرب الى جانب اليابان.

لقد أدى هذا التحالف الى اخراج انجلترا من عزلتها، وأصبحت دولة مثل روسيا وفرنسا وألمانيا. . الخ. لها تورطاتها مع الاصدقاء والأعداء، وهو أمر كانت تعارضه الحكومات الانجليزية السابقة.

ولكن الظروف كانت قد فرضت سياسة العزلة وأصبح لزاما على انجلترا أن تسعى هي الأخرى الى حلفاء وبدأت بالبحث عنهم في الشرق الأقصى بسبب الظروف الملحة هناك بالنسبة لانجلترا.

هذا الوفاق مكن اليابان من أن تستعد وهي مطمئنة عسكريا وسياسيا لمهاجمة روسيا، ولقد تم ذلك في الحرب الروسية - اليابانية التي خسرها الروس وحصل اليابانيون بمقتضاها على بورت أرثر.

الوفاق الودى البريطاني - الفرنسي عام ١٩٠٤ :

كانت الأزمات عديدة بين فرنسا وبريطانيا، مثلما كانت بين بريطانيا وألمانيا، ولكن مشاعر الانجليز كانت تسير باستمرار نحو تقارب انجليزي - فرنسي لايكون موجها ضد أحد، وانما بقصد تسوية المشاكل التي تهدد العلاقات بين الطرفين[1]

(١) فيما يلي نظرة على المشاكل الرئيسية:

(أ) المعارضة الفرنسية للوجود الانجليزي في مصر دون تحديد يوم معين للجلاء.

(ب) أزمة فاشودة بسبب التسابق الانجليزي الفرنسي على الاستيلاء على السودان. =

وكانت فرنسا معنية جدا لمثل هذه التسوية إذ كانت تتطلع من ورائها الى تحالف حقيقي مع انجلترا... وكانت المسألة المصرية تعنى الانجليز تماما وتود الحكومة البريطانية تسويتها، وفي نفس الوقت كانت المغرب محط أنظار فرنسا ومن هنا جاءت فكرة المصالح المتبادلة واتفق الطرفان في عام ١٩٠٤ على أن يطلق الفرنسيون يدهم في المغرب، وكان لايزال مستقلا، وأن يطلق الانجليز يدهم في مصر، وكانت محتلة منذ عام ١٨٨٢.

واستطاعت فرنسا أن تشترى سكوت ايطاليا وتمهيدا لخروجها من الحلف الثلاثى، بأن وعدتها بالموافقة على استيلائها على طرابلس الغرب، كما اشارت اسبانيا (بالتنازل) لها عن اقليم الريف. ويبدو أن ألمانيا لم تدر عن حقيقة هذا الوفاق الودى الا الشيء القليل. ولكنها شاهدت بوضوح أن الفرنسيين يتخذون اجراءات لاتفسر الا بمقدمة لغرض حماية فرنسية على الغزب. وبدأت الشكوك تساور الامبراطور وليم الثاني، فأسرع الى اعلان تأييده لاستقلال سلطان المغرب. وبوساطة روزفلت - رئيس الولايات المتحدة الامريكية - عقد مؤتمر الجزيرة Algeciras وفيه كانت الدول الأوربية قد عزمت على أن يشد كل حليف حليفه، وبلغ التوتر حدا أدى الى أن يعمل الانجليز والفرنسيون على تنسيق تعاون عسكرى بينهم لمواجهة احتمال وقوع الحرب. ووقفت النمسا والمجر بقوة بجانب ألمانيا بعكس ايطاليا. وكان المؤتمر بصفة عامة كسبا لفرنسا وتأكيدا للتفاهم الفرنسي الانجليزي ضد ألمانيا.

الوفاق الودى الانجليزي - الروسي :

كانت مجالات الصدام بين انجلترا وروسيا ممتدة من البحر المتوسط الى المضايق والى فارس والخليج العربي، والى التبت ووسط آسيا وحتى الصين. بل خلال الحرب الروسية اليابانية كانت انجلترا أقرب ماتكون عداوة لروسيا في الوقت الذي كان فيه الامبراطور وليم الثاني يقف مؤيدا بالكلام روسيا ضد اليابان محاولا حث القيصر الروسي على عقد تحالف مع ألمانيا ضد انجلترا وفرنسا. وبعد هزيمة

= (ج) التنافس الانجليزي الفرنسي في شرق افريقية.
(د) التنافس الانجليزي الفرنسي في الصين والهند الصينية.

روسيا وعقدها معاهدة بورتسموث مع اليابان في ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥ نشط الامبراطور الألماني في محاولاته لعقد حلف مع روسيا ضد انجلتر بالذات. وبدأت الآمال البراقة وشيكة الوقوع ولكن تمسكت روسيا بتحالفها مع فرنسا. فأدى ذلك الى تقوية هذه العلاقات الروسية الفرنسية البريطانية. فكانت فرصة لتسوية الأزمات بين روسيا وانجلترا على نفس الأسلوب الذي تم به الوفاق الودى في عام ١٩٠٤ وبخاصة فيما يتعلق بايران. لقد كانت ايران منذ زمن طويل محط أطماع روسيا. وفي القرن التاسع عشر أصبحت ايران تمثل دولة جاهزة ضد التوغل الروسي صوب الخليج العربي. الذي كانت تسيطر عليه بريطانيا ـ وبالتالي توالت الأزمات الانجليزية الروسية حول ايران. ولاحت فرصة لتسوية هذه الخلافات على حساب ايران في عام ١٩٠٧ عندما عقد الوفاق الودى الروسي البريطاني لاقتسام ايران فيما عدا جزء في الوسط ترك مستقلا للشاه. وتوالت النجاحات الدبلوماسية لدول الوفاق، فعقدت فرنسا مع اليابان اتفاقية لضمان وحدة واستقلال الصين. وكذلك فعلت الروسيا مع اليابان. وبذلك تكون روسيا قد ابتعدت عن مجالات الصدام مع اليابان (الصين) ومع بريطانيا (الهند ـ أفغانستان ـ الخليج العربي)، وركزت جهدها في الحصول على القسطنيطينية في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تميل بسرعة نحو الامبراطورية الألمانية.

البلقان يقود أوربا للحرب العالمية الأولى :

لقد كانت هذه التطورات توحى بأن الحلقة تضيق حول ألمانيا وحليفتها النمسا. ولكن كانت لاتزال القوى العسكرية الكبرى تخشى الحرب وتعمل على تجنبها. وفي مثل هذه الظروف تظهر المتناقضات :

- دعوات الى نزع السلاح واستقرار السلام (مؤتمر لاهاى في عام ١٩٠٧.
- سياسات توسيعة فجائية تضع أوربا على شفا الحرب، وكان ضم النمسا لولايتى البوسنة والهرسك سببا في تهديد أوربا بنشوب حرب شاملة.

فقد انتهزت النمسا فرصة ثورة جمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٩٠٨ وأعلنت ضمها للولايتين سالفتى الذكر، وكانتا تحت اشرافها فط، وكاتتا تابعتين للدولة العثمانية. كما انتهزت الفرصة كذلك بلغاريا وأعلنت استقلالها الكامل من الدولة العثمانية.

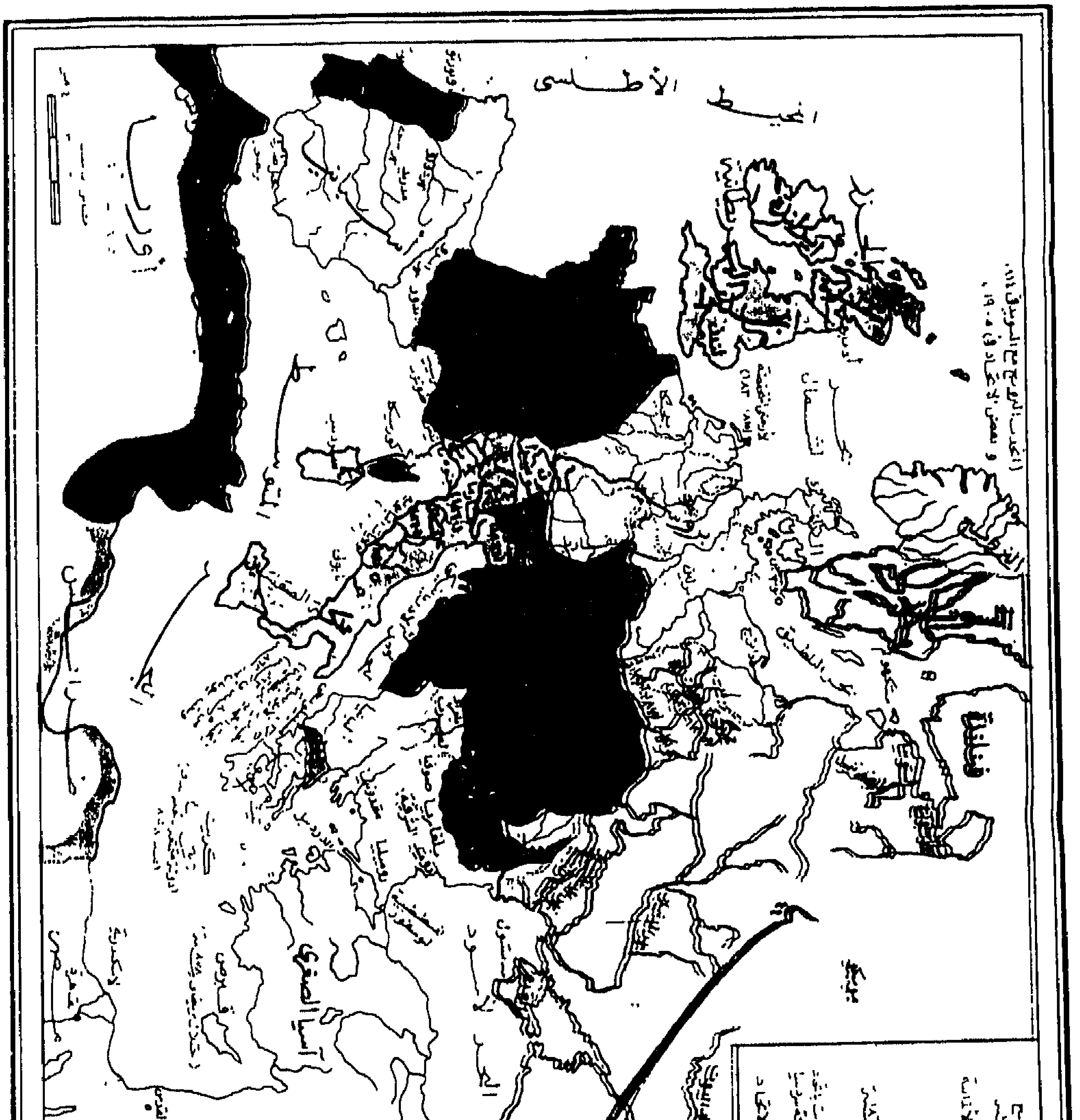
المحيط الأطلسي

لقد أثار ضم البوسنة الى النمسا ثائرة العرب التي كانت تعتبر البوسنة ـ وهي على حق ـ جزء من الأرض التي يجب أن تؤول اليها هي. وزاد من الأزمة ان روسيا وقفت تشد أزر الصرب. وفي هذه الأزمة أعلن الامبراطور وليم الثاني أنه يقف وراء الامبراطور النمساوى بكل قواه.

حقيقة كان توازن القوى في البلقان قد اختل بضم النمسا للبوسنة والهرسك، الأمر الذي يزعج روسيا. ولكن الأخيرة لم تتألم من هذا فقط، وانما لأن النمسا غررت بها. فلقد سبق أن اتفق وزيرا خارجية روسيا والنمسا سرا على أن تضم النمسا البوسنة والهرسك في مقابل فتح منفذ لروسيا الى البحر المتوسط ناقضين بذلك مقررات مؤتمر برلين عام ١٨٧٨. ولكن النمسا عرفت كيف تستغل الاتفاقية السرية دون أن تمكن الروسيا من الحصول على نصيبها اذا أعلنت ضم البوسنة والهرسك، وأفشت سر الاتفاقية السرية. وكان هذا يعنى أن انجلترا تخوض حربا ضد روسيا لو أصرت على فتح المضايق أمامها في نفس الوقت الذي كان ضم البوسنة والهرسك لايشكل خطرا داهما على التوازن الدولي من وجهة نظر انجلترا.

واستمر البلقان مصدر خطر كبير على السلام. فقد أصبحت القوى العديدة فيه مستعدة لاشعال نيران الأزمات فيما بينها بنفس القدر الذي تثيرها مع عدوتها اللدود الامبراطورية العثمانية. وكان هناك هدف عام بوحد شعوب البلقان هو العداء للأتراك وخلال الحرب الطرابلسية ـ التي شنتها ايطاليا على الدولة العثمانية لانتزاع ليبيا من الدولة العثمانية ـ تشكلت العصبة البلقانية من اليونان وصربيا وبلغاريا، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية (١٨ أكتوبر عام ١٩١٢)، وأحرزت جيوش هذه العصبة انتصارات كبيرة وسريعة حتى سيطرت جيوشها على أراضى الدولة العثمانية في البلقان فيما عدا القسطنطينية. ولكن اختلف الحلفاء على توزيع الأنصبة، والبلغار الذين ضحوا أكثر من غيرهم تطلعوا الى نصيب أكبر في حين تمسك اليونانيون والصربيون بما تحت يدهم، وحاولت بلغاريا أن تحصل بالقوة على مافشلت في الحصول عليه بالدبلوماسية، ولكن هزمتها اليونان وصربيا ورومانيا التي انضمت اليها ضد بلغاريا، كانت هزيمة بلغاريا ضربة موجهة الى النمسا التي كانت تكره النمو والانتصار الصربي ـ خاصة وأن صربيا بدأت تنادى

بأن استعادة البوسنة والهرسك لن يطول أمده. وأثاروا القومية السلافية في داخل الأمبراطورية النمساوية الأمر الذي يهددها بالتفكك. ومن ثم كان على ساسة النمسا والمجر أن يفكروا جيدا في حل للمشكلة السلافية قبل أن تستفحل وتصبح أداة في يد الصرب ضد النمسا. وطرحت بعض الحلول منها تحويل المملكة الثنائية الى مملكـة ثلاثية للألمان والمجر والسلاف، ومنها تعديل الدستور بحيث يحقق بعض أماني السلاف.. وكان ولي عهد النمسا فرانز فرديناند Franz Ferdinand من الذين كانوا يدرسون هذه الحلول بعناية عندما اغتيل هو وزوجته على يد طالب متطرف من أهل البوسنة في ٢٨ يونيو (حزيران) عام ١٩١٤ في سيراجيفو Saragiro عاصمة البوسنة. وفي الوقت الذي كانت فيه الحكومة النمساوية قلقة كل القلق من هذه الهـزيمـة لم تحاول صربيـا أن تخفف من نتائجها السيئة. فأرسلت الحكومة النمساوية - بالاتفاق مع ألمانيا - انذارا الى الصرب لايمكن أن يقابل الا بالرفض وتوالت الأحداث، حيث أعلنت النمسا الحرب على صربيا وتتابعت الدول الكبرى في اعلان الحرب.

الفصل السادس
الحرب العالمية الأولى
١٩١٤ ـ ١٩١٨

في مطلع القرن العشرين عمت الغرب موجة من التفاؤول، فقد كانت كل دول أوربا دستورية، كما أن المشكلات السياسية في المستعمرات وغيرها غدت تحل بالمؤتمرات الدبلوماسية وبدأت الأشكال الأولى للمؤسسات الدولية تظهر في العالم، كما ارتقت القوانين وعم التعليم وانتشر الطب الوقائي، واختفت المجاعات والأوبئة وازدادت العناية بالطبقات الفقيرة من المجتمع، وأخصبت القرائح الفنية والأدبية خاصة بقدر ما أخصبت العلوم، وقد قدمت للناس الكثير من الرفاه المادي. لكن المتطلعين على بواطن الأمور كانو يرون بوضوح أن ثمة عوامل خفية تعمل على تقويض هذا الصرح الحضاري وأن أوربا تسير نحو الهاوية هاوية الحرب. فكان عام ١٩١٤ عام الحرب العامة التي دخل العالم كله تقريبا فيها.

أسباب الحرب
الأسباب غير المباشرة

من دراسة تطور الدول الأوربية منذ منتصف القرن التاسع عشر، يشعر الباحث بأن تصادما سيقع، الحين بعد الحين، بين الدول الأوربية العظمى، فكل أزمة بين ألمانيا وفرنسا، وبين النمسا وروسيا، بل وحوادث السيطرة والاستعمار في آسيا وأفريقيا كادت تقدح زناد الحرب لولا أنها تحلت بقليل من التروي والتفكير، ولكن هذه الحلول النصفية، وتلك التسويات المبتورة لا يمكن أن تدوم إلا إذا صفيت المشكلات في ساحات القتال، وفرض الغالب رغبته، ورضخ المغلوب صاغراً؛ و لذا كانت الأسباب غير المباشرة للحرب العالمية الأولى

متمثلة في كل حركة عامة من حركات النصف قرن الماضي، لابد من تفهمها لمعرفة جذور الخلافات الدولية التي قسمت العالم إلى فريقين متخاصمين، ومع تشعب هذه الأسباب واتساعها، يمكن إجمالها بخمسة عوامل كبرى هي:

١ ـ نظام المحالفات السرية:

فقد ابتدع بسمارك هذا النظام ليعزل فرنسا، وليحيط ألمانيا الامبراطورية بعدد من الحليفات، ليتفادى بذلك وقوع الحرب، لكنه ابتدع تلك السنة التي قسمت أوربا بعد سقوطه إلى فريقين، ساعدت الريبة المتزايدة عند كل فريق من ناحية الآخر، فأخذ يزيد في جيشه وبحريته، وكانت كل دولة من هذا الفريق أو ذاك تشعر بأنها ملزمة بمساعدة حليفاتها حتى في الشؤون التي ليس بها مصلحة، فالمانيا رأت لزاماً عليها تأييد النمسا في سياستها البلقانية والا فقدت حليفتها التي تعتمد عليها، وفرنسا رأت من مصلحتها تأييد روسيا في أطماعها البلقانية فعادت النمسا مع أنها غير مضطرة إلى اتخاذ هذا السبيل لولا ميلها للاحتفاظ بصداقة روسيا، وبريطانيا اقتنعت أخيراً أن مصلحتها تقتضي عليها الانخراط في الخلاف الأوربي والانضمام إلى احد الفريقين، فآزرت روسيا وفرنسا لتعدل الكفة الأوربية ضد التحالف الثلاثي، وكان هذا معناه أن رصاصة طائشة ستجر جميع هؤلاء المتحالفين الى القتال!

٢ ـ نمو الروح العسكرية

وتتصل هذه الروح اتصالا وثيقا بالمحالفات السرية، لأن كل دولة عملت على ازدياد قوتها لتعادل قوة خصمها، وتشتمل هذه الروح العسكرية ناحيتين: الناحية الأولى: الاحتفاظ بالجيوش الجرارة والأساطيل الهائلة مع ما يتطلبه ذلك من نفقات وما يتبعه من مساوىء الجاسوسية والارتياب، ومراقبة العدو وتسقط اخباره والثانية فهي ظهور طبقة من العسكريين تجنح الى استخدام مالديها من آلات وجند لحسم المشاكل التي تتعرض لها البلاد، وتسيطر على السياسيين، وتتهمهم بالتخاذل والمراوغة فكان همها دائما اعداد بلادها للقتال في سبيل النصر عند أول بادرة، فكانت تصر دائما على إعلان التعبئة العامة عند الشعور بالخطر، وكان الضباط يتمنون أن تسنح لهم الفرصة لاظهار مواهبهم الحربية وكفاءتهم لينفسح

المجال أمام تقدمهمْ ورقيهم، يضاف إل ذلك نشوء فكرة الحرب المانعة عند كثير من هيئات اركان حرب الدول الأوربية، كألمانيا مثلا رأت أن الحرب بينها وبين روسيا واقعة لا محالة عاجلا أو آجلا، فتبدأها قبل أن تتم روسيا استعدادها وتسلحها، وهي ما عبر عنه الكتاب بالحرب المانعة من عدوان الغير. وهكذا تضاعف الجيش الألماني والفرنسي خاصة وكل الجيوش الأوربية عامة بين عامي ١٨٧٥ - ١٩١٤، وبالرغم من دعوة قيصر روسيا ١٨٩٩ إلى مؤتمر السلم في لاهاي ثم إلى مؤتمر لاهاي الثاني عام ١٩٠٧ فان هذا السباق المتزايد وراء التسلح لم يقف لخوف الدول المتزايد بعضها من بعض.

٣ - نمو الروح القومية وظهور مشكلات البلقان:

هذه الروح التي ساعدت على توحيد أجزاء ألمانيا وإيطاليا كانت بنفس الوقت عاملا من عوامل تفكك الامبراطورية العثمانية، ومن خوف النمسا أن ينفرط عقد امبراطوريتها. كما أثارت الحسد والبغضاء بين عناصر الجامعة الألمانية والجامعة السلافية، وأخيراً أثارت مشكلات البلقان العديدة التي كانت السبب المباشر للحرب.

٤ - الاستعمار الاقتصادي والتنافس الاستعماري:

منذ قامت الثورة الصناعية في بريطانيا وانتشرت الآلة في أنحاء أوربا، والنظام الاقتصادي والسياسي في العالم خضع لتطور عظيم، فقد أدى انتاج الكميات الكبيرة إلى التفتيش على أسواق للاستهلاك، وبلاد منتجه للمواد الأولية، واستتبع هذه الهجرة إلى الأماكن النائية في سبيل الاستثمار والى الاستعمار، وبذلك أدى الاستغلال الاقتصادي إلى تنافس سياسي ظهر في تقسيم أفريقيا والحصول على مناطق نفوذ في آسيا، وعلى امتيازات اقتصادية في تركيا، وكان لمزاحمة المانيا وايطاليا لبريطانيا وفرنسا ان ازداد الخلاف قوة، فقد جاءت سنة ١٩١٤ ولجميع دول أوربا حصص في أفريقيا ولجميعها - عدا ايطاليا - مناطق نفوذ في الصين ولعل مدّ السكك الحديدية كان أشد أنواع الاستعمار الاقتصادي خلافا بين الدول، لأن مشروع بريطانيا بمد سكة حديد القاهرة - الكاب يصل نهايتي افريقيا الشمالية والجنوبية اصطدم بمطامع المانيا وبلجيكا وفرنسا. وكان مدّ روسيا لخط حديد

سبيريا قد أثار مخاوف اليابان وكان سببا من أسباب الحرب اليابانية الروسية، وحصول المانيا على امتياز مد خط حديد بغداد أثار شكوك بريطانيا وخوفها على طريق الهند.

٥ ـ الصحافة الأوربية والإعلام:

اندفعت الصحافة وراء عواطف الجماعات والتكتلات المختلفة وأخذت تبحث الخلافات والتنافس بين الدول بحثا عاطفيا مبنيا على الكرامة الوطنية والمصالح القومية، بعيداً عن الكياسة السياسية التي يقوم بها السياسيون لحل الخلافات الدولية. وكان رجال الحكم يضطرون مكرهين إلى مسايرة الرأي العام الذي تمثله الصحافة. ليحافظوا على مناصبهم. ولقد باعدت الصحافة الألمانية والانكليزية بين تقارب الشعبين، كما غذت الصحافة العربية والنمساوية نار البغضاء والكراهية بين الشعبين.

سبب الحرب المباشر:

في ١٨ يونيو «حزيران» ١٩١٤، أطلق الطالب الصربي جافريلو برنسيب Gavrilo Princip الرصاص على الأرشيدوق فردنياند وريث عرش امبراطورية النمسا والمجر في مدينة سراجيفو Saragivo عاصمة البوسنة فأرداه قتيلاً هو وزوجته، فأثار مقتله عوامل الاستياء في أنحاء النمسا، لان جمعية «اليد السوداء» الصربية اتهمت بتدبير حادثة الاغتيال كما دبرت من قبل حادثة اغتيال اسكندر ملك صربيا ١٩٠٣، وأخذت الصحف النمساوية تهاجم مملكة الصرب وتحملها مسؤلية سكوتها عن الجمعية الارهابية في بلادها، وأرسلت النمسا انذاراً شديد اللهجة بعشر مواد طلبت فيها الى الصرب: حل الجمعيات واغلاق الصحف المعادية للنمسا وقمع كل دعاية ضد النمسا في الصرب ومراقبة المدارس حتى لا يبث الأساتذة كره النمسا بين طلابهم، وعزل الموظفين والقواد الذين اشتهر عنهم كرههم للنمسا، والسماح للنمسا بمتابعة التحقيق بمقتل الأرشيدوق في الأرض الصربية وكانت هذه المطالب جديرة بالرفض من أمة مستقلة حتى أن وزيراً بريطانيا صرح بانه «لم ير قط دولة ترسل الى دولة ثانية انذاراً مثله في الغضب والخطورة» ومع ذلك فقد قبلت صربيا سبع مطالب ورفضت الثلاث المتممة

للعشر، وطلبت تحكيم الدول، وبينما كانت المفاوضات تدور بين العواصم الكبرى، انقطعت المحادثات بين فينا - بلغراد في ٢٥ يوليو «تيموز» ١٩١٤ وأعلنت النمسا الحرب على الصرب بعد ثلاثة أيام «٢٨ يوليو» تموز ووقفت روسيا الى جانب النمسا لان وزير خارجية روسيا يازولوف حشي ان يقضي الجيش النمساوي المتعطش لتأديب «أمة القتلة السفاحين» على استقلال الصرب، ويمتد النفوذ الألماني النمساوي من أوربا الوسطى الى البلقان، إلى أملاك تركيا، فأعلن التعبئة العامة في ٣٠ يوليو «تموز» مما استفز قيصر المانيا ودفعه أن يعلن موقفه بتأييد حليفته النمسا في جميع اجراءاتها وان يرسل انذارين إلى روسيا والى فرنسا يطلب اليهما ايقاف التعبئة أتبعهما بإعلان الحرب في ١ أغسطس «آب» على روسيا وفي ٣ أغسطس على فرنسا. وبين هذين اليومين أي في ٢ أغسطس أعلنت بريطانيا بتهديدها للدفاع عن سواحل بحر المانش، ومعنى ذلك أنها لوحت من بعيد أنها ستتقدم لمساعدة حليفتها فرنسا، فلما اخترق الألمان بلجيكا عابثين باستقلالها حيادها في اليوم الذين أعلنوا فيه الحرب على فرنسا، أعلنت بريطانيا الحرب الى جانب حليفتها في ٤ أغسطس مدعية انها تقدمت لانقاذ شرف الدول المتعهدة حياد بلجيكا، وهكذا في أسبوع واحد «٢٨ يوليو - ٤أغسطس» وقفت دول الاتحاد الثلاثي عدا إيطاليا - ضد دول الوفاق الثلاثي، ولم تلبث الدول العالمية الأخرى ان اشتركت في القتال حتى أصبحت الحرب عامة شاملة.

الموقف الدولي :

(أ) التحالف الثنائي (الامبراطورية الألمانية ومملكة النمسا والمجر) (دول الوسط):

يجدر بنا أن نلقى نظرة على الدول المتحاربة لتحديد قدراتها وامكاناتها كما هو الحال في المانيا والنَمسا اذ كانت لديهما كثافة سكان تهبط الى نصف كثافة الخصوم (فرنسا - بريطانيا، روسيا، الصرب، بلجيكا). والعامل البشرى له أهيمة في حرب طويلة، وفي حرب تعتمد على الانتاج الصناعى المستمر. ولذلك لم تشعر دولتا التحالف الثنائي بنقص في القوة البشرية الا في العام الثالث من الحرب.

وبسبب طول فترة التحالف من عام ١٨٧٩، أصبح هناك تعاون طبيعى بين القيادات النمساوية والألمانية، ظهرت قيمته خلال سنوات الحرب الأولى. ولكن كانت هناك ثغرات في قدرات دولتى التحالف الثنائي أهمها:

١ ــ كانت الامبراطورية الألمانية أكثر تقدما، في النواحى العسكرية من النمسا.

٢ ــ كانت ألمانيا متماسكة شعبا وحكومة، مؤمنة بالتضحية من أجل الامبراطورية الألمانية. ولا تشكل الاقليات البولندية أو الدنمركية أية مشكلة للحكومة الألمانية.

٣ ــ كانت مملكة النمسا والمجر تختلف عن الامبراطورية الألمانية في النقطة سالفة الذكر اختلافا جوهريا. فقد كانت القوميات فيها عديدة وقوية ويشكلون حوالي ٤٩٪ من مجموع هذه المملكة. وكان من بين هذه القوميات من هو مستعد للتحرك (مثل التشيك) اذا واتتهم الفرصة حيث انهم كانوا يؤمنون بالديمقراطية الغربية التي حرموا منها في ظل الحكم النمساوى المجرى المستبد.

ولذلك ستسعى فرنسا وانجلترا للافادة من هذا الضعف في التكوين البشرى للنمسا والمجر عن طريق الاتصال بزعماء القوميات المحلية فيهما.

٤ ــ من الناحية الاقتصادية كانت ظروف النمسا أحسن من ظروف ألمانيا. فقد كان في استطاعة النمسا الاعتماد على انتاجها الزراعى بعكس ألمانيا. ولذلك ستعانى ألمانيا من نقص في الغذاء بسبب تصاعد شدة الحصار الانجيزي البحرى على موانيها. اذ اعتبر الانجليز المواد الغذائية من المواد التي تمنع من الوصول الى موانىء العدو برغم أن ذلك ضد مفهوم القانون الدولي. فكان أن ردت الحكومة الألمانية على ذلك بحرب الغواصات (فبراير عام ١٩١٥).

(ب) دول الوفاق

١ ــ فرنســـا

تحملت دول الوفاق الرئيسية (بريطانيا وفرنسا وروسيا) العبء الرئيسي في العمليات العسكرية. وكانت هناك ملاحظة خاصة بقدرات فرنسا البشرية القتالية. فقد كانت نسبة الشباب في فرنسا صغيرة ومع أن الاشتراكيين الفرنسيين كانوا ضد الحرب، الا أنه ما ان أعلنت الحرب، حتى التفوا مع بقية الشعب حول الدفاع عن فرنسا. وتعرضت فرنسا ـ بسبب التجنيد ـ الى قلة الأيدى العامة

الزراعية. كما تأثر الانتاج الصناعى بسبب وقوع المراكز الصناعية الشمالية تحت الاحتلال الألماني.

٢ ـ *بريطانيـــا* :

استمرت الاداة الصناعية في عملها وبأيدي عمالها. واستمرت صادرات المنسوجات والواردات من المواد الغذائية ، ولكن بسبب طول الحرب اضطرت الحكومة الى تنفيذ الاقتصاد الموجه بواسطة أجهزة خاصة. ومع ما عرف عن الانجليز من صلابة جبهتهم الداخلية، فقد كان هناك صراع مذهبى في أيرلندة يؤرق مضاجع الحكومة الانجليزية خاصة عندما قامت ثورة أيرلندية في عام ١٩١٦ الا أنها أخمدت بسرعة. وكانت بريطانيا ترى في ألمانيا عدوتها العسكرية والاقتصادية الكبرى ولذلك حددت بريطانيا أهدافها من الحرب:

١ ـ ابعاد ألمانيا عن بلجيكا ولذلك عندما خرقت ألمانيا حيدة بلجيكا أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا وعلى النمسا والمجر.
٢ ـ القضاء على القوة البحرية الألمانية.
٣ ـ ابعاد ألمانيا عن أفريقية والمستعمرات بصفة عامة.
٤ ـ ابعاد الولايات العثمانية عن متناول الألمان.

٣ ـ *روسيـــا* :

كانت تعانى من فجوة كبيرة بين الحكومة والشعب. الفلاحون لايكترثون بالموقف، والعمال تفشت فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية التي كانت ترى في هزيمة لروسيا الطريق المؤدى الى الثورة الناجحة.. وكانت البرجوازية كذلك لاتثق بالحكومة، ولا الدوما (المجلس النيابى) يثق بها كذلك... والجبهة الداخلية تتعرض لخطر تحرك القوميات، والطوائف. فقد أبعد اليهود عن ميادين القتال، وتوددت الحكومات من البولنديين. أما اقتصادياتها فقد تحرجت بسرعة لاعتمادها قبل الحرب على المصنوعات الألمانية التي وقعت فور اعلان الحرب.

وبسبب الحرب وانقطاع المواصلات فيما وراء البحار توقف التصدير فعانت البلاد من ذلك جدا واستعدت للالتفاف حول شعارات ثورية.

(جـ) دول اشتركت في الحـــرب :

١ ـ *الدولة العثمانيـــة :*

لقد عملت الدولة العثمانية ـ وكانت تحت حكم الاتحاديين ـ على تسوية كافة مشاكلها في الفترة الواقعة بين ١٩١٢-١٩١٤ أي قبيل نشوب الحرب. ومن ذلك التسويات العديدة التي عقدتها مع الدول الأوربية أو مع القوى القومية في داخل الدولة العثمانية **وأهم هذه التسويات :**

١ ـ تسوية النزاع على خطوط المواصلات الحديدية في أراضيها بالتفاهم على توزيع امتيازها بين هذه الدول بنوع من التراضى معها، وهذه الدول هي (انجلترا، ألمانيا، فرنسا) وعلى هذا الأساس توصلت الأطراف المعنية (انجلترا، ألمانيا، الدولة العثمانية الى تسوية مشكلة خط حديد بغداد، ومشكلة الكويت والامارات العربية في الخليج العربي المتعاقدة مع بريطانيا).

٢ ـ عقد تسوية مع الزعماء العرب في أعقاب المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣ اعترفت فيه حكومة الأتراك الاتحاديين بكثير من الحقوق القومية العربية في اطار الدولة العثمانية.

٣ ـ توقيع بروتوكول عام ١٩١٣ لتحديد الحدود بين العراق (العثماني) والدولة الفارسية.

٤ ـ عقد معاهدة مع ايطاليا بشأن طرابلس عام ١٩٢١ تركت أمورها في يد الايطاليين.

ولكن كان الاتجاه العام التركي يميل نحو الألمان لأن صفحتهم مع الأتراك كانت بيضاء بعكس صفحة بريطانيا وفرنسا وروسيا وهي الدول التي اقتطعت من الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر أجزاء كبيرة جدا منها. وبالتالي كانت تتطلع الى استرداد ما فقدته ان وجدت فرصة لذلك.

٢ ـ *الولايات المتحدة الأمريكيـــة :*

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى الى أن تكون لها اليد العليا في خلق تضامن بين الدول الأمريكية، خاصة في وقت افتتحت فيه قناة بنما (١٥ أغسطس

عام ١٩١٤) ولكن المصالح البريطانية في المكسيك كانت تحول دون تفرد الولايات المتحدة بالتفوق في كل دول العالم الجديد. الا أن أشتباك انجلترا في الحرب يمكن من انفراد الولايات المتحدة بالعمل. ولكن هذا التصادم في المصالح الانجليزية ـ الأمريكية كان تحت السطح اذا ما قيس بالمشكلة الكبرى، وهي ماسيكون عليه موقف الولايات المتحدة من الحرب الأهلية الأوربية.

لقد كانت هناك مشاعر محلية قوية في نيوأنجلاند لكى تنضم الولايات المتحدة الى دول الوفاق بخاصة بعد أن داست الجيوش الألمانية على حياد البلجيك، وهو أمر كان مبغوضا لدى الشعب الأمريكي. ولكن كانت هناك اتجاهات نحو دولتى الوسط كذلك واتجاهات اخرى نحو قيام الولايات المتحدة بدور هام هو وقف المذابح بين الأوربيين في ميادين القتال بعقد صلح سريع، وكان طبيعيا أن يكون الحياد هو محصلة هذه الاتجاهات غير المتلاقية، على ألا تتطور الحرب في أوربا الى تفوق دولة معينة على أوربا كلها. هذا من الناحية السياسية والعاطفية. ولكن الناحية الاقتصادية تحكمت الى حد كبير في موقف الولايات المتحدة خلال الشهور الأولى من الحرب العالمية الأولى.

ويرجع ذلك الى أن الولايات المتحدة تعرضت لأزمة اقتصادية في أعقاب نشوب الحرب بسبب توقف جانب كبير من صادراتها الى أوربا. وكانت الدوائر السياسية والاقتصادية على السواء تعتقد أن الحرب لن تطول، فلما طالت كان على المؤسسات الاقتصادية أن تجد لنفسها مجالات للنشاط. وحيث ان الأسطول البريطاني والفرنسي كان يفرضان على السواحل الألمانية حصارا شديدا أصبحت مبيعات الولايات المتحدة متركزة في انجلترا وفرنسا وجر ذلك الولايات المتحدة تدريجيا الى اعلان الحرب على دول الوسط.

٣ ـ *ايطاليـــا :*

كانت قد أعلنت مثل رومانيا حيادها في مطلع نشوب الحرب. ولكنها كذلك كانت تتطلع الى الايطاليين الواقعين تحت الحكم النمساوى على الحدود الايطالية ـ النمساوية ـ وكان هناك اتجاه قوى لدى السياسي الايطالي الكبير جيوليتى Giolitti للعمل على أن تفيد ايطاليا من ظروف الحرب بالدبلوماسية دون التورط في القتال خاصة وأن الاشتراكيين في ايطاليا يفيدون من ظروف الحرب بالدبلوماسية دون

التورط في القتال خاصة وأن الاشتراكيين في ايطاليا كانوا يؤيدون الحياد، وكذلك الكاثوليك بسبب اتجاهات البابوية العاطفية نحو النمسا الدولة الكبرى الوحيدة المتمسكة بأن تكون كاثوليكية. ولكن كانت هناك جماعات عديدة صغيرة ومتفرقة تدعو الى أن تتدخل ايطاليا عسكريا بما يعود عليها بأرض ايطاليا تحت يد النمسا. . . وعندما طالت الحرب كانت الفرصة مواتية للحكومة الايطالية للمساومة، فاتصلت بالأطراف المتنازعة تحاول أن تكسب من أي منها. بدأت حكومة ايطاليا تقارن بين ما تكسبه اذا انضمت الى دولتى الوسط وما ستكسبه اذا انضمت الى دول الوفاق. ولكن الى جانب حسابات المكسب والخسارة كانت هناك اعتبارات رئيسية حددت سياسة ايطاليا وهي :

١ ــ ان ايطاليا لو دخلت الحرب ضد دول الوفاق ستجعل المراكز الصناعية في جنوة وليفورن تحت رحمة الأسطول البريطاني. وان سواحل ايطالية الطويلة ستكون أهدافا سهلة للأسطول البريطاني.

٢ ــ ان لدول الوفاق طريقين الى ايطاليا. عبر جبال الألب بواسطة الجيش الفرنسي على طول السواحل بواسطة الأسطول البريطاني. أما دولتا الوسط فلا طريق لهما الى ايطاليا عبر الألب فقط.

٣ ــ ان الانضمام لدولتى الوسط يحرم ايطاليا نهائيا من الأقاليم الايطالية الواقعة تحت يد النمسا.

٤ ــ ان الانضمام لدولتى الوسط سيحرم ايطاليا من الساحل الدلماشى التي نرى أنه مهم جدا لايطاليا.

حقيقة لبت النمسا الكثير من المطالب الايطالية، ولكن الحكومة الايطالية كانت تعتقد أن النمسا لم تتنازل وتلبى طلبات ايطايا الا لأن النمسا كانت تحارب حربا مصيرية. واذا ما انتهت الحرب بانتصار النمسا فقد كان الايطاليون يعتقدون أن النمسا لن تتنازل عن شيء ما لايطاليا.

والواقع أن الذي حدث هو أن حكومة ايطاليا وجدت أن دخول الحرب الى جانب دول الوفاق هو الذي سيعود على ايطاليا بمكاسب مؤكدة. ولذلك عقدت حكومة ايطالية معاهدة لندن السرية للدخول في الحرب ضد دولتى الوسط في أبريل عام ١٩١٥. وكانت الخطوة التمهيدية لدخولها الحرب وتهيئة الجماهير المقبلة

هي الغاء معاهدة التحالف الثلاثي. وأدرك دعاة سياسة الحياد أن الحكومة تدفع بايطاليا نحو الحرب. واذا بالحكومة تواجه معارضة شديدة من جانب الأغلبية البرلمانية التي صوتت ضد سياسة سالاندرا Salandra واستقال الرجل الذي كان قد دبر دخول ايطاليا الحرب (مايو عام ١٩١٥). وهنا دخول الرأي العام كقوة فوق سلطات البرلمان الايطالي. ونعنى هنا بالرأي العام رجل الشارع الايطالي، والصحافة، واشتعلت المدن الكبرى الايطالية مطالبة بدخول ايطاليا الحرب ضد دولتى الوسط. ولكن كيف أصبح للرأى العام الايطالي هذه القوة الجبارة التي أرغمت أغلبية برلمانية على سحب قرارها وعلى اعادة وزير ترك منصبه بقوة البرلمان. وهل كان للرأي العام الايطالي هذه القوة الجبارة التي أرغمت أغلبية برلمانية على سحب قرارها وعلى اعادة وزير ترك منصبه بقوة البرلمان. وهل كان الرأي العام الايطالي مدركا أنه بالمطالبة بالمشاركة في الحرب كان يعرض بلاده لنفقات وتضحيات باهظة جدا في الوقت الذي كانت بين يديه فعلا الكثير من المكاسب التي كان يسعى اليها. ان السبب الحقيقي الذي جعل الرأى العام على هذه الدرجة من القوة هو أن مفهوم الرأي العام حينذاك كان يعنى المدن الكبرى وليس الريف، والمدن الكبرى يمكن تحريكها وتوجيهها بالمبادىء والأهداف السياسية لكثرة المثقفين بها، الذين كانوا يؤمنون بأمرين رئيسيين :

١ — استكمال الوحدة الايطالية.

٢ — ايطاليا دولة عظمى.

وكان الأمر الثاني هو الأكثر في تفجير انفعالات المدن الايطالية والمثقفين. ان ايطاليا التي تحصل على مكاسب أرضية وحتى لو كانت مكاسب قومية عن طريق المناورات الدبلوماسية هي ايطاليا الضعيفة التي لايقام لها وزن في توجيه أمور أوربا والعالم. أما ايطاليا الجديدة بأن تكون أصل الامبراطورية الرومانية هي التي تقفز الى مراتب الدول الكبرى وأن تحالف كتلة ضد أخرى، وأن تسوق الجيوش هنا وهناك في حرب طاحنة ترفع من مكانة ايطاليا المنتصرة على كبريات الدول الأوربية بهذه المشاعر تغلب الرأى العام على الأغلبية البرلمانية.

٤ — *بلغاريـــا :*

تطلعت في أعقاب اعلان الحرب الى انتهاء فرصة تمكنها من ضرب الصرب

والحصول على الجزء البلغاري من مقدونيا. ولكن هذا كان يصادف مقاومة لا من الصرب وحدها وانما كذلك من اليونان.

ولكن رأى ملك بلغاريا أنه يستطيع ان يحصل على توسعاته من دول الوسط المسيطرة فعلا على البلقان فأعلن انضمامه اليها خاصة بعد أن أعلنت ايطاليا اتجاهها لجانب دول الوفاق. فايطاليا كانت أطماعها الواسعة من البلقان. وأدى دخول بلغاريا الحرب، الى أن يعرض الانجيلز والفرنسيين أنفسهم على اليونان حتى يوقفوا التوسع البلغاري وبالتالي أصبح على اليونان أن أرادت المشاركة في الحرب - أن تخوض الحرب في صف دول الوفاق. ان عدم احترام بريطانيا لحياد اليونان هو الرد القوى على ادعاء انجلترا أنها لم تدخل الحرب العالمية الا دفاعا عن حياد البلجيك. فكما أن المانيا داست حياد بلجيكا فقد داست انجلترا حياد اليونان.

٥ - *رومانيـــا :*

كانت تتطلع الى استعادة الأراضى التي تضم رومانيين مثل بسارابيا التي كانت في يد روسيا، ومثل الأجزاء الرومانية في ترانسلفانيا وغيرها من البلدان الرومانية الواقعة تحت الحكم النمساوى. وبالتالي كانت لابد أن تأخذ جانب دول الوفاق اذا أرادت الاشتراك في الحرب. واشتركت فعلا.

٦ - *اليابـــان :*

كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء الحرب العالمية الأولى مرتبطة إلى حد كبير مما ستقدم عليه اليابان من خطوات من جانبها. وكانت اليابان تنظر بعين الحذر والترقب للجهود الأوربية المتضامنة ضد توسعاتها في الشرق الأقصى. أما وقد اشتبكت الدول الأوربية في حرب كبرى أليس ذلك فرصا للتوسع على حساب الصين. وحاولت اليابان أن تحقق أهدافها بالتدريج بأن ترث ألمانيا في الشرق الأقصى بالتحـــالف مع بريطانيا، ولكن بريطانيا كانت غير مستعـــدة للترحيب بمثل هذه السياسة التي كانت كفيلة بأن تثير الولايات المتحدة ضد دول الوفاق. ولكن الأكيد هو أن اليابان وجدت أن تحقيق أهدافها يكمن في التحالف مع دول الوفاق.

٧ ــ *أفريقيــــة* :

كانت المستعمرات الأفريقية تعاني من تضامن محلى واضح بين القوى الأوربية فيها. الألمانية والفرنسية والانجليزية ولكن عندما نشبت الحرب حاربت القوى الانجليزية. من مستعمراتها القوى الألمانية في مستعمراتها وهكذا. وعمل كل من الطرفين على تجنيد الأفريقيين للدفاع بدمائهم عن مصالحهم الأوربية. وبالتالي يمكن أن نصف الدول التي شاركت في الحرب على النحو التالي:

كتلة دول حاربت مع دولتى الوسط (ألمانيا والنمسا والمجر) وهي :

١ ــ الدولة العثمانية.

٢ ــ بلغاريــــا.

كتلة دول حاربت مع دول الوفاق (فرنسا، روسيا، انجلترا، اليابان) هي :

١ ــ ايطاليا.

٢ ــ الولايات المتحدة الامريكية.

٣ ــ رومانيا.

٤ ــ الصــــرب.

لقد كان عام ١٩١٤، ١٩١٥، عامى الجهد المضنى في ميادين القتال. ويعتبر عام ١٩١٦ نقطة تحول في اتجاه دول الوفاق وعام ١٩١٧ عام الانتصارات التي أدت الى هزيمة دول الوسط الى الهزيمة في عام ١٩١٨. وكان تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب عاملا هاما في هذا التحول، وكان التدخل لعوامل سياسية واقتصادية، ولكنه العامل الاقتصادي هو الأهم. فقد أدت حرب الغواصات ضد السفن التي تبحر الى فرنسا وانجلترا الى تكدس البضائع الامريكية في الموانىء. وبالتالي تأثرت مرافق الولايات المتحدة الاقتصادية والتجار والشعب بذلك تأثرا مباشرا وبالتالي كان لابد من علاج. وحيث ان الغواصات الألمانية هي التي تشترى من الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أصبح العدو واضحا للولايات المتحدة حكومة وشعبا. لقد أدى دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب الى أن يقوى حصار انجلترا للسواحل الألمانية مانعة وصول تموين كبير لألمانيا. كما أن دول الوفاق اطمأنت الى مصدر مالى كبير ينقذها في

الأزمات هو الولايات المتحدة الأمريكية. هذا فضلا عن مئات الألوف من الجيش الأمريكي التي سافرت الى أوربا حوالى عام ١٩١٨ لتغير وجه الحرب.

ولكن هذه الآمال تعرضت لهزة كبيرة في أعقاب نجاح الثورة الشيوعية في روسيا وترتب على ذلك خروجها من الحرب (١٩١٧) بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية والعسكرية والاضطراب الداخلي - بمقتضى معاهدة برست ليتوفسك وأعقبتها رومانيا بالخروج من الحرب لأنها لاتستطيع الاستمرار فيها الا بمساعدة روسيا - فعقدت معاهدة بوخارست (١٩١٧) ولم تلبث أن توالت بعد ذلك انهيارات لدى دول الوسط. انهارت النمسا، والامبراطوية العثمانية، وألمانيا.

وترجع أسباب هذه الانهيارات الى :

١ - التفوق العسكري والبشرى لدى الحلفاء. وأصبح الجيش الألماني مهددا بكارثة.

٢ - تدفق القوات الأمريكية على أوربا.

٣ - انهيار الجبهة العثمانية.

٤ - انهيار الجبهة النمساوية.

٥ - الإضرابات العالمية في داخل ألمانية.

٦ - ما قيل عن نقاط أربع عشرة للرئيس ولسون بحق تقرير المصير والتي كانت من أسس عقد الهدنة مع ألمانيا.

في عام ١٩١٨ تغيرت الصورة تغيرا جوهريا، لقد سقطت الامبراطورية الألمانية، والامبراطورية النمساوية، وفقدت الامبراطورية العثمانية ما كان لها من ممتلكات خارج تركيا والقسطنطينية، وسقط ملك بلغاريا، وأصبح على مؤتمر الصلح الذي افتتح في باريس في يناير عام ١٩١٩ برئاسة كليمنصو أن ينظر في شروط الصلح الذي حضرته الدول المنتصرة، الأوربية وغير الأوربية مثل اليابان والصين وبعض دول أمريكا اللاتينية والحجاز.

تسويات الحرب العالمية الأولى

لقد ألقى عبء عقد سلام دائم على عاتق الأربعة المنتصرين ثلاثة كبار: لويد جورج، كليمنصو، وولسن، ورابع يحاول أن يكون ممثلا لبلد كبير هو أورلاندو،

وتركت روسيا هذه الأمور الدولية في أعقاب الثورة الشيوعية. أو بمعنى آخر لقد كان المنتصرون العسكريون هم أصحاب التسوية المقبلة لسلام يكون عادلا لهم فقط بغض النظر عن مطالب الآخرين المهزومين أو حتى بعض الحلفاء من أمثال العرب الذين ثاروا وحاربوا جنبا الى جنب مع الحلفاء ومع هذا لم يتورع هؤلاء عن اقتسام بلادهم فيما يعرف باسم:

١ ـ اتفاقية سايكس - بيكو

٢ ـ تصريح بلفور

كان ولسون يعتقد أن دور الولايات المتحدة الانساني هو أسمى الأدوار، وأن التمسك بمبادئه الأربعة عشر فيه سلامة العالم، ولكنه نفسه كان مستعدا لتحوير مفهوم بعض هذه الوصايا تلبية لأهداف أمريكية. وكان كليمنصو ولويدجورج يدركان كم في استطاعة الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق رئيسها ولسن أن يحرج مركزيهما اذ كان يعملان على جنى ثمرات النصر الى أبعد مايمكن الحصول عليه من ثمرات، برغم وصايا ولسن الأربع عشرة.

لقد كان كليمنصو يكره هذه الوصايا وكذلك زميله لويد جورج ولذلك كان التآمر هو الوسيلة لتحقيق الأهداف الجشعة. ولكن هناك أمور عدة استطاعا أن يقنعا بها الرئيس ولسن برغم أنها ضد مبادىء حق تقرير المصير مثلا، كما أن الدولتين الفرنسية والبريطانية لم تقبلا مبادىء ولسن الأربعة عشر الا بعد أن حصلتا على الثمن وهو أن تدفع الدول المهزومة تعويضات عسكرية باهظة.

وكانت هذه المبادىء الأربع عشرة تنص على ما يلي:

١ ـ الامتناع عن التآمرات الدبلوماسية والسياسية والمعاهدات السرية.

٢ ـ حرية الملاحة في أعالي البحار.

٣ ـ العمل على تخفيض سباق التسلح.

٤ ـ حق المستعمرات في اختيار حكوماتها والعدالة عند النظر في مطالبها وأن تكون الحكومات التي تتولى أمر تلك المستعمرات مقبولة من الاهالي.

٥ ـ ازالة العوائق الاقتصادية بين بلدان العالم.

٦ ـ جلاء الألمان عن الأراضي الروسية ومساعدة روسيا على ترقية شئونها.

٧ ـ استعادة بلجيكا لحريتها واستقلالها الكامل.

٨ ــ جلاء بروسيا عن الأراضي الفرنسية وأن تقوم بروسيا باصلاح ما سبق أن أفسدته عام ١٨٧١.

٩ ــ منح شعوب النمسا والمجر الحكم الذاتي.

١٠ ــ اعادة تخطيط الحدود الايطالية ـ النمساوية وفقا لمبدأ التكامل القومي.

١١ ــ جلاء القوات المهزومة عن رومانية والصرب والجبل الأسود واعطاء صربيا منفذا على البحر، واحترام قاعدة التكامل القومي عند تسوية المشكلات بين الدول البلغارية، ومراعاة اتجاه ولاء الاقليم كذلك.

١٢ ــ استكمال الاستقلال الذاتي للقوميات غير التركية في الامبراطورية العثمانية. واعتبار مضيق الدردنيل حرا أمام جميع السفن.

١٣ ــ ظهور بولندة المستقلة على أن يكون لها منفذ على البلطيق.

١٤ ــ تكوين عصبة أمم لتوطيد السلام واحترام أراضي الدول العظمى والصغرى على السواء.

وكانت الدعوة لانشاء عصبة أمم تحول دون تكرار هذه المأساة الأوربية من أقوى الدعوات الانسانية انتشارا ورفعا لقدر الرئيس الأمريكي ولسن الذي كان متحمسا ومؤمنا برسالة هيئة عليا دولية لتوطيد السلم بعكس زميليه كليمنصو ولويد جورج. وكانت صلابة ولسن هي التي أدت الى خروج عصبة الأمم الى حيز الوجود في مواجهة تآمرات كليمنصو ولويد جورج. وكان جوهر الخلاف الشكلي بين الجانبين الأمريكي والانجلو فرنسي يتركز في ضرورة أو عدم ضرورة ارتباط ميثاق عصبة الأمم بمعاهدة الصلح. فلقد كان ولسن يرى أن هذا الارتباط ضروري حتى اذا ما كانت معاهدة الصلح غير مستكملة لشروط الكمال والعدل، فان ميثاق العصبة قادر على مواجهة هذه الثغرات. أما كليمنصو ولويد جورج فكانا لايريان ذلك بل من الناحية الجوهرية كانا يعتقدان أن ولسن يحلق في آفاق الفضاء لا الواقع وأن العصر ليس عصر عصبة الأمم، وانما عصر تفوق المنتصر أي امتداد للقرن التاسع عشر وليس تطلعا الى توقعات القرن العشرين.

وعلى أي حال وضعت عصبة الأمم موضع التنفيذ، وكان مجلسها يضم مندوبين عن الدول الكبرى يحضره ممثلون عن الدول الكبرى، أما الجمعية فتضم كل أعضاء العصبة.

وبمقتضى ميثاق عصبة الأمم تألفت «محكمة العدل الدولية» وتأسس مكتب العمل الدولي الذي يضم برلمانا أعماليا يحوى مندوبين عن الحكومات والهيئات العالمية معا. وابتدع الأربعة الكبار نظام الانتداب كمحاولة لايجاد مبرد للسيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية على أراض جديدة اتفقت على اقتسامها، وخاصة في الوطن العربي والدولة التركية ومستعمرات ألمانيا السابقة. وصاغ المتآمرون هذه الأهداف في أسلوب انساني عندما قالوا ان مسئولية عصبة الأمم نحو هذه الشعوب الضعيفة التي تخلصت من الأتراك والألمان أمانة في عنق الدول المتمدينة، وبذلك فلعصبة الأمم أن تمنح فرنسا وانجلترا انتدابا على تلك الشعوب التي كانت تحت حكم تركيا وألمانيا. وبذلك وجدت الدولتان الاستعماريتان الكبيرتان المبرر القانوني، والموافقة الأمريكية على الانتداب، لفرض شكل من الاستعمار على بلاد كارهة لها كل الكراهية بدليل الثورات العديدة التي هبت في الوطن العربي ضد الانتداب أو الحماية في مصر (١٩١٩) في العراق (١٩٢٠) في سوريا (١٩٢٥) في السودان (١٩٢٤). فكان ذلك جانب ضعف شديد في بناء العصبة، لايفوقه في ذلك سوى انعدام القوة التنفيذية لدى عصبة الأمم ضد الدول التي لاتقيم وزنا لعصبة الأمم، ولا تحترم مطالب الشعوب المطالبة بالحرية.

ولكن انجلترا كانت معنية بأمر هام بالنسبة لألمانية. وهي أنها لا تريد أبدا أن يؤدي الضغط على ألمانيا الى أن تلقى هذه بنفسها بين يدى روسيا البلشفية. ومن ثم كان على انجلترا أن تمنع فرنسا عن التمادى في دعواها من أنها تحتاج الى عمق استراتيجي في داخل الأراضى الألمانية لتحول دون تكرر غزو ألماني لأراضيها مرة أخرى على نحو ما حدث في أعوام ١٧٨٩، ١٨١٥، ١٨٧١، وأخيرا في عام ١٩١٤ خاصة وأن كل هذه الحروب جرت على أرض فرنسا بالذات وليس على أرض ألمانيا فكانت نكبات فرنسا فادحة. . كانت فرنسا تطالب باقليم «السار» وكان لويد جورج ينتقد هذا المطلب الفرنسي بقوله: اننا نلوم بسمارك على تعديه على فرنسا بضمه الألزاس واللورين، وها هي ذي فرنسا في ١٩١٩ تفعل نفس الشيء مع اقليم ألماني مائة بالمائة وضد مبادىء ولسن[1].

(١) نفس الشيء كان بالنسبة لمطالب ايطاليا وفقا لما سبق أن وعدته بها دول الوفاق بمقتضى معاهدة عام ١٩١٥ التي تعطى ايطاليا توسعات على الساحل المقابل على حساب قوميات =

كانت وجهة نظر لويد جورج ازاء ألمانيا هي أنه لابد من تقليم أظافرها. ولكن ليس للدرجة التي تصبح بها ألمانية جثة هامدة. وهناك من يرى أن لويد جورج كان متعقلا أروع مايكون عليه التعقل في معاملته لألمانيا المهزومة اذا قورنت شروطة التي أراد أن يفرضها عليها بالمطالب التي كان الشعب البريطاني ينادى بها من طلب تعويضات باهظة والقضاء على قوة ألمانية العسكرية فقط، بل كذلك الاقتصادية حيث لاتستطيع أن تنهض مرة أخرى أليست هي - في نظر الشعب البريطاني المنتصر - التي جرت الكوارث الكبرى على العالم الأوروبى بتحديها الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا. ولم يدر هذا الشعب أن الأمر نفسه ينطبق عليه لو كان هو المهزوم حيث ان الطرفين مسئولين عن تصادم الأطماع في العالم سواء من حيث محاولات بريطانيا للاستئثار بالمستعمرات والتجارة العالمية والقوة البحرية، أو من حيث ألمانيا في محاولاتها للاستئثار بالمستعمرات والتجارة العالمية والقوة البحرية، أو من حيث ألمانيا في محاولاتها لكسر هذا الاحتكار والانتشار ولو بالقوة. ومن العوامل الجوهرية التي جعلت انجلترا تنظر الى ألمانيا نظرة أكثر اعتدالا من نظرة فرنسا، وأكثر واقعية، أن عواطف الشعب الجامحة بعد الانتصار كان من الممكن السيطرة عليها بسبب تلاشى أكبر خطر كان يهدد بريطانيا، وهو استسلام الأسطول الألماني. بعكس الحال بالنسبة للجيش الألماني الذي كان خطرا مباشرا ودائما على فرنسا. وكل ماحدث له هو أنه ألقى السلاح: ولكن أليس في استطاعته - في ظروف تعقيدات دولية جديدة - أن يمتشقه مرة أخرى وتفيد بريطانيا نفسها من ذلك. لقد كانت مخاوف فرنسا حقيقية. ولكن كان عليها ألا توغل في مخاوفها بما يدفعها الى داخل ألمانيا. ومن هنا توطدت فكرة وسطا تهدف الى منع ألمانيا من الحصول على أسلحة هجومية، ومنعت من التجنيد الاجبارى وتحديد القوات المسلحة وأن تظل أراضى غرب الراين منزوعة السلاح وأن تحتل قوات الحلفاء «السار» حتى يجرى استفتاء يحدد مستقبله لألمانيا أم لفرنسا، لقد

= أخرى غير ايطالية خاصة فيا يتعلق بمطالبة ايطالية بميناء فيومي Fiume. كذلك كانت اليابان تعمل على أن ترث ألمانيا في اقليم شان تونخ الصيني وكانت دولتا الوفاق قد وعدتها بالتأكيد في هذا الشأن وكانت الدول الصغرى كذلك تضع الأهداف الاقتصادية والاستراتيجية فوق نظرية التكامل القومى.

كانت مهمة وضع معاهدة صلح جد معقدة ولا يمكن أن ترضى جميع الفرقاء المنتصرين أم المهزومين. ولكن كان لابد من الوصول الى اتفاق. وكانت خسارة ألمانيا كبيرة بلا شك فقد تنازلت ألمانيا عن أوربين Eurpen ومورسنت Morsenet ومالیدی Malmedy ـ بعد أخذ موافقة السكان ـ الى بلجيكا.

وتنازلت ألمانيا عن الألزاس واللورين لفرنسا، فاستعادت فرنسا نحو مليونين من السكان وحوالى ثلاثة أرباع ألمانيا من الحديد والصلب. وأجرى استفتاء في منطقة شلزويج الشمالية انتهى بضمها الى الدنمرك.. وبالنسبة لمناطق الحدود الألمانية ـ البولندية كانت معقدة بسبب شدة اختلاط السكان، والاصرار على أن يكون لبولندة ممر مؤدى الى بحر البلطيق عبر الأراضي البروسية. وتوصل الحلفاء الى طريقة خطيرة لتوصيل بولندة الى بحر البلطيق وهو منحها ممرا عبر ألمانيا (بروسيا) يقسم ألمانيا الى قسمين (بروسيا الشرقية، وألمانيا) كما جعل ميناء دانزج مناء حرا تحت ادارة عصبة الأمم. ووضعت الانهار الألمانية الكبرى تحت رقابة دولية جرحت بقسوة مشاعر الألمان باستمرار. ونزع سلاح قناة كييل وأعلن حيادها.

وفقدت ألمانيا كل مستعمراتها وامتيازاتها فيما وراء البحار في أفريقية وآسيا، وحلت اليابان محلها، في الشرق الأقصى، فانتدبت على جزر مارشال وتفوقت في الصين على حساب ألمانيا. حصلت فرنسا على جزء من الكاميرون، وانتدبت انجلترا على الجزء الثاني منه، كما انتدبت انجلترا على ناوارو وعلى توجولاند، وعلى تنجانيقا وانتدبت بلجيكا على جزء من تنجانيقا وانتدبت استراليا على غينيا الجديدة الألمانية، ونيوزيلندة على ساموا.

ووقع المندوبون الألمان المعاهدة (معاهدة فرساى) في قاعة المرايا بقصر فرساى، وهي نفس القاعة التي أعلن فيها قيام الامبراطورية الألمانية.

لقد ذابت مملكة النمسا والمجر في موجة الاستقلالات القومية. وقبل عدة أسابيع من افتتاح مؤتمر الصلح كانت قد ظهرت مجموعة من الدول القومية على أنقاضها وهي :

١ ــ تشيكوسلوفاكيا، من العنصرين التشيك والسلاف، وحصلت على

بوهيميا. وكانت هي بولندة حاجزا ضد ألمانيا ولكن في حاجة الى دولة قوية تحافظ عليها من ألمانيا فتحالفت مثل بولندة مع فرنسا بعد الحرب بسرعة لأن ألمانية لن تسكت عن ملايين الألمان تحت الحكم التشيكي.

٢ ـ **بولندة** : وقد أعيد انشاؤها لتكون حاجزا في وجه روسيا السوفييتية وشوكة في جنب ألمانيا ان حاولت النهوض عسكريا مرة أخرى. ومنحت بروسيا الغربية وبوتزن وجزء من سيليزيا وهي أراضى ألمانيا الغنية. فكان ذلك سبب في أن تصبح كراهية ألمانيا ـ بعد ذلك ـ لبولندة أشد منها لفرنسا.

٣ ـ **النمسا** : أصبحت جمهورية تقوم على شعب ألماني مهيض الجناح. وكان الحزب الاشتراكي فيها القوى ينادى بالوحدة مع ألمانيا. ومع أن ذلك يتمشى تماما مع مبادىء ولسن الأربع عشرة فان امتداد ألمانيا بعد اتحاد النمسا معها الى ممر برميز يرعب ايطاليا وانضمام ٦ ملايين نمساوى ألماني يخيف فرنسا كلية. ولهذا نصت معاهدة فرساى على ألا تتصرف النمسا في استقلالها الا بموافقة عصبة الأمم.

٤ ـ **يوغوسلافيا** : (الجامعة السلافية).

٥ ـ **المجر** : وفي أقصى الشمال على البلطيق بدأت توطد فنلندة، وأستونيا ولتوانيا ولاتفيا وجودها كدول مستقلة وكان معظمها قد وضع تحت السيطرة الألمانية في أعقاب برست ـ ليتوفسك. ويعتبر نقد اتفاقية فرساى واتفاقيات الصلح من أهم ميادين عمل المؤرخين والقصصيين على السواء. ولاشك أنها كانت سيئة .ولكن أليس من الحكمة أن نقول ان المنتصر تأخذه العزة بالنصر، والمهزوم لا يتطلع الا الى الثأر في عصر كانت فيه العدالة الدولية حبيسة الأطماع القومية، والسياسات الامبريالية.

ولا شك أن الاحتلال العسكرى لأرض ألمانيا، وضم بعضها لدول متاخمة لألمانيا، وتقسيم ألمانيا وفرض غرامة باهظة عليها، والصاق تهمة مجرمة حرب بها وبزعمائها كلهاأمور لابد أن تثير في ألمانيا روح القومية المطالبة بالتكامل القومي الألماني الذي يعني ظهور ألمانيا الكبرى، والذي يعنى الخطر كل الخطر على فرنسا. خاصة وأن وجود مائة ألف جندى ـ وهو الحد الأقصى للجيش الألماني

- كفيل بأن يكون نواة لجيش الانتقام.

ان معاهدة فرساى أدت الى ظهور العدد العديد من الدول الصغرى في وسط أوربا فأصبح أشبه مايكون ببلقان آخر، يتعارض كل التعارض مع نمو أوربا الاقتصادى والفكرى. وتعمق هذا بها كان بين دول وسط أوربا من مشاحنات قومية واقتصادية شديدة لايمكن التوفيق بينها بسهولة. لقد فرحت الدول الأربع الكبرى بغياب روسيا السوفييتية وسيرت الأمور متغاضية عنها على اعتبار أن روسيا هي التي فعلت ذلك بنفسها. ولكن السؤال هل يمكن أن تدار أمور أوربا في غياب روسيا باستمرار.

الفصل السابع
تطور أوربا بين الحربين العالميتين

ظهور الدكتاتوريات :

اعتقد كثير من الساسة والمفكرين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أن خير النظم السياسية التي تكفل سعادة المجتمع ورخاء الانسان المادى والمعنوى هي النظم الديمقراطية المتمثلة بالمجالس النيابية، وبالحرية الفردية في الفكر والعمل لجميع أفراد الشعب، فاتجهت جميع دول أوربا لاقامة حكومات ديمقراطية تستمد سلطتها وسياستها من البرلمانات، ممثلي الشعب، وتبقى في الحكم ما بقيت ثقة تلك البرلمانات بها، حتى ان روسيا القيصرية وتركيا العثمانية لم تستطيعا مقاومة هذا التيار، فدعت الأولى مجلس «الدوما» للانعقاد، ودعت تركيا مجلس «المبعوثان» وكلاهما برلمان يجتمع فيه النواب باسم الشعب. ولكن مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى وبطء الاجراءات البرلمانية في حلها دفعت بعضهم الى الاعتقاد بعجز البرلمانات عن حل مشكلات البلاد، فتطلع الناس الى أنظمة جديدة تساير التطور الجديد، وأن خير انظمة الحكم هي وضع السلطة بيد فئة محدودة أو رجل مخلص كما كان الحال عند الرومان في ساعات الشدة. فظهرت في نهاية الحرب وأعقابها أنظمة دكتاتورية جديدة كان أبعدها أثرا: الشيوعية والفاشية والنازية، ساعد على ظهور الدكتاتورية الأزمة الاقتصادية (١٩٢٩-١٩٣١) التي عمت أوربا بخاصة والعالم بعامة.

١ ـ *الشيوعيـة في روسيـا* :

كانت روسيا أول دولة أوربية انقلب فيها نظام الحكم في أثناء الحرب العالمية الأولى، فقد قامت الثورة الشيوعية فيها سنة ١٩١٧ نتيجة البؤس الذي كان يسحق سواد الشعب الروسي وفساد الحكم القيصرى، وهزيمة حكومة القيصر أمام اليابان سنة ١٩٠٥، ثم أمام الألمان سنة ١٩١٦، ١٩١٧.

وقد تزعم الثورة الحزب الشيوعى وتسلم قيادتها لينين الذي قضى على أسرة القيصر الحاكمة، وعقد الصلح مع الألمان، ثم أعلن السوفييت (أي المجالس الشعبية المحلية) الاشتراكية، وتأميم وسائل الانتاج، وعمل على محو الفوارق بين الجماعات القومية المختلفة في روسيا، كما أعلن دكتاتورية العمال والفلاحين المتمثلة في الحزب الشيوعى.

وقد استطاع هذا النظام أن يدافع عن نفسه سنوات طويلة ضد الهجوم العسكري الغربي عليه من كل جانب، كما استطاع أن يثبت سنوات طويلة مريرة أمام الجماعة ونقص السكان وعمليات التخريب، وقد مات لينين سنة ١٩٢٤، فتولى قيادة الاتحاد السوفيتي بعده رفيقه ستالين حوالي ثلاثين سنة حتى توفي عام ١٩٥٣. وقد استطاع الاتحاد السوفياتي القيام بسلسلة متتالية من المشاريع عرفت بمشاريع السنوات الخمسة جعلته يقفز بالبلاد الى النهضة الشاملة، وأن يتزعم النضال الاشتراكي العالمي ضد الرأسمالية الغربية، وأن يصبح منذ الخمسينات احدى القوتين اللتين تتجاذبان النفوذ العالمي. غير أن هذا النظام قد انهار في مطلع التسعينات من هذا القرن.

٢ ـ *الفاشية في ايطاليـا* :

برز في ايطاليا شعور من خيبة الآمال أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى. فقد شعر الايطاليون بأنهم لم يفوزوا الا بالتافه الزهيد من الغنائم بالرغم من أنهم كانوا في عداد الدول الظافرة وأنهم عانوا أهوالا شديدة. وعندما قامت الحرب وجد الايطاليون أنفسهم يعانون من الضرائب العالية وارتفاع أثمان الأغذية وندرة الوقود. فكثرت الاضرابات، وانتشرت البطالة وساءت احوال الناس، وتعددت الأحزاب، وضعفت الوزارات، وانتشرت المبادىء الشيوعية في البلاد، وظهرت ردة فعل في البلاد ضد الشيوعية. وقد تمثلت ردة الفعل هذه في الحزب الفاشى

وزعيمه بنيتو موسوليني، الذي حدد مبادئه في محاربة الشيوعية والتنظيم التعاونى للدولة والوصول الى المكاسب الاستعمارية التي حرمت منها ايطاليا في مؤتمر الصلح.

وتقوم النظرية الفاشية على احتقار الحرية البرلمانية، وتلح على «تفوق الدولة» وعلى ضرورة اجبار الفرد طوعا أو كرها لمشيئة الدولة وهذه الدولة يجب أن يكون على رأسها زعيم وعلى هذا الزعيم أن يركز جميع السلطات بين يديه. وقد قاومت الفاشية مبدأ الشيوعية الدولية واستعاضت عنه بمبدأ قائم على الاشتراكية القومية المتحمسة.

وقد قام الحزب الفاشي بعمليات اغتيال وأعمال عنف رهيبة ضد خصومه، وعندما قويت شوكة الحزب زحف موسوليني وأتباعه ذوو القمصان السوداء الى روما، فاضطر الملك فيكتور عمانويل الى تسليمه السلطة، ومنذ ذلك الوقت أضحى دكتاتور البلاد وحمل لقب «الدوتشى».

وعمد الزعيم موسوليني (الدوتشى) الى الغاء الأحزاب وجعل السلطة كلها بيده، وأعلن حظر الاضطرابات والامتناع عن العمل، وأصبحت كل صناعة من صناعات البلاد شطرا من مشروع عام ضخم يقوم على التوفيق بين مصلحة العامل من جهة وعلى رخاء الصناعات التجاربة وكفالة رءوس أموالها وضمان أرباح معقولة من ناحية أخرى. وقد أعاد التعليم الديني إلى المدارس وتصالح مع الكنيسية.

ومن جهة اخرى، فقد ارتكب موسوليني أبشع الجرائم والأعمال لاقرار الاستعمار الايطالي في ليبيا، ثم التوسع الاستعمارى في الحبشة سنة ١٩٣٥، وفي ألبانيا سنة ١٩٣٦. وكانت معارضة الدول الاستعمارية له سببا في اتفاقه مع ألمانيا النازية في حلف عسكري (محور برلين - روما) فما أن أعلنت الحرب العالمية الثانية، حتى دخلها بجانب ألمانيا. وانتهت الفاشية بهزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية.

٣ ـ *النازية في ألمانيا*:

سخط الألمان على القيود التي قيدتهم بها معاهدة فرساى، وعلى ما بها من ذل، وقضوا فترة من الاضطراب والافلاس والبطالة استمرت سنوات عديدة بعد الحرب

العالمية الأولى، حتى استطاع واحد من الأحزاب السياسية أن يشق الطريق الى الحكم ويتسلم السلطة عام ١٩٣٣، هذا الحزب هو حزب العمال الاشتراكي الـوطنى (النازي)، وأما زعيمه فهو أدولف هتلر الذي سجل مبادئه في كتابه «كفاحى»، وهي مبادىء تقوم على أساس القومية العنصرية، وتؤمن بتفوق العرق الجرماني، وانشاء ألمانيا الكبرى التي تضم كل الألمان، كما تطالب بامتلاك الدولة للشركات الاحتكارية والغاء معاهدة فرساى، واستعادة المستعمرات الألمانية.

وقد أضحى هتلر منذ سنة ١٩٣٤ دكتاتور ألمانيا الأوحد ولقب بالفوهرر Fuhrer وأخذ في تطبيق مبادئة وكان أول نجاح له حين ضم منطقة السار الى ألمانيا سنة ١٩٣٥، ثم أعلن الغاء معاهدة فرساى وسلح الجيش الألماني تسليحا جعله من أقوى الجيوش العالمية، ثم ضم البلاد الناطقة بالألمانية في أوربا الى ألمانيا (الرايخ الثالث) قطرا بعد قطر، فضم النمسا سنة ١٩٣٨ ثم بلاد السوديت سنة ١٩٣٩، ثم حاول ضم دانزيخ (الممر البولوني) بالقوة. واتفق مع الاتحاد السوفيتى على اقتسام بولونيا فكان هذا الموقف سببا في قيام الحرب العالمية الثانية. وانتهت النازية مع هزيمة المانيا في الحرب العالمية الثانية.

العلاقات الدولية بين الحربين العالميتين :

تميز الوضع الدولى في فترة ما بين الحربين بمميزات أهما:

١ ـ *المشاكل السياسية الناجمة عن معاهدات الصلح :*

كانت جميع الأحداث السياسية الهامة ذات الصبغة الدولية خلال الفترة التي توسطت الحربين العالميتين (١٩١٩-١٩٣٩) نتيجة مباشرة للتسويات العامة التي أبرمت بين دول الحلفاء وأعدائها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى. ولقد كان كثير من بقاع العالم ابان هذه الحقبة يغلى بالحقد والقلق والبغضاء والتنابذ والاضطرابات نتيجة لما أثارته معاهدات الصلح من الحنق وخيبة الأمل ومرارة اليأس وأسباب الانقسام والتفكك.

ولم يكن تقويض دعائم الأمن الجماعى مباغتا أو غير متوقع فقد استمرت عملية التفكك والتداعى للمعاهدات طوال هذه الفترة دون أن تبذل الدول الكبرى سوى محاولات ضئيلة ومصطنعة لوقف تلك العملية، وذلك لطغيان المصالح

السياسية الخاصة للدول على الأهداف الانسانية. وأخذت القوة في العقد الرابع من هذا القرن تصبح الفيصل الأكبر في تسوية الشئون والمنازعات، وزاد التسلح تدريجيا في جميع أقطار أوربا. وأخذ الجو السياسي يتلبد بالغيوم شيئا فشيئا وانتهكت حرمة المعاهدات ومبادىء القانون الدولي دون حياء أو رادع، وما غزو اليابان لمقاطعة منشوريا وفتح ايطاليا للحبشة الا مثلان صارخان لما كان يجرى في ذلك العقد من الزمان.

وقد أخذت الدول الديكتاتورية في هذه الفترة توحد صفوفها وتنظم هيئاتها، وبدأ التقارب بين ألمانيا وايطاليا واليابان ساعية الى الفوز ببعض الأسلاب لشعورها أن التسويات الماضية قد حرمتها هذه الغنائم، وتبين لهذه الدول أنه يمكنها أن تظفر بها تشتهى اذا ما لوحت بالقوة أو استخدمتها. وبدت لها الديمقراطية شعوبا قد هرمت، وظهرت الدول الديمقراطية بطيئة في انجاز الاصلاحات الداخلية وعاجزة عن الوصول الى قرارات حاسمة.

وكان رسم خارطة أوربا السياسية عقب الحرب العالمية الأولى على أساس قومى لتنفيذ حق تقرير المصير قد طوق ألمانيا من جهة الشرق وروسيا من جهة الغرب بدول صغرى ضمنت الدول المنتصرة في الحرب استقلالها واعتقدت أن ذلك يسهم في منع ألمانيا من العدوان، ويقف في وجه انتشار الشيوعية، فنشأت بذلك بولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا (المجر)، ويوغوسلافيا، غير أنها لم تستطع تخطيط الحدود بدقة كافية فنشأ ما يسمى بمشكلة الأقليات القومية وقد سبب ذلك اثارة المنازعات فيما بعد.

٢ ـ *عصبة الأمم* :

لقد قرر مؤتمرالصلح عام ١٩١٩ انشاء هيئة دولية لمنع الحرب في المستقبل ولحل المشاكل الدولية بالطرق السلمية، فأنشئت عصبة الأمم. ولكنها منذ اللحظة الأولى بدأت ضعيفة لاستنكاف الولايات المتحدة عن عضويتها وسيطرة الدول الكبرى عليها وتأخر المانيا وروسيا في دخولها. كما أنها لم تكن تملك الوسائل الكافية لمنع الاعتداء أولا لاسكات المدافع عن أن تحكم. واذا كانت نجحت في السنوات العشر الأولى في حل خلافات الدول الصغرى (كما في خلاف السويد وفنلندا بشأن جرينلاند سنة ١٩٢٠، وخلاف اليونان وبلغاريا سنة ١٩٢٥

وخلاف تركيا والعراق بشأن الموصل سنة ١٩٢٤) الا أنها كانت تفشل دوما حين يتعلق الخلاف بدولة من الدول الكبرى. وقد سجلت الفشل تلو الفشل منذ عام ١٩٣١. فلم تستطع منع اليابان من احتلال منشوريا عام ١٩٣١ ولما رفضت الاعتراف بالحكومة المنشورية الجديدة انسجت اليابان من العصبة. وعجزت عن منع الحرب بين باراغواي وبوليفيا وعن منع ايطاليا من احتلال الحبشة عام ١٩٣٥، ولم تجدها شيئا العقوبات الاقتصادية التي فرضتها على ايطاليا التي انسجت منها. كما لم تستطع تحديد التسلح.

ثم كالت ألمانيا الضربة تلو الضربة لعصبة الأمم دون ان تستطيع العصبة حراكا، فمزق هتلر القيود العسكرية التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا، ثم احتل النمسا ومنطقة السوديت، ثم ألحق تشيكوسلوفاكيا كلها بألمانيا وتعدى على هنغاريا (المجر) ثم على بولونيا. . والعصبة لاتحرك ساكنا. والذين أعلنوا الحرب (انجلترا وفرنسا) لم يعلنوها باسم عصبة الأمم ولكن باسم دولهم الحلفاء). ولم تنجح العصبة الا في الشئون الصحية والاجتماعية والثقافية شأنها شأن هيئة الأمم حاليا. وانهارت العصبة بعد اعلان الحرب العالمية الثانية.

ولعل مصير هيئة الأمم المتحدة اليوم وتسلط الولايات المتحدة والدول الامبريالية عليها شبيه بمصير عصبة الامم هذه.

٣ ــ الظروف الدولية قبيل الحرب العالمية الثانية:

لقد أصرت الدول الديمقراطية حتى اللحظة الأخيرة على اغماض عينيها عن رؤية الخطر الداهم الذي يهدد سلامتها فواصلت الولايات المتحدة سياسة العزلة واطمأنت انجلترا الى صولة أسطولها وعظمتها ودهاء سياستها، فلم تبذل جهداً جديا لوقف الدول المحرومة كايطاليا واليابان أو الدول التي أحسست بعار الهزيمة وذل التسليم كألمانيا لكف يدها عن البطش والعدوان. وبدأت انجلترا وفرنسا في الأعوام القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية سياسة، عرفت بسياسة التهدئة تميزت بالضعف السياسي. وظهر الخلاف جليا في مناسبات عديدة، وكان هتلر يعرف ذلك فاستغل الانشقاق بينهما فضم منطقة السار عام ١٩٣٥ بعد استفتاء أجرى باشراف عصبة الأمم وجاءت نتيجته في مصلحة ألمانيا. وأعاد نظام التجنيد الاجبارى، وأنشأ قوة بحرية، وأقام المصانع لانتاج الأسلحة والطائرات الحربية

على الرغم من مخالفة هذه الأمور لمعاهدة فرساى. ولم تر بريطانيا في هذا ما يثير قلقها مما باعد كثيرا بينها وبين فرنسا. ورأت هذه (فرنسا) أن تتجه نحو روسيا وسعت الى توثيق صلاتها مع الحكومة السوفيتية، وفي ٢ من مايو عام ١٩٣٥ أبرمت معها معاهدة كانت في صميمها تحالفا عسكريا حربيا ولو أنها اتخذت في ظاهرها صفة ضمان متبادل في نطاق عصبة الأمم.

غير أن هتلر رد على هذه الاتفاقية بازدياد التقرب من انجلترا وأفلح في أن يعقد معها معاهدة بحرية في يونيو عام ١٩٣٥ وافقت انجلترا بموجبها أن يخرق هتلر بنود معاهدة فرساى الخاصة بتحديد قوة ألمانيا البحرية تحديدا صارما مقابل اعترافه بتفوق القوات البحرية البريطانية ورضيت انجلترا أن يحدد حجم الأسطول الألماني الذي ينوى هتلر بناءه بـ ٣٥ بالمئة من مجموع حمولة الأسطول البريطاني.

ثم انتهز هتلر فرصة حرج مركز ايطاليا الدولى خلال الحرب الحبشية فأيد موسوليني تأييدا قويا فوريا في تحديد لقرارات عصبة الأمم، وأدرك هتلر أن فرنسا لن تحمل السلاح بمفردها ضد ألمانيا اذا هي أقدمت على احتلال الرين واعادة تحصينها ففعل ذلك. وقد زادت الحرب الأهلية الاسبانية في التقارب بين ألمانيا وايطاليا حيث دعم الألمان والطليان قوات الجنرال فرانكو الذي قام ضد الحكم الجمهوري في اسبانيا. ولما كانت النازية في طبيعتها عدوا لدودا للشيوعية فقد أصلى هتلر الشيوعيين حربا قاسية ورأى في اليابان العسكرية وايطاليا الفاشية حليفتين طبيعيتين فوثق العلاقات السياسية بهما.

وفي خريف عام ١٩٣٦ وقعت اليابان وألمانيا ميثاقا ضد الشيوعية ثم انضمت ايطاليا الى هذا الميثاق حيث أعلن الزعيمان هتلر وموسوليني وسط مظاهر الحماسة الشديدة اقامة (محور برلين - روما) بوصفه تحالفا سياسا ذا أهمية لاتقدر «لخير أوربا وحفظ السلام في ربوعها». ولم ينقض وقت طويل حتى أفلح هتلر في عقد حلف كبير معاد للشيوعية ينتظم ألمانيا واليابان وايطاليا وأسبانيا وهنغاريا (المجر).

وبدأت الحكومة النازية تطالب بالمستعمرات، وتضم المناطق التي يسكنها الألمان، عندئذ اخذت الدول الديمقراطية تتقارب فألغيت المعاهدة البحرية البريطانية الألمانية، وبدأت المفارضات بين فرنسا وروسيا وبريطانيا، غير أن العالم فوجىء بتحول خطير في الموقف الدولي حينما أعلن عن توقيع معاهدة عدم اعتداء

بين ألمانيا وروسيا عام **١٩٣٩**. **وهكذا انقسم العالم مرة ثانية الى معكسرين لكل منهما فلسفته ومطامعه ونظامه الداخلي :**

١ ـ معسكر المحور ويضم الدول الدكتاتورية ذات الحكم الفردى وهي ألمانيا وايطاليا واليابان.

٢ ـ معسكر الحلفاء ويضم الدول الديمقراطية المتمثل بانجلترا وفرنساوالولايات المتحدة الامريكية.

وخيم بذلك شبح الحرب على العالم مرة ثانية، وكانت الشرارة التي أشعلت الحرب الثانية هي اكتساح الجيش الألماني لبولندا في أول سبتمبر (أيلول) عام **١٩٣٩**، فأعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا وبدأت بذلك الحرب العالمية الثانية.

الفصل الثـــامن
الحرب العالميـــة الثانيـــــة

أولاً : الحرب العالمية الثانيـــــة :

مقـدمـــاتها :

هذه الصفة العالمية التي بدأت تأخذها الحروب الكبرى في هذا القرن هي نتيجة طبيعية لترابط العالم بعضه ببعض في المواصلات وفي الانتاج والثروات وفي المصالح، وتبنيه في مجموعة حضارة واحدة نسميها بالحضارة الغربية ولا نسمى هذه الحروب عالمية لاشتراك معظم دول العالم بها فقط، ولكن لأن ميادينها أيضا موزعة في أنحاء الكرة الأرضية. وتحاول الدول المتحاربة بكل وسعها أن تجعل حربها حربا مبررة، وذلـك باعطائها صفة الدفاع عن مبدأ معين. ذلك لأن الحروب الحديثة التي تجند فيها الأمم كلها وتعلن باسم مصلحة الأمة تختلف عن الحروب القديمة التي كان جنودها دوما من المرتزقة وتعلن في الغالب لتنفيذ المطامع والمصالح الشخصية.

ثم ان الفتك في هذه الحروب العالمية أقصى وأرهب منه في أي حرب عرفتها البشرية من قبل ونطاق الخسائر أوسع في الأرواح والتدمير والأموال.

أما أسباب الحرب فهي كالعادة أسباب بعيدة لا تعود الى السنين التي نشبت بها ولا الى الجيل الذي اصطلى نارها.

١ ـ معاهدة فرساى التي قيدت ألمانيا بقيود ثأرية : في الغرامات الباهظة وفي قيود التسلح، وفي التجزئة بالأرض والاقتطاع منها، للدول المجاورة، هذا

عدا الحرمان من الأسطول التجارى ومن المستعمرات. . وقد عادت ألمانيا الهتلرية تتحرر من هذه القيود جميعا معلنة حاجتها «للمدى الحيوى» يدفعها الى ذلك عوامل اقتصادية واعتبارات وطنية عنصرية وفيض من التسلح الهائل.

٢ ـ فشل عصبة الأمم ومشاريع التعاون الدولى ومؤتمرات السلام وتخفيض التسلح في مهماتها وانسحاب اليابان منها (عقب متشوريا) وايطاليا (عقب الحبشة) وألمانيا.

٣ ـ قوة الدول الدكتاتورية في ذاتها واتفاقها بعضها مع بعض بمحور برلين ـ روما ومحور برلين ـ طوكيو. وأخيرا معاهدة عدم الاعتداء بين برلين ـ موسكو قبل قيام الحرب عام ١٩٣٩ بأسابيع.

٤ ـ اختلال التوازن الدولى وتوسع اليابان (في الشرق الأقصى) وألمانيا (في القارة الأوربية) وايطاليا (في القارة الأوربية وأفريقيا) توسعا هدد الدول الاستعمارية الأخرى في امبراطورياتها المترامية. . فاليابان كانت تستولى شيئا فشيئا على الصين وتحرم دول الغرب الرأسمالية من سوق تقدر بربع سكان العالم. وألمانيا كانت تطالب بالمدى الحيوى، وايطاليا كانت تطالب بنيس وبتوس من فرنسا، ويقول موسوليني فيها: «عندنا أربعون درجة من الحمى، يجب أن تمتد أو تنفجر!»

٥ ـ وأخيرا جاءت الشرارة التي أشعلت النار من قضية الممر البولوني.

ذلك أن عصبة الأمم وقفت عاجزة أمام التوسع الألماني في النمسا فلما أراد هتلر اقتطاع مناطق الأقلية الألمانية (السوديت) من تشيكوسلوفاكيا حدثت أزمة دولية كانت تؤدى الى الحرب لو أن انجلترا وفرنسا كانتا على استعداد لخوضها، ولكن الأمر حل حلا سلميا، اذ اجتمع تشمبرلن رئيس حكومة انجلترا ودالاديه رئيس الوزارة الفرنسية مع هتلر وموسوليني في ميونخ ٢٩ أيلول سنة ١٩٣٨ وخرجوا باتفاقية ميونخ التي أعطت هتلر مايطلب. وحسبت الدول الديمقراطية أنها أنقذت بهذه الاتفاقية السلم وأنقذت العالم، لكن ما كاد يمضى ستة أشهر عليها حتى ضمت ألمانيا سائر مناطق تشيكوسلوفاكيا اليها (ماعدا السلوفاك التي اعتبرت تحت الحماية) (آذار عام ١٩٣٩) ثم أعلن هتلر مطالبته بضم الممر البولوني

الذي يفصل بين ألمانيا وبروسيا وبمدينة دانزيغ الحرة التي يبلغ الألمان فيها ٩٦٪ وكان على الدول الديمقراطية أن تقف منه موقف الحزم اذا شاءت أن يظل لها احترامها وتظل مصالحها الاستعمارية دون مس. فوقعت انجلترا وفرنسا مع بولونيا تحالفا تضمن فيه استقلال بولونيا وحمايتها. وكان جواب هتلر على ذلك أن أعطى الأمر لفرقة بالهجوم في (١ أيلول عام ١٩٣٩) على الأرض البولونية. بعد أن ضمن روسيا وايطاليا واليابان في جانبه. وبدأت بذلك الحرب العالمية الثانية.

أدوار الحـــرب :

مرت هذه الحرب بأدوار ثلاثة: دور النصر الهتلرى (١٩٣٩ - ١٩٤١) ودور التوازن، أو السنة القلابة (١٩٤٢) ودور الانهيار الألماني (١٩٤٣ - ١٩٤٥).

دور *النصـــر الهتلـــرى* : (١٩٣٩ - ١٩٤١)

في هاتين السنتين انتصرت ألمانيا في بولونيا، واحتلت الدانمارك والنرويج، ثم هاجمت هولندا وبلجيكا واحتلت ثلثى فرنسا وعند ذلك دخلت ايطاليا بجانبها. بينما هدفت الطائرات الألمانية تهديم بريطانيا. ثم انثنت نحو روسيا، فاكتسحت غربها كله، وانساحت جنوبا فمرت بيوغوسلافيا واليونان ووضعت مقدمات جيوشها في كريت: بينما كانت جبهة ليبيا تتراوح كرا وفرا بين جيوش المحور والجيوش البريطانية.

بولونيـــــا :

لم تستفد بولونيا، بسبب موقعها الجغرافي، من ضمان انجلترا وفرنسا لها، وبالرغم من أن هاتين الدولتين أعلنتا حالة الحرب مع ألمانيا (٣ أيلول) وأعلنتها بلاد الدومنيون الانجليزية. فان «الحرب الصاعقة» Blitzkrieg (أي الحرب الآلية الساحقة بالدبابات والطائرات) حطمت الدفاع البولوني. وكانت الجيوش الألمانية تدخل فرسوفيا ولما يمض بعد أربع أسابيع على بدء الحرب. . واستغلت روسيا الفرصة، اذ في الوقت نفسه كانت الجيوش الروسية تحتل شرقى بولونيا (بالاتفاق مع الألمان) وتجتاح دول البلطيق وتهاجم فنلندا. . . لكن حربها لهذه الدولة دامت طويلا لأنه، لا الروس استخدموا قواتهم الحقيقة ولا انجلترا وفرنسا استطاعتا

ارسال الأمداد لفنلندا بسبب بقاء الدول السكاندينافية على الحياد... وانتهى الأمر بتوقيع الصلح مع روسيا... وكسبت روسيا كسبا آخر أيضا: مقاطعة بسارابيا من رومانيا.

الدانمرك والنرويج :

كانت ألمانيا تعتمد في قسم كبير من معدن الحديد الضروري لصناعتها الحربية على شمالي السويد. وكان مرفأ نارفيك المرفأ الطبيعي لذلك الحديد وبينه وبين المرافىء الألمانية امتدت خطوط بحرية كثيرة على طول المياه الأقليمية النرويجية واعتبر الحلفاء ذلك خرقا لحياد النرويج.

ودخلت عمارة انجيزية فضربت بعض السفن الألمانية في احد الفيوردات (شباط عام ١٩٤٠) فقرر هتلر حماية خطوط الحديد البحرية باحتلال النرويج ولاسيما وأن فيوردراتها قواعد طبيعية جيدة للغواصات في هجومها على بريطانيا، وفي مطالع نيسان أرغمت كل من الدانمرك والنرويج على طلب حماية الجيش الألماني ضد الحلفاء واحتلتا... وقد حاولت النرويج المقاومة بمعونة الأسطول البريطاني ونزلت بعض الجنود في نامسوس ونارفيك، ولكن الطيران الألماني وفرق المظليين سمحت للألمان باحتلال النرويج جميعا في شهرين... وانسحبت منها فرق الحلفا. وعين الألمان عليها رئيسا اسمه كيسلنغ بدل الملك الهارب.

الجبهة الغربية :

مضت ثمانية أشهر ولم تصطدم جيوش الألمان بالحلفاء، وكانت فرنسا تنام وراء خط ماجينو المتين على طول الحدود الشرقية، والذي لم يكن يعد له الخط الألماني المقابل له: خط سيغفريد، وبالرغم من أن قيادة الحلفاء برئاسة الجنرال غاملان كان تنتظر الهجوم عن طريق البلجيك كما في الحرب السالفة، (الحرب الصاعقة التي طبقت في سهول بولونيا لا تطبق في غابات ومرتفعات الآردن. عدا ايمانهم بتفوق الدفاع دوما) فان بلجيكا، اعتمدت على حيادها ولم تتخذ أي اجراء جماعى. وفي صباح ١٠ مارس عام ١٩٤٠ بدأ الهجوم الألماني على طول الجبهة من هولندا حتى الألزاس وأسرع الحلفاء فسبقوا لاحتلال بلجيكا على حسب

الخطط التي رسموها: فحشدوا أحسن فرقهم المصفحة والآلية، ولكن رهبة الهجمة الألمانية كانت أقوى من تنبؤاتهم وتمزقت فرق الحلفاء المصفحة فلم تستطع أن تقاوم الدبابات الألمانية كتلا وراء كتل، بينما كان الطيران الألماني الساحق يقطع المواصلات ويدمر المدن (نوتردام وآنفراس) ويقضى على معنويات الجيوش، وهكذا منذ (١٥ مارس) أي في أربعة أيام كانت المقاومة الهولندية قد سحقت وقد غادرت الملكة البلاد الى لندن. وأما المقاومة البلجيكية فمهددة تهديدا قويا.

في هذه الأثناء أتى نبأ ساحق جديد لقيادة الحلفاء، ذلك أن فرقا ألمانية أخرى مصفحة قد اجتازت الآردن ونهر الموز منذ ١٣ مايو وانتصرت على الفرق الفرنسية الضعيفة في تلك النقطة التي كان الحلفاء يعتقدون أنها محمية حماية طبيعية.

وقد اتجهت فرق الألمان شمالا نحو بحر المانش مطوقة بذلك الجيش البلجيكي من الخلف فاضطر الجيش مع ملكه للاستسلام (٢٨ مايو) وضج الحلفاء بأن ملك البلجيك خانهم وبأنه لم يمت مع جيشه لحماية انسحاب فرقهم التي تجمعت في دونكرك، وبدأت تجلو على الأسطول الانجليزي تحت وابل من قنابل الطائرات الألمانية... وانسحب بهذا الشكل (٣٥٠) ألفا، وفي الرابع من حزيران كان الجلاء قد تم. ولكن كل المعدات كانت قد تركت للألمان ومنها (٥٠) ألف سيارة و (٢٤٠٠) مدفع و (٧٠٠) طائرة.

واستقدم الفرنسيون الجنرال ويغان (وكان في سوريا) بدل غاملان لتنظيم الدفاع. ولكن الدفاع بدا غير مجد برغم أنهم خسروا فيه حوالي مليون جندى، لأن التفوق الألماني الآلى كان ساحقا، واخترق الألمان خطوط السوم الدفاعية (في ٥ حزيران) ووصلوا وادى المارن وبدت خطوط ماجينو مهزلة !! بينما كان الذعر يعم فرنسا، والمدنيون يهاجرون ويملأون الطرقات، وتحصدهم المدافع الرشاشة الألمانية من الطائرات... في تلك الفترة (١٠ حزيران) أعلنت ايطاليا الحرب على الحلفاء وهجمت عبر الألب. وفي ١٤ حزيران داخل الألمان باريس التي أعلنت مدينة مفتوحة!

هل تتابع فرنسا الحرب في شمالي أفريقيا وتنقل اليها مقر الحكومة. أو تقبل اقتراح انجلترا بتكوين اتحاد بين الحكومتين. أو تهادن الألمان وتنهى الحرب. لقد

استقالت الحكومة الفرنسية وأعلن المارشال بيتان (أحد أعضائها) انتهاء المقاومة التي لم تعد تجدى وبدأ المفاوضة للهدنة. وقد أقرت (في حزيران) في بلدة كومبين. وقد قسمت فرنسا بموجبها قسمين: قسما محتلا يشمل المناطق الشمالي والغربية. وقسما غير محتل ويشمل وسط فرنسا وجنوبها ومركزه فيشى، ولكن حكومته التي يرأسها بيتان تخضع خضوعا غير مباشر للألمان...

على أن الناس سمعوا في الثامن عشر من حزيران صوتا من راديو لندن يدعو الفرنسيين لأن يجتمعوا من حوله لمتابعة المقاومة «لأن فرنسا خسرت معركة ولكنها لم تخسر الحرب».

فكان هذا صوت أحد الجنرالات الفرنسيين الذين لجأوا الى انجلترا والذين عرفوا بنظرياتهم في الحرب الآلية: الجنرال ديجول. وانقسم الفرنسيون والامبراطورية الفرنسية بين موالين لحكومة فيشى، وبين أنصار لحكومة ديجول التي سميت (فرنسا الحرة) في لندن.

بريطانيا:

بعد معركة فرنسا أصبحت جميع السواحل القارية حول بريطانية بيد الألمان وقربت قواعدهم الجوية والبحرية فيها عند الشاطىء الفرنسي (المانش)، ولكن انجلترا بالمقابل كانت قد جمعت اليها كل القوى (الحرة) الهاربة من القارة: من تشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا. واستقال في تلك الفترة تشمبرلين وترأس الوزارة (ونستن تشرشل) الذي ذكر في أول خطاب له (بمجلس العموم ١٣ مايو عام ١٩٤٠) «ان هدف بريطانيا هو النصر مهما كلف من أهوال وطريق صعبة شاقة».

وبدأ الألمان هجومهم على انجلترا جوا بتفوق رهيب في الغارات الجوية العنيفة. وقد دام الهجوم قرابة ثلاثة أشهر (٨ آب - ٣١ تشرين الأول سنة ١٩٤٠) ثم استمر ولكن بعنف أقل في شتاء تلك السنة ورافقته حرب بحرية في المحيط الأطلسى بلغت فيها الخسائر مبلغا كبيراً، ولكن الألمان وان لم يخسروا المعركة الا أنهم لم يرجعوا، وفشلت طريقتهم في الحرب الصاعقة لانهاء حالة الحرب بسرعة.

البلقـــان :

كانت هذه الجبهة من نصيب الايطاليين، الا أن اليونان التي دخلت الحرب بجانب الحلفاء استطاعت اجلاء ايطاليا عن بعض أراضى ألبانيا، ونزل الحلفاء في كريت وبعض نقاط اليونان، واضطر هتلر لاحتلال يوغوسلافيا (٦ نيسان عام ١٩٤١) واجتاح ما بينها وبين شبه جزيرة المورة في أقل من شهرين، ثم احتل جزيرة كريت (٢٠ مايو) احتـلالا مذهـلا في عشرة أيام... بعـد أن ضربهـا بالطائرات وأنزل فيها المظليين. وأطل بذلك اطلالا مباشرا على البحر الأبيض التوسط وقناة السويس ومواطن البترول!...

ليبيــا :

قام الحلفاء أولا بهجوم (١ أيلول عام ١٩٤٠) أعقبه هجوم محورى (نيسان عام ١٩٤١) ثم هجوم حليف ولم يتجاز الخصمان حدود مناطق برقة، غير أن القيادة المحـورية أسنـدت الى المـارشـال رومل فهاجم بقواتة الميكانيكية جبهة الحلفاء، وتقدم في أرض مصر حتى أشرف على الاسكندرية وعسكر في العلمين (أول تموز عام ١٩٤٢).

روسيــا :

لم يكن حلف عدم الاعتداء الذي عقد بين ألمانيا وروسيا سوى وسيلة لكسب الوقت على ما يظهر، لأن الروس عملوا على تقوية حدودهم الغربية. وهتلر، الذي شعر أنه كلما تأخر خسر الفرصة، وضع «مشروع بربروسيا» لغزو روسيا واستثمارها، وبالرغم من أنه لم ينتصر بعد على انجلترا. وأن من المجازفة بمكان فتح جبهة ثانية على ألمانيا. الا أن ١٧٠ فرقة ألمانية و ٣٠ أخرى فنلندية ورومانية حشدت سرا وأعطيت الأمر بالهجوم المفاجىء (صباح ٢٢ حزيران عام ١٩٤١).

وقد حقق هتلر انتصارات مبدئية كثيرة رغم اتساع الجبهة معتمدا على طريقته في الحرب الصاعقة، وكان يأمل بتحطيم آلة الحرب الروسية قبل ان تجتمع أو يحل الشتاء وباحتلال المراكز الحيوية (لينغراد، وموسكو... الخ) وبتأليف حكومة ضد الشيوعية... واذ ذاك فلا قبل لانجلترا بمقاومته.

وتوغلت الجيوش الألمانية بسرعة فحطمت الدفاع الروسي حتى طوقت لينغراد في أيلول واحتلت كييف وخاركوف وحوض الدونتز. وأصبحت موسكو مهددة (٥ تشرين أول) ولكن المقاومة الروسية ازدادت وخرب الروس ـ على طريقتهم زمن نابليون ـ كل شيء قد يستفيد منه العدو . . . وحل الشتاء ولم ينتصر الألمان أمام موسكو فاضطروا لقضاء شتاء رهيب لم يكونوا قد تهيأوا له في سهول متجمدة يلفحها الصقيع.

وانتصر الألمان في الصيف التالي صيف ١٩٤٢ حين ركزوا على القطاع الجنوبي، فاحتلوا سيباستبول ووصلوا القوقاز وبترولها. وتقدمت جيوشهم حتى ستالينغراد على نهر الفولغا. . . وكان هتلر يأمل أن يسيطر بسرعة على خطوط مواصلات الروس مع المساعدة الخلفية عبر بحر قزوين والفولغا وتركستان.

٢ ـ السنة القلابـــة ١٩٤٢ :

بين صيف عام ١٩٤١ وصيف عام ١٩٤٢ بلغ النصر الألماني أوجه، اذ كان الألمان يسيطرون على القارة الأوربية (عدا قسم من روسيا) وطلائعهم في العلمين تشكل مع جيوشهم في القوقاز طرفي كماشة حول الشرق الأوسط في أوائل هذه الفترة وأتاهم النصر أيضا في مكانين آخرين:

١ ـ **الشرق الأوسط** نفسه اذ مشت ثلاث بقاع منه في نطاق نفوذهم. لجأ الحلفاء لاحتلالها العسكري :

فسوريـــا :

كانت بواسطة الحكم الفيشى والجنرال دانتز قد أضحت قاعدة للمحور في الشرق الأوسط، وجاءتها لجنة المانية ـ ايطالية قادت حركة التجسس والتوطئة للنفوذ المحورى في سوريا وما وراءها من بلاد، فاستعان الانجليز بالفرنسيين الأحرار لديهم وبمن يعطف على الحركة الديجولية من الضباط الفرنسيين في سوريا واحتلهـا (منذ ٨ حزيران/يونيو عام ١٩٤١) من الجنوب والشرق، وأعلنت للسكان اعتراف الحلفاء جميعا باستقلال البلاد تطمينا لها وضمانا لتأييدها.

العــــراق :

ثار بزعامة رشيد عالى الكيلانى منذ مطلع مايو عام ١٩٤١ ووعده الألمان بالمساعدة العسكرية، ولكن هذه المساعدة تأخرت ووصل الجيش الانجليزي من الأردن قبلها فلم يقاوم العراق أكثر من شهر واحد، ودخل الانجليز بغداد (٣١ مايو).

ايــــران :

أضحت مباءة لهم ومركزا للتجسس فيها بين الحلفاء وروسيا، وأيدهم الشاه في ذلك فأقدم الحلفاء في (٢٥ أيلول/سبتمبر عام ١٩٤١) على احتلال البلاد: الروس من الشمال والانجليز من الجنوب. وأدى الأمر الى تنازل الشاه (١٦ أيلول/سبتمبر) وتوقيع تحالف روسى ايراني ـ انجليزي حرم الألمان هذه القاعدة في الشرق.

٢ ـ **اليابــــان** : بالرغم من بقاء اليابان على الحياد. فان هتلر كان يأمل دخولها في جانبه، والحلفاء كانوا ينظرون بامتعاض الى تهديدها لمستعمراتهم في الشرق الأقصى والمحيط الهادى. وحين تسلم الوزارة (توغو) المعادى للولايات المتحدة تبين اتجاه اليابان بوضوح، وبينما كان بعض مندوبيها يفاوض في أمريكا، هاجمت الطائرات اليابانية مع الأسطول قاعدة (بيرل هاربور) الأمريكية (٧ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٤١) فأعلنت الولايات المتحدة الحرب عليها، وتبعتها انجلترا والبلاد التابعة لها والصين، فأجابت ألمانيا وايطاليا على ذلك باعلان الحرب على الولايات المتحدة.

ولم تكن أمريكا مستعدة للقتال، فاستطاع اليابانيون بحرب صاعقة على النمط الألماني احتلال أهم المراكز الاستراتيجية التابعة للحلفاء في الشرق الأقصى (كالفلبين وسنغافورة واندونيسيا) وحاولت اقتحام أستراليا لو لا أن أحد أسطولها هزم في معركة جزر مرجان البحرية (٤ـ٨ مايو عام ١٩٤٢).

غير أن الحلفاء لم يكونوا في صيف عام ١٩٤٢ برغم سيطرة النصر الألماني ـ الياباني بمركز خطر أو حرج، بل لقد حققوا جملة انتصارات هامة في هذه السنة:

١ ـ في الشرق الأوسط (في ايران والعراق وسوريا) تمهيدا لجعلها كتلة واحدة

تقف خلف جيوشهم في العلمين وخلف الجيوش الروسية في القوقاز وستالينجراد.

٢ ــ في ضم الولايات المتحدة الى جانبهم: ولم يكن اعلانها الحرب معهم آخر سنة ١٩٤١ الا اقرارا رسميا بحالة عداء واقعة مع المحور أو مع المثلث (برلين ـ روما ـ طوكيو) فبالرغم من رجحان كفة الانعزاليين الأمريكيين في مطلع الحرب، فان الرئيس روزفلت ماكان يخفي عطفه على الحلفاء ولا كان يجهل الخطر الذي يهدد أمريكا واقتصادياتها من نجاح المحور. فقام أولا بمعونة الحلفاء معونة أولية بجعل مبدأ «ادفع واحمل» في التجارة والذي كان قد أعلن منذ سنة ١٩٣٧ يشمل أيضا الأسلحة والذخائر. ثم أيدهم ثانية بأن تخلي لهم عن (٥٠) مدمرة حربية مقابل استئجار ثماني قواعد بحرية في الأطلسى تابعة لهم، ثم أيدهم ثالثة (حين أخذت اعتمادات انجلترا المالية في الولايات المتحدة تنفذ) باعلان قانون الاعارة والتأجير (١٦ آذار/مارس عام ١٩١٤) بعد مناقشة شهرين في الكونجرس الأمريكي ! فأصبحت الولايات المتحدة بحسب تعبير روزفلت «مصنع الديمقراطية» وغدت حكومتها تصنع الأسلحة على نفقتها وترسل الى الحلفاء !

وقد اتخذ الرئيس في الوقت نفسه عدة خطوات أخرى ضد المحور. فأغلق القنصليات الألمانية والايطالية وسمح للسفن الأمريكية بالتسلح لمقابلة من يتعرض لها بالنار، ومدد الخدمة العسكرية الى سنتين ونصف السنة كما قوى انتاج الطائرات... وكان انتخابه سنة ١٩٤٠ للمرة الثالثة نصرا للحلفاء في امريكا، وقد التقى (١٤ آب/أغسطس سنة ١٩٤١) مع تيشرشل على مدرعة قرب ساحل نيوفاوندلاند ووضعا معا ميثاقا ذا ثمانية مواد عرف (بميثاق الأطلسى) ويتعلق بأغراض الحرب وتنظيم العالم بعدها، وجاء به أن الدولتين لاترغبان بأي توسع اقليمى ولا ترضيان عن أي توسع اذا لم يرض به أهل البلاد. وتودان اعادة السيادة لكل شعب سلبته الاعتداءات سيادته. وتأملان توطيد السلم ونزع السلاح.. ولم تمض أربعة أشهر على اعلان الميثاق حتى كانت حادثة بيرل هاربور ودخلت الولايات المتحدة بوجه سافر المعمعة العالمية. وأعلن روزفلت «معركة الانتاج» أي السبق الى انتاج الأسلحة

ونقلها، تلك المعركة التي قررت نتيجة الحرب.

٣ ـ في المقاومة الداخلية بالبلاد المحتلة، فقد التهبت كل بقاع أوربا من النرويج الى فرنسا الى يوغوسلافيا واليونان بالثوار الذين شكلوا عصابات تخريبية تعمل داخل القلعة الأوربية ضد الألمان، وكان الحلفاء يغذونها ما أمكنهم ذلك. وهكذا فبالرغم من وصول المحور واليابان الى ذروة القوة، فان النصر أضحى بعيدا عنهم أيضا، وبينما كانت قوى المحور قد أنهكت وطال عليها الأمد وبدأت في الهبوط كانت قوى الحلفاء بالعكس قد بدأت في التزايد والصعود، اذ أخذ ثقل التدخل الأمريكي يظهر في جبهات روسيا وانجلترا وغيرها، وفي قمع حرب الغواصات الألمانية التي جعلت تغرق بمعدل ٨٠٠ ألف طن في الشهر، وأخذت قوافل الأسلحة على الخطوط البحرية العالمية تسير مطمئنة.

وجاءت الأحداث التالية لترجح الكفة ضد المحور خاصة وضد اليابان:

(أ) في الجبهة الروسية (النصر الروسي): ذلك أن روسيا التي ظلت تقاوم، شكلت جيشها وراء الخطوط ونقلت معاملها الى أورال وسيبريا واستفادت من المساعدات الحليفة وظلت ثقة البلاد قوية في ستالين وفي الحكومة السوفياتية. وتركز اهتمام الناس منذ أيلول سنة ١٩٤٢ بمعركة ستالينجراد الذي احتدم فيها القتال في كل شارع وكل بيت، وأخيراً طوق الجيش السادس الألماني (١٣ شباط سنة ١٩٤٢) فيها واستسلم بعد أن خسر الألمان ثلث مليون قتيل وجريح وأسيرا وكان هذا النصر نقطة الانقلاب في الحرب لأن قيادة الهجوم الروسي كانت أعطيت الى ستالين الذي أجبر الألمان على التراجع عن القوقاز في الشتاء، وفي أوائل الربيع وجد الألمان أنفسهم يناضلون في القرم وحول خاركوف!

(ب) ربح الحلفاء معركة المواصلات منذ خريف سنة ١٩٤٢ فأضحى باستطاعتهم تجميع قواهم حيث شاءوا وأن ينتقلوا من طور الدفاع الى الهجوم. وهكذا اختاروا الميدان الأفريقي، وفي وقت واحد تقريبا سجلوا انتصارين فيه:

نصــر العلميــن :

اذ استــطاع الجيش الثـامن الانجليزي بقيادة (مـونتجمـري) (٢٤ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤٢) أن ينتصر في العلمين بعد معركة دبابات دامت عشرة أيام على «الجيش الأفريقي» المحورى ويرده على أعقابه.

انزال حملة شمــال افريقيــا :

فان الحلفاء أوصلوا (في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٤٢) قافلة من (٨٥٠) سفينة أنجلو ـ سكسونية عبر الأطلسى وأنزلوا ماتحمل من جنود وعتاد في أفريقيا الشمالية التي احتلوها بقيادة الجنرال أيزنهاور بعد مقاومة قليلة من ممثلى حكومة فيشى مؤكدين بذلك سيطرتهم على البحر المتوسط خاصة في الجو والبحر.

٣ ـ الانهيار الألماني (١٩٤٣ ـ ١٩٤٥) :

(أ) بدء النهايــــة :

منذ أواخر سنة ١٩٤٢ أضحت قوات المحور في أفريقيا بين شقى الرحى، فمن الشرق هجوم اضطرها للتراجع الى برقة، ومن الغرب جبهة تستعد للهجوم عليها من حدود تونس فاضطرت لخوض حرب خاسرة، وبالرغم من أنها خرقت خط (ماريت) واحتلت تونس فانها استسلمت في مايو سنة ١٩٤٣. وقد جاء هذا النصر الحليف القـريب من نصر ستـالينجراد الروسي، مقويا للمعنويات لدى أعداء المحور وبه بدأت النهاية التي جاءت على مراحل :

١ ـ نزول الحلفاء في ايطاليا وانهيار موسوليني: تابع الحلفاء سيرهم عبر ممر صقلية ـ تونس البحرى فنزلوا في ٣ آلاف سفينة في صقلية (١٠ تموز سنة ١٩٤٣) ثم في البر الايطالي (٣ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٤٣) ولم يلقوا مقاومة تذكر من شعب أنهكته الحرب وأبغض النظام الفاشستى، وقد كانوا اتفقوا منذ نزولهم على أن يقوم المارشال باوليو بانقلاب عسكرى ينحى به موسوليني عن الحكم، وكان ذلك وسجن الدكتاتور حتى أنقذه الألمان بالطائرات، ولم يكن قد مضى خمسة أيام على نزول الحلفاء بايطاليا حتى عقدت معهم الهدنة، وأقامت الجمهورية ثم أعلنت الحرب على الألمان (في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٣).

٢ ـ في الجبهة الروسية : حاول الألمان في صيف سنة ١٩٤٣ أن يتخذوا لأول مرة خطة الدفاع، ولكن ضربات الجيش الروسي صدعت جبهتهم وسقط حوض الدينبر ثم كييف بيد الروس، ولم يقف الهجوم الروسي في الشتاء اذ تابع سيره منذ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٤٣ بفرق جديدة فما طلع ربيع سنة ١٩٤٤ حتى كانت جميع الأراضي الروسية تقريبا قد تحررت، وفي الصيف دخلت روسيا الى فنلندا وبولونيا ورومانيا.

٣ ـ عقد المؤتمرات الكبرى : رأى أقطاب الحلفاء منذ لاحت لهم بشائر النصر أن يجتمعوا لينسقوا خططهم الحربية، وكانت روسيا تلح عليهم بفتح جبهة ثانية فبدأ وزراء خارجية الدول الكبرى الثلاث (انجلترا، الولايات المتحدة، روسيا) بالاجتماع في موسكو (١٩ ـ ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤٣) تمهيدا لاجتماع رؤساء تلك الدول الذي جرى في طهران: (في ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر) وحضره، روزفلت وستالين وتشرشل فدام ثلاثة أيام ووضعت فيه خطة مهاجمة «القلعة الأوربية».

وقبل هذا المؤتمر بأيام (٢٢ تشرين الثاني) جرى مؤتمر القاهرة الذي اجتمع فيه روزفلت وتشرشل بزعيم الصين تشان كان تشيك، ووضعت فيه خطة طرد اليابان من المحيط الهادي..

(ب) الجبهة الثانية والانهيار الألماني :

كانت الهزائم التي منى بها الألمان برا في روسيا وأفريقيا وايطاليا، وبحرا في حرب الغواصات بالأطلسي غير كافية لاستسلامهم، فشن الحلفاء عليهم هجوما رهيبا دونه معركة انجلترا سنة ١٩٤٠ دمروا به أكبر المدن الصناعية الألمانية، وعقد المواصلات والدفاع الساحلي وعطلوا معظم المطارات، وتركوا ما يزيد على مليوني نسمة بلا مأوى في برلين المهدمة وهامبورج ودوسلدورف وكولونيا وحوض الرور... وبدأ الشلل يعتور آلة الحرب الألمانية في حين ظل الألمان يعلنون أن ألمانيا «قلعة» لاتهاجم، ولكن الحلفاء استطاعوا الهجوم عليها ودك المقاومة الألمانية وارغامها على الاستسلام عن طرق أربع :

١ ـ جبهة فرنسا (التي عرفت باسم الجبهة الثانية): اختار الحلفاء النزول الى أوربا في ساحل نورماندي الفرنسي على المانش، فعينوا أيزنهاور قائدا أعلى،

واستعانوا على ذلك بالموانىء الاصطناعية التي ابتكروها، وبدأت عمليات الجبهة الثانية (في ٤ حزيران/يونيو سنة ١٩٤٤) فتقدم الحلفاء في فرنسا تساعدهم قوات المقاومة (الماكى) ودخلوا باريس (٢٥ آب/أغسطس) التي أخلاها الألمان متجهين نحو الشرق وفي أيلول كان الحلفاء قد احتلوا بلجيكا وهولندا ووصلوا الحدود الألمانية. ولم يستطع الألمان الاستفادة من القنابل الطائرة التي ألقوا منها ٨ آلاف قنبلة على انجلترا من الشواطىء الأوربية القريبة. ودخل الحلفاء (ايكس لاشابل) أول مدينة ألمانية (٢٧ تشرين الأول/أكتوبر) من المقاومة التي أبداها الألمان بقيادة فون رونشتدت، هذه المقاومة التي لم تسقط معها كولونيا، على الرين حتى ٦ آذار/مارس سنة ١٩٤٥، فان الحلفاء استطاعوا بعد ذلك معاودة الهجوم (في شباط/فبراير سنة ١٩٤٥) والوصول الى برلين (٧ مايو/آيار سنة ١٩٤٥).

٢ ــ جبهة ايطاليا: ولم يؤثر انسحاب ايطاليا من المحور وانضمامها الى الحلفاء تأثيرا كبيرا على ألمانيا، ولم يقم الحلفاء كبير وزن لجبهة ايطاليا أيضا فلم يصلوا الى روما إلا في ٤ حزيران/يونيو، وكان تقدمهم بطيئا والمقاومة لهم قوية حتى وصلوا شمالي ايطاليا في مارس سنة ١٩٤٤.

٣ ــ جبهة البلقان: كانت بلغاريا والمجر ورومانيا في جانب الألمان، فهاجمها الروس منذ وصلوا الى ماوراء حدودهم، وأرسلوا المارشال تيتو للعمل في يوغوسلافيا، وحرموا ألمانيا من موارد البترول الكبرى. فلما شهد ذلك البريطانيون أسرعوا الى النزول باليونان (تشرين الأول/أكتوبر) وبالرغم من أن الحزب الديمقراطى المتطرف (ايلاس) قد قاوم الاحتلال البريطاني فان الجيش الانجليزي قضى عليه وقوى حزب ايام، وما تزال اليونان تقاسي ويلات ذلك الاحتلال والنضال بين الطرفين الى اليوم.

٤ ــ جبهة روسيا: استفاد الروس من ضغط الجبهة الثانية على الألمان فاستطاعوا الهجوم على الأرض الألمانية دون كبير مقاومة واجتازوا نهر الفستولا ونهر الأودر وبدءوا باحتلال برلين منذ ٢٢ نيسان/أبريل سنة ١٩٤٥ (بعد أن احتلوا قبل عشرة أيام فيينا).

مؤتمر يالتا واستسلام المانيا واليابان:

رأي الحلفاء قرب نهاية الحرب فرغبوا في تنسيق تدابيرها الأخيرة ووضع أسس

اقتسام ألمانيا، بعدها فعقدوا مؤتمر يالتا في شبه جزيرة القرم (٤ ـ ١٢ شباط/فبراير سنة ١٩٤٥) وقد حضرة ستالين وروزفلت وتشرشل وقبل الحلفاء بشرط روسيا وأهمها منطقة نفوذها في ألمانيا والاعتراف فقط بالحكومات التي أقامتها في بولونيا ويوغوسلافيا دون ما في لندن من حكومات حرة !! ثم اجتمع تشرشل وروزفلت برجال الشرق العربي: فاروق الأول وابن سعود ورئيس الجمهورية السورية واتفقوا معهم على اعلان البلاد العربية الحرب على ألمانيا وعلى الدخول في هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب. وأعلن الحلفاء منذ تقدموا في أوربا أنهم لا يقبلون من ألمانيا الا الاستسلام دون قيد ولا شرط وللحلفاء جميعا معا. فظل الألمان يقاومون حتى برلين التي بدأت معركتها في ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٤٥، وأعلن في ٣٠ منه اختفاء هتلر في ظروف غامضة لعلها انتحار (وكان موسوليني قد لقى حتفه في ايطاليا قبل يومين كما أن روزفلت كان قد سبقهما منذ ١٢ نيسان/أبريل وحل محله في الرئاسة نائبه ترومان)، وبرغم استلال الأميرال دونتز قيادة الرايخ الثالث فانه اضطر لطلب الاستسلام الذي وقعه مندوبون عسكريون عن المانيا في مدرسة صغيرة بريمس في ٧ مايو سنة ١٩٤٥ واستطاع الحلفاء الآن ان ينصرفوا لحرب اليابان وحدها، وقد كانت الحرب معها طويلة وشاقة وواسعة الجبهة فيما بين المحيطين الهندي والهادي، فتمكن الحلفاء من احتلال بعض الجزر اليابانية (من أرخبيل ريوكيو) بعد حرب دامت ثلاثة شهور. ومنذ ١٤ تموز/يوليو سنة ١٩٤٥ بدأت الأساطيل الانجليزية والامريكية بضرب اليابان. واخيرا قرر رئيس الولايات المتحدة استعمال السلاح الحربي الجديد الذي ظلت تعمل بلاده له منذ عام ١٩٤١ حتى نجح وربحت به حرب المختبرات على ألمانيا نفسها وهو (القنبلة الذرية) فأنذرت اليابان بالاستسلام دون قيد ولا شرط، ولما لم تجب ألقيت (٦ آب/أغسطس سنة ١٩٤٥) القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما فدمرت كل المدينة وأنتجت ١٩٠ ألف ضحية، ثم ألقيت الثانية بعد ثلاثة أيام على اليابان للاستسلام فعرضته (في ١٠ آب) ثم وقعته في ١٤ آب/أغسطس سنة ١٩٤٥ واحتلت الجيوش الأمريكية بلادها جميعا.

ثانيًا: العالم المعاصر

لسنا هنا في سبيل العالم المعاصر ولو بصورة مختصرة، ولكننا سنعرض لنتائج هذه الحرب الأخيرة ولمؤتمر السلم الذي لم ينه عمله بعد، وللاتجاه الساسى الكبير

في عالمنا الحاضر وخاصة منها هيئة الأمم المتحدة:

١ ــ نتائج الحــــرب :

لم يحن الحين بعد لاستقصاء نتائج الحرب العالمية الثانية فانا لا نزال في غمرة تلك النتائج ولكنا نستطيع أن تتبين،

من الوجهة السياسيــــة أولا :

رجـوع أوربـا الى المكان الثاني بين القارات وبروز أمريكا الشمالية وآسيا، وانقسام العالم الى معسكرين تتزعم الأول روسيا والثاني الولايات المتحدة واحتلال هذين المعسكرين للقارة الأوربية مناصفة وللشرق الأقصى، وحددت نقاط توافق وخلاف بينهما في برلين واليونان وفي الصين وكوريا ظهر صداه بوضوح في هيئة الأمم المتحدة.

ثانيا : انقـلاب أوضاع بعض الدول فاحتلت دول أوربا الوسطى من قبل الحلفـاء، وتحـول بعض البـلاد من الملكية الى الجمهـورية (كايطاليا واليونان) وتأسست الجمهورية الرابعة في فرنسا، وتحول عدد من الدول أخيرا الى النظام الشيوعى، راغبة أو بالرغم منها (كبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وقسم من ألمانيا والنمسا ثم يوغوسلافيا وبلاد البلقان (عدا اليونان) ثم الصين كلها بما في ذلك التيبت بزعامة ماوتسى تونج) وأخيرا جاء دور كوريا. واستقلت معظم المستعمرات في آسيا وأفـريقيا. كسوريا ولبنان والهند التي تشكل منها دولتان مستقلتان : الهند والباكستان، ثم اندونيسيا وتخلصت من نير الدول الأوربية العتيقة كما استقلت معظم المستعمرات الأفريقيـة.

وأما من الوجهة العلمية: فان هذه الحرب الأخيرة، ككل الحروب الأخرى قديما وحديثا دفعت بالابتكار الانساني الى الأمام، فقد تقدم الطيران، وصناعة الآليات والفن العسكري في التنظيم والدعاية وطرق الحرب. وأهم من هذه كله أن الحـــرب بمـا كسبت في المختبـرات حين سيطـر العلمـاء على الـطاقـة الـذرية واستخدموها في قنبلـة.

وأما من الوجهة الاقتصادية: فانا لاتزال نسمع الصيحة التي ظهرت في نهاية الحـرب من بنـاء عالم جديد فقـد طلعت حقـول الزراعة، ومعامل الصناعة،

والمبادلات التجارية وطرق المواصلات البحرية، خاصة البرية والجوية خلال الحرب. وتحولت كلها للأغراض الحربية. هذا الى التضخم في النقد الذي أصيبت به معظم الدول، وتدنى أسعاره، والى ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا، والى مشاكل الفقر والبطالة وما تهدد المصانع الأمريكية خاصة من خطر الافلاس لعدم امكان تصريف المنتجات الصناعية (وهذا ما اضطرت أمريكا لمعالجته في مشروع مارشال مثلا الذي حاولت به ايقاف الاقتصاد الأوربى على قدميه ليتمكن من شراء بضائعها المتراكمة ولن يخرج مشروع انعاش الشرق الأوسط وغيره عن هذا الهدف.

وأما في الحياة الاجتماعية: فنستطيع أن نضيف موجة التخريب الهائلة التي دمرت المدن الكبرى والقرى أنقاضا، واضطرار العالم اليوم لأن يعمل بالتعمير والاغاثة. ثم موجة القتل الهائلة التي خسر بها العالم مالا يقل عن ثلاثين مليون ضحية عدا الجرحى والمشوهين وذوى العاهات. هذا عدا ظهور المشاكل الاجتماعية الكبرى في الأمم القديمة واتجاها للاشتراكية (كانجلترا وفرنسا).

٢ ـ مؤتمر الصلح ومشاكله :

فلم يبدأ بعقده الا في ٢٩ تموز/يوليو عام ١٩٤٦، وقد عقد وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى (روسيا، الولايات المتحدة، وانجلترا وفرنسا) عدة اجتماعات لوضع مشروعات معاهدات الصلح قبل عرضها على مؤتمر الصلح الذي اجتمع في باريس وحضرته احدى وعشرون دولة. وظهرت منذ المناقشات الأولى اختلاف وجهات النظر بين روسيا ومن يدور في قطبها من الدول، وبين الجبهة الأنجلو سكسونية ومن يسير معها أيضا، ولهذا لم ينته مؤتمر الصلح الى اليوم من أعماله والمشاكل التي عليه أن يحلها أقسى من أن يسمح الصراع العالمي الحالي بالتغلب عليها: كمشاكل مصير ألمانيا ومصير المستعمرات الايطالية واليابانية ومشاكل تريستا والمضايق التركية، والحدود الفرنسية ـ الايطالية، والفرنسية ـ الألمانية، وحوض الرور، ومشاكل البلقان والحدود بين دولها المختلفة وقومياتها المتنافرة. هذا عدا مشاكل الشرق في الصين والتيبت والهند الصينية واندونيسيا، وتنازع الهند وباكستان، واصطدام انجلترا وروسيا في ايران... وانما يزيد في تعقيد هذه المسائل اختلاف وجهات النظر بين الدول الكبرى هذا الاختلاف الذي انتهى

بحرب مقنعة في كوريا قد تهدد العالم كله بعد أن أعلنت الولايات المتحدة أخيرا قبل نهاية عام ١٩٥٠ حالة الطوارىء.

٣ ـ اتجـاه العالم السياسـي :

يتجه العالم السياسي في تطوره الحديث منذ قرنين نحو الوحدة، ويمكن أن نلاحظ هذه الوحدة :

(أ) في ذلك النمو الاقتصادي الذي بدأ بالانقلاب الصناعي في انجلترا وما لبث أن عم العالم وغير أسالب الانتاج والتوزيع والاستهلاك في الزراعة والصناعات والتجارة على السواء، وربط العالم بعضه مع بعض في مواصلات سريعة قريبة تطور خطوطها الجوية والبحرية والبرية خاصة جميع أطراف الكرة الأرضية.

(ب) في تقدم العلم وتعميمه وشيوع ثقافة واحدة في كل أقطار الأرض وبالرغم مما نراه ظاهريا من ثقافة أنجلو سكسونية وأخرى فرنسة... الخ فان روحا واحدة تكمن وراءها وتغذيها هي أنها جميعا ثقافة غربية تعتز بشكسبير الانجيزي اعتزازها بجوته ودوستويفسكي الروسي ودانتي الايطالي وباستور الفرنسي.

(ج) في تشابه الوضع السياسي بكل العالم: فمنذ أعلنت الثورة الفرنسية أعلنت حقوق الانسان الطبيعية وظهر الاهتمام «بالانسانية» وجعلت مشاكل العالم تأخذ طابعا دوليا متزايد الارتباط والتشابك كما في مؤتمر فيينا وثورات عام ١٨٣٠ ثم عام ١٨٤٨ ثم تشابك العلاقات الدولية الذي مثله بسمارك خير تمثيل، وأخيرا انفجارا الحرب الأولى واضطرار مختلف دول الأرض للاشتراك بها حتى ظهرت أول مؤسسة دولية عالمية: عصبة الأمم، وكان طبيعيا أن تفشل باعتبارها تجربة أولى فلما اشتعلت الحرب الثانية وقد كانت أكثر من الأولى عالمية واتساعا، كان طبيعيا أن تظهر مؤسسة دولية ثانية أقوى هي، منظمة الأمم المتحدة اليوم يعاونها مجلس الأمن.

وقد يظهر اتجاه التوحد في العالم ظهورا أقوى، واذا نحن تذكرنا سير جميع الدول نحو النظم الاشتراكية مثلا سواء بسواء، أو تذكرنا زعامة العالم كانت في

القرن التاسع عشر ضائعة وأنها تركزت بعد الحرب الأولى في عدة دول أوربية. بينما هي اليوم في قبضة دولتين: روسيا والولايات المتحدة... واذا تعثرت الوحدة العالمية اليوم بين المعسكرين فانها لابد آتية. فلقد عين منذ عهد غير بعيد شعار: «العالم الواحد».

ثالثاً: منظمة الأمم المتحدة

في سنة ١٩٤٣ حين كانت نهاية الحرب في أرجوحة القدر، كانت المؤتمرات التي تجمع الدول الكبرى تبحث في خطوط كسب الحرب بينما غدت في سنة ١٩٤٤ تبحث في خطوط ما بعد الحرب وأهمها: مؤتمر دومبرتون أوكس Dumbor-ton Oaks الذي عقده مندوبو روسيا والولايات المتحدة والصين وانجلترا بواشنطن (في أيلول/سبتمبر سنة ١٩٤٤) وكانت دلائل النصر قد استبانت فبحثوا في تنظيم السلم، واقترحوا في تأسيس منظمة عالمية تتنظم دول الأرض على أن تساندها القوة. وفي مطلع عام ١٩٤٥ وجهت الدعوات لمؤتمر تمهيدي لوضع ميثاق تلك المنظمة ودعيت اليه سوريا ولبنان بعد احتجاج (اذ لم تدعيا أول الأمر برغم اعلانهما الحرب على المحور) واجتمعت في مؤتمر سان فرنسيسكو وفود «٥١» دولة بعد وفاة الرئيس روزفلت بأسبوعين، واستمر شهرين (بين ٢٥ نيسان/أبريل و ٢٦ حزيران/يونيو) وبينما كانت جيوش الحلفاء تدخل ألمانيا وبرلين كان المؤتمرون يناقشون في ميثاق المنظمة الذي جاء في تسعة عشر فصلا تملأ ١٥٨ صفحة ويلحق به التواقيع التي بدأت توقع عليه منذ ٢٦ حزيران/يونيو حتى ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر وفي أولها توقيع ممثل الصين لأن دولته كانت أول ضحايا الاعتداء.

وقد ذكرت المادة الأولى من الميثاق أهداف منظمة الأمم المتحدة وحددتها كما يلي:

١ ـ صيانة الأجيال القادمة من الحروب.
٢ ـ تأمين احترام حقوق الانسان الأساسية.
٣ ـ حفظ كرامة الكائن الانساني وقيمته.
٤ ـ المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل.
٥ ـ المساواة بين الأمم الصغيرة والكبيرة.
٦ ـ احترام المعاهدات وقواعد القانون الدولي العرفية.

٧ ــ تأكيد سيادة العدالة.
٨ ــ مؤازرة التقدم الاجتماعي للوصول لحياة أفضل.

أما وسائل المنظمة لتحقيق أهـدافها فهي:
١ ــ مباشرة التسامح والسلام بين الدول.
٢ ــ اتحاد الشعوب الحرة لصيانة الأمن والسلام.
٣ ــ قبول وضمان الأساليب المؤدية لنبذ استعمال القوة في المشاكل الدولية الا فيما يمس المصلحة العامة.
٤ ــ اللجوء الى المؤسسات الدولية لتأمين التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

وأما فروع المنظمة فقد فصلتها المادة السابعة من الميثاق كما يلي:
١ ــ الهيئة العامة لجميع ممثلى الدول الأعضاء.
٢ ــ مجلس الأمن.
٣ ــ المجلس الاقتصادي الاجتماعي.
٤ ــ مجلس الوصاية.
٥ ــ محكمـة العدل الدولية.
٦ ــ هيئة الأمانة العامة.

وأهم هذه الفروع دون شك (مجلس الأمن) ويتألف من أحد عشر عضوا، (وقد أصبحوا خمسة عشر عضوا) خمسة منهم دائمون وهم انجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين. وستة (وبعدها عشرة) تنتخبهم الهيئة العامة لمدة سنتـين يراعى فيهم التوزيع الجغرافي ولا يجدد انتخابهم فورا. وعلى هذا المجلس تقع المسئولية الرئيسية لصيانة السلام والأمن العالمي، فهو يضع خطط تحديد التسليح ويحقق في المنـازعـات، ويقدم التوصيات أو يقرر اتخاذ التدابير القسرية في حالة تعكير احدى الدول للسلام. ويساعده في المسائل العسكرية لجنة من أركان حرب الدول الدائمة. وقد انتخبت مصر عضوا في مجلس الأمن كما انتخبت سوريا لعضويته.

ويعتـبر ميثاق سان فرانسيسكو حدثا عالميا هاما اذ لاشك أنه أعظم وثيقة سياسية في التاريخ. وقد سماه اللورد هاليفاكس (مندوب بريطانيا) وثيقة السلم

والعدل والتسامح والعمل. وقد يذكرنا الميثاق بالحل المقدس سنة ١٨١٥ أو بعصبة الأمم، والواقع أنه لايشبه الحلف المقدس الا في أن الاثنين وضعا خلال فترة حرب، وأما في المبادىء والأسس والأهداف فهو أقرب لعصبة الأمم، على أن منظمة الأمم المتحدة التي أقامها الميثاق سنة ١٩٤٥ تزيد عن العصبة في عدة نقاط أهمها:

١ ـ تؤكد المنظمة في أهدافها الحقوق البشرية الأساسية وكرامة الانسان والمساواة بين الجنسين وبين الدول وهو ماليس يوجد في العصبة.

٢ ـ جميع الدول العظمى أعضاء في المنظمة في حين لم تكن الولايات المتحدة ولا روسيا أعضاء في العصبة.

٣ ـ يؤيد المنظمة في تدابيرها قوة بوليسية دولية تضعها الدول تحت تصرفها وتستطيع اللجوء الى المقاطعة والمنع والحرب في البر والبحر والجو عند الحاجة، وعدم وجود هذه القوة بيد العصبة هو الذي هدمها.

وقد بدأت منظمة الأمم المتحدة عملها منذ سنة ١٩٤٦ واتخذت لنفسها علما وشعارا وتقيم اليوم لنفسها مقرا في ليك سكسس قرب نيويورك، كما اجتمع مجلس الأمن عدة اجتماعات بشأن الدول العربية (قضية استقلال سوريا ولبنان وقراره بالجلاء عنهما ـ وقضية فلسطين والتقسيم والهدنة) كما بحث قضية مصر مع انجلترا اضافة الى قضايا أخرى بشأن اليونان واندونيسيا وايران وكوريا.

قائمة المصادر والمراجــــع

المصادر والمراجع الأجنبيـــــة :

1. Bismarck: Thoughts and Recollections 1933.
2. Brandenburg, E.: From Bismarck to the World War 1927.
3. Churchill, Winston, The World Crisis, London 1929.
4. Crutt Well, G.R.: A History of the Great War London 1934.
5. Dickson, Lowes: Revolution and Reaction in Modern France 1892.
6. Fyffe, C.A.: History of Modern Europe, London 1924.
7. Gooch, G. P.: Germany 1925.
8. George, D. Lloyd: War Memoirs London 1933.
9. Harris, H. Willson: The League of Nations 1929.
10. Headlam, J. W.: Bismarck and the Foundation of German Empire 1899.
11. King, Bolton: Life of Mazzini 1912.
12. King, Bolton: A History of Italian Unity London 1924.
13. Lawrence, T.E.: Revolt in Depert. London 1927.
14. Nicolson, Harold: Peace Making 1934.
15. Robertson, G. Grant: Life of Bismarck 1918.
16. Seignobos: History of Contemporary Europe 1909.
17. Simpson, F. A.: The Rise of louis Napoleon 1925.
18. Spencer, J .A: Fifty Years of Europe, 1933.
19. Temberley, H.: History of peace conference at Paris 1921.
20. Thayer, W.R.: The life and Times of Cavour 1915.
21. Trevelyan, G.M.: Garibaldi. London 1923.
22. Trevelyan, G.M.: British History in the Nineteenth Century. London, 1922.
23. Toynbee, A.: A study of History 3 vols. London 1934.

24. Tynbee, A.: Survey of International Affairs 1902-1923.

25. Woodward, E. L.: Three studies in European conservatism 1929.

المراجع العربية والمعـــربـــة :

١ ــ أنور الرفاعى: الوحدة الايطالية - دمشق ١٩٤٥.

٢ ــ أنور الرفاعى: بسمارك والاتحاد الألماني - دمشق ١٩٤٩.

٣ ــ أنور الرفاعى وشاكر مصطفى: العالم الحديث - دمشق ١٩٥٠.

٤ ــ أحمد رفيق: كيف تعالت بروسيا (ترجمة بهاء الدين نورى) دمشق.

٥ ــ اميل لودفيج: بسمارك (ترجمة عادل زعيتر) بيروت.

٦ ــ بيير روتوفن: تاريخ القرن العشرين - ترجمة نور الدين حاطوم - دمشق ١٩٦٢.

٧ ــ ج جرانت وهارولد تمبرلي: أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين - ترجمة بهاء فتحى وأحمد عزت - القاهرة ١٩٦٧.

٨ ــ ج. ب. درزويل: التاريخ الدبلوماسي - ترجمة نور الدين حاطوم - دمشق ١٩٦٢.

٩ ــ حسن جلال: الثورة الفرنسية - القاهرة.

١٠ ــ روبرت بالمر: تاريخ العالم الحديث - ترجمة محمود حسن الأمين - الموصل ١٩٦٤.

١١ ــ عبدالعزيز الشناوى: أوربا في مطلع العصور الحديثة - القاهرة ١٩٦٩.

١٢ ــ عبدالله عنان: قضايا التاريخ الكبرى.

١٣ ــ عبدالرحمن الرافعى: الجمعيات الوطنية - القاهرة.

١٤ ــ عبد العزيز نوار وعبد الحميد البطريق: التاريخ الأوربى الحديث - بيروت ١٩٧٣.

١٥ ــ عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعى: التاريخ الأوربى المعاصر - بيروت ١٩٧٣.

١٦ ــ عبد المجيد نعنعى: أوربا في بعض الأزمنة المعاصرة - بيروت ١٩٧٨.

١٧ ــ عثمان سلطان: تاريخ الثورة السياسي.

١٨ ــ عمـر الاسكندرى وسليم حسن: تاريخ أوربا الحديث وآثار حضارتها ـ القاهرة ١٩١٧.

١٩ ــ غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية ـ (ترجمة عادل زعيتر) ـ بيروت.

٢٠ ــ محمد فؤاد شكرى ومحمد انيس: أوربا في العصور الحديثة ـ القاهرة ١٩٦١.

٢١ ــ محمد قاسم وحسين حسنى: تاريخ القرن التاسع عشر ـ القاهرة.

٢٢ ــ هربرت فيشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث ـ ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع ـ القاهرة ١٩٦٤.

٢٣ ــ هـ ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ـ ترجمة عبد العزيز جاويد ـ القاهرة ١٩٥٨.

مطابع المكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت: ٢٢١١٠٧١-٢٢١١٠٧٢

هذا الكتاب

لعبت أوربا دوراً كبيراً وخطيراً في تاريخ العالم وبخاصة في العصر الحديث. ففيها ظهرت حركة النهضة الأوربية التي خلَّفت آثاراً كبيرة في أوربا، وفيها قامت حركة الكشوف الجغرافية التي جلبت إلى العالم ويلات الاستعمار، وفيها قامت الثورة الفرنسية التي امتدت آثارها إلى أبعد من أوربا. وفيها قامت الثورة الصناعية (الانقلاب الميكانيكي) التي كان لها أشد الأثر في قيام الصراع الدولي وبالتالي اندلاع الحربين العالميتين. كل هذا حدث في أوربا، ولهذا يعتبر تاريخ أوربا الحديث والمعاصر محوراً من المحاور الرئيسة في دراسة تاريخ العالم في العصر الحديث.

لقد قسمنا الكتاب إلى قسمين: القسم الأول وهو في ثمان فصول وقد شملت الموضوعات: النهضة الأوربيّة، والكشوف الجغرافيّة والاصلاحات الدينيّة الكبرى ونتائجها في أوربا، وتاريخ انجلترا في القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين، وفرنسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وتاريخ بروسيا الحديث، وتاريخ روسيا القيصريّة الحديث، وحركة الاستقلال الأمريكيّة.

أمّا القسم الثاني وهو أيضا في ثمان فصول وشملت الموضوعات: الثورة الفرنسية، فرنسا في اعقاب سقوط نابليون، الوحدة الايطالية، والاتحاد الألماني، وتصاعد الأزمات الأوربية والحرب العالمية الأولى، وتطور أوربا بين الحربين العالميتين والحرب العالمية الثانية.